ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها

الجزء الأول

الكسندر أداموف

ترجمه عن اللغة الروسية
الدكتور هاشم صالح التكريتي

دار ميسلون للنشر
العراق - بغداد

الفصل الأوّل

لم تكن ولاية البصرة حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أكثر من جزء من باشوية بغداد التي تمتد من الخليج حتى مدينة ماردين طولاً ومن كردستان وجبال فارس حتى صحراء سوريا وشبه جزيرة العرب عرضا. لقد كانت الولاية لا تقل مساحته عن مساحة أي من الدول الأوروبية [1] تعاني وضعاً شاذاً ؛ فهي من ناحية كانت تفصلها عن بقية الدولـــــــــــة العثمانية سلاسل جبلية وعرة وصحاري قاحلة أصعب منالاً ، وهي من الناحية الأخرى باعتبارها محاددة لفارس وتقطنها قبائل عربية وكردية تحـــــــــــب الحرية ، كانت على الدوام موضوعاً للنزاعات الاستيلائية لشاهات فارس ومسرحاً لانتفاضات عربية وكردية متعددة ضد السيطرة التركية. وقد تطلبت جدية الكفاح ضد العدو الخارجي والاضطرابات الداخلية في وقت واحد ضرورة تقوية سلطة وأهمية باشا بغداد. وذلك أمر لم يكن ممكناً ، في الوضع السياسي والمالي الذي كان سائداً في الإمبراطورية العثمانية والذي يذكرنا كثيراً بنظام العصور الوسطى الإقطاعي ، إلّا بتوسيع المنـــــــــــاطق الخاضعة لسلطنة هذا الباشا من أجل أن تزيد بهذه الوسيلة الأموال التي

(1) واضح أن حكماً كهذا يفتقر إلى الدقة فالحقيقة أن هناك العديد من الدول الأوروبية التي تزيد مساحتها على مساحة هذه الولاية. (المترجم).

تلزمه للصرف على جيش دائمي لا يستهان به. لذا فلم يكن بالإمكان تقسيم باشوية بغداد إلى أجزاء أصغر بهيئة ولايات الموصل وبغداد والبصرة إلّا بعد تغير الظروف السياسية في تلك الأنحاء ، ولم تستطع الحكومة العثمانية أن تنهي ما كان يتمتع به ولاة بغداد من شبه استقلال غير مرغوب به من وجهة نظر النزعة المركزية ، إلّا بعد أن زال خطر الغزو الفارسي الدائم واستكانت القبائل العربية والكردية المحلية لدرجة معروفة للنير التركي.

كانت ولاية الموصل هي الأولى التي فصلت عن باشوية بغداد حيث تألفت في 1878 م من سناجق الموصل وشهرزور والسليمانية وأصبحت تحادد ولاية بغداد بخط يسير من عنه على الفرات إلى تكريت على دجلة. وقد حتمت عودة السيطرة العثمانية في 1871 م على القطيف وعلى واحة الحسا وكذلك احتلال القوات العثمانية للبدع [1] ، وهي المدينة الرئيسة في شبه جزيرة قطر ، حتمت ضرورة توحيد المنطقة التي أعيد الاستيلاء عليها إدارياً مع باشوية بغداد. إن إدارة بغداد لمنطقة يفصلها عن بقية الباشوية الخليج كانت أمراً بالغ الصعوبة في حين كانت البصرة التي تقع على نهر شط العرب الصالح لسير السفن البحرية الميناء الطبيعي للخليج كما أنها تبدو ، باعتبارها مركزاً عثمانياً متقدماً في الزاوية الشمالية الشرقية لشبه جزيرة العرب ، كما لو أن الطبيعة نفسها قد خصصتها للغرض المشار إليه.

لقد فصلت ولاية البصرة لأول مرة عن باشوية بغداد في عام 1875 م وأعطيت إدارتها لناصر باشا الشيخ المنتفكي المشهور من عائلة السعدون كمكافأة له على اشتراكه الفعال في إخضاع الحسا. ومع استدعاء ناصر باشا في 1879 إلى اسطنبول انقطع مرة أخرى الوجود المستقل لولاية البصرة ،

(1) البدع هو الاسم القديم لمدينة الدوحة عاصمة قطر حاليا. (المترجم).

ولم يتقرر تحويل البصرة مجدداً إلى مركز إداري منفصل تحت إدارة وإلى مستقل عن بغداد إلّا في 1884 م. ومنذ ذلك التاريخ لم تنضم ولاية البصرة إلى ولاية بغداد وكل ارتباطها بهذه الأخيرة يقتصر في الوقت الحاضر على أن القوات المرابطة ضمن حدود ولاية البصرة تعود إلى الفليق السادس الذي يوجد مقر قيادته في بغداد وإن كلّ مؤسسات ولاية البصرة ودوائرها كالكمارك والبريد والبرق والحجر الصحي وإدارة الدين العثماني العام وشركة الريجي الخاصة بالتبغ والبنك العثماني الرسمي تتبع مباشرة كلّ لمركزها الرئيس الموجود في بغداد.

تبلغ مساحة ولاية البصرة بما في ذلك الحسا والقطيف وقطر حسب تقدير ف. كونيه [1] ما يقرب من 130000 كم مربع في حين تقدر المعطيات العثمانية الرسمية الواردة في الحلويات الرسمية الخاصة بولاية البصرة هذه المساحة بـ 150000 كم مربع. ويمكن اعتبار الرقمين كليهما تقريبيين فقط بسبب من إن حدود الولاية كما سنرى لاحقاً لم تكن محددة بدقة ومع ذلك فإن الرقم الأخير هو في رأينا الأقرب إلى الحقيقة على أية حال.

أما حدود ولاية البصرة فهي كالآتي : الصحراء السورية أو الشامية [2] من الغرب والصحراء الرملية لشبه جزيرة العرب من الجنوب والخليج من الجنوب الشرقي وفارس من الشرق ، أما من الشمال فتحدها ولاية بغداد التي تتصل بها ولاية البصرة إلى الأعلى من بلدة على الغربي على دجلة

---

(1) V. cuinet : la turquire d Asia. Geographic Administrative. Paris 1891.T.iii. p. 215

(2) الشامية اسم يطلقه المؤلف على بادية الشام وواضح إن ذلك فضلاً عن عدم دقته من الناحية العلمية ، ربما يؤدي بالقارئ إلى الخلط بين بادية الشام ومدينة الشامية المعروفة في العراق ، ولهذا فإننا سنستخدم مصطلح بادية الشام كلما ورد ذكر الصحراء السورية في المستقبل. (المترجم).

وحصن قلعة الدراج على الفرات. وهكذا تنتهي الحدود الغربية والجنوبية إلى صحاري تسكنها قبائل عربية ، حيث تعيق الظروف الطبيعية التي تمر بها تلك الأصقاع بالطبع أي تخطيط للحدود. كذلك تتصف الحدود مع فارس بقدر قليل من الدقة على الرغم من أن هذه القضيّة كانت طيلة سنوات عديدة وابتداء من 1849 موضوعاً لعمل لجنة حدود خاصة تتألف من ممثلي فارس والدولة العثمانية ومندوبين عن روسيا وبريطانيا [1]. وقد تمخضت جهود الدولتين الأخيرتين عن وضع خارطة عين عليها شريط يتراوح عرضه بين 20 ـ 40 كم كان على فارس والدولة العثمانية أن تعينا خط الحدود ضمنه. ومع ذلك لم تستطع لا فارس ولا الدولة العثمانية حتى الآن أن تتفقا على ذلك نهائياً. وقد ظل الوضع غير المحدود للحدود العثمانية ـ الفارسية على الدوام حجة لقيام خلافات على الحدود يكون بعضها جدياً مثل الخلاف الأخير الذي أدى إلى استيلاء الدولة العثمانية على قسم لا يستهان به من إقليم أذربيجان الفارسي وهو القسم الواقع إلى الغرب من بحيرة أورميا.

وتتألف ولاية البصرة التي تمتد من منتصف المجرى الأدنى لنهري دجلة والفرات حتى شبه جزيرة قطر من قسمين قليلي الشبه ببعضهما من حيث الظروف الجغرافية ، ففي الوقت الذي يتألف فيه الشريط الساحلي الممتد من شبه جزيرة قطر إلى الكويت فيكون بذلك منطقة نجد أو الحسا [2] من صحراء يغلب فيها السكان الرحل وتحتوي على واحات قليلة جداً ، يعتبر

---

(1) ي. أي : تشيريكوف ؛ سجل الطريق ، بإشراف م. أ. كمازوف. سانت بطرسبورغ 1875 م ، ص 55 ، من المقدمة وما بعدها. [بالروسية].

(2) لا يقصد المؤلف هنا نجد بالمعنى الجغرافي وهو الاقليم الذي يقع في وسط جزيرة العرب وإنما يقصد سنجق نجد أو الحسا كان أحد سناجق ولاية البصرة. (المترجم).

القسم الثاني الذي ترويه أنهار دجلة والفرات وشط العرب واحدة من أخصب بقاع الكرة الأرضية وقد اشتهرت منذ القدم بأنها (مخزن حبوب مقدمة آسيا).

وتبعاً لهذا التقسيم الطبيعي لولاية البصرة فإنها في وصفنا لها من الناحية الجغرافية سنقوم بتقسيمها إلى قسمين نبحث في أولهما القسم الشمالي والأكثر تحضراً من الولاية ونستعرض في القسم الثاني الحسا وهو بلد مقفر لم يبحث إلّا قليلاً.

يطلق اسم العراق الجنوبي في الخرائط الجغرافية على القسم الشمالي النهري من ولاية البصرة الذي يتميز بخصوبته غير إن كثيراً من الرحالة الأوروبيين يسمونه ما بين النهرين الأدنى. وهذه التسمية الأخيرة ليست صحيحة تماماً من الناحية العلمية لأن المصطلح العلمي (ما بين النهرين) يعني في أعمال الجغرافيين فقط المثلث الذي يكونه المجرى الأوسط لنهري دجلة والفرات من جهة وسفح هضبة أرمينيا من الجهة الأخرى أي الأقليم المعروف عند العرب باسم (الجزيرة). لهذا فإن ما بين النهرين لا يمتد إلى الجنوب من بغداد التي تقع تقريباً على الحدود بينها وبين بلاد الكلدانيين القديمة أي العراق العربي الذي يشمل بالإضافة إلى ولاية البصرة الأطراف الجنوبية لولاية بغداد أيضاً. ويعين العقيد (جسني) الباحث المتخصص في ما بين النهرين الحدود التي تفصل ما بين النهرين عن العراق العربي بشكل أكثر دقة فهو يؤكد أن العراق العربي يمتد في الشمال إلى الموضع الذي كان يقوم به السور الميدي القديم الذي يتجه من صدر قناة الدجيل على دجلة حتى مصب قناة الصقلاوية [1] في الفرات أي إلى ما

(1) الصحيح هو تفرع الصقلاوية من الفرات وليس مصبها فيه لأن جدول الصقلاوية كما هو معروف لا يصب في الفرات وإنما يأخذ مياهه منه. (المترجم).

يوازي مدينة سامراء الحالية [1].

وإذا توخينا الدقة فإن اسم العراق الجنوبي ليس مصطلحاً جغرافياً وإنما هو على الأصح أثر أثنوا غرافي وسياسي من آثار الماضي ظل قائماً منذ القرن الثالث عشر أي منذ عهد الايلخانيين خلفاء هولاكو ، إذ لم تتوحد تحت سلطة هؤلاء الإيلخانيين ولايتا بغداد والبصرة الحاليتان فحسب وإنما شملت سلطتهم أيضاً الاقاليم الفارسية : كرمنشاه وهمدان واصفهان وكاشان وقم ، ولهذا فإنهم أطلقوا على المنطقة التي يقطنها العرب اسم العراق العربي وعلى البلاد التي يسكنها الفرس اسم العراق الفارسي وذلك تجنباً للبلبلة الإدارية [2].

والعراق الجنوبي من حيث السطح عبارة عن سهل ليس فيه مرتفعات أو سلاسل جبلية عدا تل صغير بالقرب من الزبير هو جبال سنام وجبال الحدود الفارسية المتاخمة للضفة الشرقية من دجلة وهي جبال بشت كوه التي تمكن رؤيتها جيداً من النهر عند كوت الأمارة لأنها في هذا الموضع لا تبعد عن دجلة إلّا مسافة 20 ميلاً. وسهل العراق الذي هو امتداد لما بين النهرين ينحدر باتجاه الخليج وهذا أمر تؤكده مقارنة بسيطة بين الأرقام التي تشير إلى مقدار ارتفاع المدن الواقعة على دجلة بالتتابع من الشمال إلى الجنوب على مستوى سطح البحر. مثل الجزيرة [3] والموصل وبغداد فالأولى تقع على ارتفاع 40 متراً فقط [4]. ثم يستمر الانحدار بعد

---

(1) F. R. Chesney : the expedition for the survey of the Revir Euphrates and tigris.
Londan. 1850. vo. 1. pp.29.30.

(2) K. Ritter die Erdkunde von Asien. Berlin 1844. vII Abt. II.S. 925

(3) جزيرة أن عمر. (المترجم).

(4) E. jung. Les puissances Devant La Revolit Arabe. Paris. 1906.

ذلك بشكل أكثر انتظاماً فبموجب التحريات التي أجراها السيد ولكوكس تقع كوت الأمارة على ارتفاع 5 ، 17 متراً والعمارة على ارتفاع 5 ، 8 متراً والقرنة على ارتفاع 3 أمتار في حين لا ترتفع البصرة إلّا 5 ، 2 متراً عن مستوى سطح البحر [1].

وتتألف تربة العراق الجنوبي من الألومينا الجيرية أو من الطمي الجيري الذي تكون نتيجة لترسبات دجلة والفرات وهما النهران العظيمان في المدخل (الغربي) [2]ولذا فإن جزءاً صغيراً من الصحراء هناك يتكون من السبخات وتغطيه طبقات من الرمال وذلك ما يميز تلك الصحراء عن صحاري شبه جزيرة العرب بل ومصر أيضاً [3].

وعلى أي حال بإمكان سهل العراق حتى في حالته المهملة حالياً أن يطعم عدداً كبيراً من الماشية التي تمتلكها القبائل العربية المتنقلة التي لا تعاني قطعانها من النقص في عشب المرعى إلّا في سنوات الجفاف غير الاعتيادي. وتساعد رواسب النهرين التي تزيد من خصوبة التربة على أن ترتفع المنخفضات العراقية تدريجياً وباستمرار ويقوم نهر الفرات بالدور الرئيسي في هذا المجال نظراً لأنه بسبب من جريانه الهادئ السلس يرسب كمياب كبيرة من الغرين على ضفتيه في حين يحمل دجلة الذي يكون ماؤة سريع الجريان القسم الأغلب من ترسباته إلى الخليج حيث تترسب عند مصب شط العرب على هيئة حاجز فتستخلص من البحر بهذا الشكل مساحة من اليابسة متزايدة باستمرار. وقد استمر هذا الصراع منذ آلاف

(1) w.willcocks : the Irrigation of Meso potamia. London. 1911. pp 27. 30.
(2) أضفنا كلمة (الغربي) لوجود أنهار عديدة في مدخل آسيا الشرقي. (المترجم).
(3) K. Ritter ; op. cit T. Vii. Abs II s. 957. 958

السنين ولذا فليس من المستغرب أن نجد أن المواضع التي كانت قبل 3000 سنة أي منذ وقت قريب من وجهة نظر الجيولوجيا تحت الماء هي الآن برٌّ صلب ، وتشير حسابات العالم الإنجليزي راولنسون إلى أن مياه الخليج تراجعت في الفترة من 1793 إلى 1853 أي خلال 60 سنة بمقدار 3200 متراً باتجاه الجنوب أي بعدل 53 م سنوياً الأمر الذي يسمح بالافتراض بأن ضفة الخليج الشمالية كانت قبل ثلاثين قرناً تقع إلى الشمال من القرنه الحالية بمسافة 30 ميل [1].

ويحتل الفرات ودجلة في حياة العراق نفس الأهمية التي يحتلها النيل في مصر ، وكما إنه لم يكن بالإمكان تصوّر قيام أية حضارة هناك بدون ذلك النهر المقدس في نظر المصريين كذلك كان النهران كلاهما هنا أساساً لازدهار المنطقة في السابق وضماناً لانبعاثها في المستقبل. ويمكن الاختلاف بين النيل والنهرين العراقيين في أن موسم الفيضان بالنسبة للأول يقع في آب ـ تشرين الأوّل حيث يتجمع الماء الفائض في أحواض يعود منها مرة أخرى إلى النيل عند هبوط مياهه اعتباراً من شهر تشرين الثاني ، في

حين يحل فيضان الفرات ودجلة في شهر آذار ـ أيار ثم يعقبه أكثر فصول السنة حرارة وجفافاً اعتباراً من حزيران حتى نهاية أيلول حيث يضطر المزارعون بسبب توافق موسم هبوط المياه في النهرين مع فصل الصيف إلى

اللجوء إلى ري الحقول اصطناعياً بواسطة القنوات أو مضخات المياه [2].

ويمكن أن يطلق على الفرات ودجلة اسم : النهرين التوأمين ، فكل منهما ينبع من هضبة أرمينيا من مواقع لا تبعد عن منابع الآخر ثم يفترقان

.E. Reclus. Novvelle Geographite Universelld. T. IX. P > 407$ (1)

W. willcocks : 0P. cit. P. 5. (2)

لبعض الوقت إلى جهات مختلفة حيث يعبران السلاسل الجبلية إلى سهل ما بين النهرين فيظهر الفرات إلى الغرب من جبل مازيوس (قرة داغ حالياً)
ودجلة إلى الشرق منه. ومنذ هذه اللحظة لا يجد النهران عقبات تعيقهما فيبدأن بالاقتراب من بعضهما حيث يأخذ الفرات ابتداءً من عنه اتجاهاً موازياً لدجلة مقترباً منه إلى مسافة لا تزيد عن 27 فرسناً [1] تارة كما هي الحالة عند بغداد ومبتعداً إلى مسافة 143 فرسناً تارة أخرى كما هي الحالة مقابل على الغربي. ويلتقي النهران عند القرنة ومن هناك تأخذ مياه الفرات المتحدة مع مياه دجلة طريقها بقوة وأبهة نحو الخليج تحت اسم شط العرب.

ويتكون الفرات الذي يبلغ طوله 2670 فرسناً من التقاء نهري قره ـ هو الذي ينبع من موضع يقع على بعد 25 ميلاً إلى الشمال الغربي من أرضروم ومرد ـ جاي الذي ينبع من السفح الجنوبي لجبل الاداغ الواقع إلى الشمال من بحيرة وان. وتتحد مياه هذين النهرين تحت اسم الفرات [2] الذي يتجه نحو البحر المتوسط وقبل أن يبلغه بمسافة 177 فرسناً محسوبة على أساس خط مستقيم من حلب إلى الاسكندرونة ينحرف بحدة عند موضع قلعة باليس باتجاه الجنوب الشرقي ويجتاز الصحراء السورية.

وبعد ذلك يجتاز الفرات منطقة تلال طباشيرية تؤلف الذيول الأخيرة للسلاسل الجبلية الواقعة في الشمال ، ثم تكتنف مجراه بالقرب من مدينة

(1) الفرسنا مقياس للطول مقداره 1060 متراً. (المترجمع).
(2) يرجع جنسي هذه التسمية إلى الفعل العبري فيرات أو فرات الذي يعني يخصب أو يلقح.

عنه حوال 26 جزيرة ويمتلئ مجراه بسلسلة من الصخور تعيق الملاحة وخصوصاً في موسم نقص المياه في الفرات أي اعتباراً من ايلول إلى منتصف تشرين الأوّل حيث تقل المياه في النهر في هذا الشهر إلى درجة كبيرة بحيث أن القوافل تعبر النهر في الموضع المذكور مخاضة.

يصل عرض الفرات عند مدينة عنه (عانة) إلى 450 ارشينا [1] ولكنه يأخذ بعد ذلك بالضيق تدريجياً ابتداءً من الفلوجة حيث يذهب قسم من مياهه إلى دجلة خلال قناة الصقلاوية وذلك بفضل الانحدار الذي تتميز به الأرض في هذه المنطقة باتجاه هذا النهر الأخير [2].

في أربعينيات القرن الماضي جاءت إحدى أميرات الهند لزيارة العتبات الشيعية المقدسة في كربلاء والنجف وقررت أن تنعم على هاتين المدينتين المقدستين بتجهيزهما بمياه جيدة للشرب ، فحفرت لهذا الغرض وعلى حساب الأميرة قناة تصل الفرات بالمدينتين المذكورتين عرفت باسم الهندية. وأخذت القناة تتسع بمرور الزمن بضغط المياه ثم جاء إغلاق فوهة قناة الصقلاوية على الفرات في 1870 م بمبادرة مدحت باشا وإلى بغداد آنذاك فأدى إلى أن يتجه النهر الذي ازداد حجمه لا إلى مجراه الرئيسي وإنما إلى قناة الهندية التي تقع إلى الأسفل منه. لقد جذبت هذه الأخيرة كلّ مجرى الفرات بحيث أدت إلى جفاف الفرع الرئيسي للنهر تقريباً وهو الفرع الذي يتجه إلى مدينتي الحلة والديوانية اللتين أخذ يهددهما لهذا السبب خطر البقاء دون مياه كلياً. فاضطر احتمال خراب هذه المناطق الغنية الحكومة العثمانية لأن تباشر بنشاط عملية إعادة النهر إلى

---

(1) الأرشين مقياس روسي قديم للطول مقداره 71 سنتمتراً. (المترجم).

(2) F. R.Chesnesy. OP. cit. vol. I. p. 55.

مجراه القديم فبنيت لهذا الغرض بالقرب من مدينة المسيب سدة أشادها مهندسون فرنسيون استجلبوا خصيصاً لهذا الغرض لكن بناءها لم يساعد إلّا جزئياً على إعادة الفرات إلى مجراه القديم [1].

ويمر الفرات إلى الأعلى من مدينة الحلة بالقرب من إطلال بابل التي يشتغل الأثاريون بالتنقيب فيها منذ عدة سنوات ، ثم يدخل بعد ذلك في منطقة من القنوات والمسطحات المائية ذلك أن المياه تغمر المناطق المتاخمة للنهر في فصل الفيضان الربيعي بسبب انخفاض ضفتيه فتكوّن مستنقعاً مائياً متصلاً واسعاً ويمتد عشرات الفرستات على جانبي النهر.

ومما يساعد على زيادة مساحة المستنقعات أيضاً الشبكة الواسعة من قنوات الري التي تتفرع من النهر حيث تمتلئ في الربيع بسبب انعدام السدود إلى درجة بحيث تطفح المياه من ضفافها. وتعرف هذه المستنقعات في الخرائط الجغرافية باسم مستنقعات لملون [2] والتسمية مأخوذة من اسم قناتين رئيستين تتفرعان من الفرات هما لملون [3] القديم الذي يتفرع من الفرات في موضع يقع على بعد 27 فرستاً إلى الجنوب من الديوانية ولملون الجديد الذي تقع بدايته إلى الجنوب من بداية الأوّل بعض الشيء [4].

وتبتلع هذه القنوات الفروع جميعاً كمية وافرة من مياه الفرات إلى درجة بحيث أن النهر نفسه يبدو وكأنه يختفي في الأهوار والمستنقعات.

وبالرغم من أن القياسات التي أجراها ضباط البحرية الإنجليزية في عام

---

(1) W. Willcocks. 0P. cit. p. 12.
(2) الصحيح لملوم. (المترجم).
(3) الصحيح لملوم. (المترجم).
(4) K. Ritter. OP. Cit. T. VII. Abs. II. S. 978 FF.

1840 م تشير إلى أنه عبارة عن مجرى عرضه 70 أرشيناً وعمقه 12 قدماً فإن القياسات التي جرت مؤخراً أظهرت أن المياه فيه لا تزيد في الكثير من الأماكن على 75 سم [1].

ولا يستعيد الفرات منظره الجليل السابق فيأخذ بالجريان بسلاسة اعتباراً من موضع سوق الشيوخ متجهاً شرقاً إلى أن يلتقي بدجلة في القرنة ، إلّا بعد عودة لملون القديم والجديد على المجرى الرئيسي في موضع قلعة الكرة وعلى الأخص بعد أن تصب فيه بعض مياه دجلة بواسطة قناة شط الحي [2].

أما دجلة الذي يبلغ طوله 1720 فرستاً لا غير فإنه يتكون كتوأمه الفرات من التقاء جدولين ينبعان من السفوح الجنوبية لانتي طوروس وبعد أن يتجه إلى الشمال الشرقي يأخذ مجراه في قلب كردستان ثم يتجه من هناك إلى ديار بكر حيث تصب فيه في واديها عدة روافد منها الكبير ومنها الصغير وبعد ذلك يشق طريقه إلى الموصل وأطلال نينوى المشهورة الواقعة تجاهها على الضفة اليسرى من النهر. ويستمر دجلة في جريانه دون أن يغير اتجاهه الجنوبي الشرقي إلى أن يصل إلى الموضع الذي يصب به فيه الزاب الكبير فينحرف بشكل مباشر تقريباً نحو الجنوب. ويصل إلى قلعة الشرقاط أو توبرك قلعة سي بالتركية أي إلى الأعلى قليلاً من مصب الزاب الصغير عند جبال حمرين. وتأخذ هذه السلسلة الجبلية [3] بخناق النهر من الجانبين فيسعى إلى الإفلات مسرعاً إلى سهل أسفل ما

---

(1) V. Berard : Le Sultan. I islam et Puissances. Paris. 1907. p. 420.

(2) شط الحي أو الغراف. (المترجم).

(3) هي في الواقع ليست سوى سلسلة من التلال لا يرقى ارتفاعها إلى مستوى أكثر الجبال انخفاضاً. (المترجم)

بين النهرين مشكلاً في هذا المكان خطراً كبيراً حتى على الملاحة بواسطة الأكلاك والأطواف [1] التي تستخدم القرب المنفوخة بالهواء [2]. ولا يصبح دجلة صالحاً للملاحة إلّا ابتداء من تكريت التي ينساح فيها النهر عريضاً بعد

أن يصل إلى متسع رحب مكوناً العديد من الجزر حيث تكثر في موسم الفيضانات أسراب الطيور المائية الكثيرة العدد وحيث يعمد العرب القاطنين على الضفاف إلى زراعة بساتين الخضار [3] في موسم نقصان المياه.

ويستمر جريان دجلة منذ اللحظة التي يخرج فيها إلى السهل وحتى القرنة باتجاه يوازي جبال فارس الواقعة على الحدود والتي ترسل إليه كلّ جداولها الكبيرة منها كديالى والصغيرة كمندلي وبدرة وطيب ودويريج. يصل النهر وهو يجري بسرعة إلى بغداد عاصمة العباسيين سابقاً ، ثم يدفع مياهه العكرة بعد ذلك لتجري بالقرب من إطلال العاصمتين القديمتين طيسفون وسلوقيا الواقعتين على جانبي النهر إحداهما مقابل الأخرى فكان ذلك سبباً دفع العرب إلى تسمية هذا الموضع بـ (المدائن) أي المدينتين [4].

---

(1) F. R. Chesney. OP. cit. VoI. I. P. 16 FF.

(3) الحقيقة هي أن الأكلاك غير الأطواف فالأولى هي التي تستخدم فيها القرب المنفوخة بالهواء ، أما الثانية فلا تستعمل فيها هذه القرب وإنما تعتمد على قابلية الخشب على الطوفان. (المترجم).

(3) يقصد المؤلف ما يسمى بالعامية (الشواطي) أو (الشطاطي) أي الرقي والبطيخ والخيار وغير ذلك مما يزرعونه على ضفة النهر في تلك المناطق. (المترجم).

(4) المدائن لا تعني المدينتين ، وإنما تعني المدن طبعاً. وبالفعل فقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها تتألف من عدة مدن. يذكر صاحب معجم البلدان إنها كانت مسكناً لعدد من الملوك المختلفين « فكان كلّ واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه

وعند كوت الأمارة الواقعة على بعد 360 فرستاً أسفل بغداد يتفرع دجلة إلى فرعين يتجه الكبير منهما وهو الفرع الرئيسي إلى القرنة أما الأصغر فإنه يقطع العراق تحت اسم شط الحي ويصب في الفرات في موضعين عند بلدة العرجة والآخر عند قرية أبي صوف التي تقع قبل القرنة بما يقارب 112 كم.

وفي منتصف الطريق بين دجلة والفرات يتفرع شط الحي بدوره إلى فرعين هما بوجي خيرات وشط العمه [1] ولا يزال الأوّل منهما أي الفرع الغربي صالحاً للملاحة حتى الوقت الحاضر لمدة ستة أشهر في السنة حيث يصل عرضه في موسم الفيضان إلى 140 أرشيناً وعمقه إلى 7 أرشينات ، وتستخدمه عادة المراكب الشراعية العربية لنقل الحبوب والغلال من المنطقة الخصبة جداً التي يرويها شط الحي الذي يعرف أيضاً باسم (الغراف) [2].

وعلى امتداد المسافة من مصب نهر ديالى عند بلدة بعقوبة أي على بعد 40 فرستاً إلى الجنوب من بغداد [3] وحتى بلدة على الغربي يكون

مدينة إلى جانب التي قبلها وسماها باسم. فأولها المدينة العتيقة التي لزاب ... ثم مدينة الاسكندر ثم طيسفون من مدائنها ثم إسطانبر ثم مدينة يُقال لها رومية فسميت المدائن بذلك ». (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، المجلد الخامس ، ص 74 - 75) (المترجم).

(1) إن اسمي فرعي الغراف المذكورين هما البدعة والشطرة ، وأما جدول (العمه) كما يسمى محلياً فهو جدول يتفرع من الغراف إلى الجنوب من بلدة الحي بقليل. (المترجم).

(2) F. R. Chesmey. OP. voI. I. Pp36 - 37.

(3) لا تقع مدينة يعقوبة عند مصب نهر ديالى ، فديالى يصب في دجلة إلى الجنوب من بغداد بحوالى 32 كم في حين تقع مدينة بعقوبة على بعد حوالي 56 كم إلى الشمال الشرقي من بغداد. (المترجم).

مجـرى دجلـة كثيـر التعـاريج بحيـث يكـاد كـلّ منعطـف مـن منعطفاتـه أن يشكل دائرة كاملة حتى ليبدوا أحياناً للمسافر الذي يراقب من على ظهر السفينة المراكب الشراعية التي تمر بهذه المنعطفات ، إن هذه المراكب لا تتحرك من مكانها وإنها تسحب على الأرض لأن من غير الممكن رؤية تعرجات النهر بسبب ارتفاع ضفتيه.

وابتداءً من بغداد وحتى العمارة تقريباً يصبح دجلة نهراً عظيماً يتراوح عرضه ما بين 420 و 490 أرشيناً وعمقه ما بين 11 أرشيناً في موسم الفيضان وأرشينين في موسم الصيهود. وإلى الأعلى من العمارة قليلاً يتفرع من الجانب الأيمن من دجلة أول تلك الفروع التي تنقل المياه من النهر إلى المستنقعات الواقعة في مجراه الأدنى فتساعد بذلك على نقصان المياه في هذا الشريان الوحيد الصالح للملاحة في العراق العربي. وتشير حسابات السيد ولكوكس [(1)] إلى إن هذا الفرع الذي يعرف باسم باتره [(2)] والفرع الآخر الذي يتفرع من جهة النهر اليسرى في العمارة نفسها والذي يعرف باسم جالة [(3)] يستنزفان كمية كبيرة من المياه بحيث إن دجلة في هذا الموضع لا يكاد يبلغ 250 أرشين عرضاً و 2 / 1 ، 5 أرشين عمقاً في موسم الفيضان. إن فرع جالة شأنه في ذلك شأن المجر الكبير الذي يتفرع من ضفة النهر اليمنى إلى الأسفل من العمارة والمشرح الذي يتفرع من جانبه الأيسر تقع جميعها في مستوى النهر فتؤلف بسبب الكمية الكبيرة التي تبتلعها من المياه الخطر الرئيسي على وجود دجلة كنهر صالح للملاحة

---

(1) W. Willcocks. OP. cit. pp. 28 -.29

(2) يقصد البتيرة. (المترجم).

(3) يقصد الكحلاء أو الجحلة كما يسمى محلياً. (المترجم).

بحيث أنه يضيق في هذا الموضع حتى يبلغ عرضه 85 أرشيناً. ولا يستعيد دجلة شكله السابق إلّا ابتداءً من موقع النبي عزرا [1] وذلك بفضل ورود الميـــاه
إليه من الأهوار المحيطة به فيأخذ بالجريان متعاظماً حتى يصل إلى القرنة.

ودجلة بالمقارنة مع الفرات يكون أقصر بمقدار مرة ونصف تقريباً ولكنه يفوق توأمه في سرعة الجريان ولهذا أسماه العرب السهم [2] (دجلة) [3].

ويتخذ دجلة بسبب سريعة تياره والارتفاع والهبوط السريعين لمياهه في موسم الأمطار والفيضان طابع الجدول الجبلي الحقيقي الذي يستبعد أن تكون الملاحة فيه ، وعلى الأخص ضد التيار ، ممكنة حتى فبل بغداد لو لم توجد في مجراه المنعطفات التي أشرنا إليها أعلاه.

ومن الخصائص الأخرى التي ظل دجلة يتميز بها حتى الربع الأخير من القرن التاسع هي غزارة مياهه ، فالمعطيات التي أوردها ريكلوس [4] (e. reclus) تشير إلى أن كمية المياه التي يحملها إلى الشمال

---

(1) يقصد بلدة العزيز. (المترجم)

(2) حول أصل تسمية دجلة وغيره من أنهار العراق راجع : جمال بابان. « أصول أسماء العراق وأنهاره الرئيسية » مجلة آفاق عربية عدد آذار 1980 ص 98 - 111 المترجم

(3) تشير حسابات الضباط البحريين الانجليزيين كليفلاند (cleveland) ومورفي (murrphy) إلى أن سرعة جريان دجلة شمال بغداد هي 33 ، 7 قدماً في الثانية في حين يجري الفرات إلى الشمال من هيت بسرعة 46 ، 4 قدماً في الثانية : (f. r. Chesney : op. cit. vol. L. p. 62)

ولا تتعدى سرعة دجلة حسب آخر ملاحظات السيد ولكوكس الـ 9 / 4 ، 5 قدم في الثانية ـ انظر : (w. willcockes : op. cit. p.28)؟

(4) (e. reclus : op. cit. t. lx. p. 390).

من بغداد تبلغ 4656 متراً مكعباً في الثانية ، في حين لا يحمل الفرات إلى الشمال من هيت إلّا 2065 متراً مكعباً في الثانية ، لا أكثر هذا في الوقت الذي أعطت القياسات الحديثة التي أجراها المهندس الانجليزي السيد ولكوكس [1] للفرات في هيت 2750 متر مكعب مكعباً كحدٍ أعلى و 400 متر كحد أدنى ولدجلة في بغداد 3000 متر مكعب كحد أعلى و 300 متر مكعي كحد أدنى علماً بأن الحد الأعلى في الحالتين يقع في نيسان والحد الأدنى يقع في تشرين الأول. وبمقابلة المعطيات القديمة والحديثة المتعلقة بكمية المياه في دجلة والفرات يظهر بأنها متعادلة تقريباً بغض النظر عن كثرة الروافد لدى الأول وقلتها عند الثاني ، فبعد أن يخرج الفرات إلى سهل ما بين النهرين لا يصب فيه رافد يستحق هذه التسمية إلّا الخابور ذلك إن الوديان الأخرى التي تصب فيه ليست سوى سيول شتوية تجف مع حلول حرارة الصيف.

كانت القرنة التي تقع على بعد 70 فرستاً إلى الأعلى من البصرة تعتبر حتى وقت قريب الموضع الذي يلتقي فيه دجلة والفرات حيث يعرف المجرى المائي الذي يتكون من التقائهما باسم « شط العرب » أي النهر العربي. أما في الوقت الحاضر فإن المهندس الإنجليزي ولكوكس الذي أجري قياسات وقام ببحوث في العراق العربي تتعلق بخطة لإحياء نظام الري القديم في هذه المنطقة يؤكد بأن أية كمية من مياه الفرات لا تصب في دجلة بل إن هذا الأخير هو الذي يرسل قسماً من مياهه لتسير في المجرى الذي تركه توأمه الفرات. ويقودنا اكتشاف ولكوكس هذا إلى الاستنتاج بأن جزء شط العرب الواقع بين القرنة وكرمة على وهو إسم

---

(1) (w. willcockes : op. ci. p. 8)

لموضع يقع على بعد 10 فرستات إلى الأعلى من البصرة يلتقي فيه الفرات بدجلة حقيقة ، ما هو إلّا استمرار لدجلة ولهذا فمن غير الصحيح تسميته بشط العرب. وتشير قياسات السيد ولكوكس إلى أن عرض شط العرب ، وهو الأسم الذي سنستمر على استخدامه ، بين القرنة وكرمة على يتراوح بين 350 و 530 أرشين في حين يبلغ عمقه 4 / 1 ، 11 أرشين ولا يكبر إلّا
بعد أن يصب فيه الفرات فيصل عرضه إلى 770 أرشيناً وعمقه إلى (2 / 1) ، 19
أرشين. وتبلغ المسافة من البصرة حتى مصب شط العرب في الخليج 100 فرستاً يتراوح عرض النهر على امتدادها بين 770 أرشين في مجراه الأعلى
و 1540 أرشيناً على الأسفل من مصب الكارون فيه بواسطة قناة الحفار. وتبلغ سرعة التيار في شط العرب عند البصرة 63 ، 5 قدم في الثانية ويصب
في شط العرب إضافة إلى نهر الكارون الذي ينبع من جبال خوزستان نهر فارسي مهم آخر هو نهر كيركه [1] أو شط السويب وذلك في موضع يبعد 8 فرستات إلى الأسفل من القرنة. وقبل أن يصيب الخراب في 1837 م السد الذي كان قائماً في مدينة الحويزة كان فرع آخر من هذا النهر يصب مباشرة في موضع غير بعيد عن مرقد النبي عزرا.

ويعترض مجرى شط العرب بين القرنة والمحمرة الواقعة عند مصب الكارون في ذلك النهر عدد كبير من الجزر ، تقع إثنتان منها إلى الأعلى من

---

(1) كيركة هي التسمية التي يطلقها المؤلف على نهر الكرخة (أنظر ص 26 من هذا الكتاب) وهو غير نهر السويب ، فالأول أي الكرخة ينبع من المرتفعات الأيرانية ويصب في الجانب الشرقي من هور الحويزة في حين أن الثاني أي نهر السويب يأتي بمياه هذا الهور من أجزائه الواقعة جنوب العزير ويصبها في شط العرب إلى الجنوب من القرنة بحوإلى 9 كيلو مترات أنظر : حسن الخياط ، جغرافية أهوار ومستنقعات العراق ، القاهرة 1975 ، ص 24. 67 - المترجم.

البصرة ، أما عن الجزر الواقعة إلى الأسفل من البصرة فأقر بها إلى هذه الأخيرة جزيرة صلاحية [1]. التي يعرفها جيداً جميع المسافرين الأوربيين القادمين إلى البصرة بطريق البحر ذلك أنه كان يتحتم على أغلبيتهم أن يقضوا فترة قد تمتد طويلاً في مركز الحجر الصحي الواقع في الطرف الشمالي للجزيرة المذكورة. وتوجد إلى الأسفل من الصحلاحية على مسافة غير بعيدة عن مصب قناة الحفار ، جزيرتان صغيرتان آخريتان يفصلهما عـــــــــــــــــــــــــــــــــن بعضهما ممر ضيق ، وتقعان على مقربة من الضفة اليسرى لشط العرب لذلك فإنهما تشكلان مع تلك الضفة فرعاً صغيراً للنهر صالحاً لمرور السفن.

ويكون شط العرب إلى الجنوب من المحمرة جزيرتين آخريتين هما خضر والمحيلة تقع ألاولى التي سميت على اسم الخضر الشخصية المقدسة عند المسلمين والمدفون فيها ، بالقرب من قرية عبادان ويبلغ طولها 12 ميلاً في حين يتراوح عرضها بين ميل واحد وأربعة أميال. أما الثانية الواقعة في نفس موقع الأولى ويفصلها عنها شط العرب فإنها تتخلف عن جارتها من حيث الحجم لدرجة ملحوظة.

ويحد جزيرة خضر من الجنوب الخليج ومن الشرق بهمشير وهو فرع للكارون يأخذ قسماً من مياهه ويصب في الخليج. ومن الشمال قناة الحفار ومن الغرب شط العرب ولذلك فإنها تبدو كما لو أنها امتداد للضفة اليسرى لهذا النهر الأخير. وقد تنازلت الدولة العثمانية عن هذه الجزيرة وعن منطقة المحمرة لفارس بموجب المادة الثانية من معاهدة أرضروم لعام 1847 التي نصت على تأخذ فارس جزءاً من الضفة اليسرى

(1) يقصد جزيرة الصالحية ـ المترجم.

من شط العرب يمتد لمسافة 68 فرستاً من الخليج إلى مصب قناة « أبو جودي » بالقرب من قلعة شيخ المحمرة في الفيلية.

وتكمن أهمية شط العرب بالنسبة للبصرة في صلاحيته للملاحة حيث أصبحت البصرة بفضل ذلك ، الميناء الطبيعي للخليج رغم أنها تبتعد عنه بما يقرب من مائة فرست. والواقع أن عمق شط العرب يبلغ درجة تستطيع معها السفن التي يبلغ غاطسها 15 قدماً الوصول إلى البصرة في أي
فصل من فصول السنة. أما في أثناء المد الذي يحدث مرتين في اليوم ويرتفع مستوى المياه في النهر بسببه بمقدار 4 ـ 6 أقدام فإن المرور فيه لا يسبب مشكلة حتى بالنسبة للسفن ذات الغاطس الأعمق من ذلك.

وهكذا فإن العائق الوحيد للملاحة الجيدة ، هو الحاجز المتكون عند مصب شط العرب والذي يتألف من مضحلين هما مرقط عبد الله الذي يتاخم الضفة اليمنى النهر ومرقط عبادان الذي يبدو كامتداد لضفته اليسرى. وينحدر كل من هذين المكاني الضحلين الذين يكونان ما يشبه الهلال باتجاه خور الكافكة الذي يكون المجرى الغربي لشط العرب ويؤلف حالياً المجرى الملاحي لسير السفن البحرية. وتمتد القناة المذكورة لمسافة 11 ميلاً حتى رأس البيشة الذي تقع الفاو بالقرب منه ، ويتراوح عمقها عند انخفاض المياه ما بين 8 و 11 قدماً يقل إلى 7 أقدام قبل الفاو بميلين. ويضطر هذا المكان الضحل السفن ذات الغاطس الكبير نسبياً إلى انتظار الوقت الذي يصبح فيه القمر بدراً أو هلالاً حيث ترتفع المياه عند الحاجز إلى 17 ـ 19 قدماً ، هذا بالرغم من أن المرور خلال الحاجز لا يشكل خطراً
حتى بالنسبة للسفن التي يزيد غاطسها بمقدار قدم أو قدمين عن الحد المقرر وذلك بسبب من أن قاع الحاجز طيني ناعم ليس فيه صخور صلبة. إن فرع شط العرب الواقع إلى الشرق من خور الكافكة معروف ، بالرغم من

طوله وكثرة تعرجاته ، بأنه أكثر صلاحية للملاحة ولكنه خال من علامات الإرشاد ولذلك فإنه لا يصلح لمرور السفن ذلك أنه يصعب المرور حتى في خور الكافكة دون مساعدة مرشد عربي على الرغم من وجود أربع عوامات أقامتها في هذه القناة شركة النهد البريطانية للملاحة البخارية (British India Navigation Company) التي كانت تقوم برحلات بريدية أسبوعياً بين الهند وموانئ الخليج [1].

وعلى بعد 20 كيلومتراً إلى الغرب من مصب شط العرب يقع مصب الفرع الذي كان الفرات سابقاً يصب بواسطته مباشرة في الخليج منفصلاً عن دجلة والذي عرفه اليونانيون باسم بالاكوباس أما العرب فيطلقون عليه حالياً أسم جيري زادة [2]. ولا يزال هذا الفرع حتى الآن يأخذ قسماً ملحوظاً من مياه الفرات طيلة ثمانية أشهر من السنة على الأقل وهو صالح تماماً لسير السفن الشراعية العربية ويلاحظ أن المسافة التي تفصل مصب جيري زادة عن مصب شط العرب تزداد من سنة لأخرى بسبب من أن مصب شط العرب يتقدم تدريجياً وباضطراد نحو الشرق بتأثير ترسبات تيار الخليج الذي يجري من شواطئ فارس نحو الضفة الغربية من الخليج.

ولن يكون وصفنا للعراق الجنوبي من الناحية الهيدروغرافية كاملاً إذا لم نتعرض لذكر القنوات القديمة التي ذكرها هيرودوت والتي لا تزال موجودة بحالة متفاوتة الدرجة من الجودة [3] فبفضل منشآت الري تلك كانت جميع أصقاع المجرى الأسفل للفرات ودجلة التي تؤلف في قسمها

(1) H. J Wigham : The Persian Problem. London. 1903. p. 125 FF.
(2) الصحيح جري سعدة ـ المترجم.
(3) k. Ritter. Op. cit. t. IXS. 418 FF : t. VII. Abt. l. S. 201 FF.

الأغلب في الوقت الحاضر جزءاً من الصحراء التي تحرقها الشمس أو هي عبارة عن مستنقعات تستعصي على الاجتياز ، كانت في وقت من الأوقات تشغلها البساتين والحقول ويقطنها بشكل مكثف سكان مزارعون مجدون. وتختلف هذه القنوات في حجمها تبعاً للهدف من إنشائها وهو هدف مزودج ، فالبعض منها كالصقلاوية الذي يأخذ مياهه من الفرات إلى الأعلى قليلاً من الفلوجة ويصب في دجلة بالقرب من بغداد وكذلك الأنهر التي توازيه وهي على التوإلى من الأعلى إلى الأسفل : نهر عيسى (أبو غريب حالياً) ونهر صرصار (الرضوانية حالياً) ونهر ملك ونهر الكوت (وهذا الأخير كان يصب في دجلة إلى الأسفل من سلوقيا) لم تكن تستعمل للري فقط وإنما تستخدم أيضاً كشرايين صالحة للملاحة تمتد لعشرات الأميال في العراق العربي وتربط بين الفرات ودجلة ؛ وينتمي النهروان الذي يجري في الضفة الشرقية لدجلة ويوزع المياه من رافدي هذا الأخير على كل المنطقة الواقعة بين بغداد وكوت الامارة وجبال الحدود الفارسية إلى هذا النوع من القنوات إذ أنه كان صالحاً للملاحة أيضاً بفضل عمقه الملحوظ الذي يصل في بعض المواضع إلى 15 م. أما القنوات الأخرى فكانت مخصصة للري فقط لذلك فإنها تختلف في حجمها لدرجة ملحوظة عن النوع الأول ، ومنها : شط الكار والمحمودية واللطيفية والاسكندرية التي تتغذى بالمياه من الفرات والدجيل والاسحاقي وغيرها التي تأخذ مياهها من دجلة.

وقد استكمل نظام الري ، بهدف حماية البلاد من الفيضانات ولكي توزع مياه الري بالتساوي ، بعدد من السدود المبنية من الحجر والطابوق. مثل سد ظهر العوض أو نمرود بالقرب من نينوى ، وقد بنيت بإحكام إلى درجة بحيث ظلت آثارها قائمة حتى الوقت الحاضر على الرغم من مرور

آلاف السنين [1].

لقد كانت دراسة جميع منشآت الري القديمة هذه حتى القرن الحالي سيئة إلى درجة بحيث لا توجد هناك بالنسبة لأغلبية هذه القنوات أية معلومات لا عن زمن بنائها ولا عن اتجاهاتها بالضبط ولا حتى عن مدى صلاحيتها. ويتحتم علينا أن نأمل بأن لجنة المهندسين الأوروبيين برئاسة السيد ولكوكس التي تقوم منذ 1908 بدراسة حقلية لوضع خطة لإحياء بلاد الكلدانيين القديمة عن طريق إعادة إنشاء قنواتها الاروائية ، ستساعد على حل هذه المسائل وكثير من المسائل المهمة الأخرى المتعلقة بنظام الري القديم في العراق العربي.

وكان السيد ولكوكس وهو واحد من الشخصيات البارزة التي أهتمت بالري في مصر ، وقد زار العراق العربي في شتاء 1904 للإطلاع مسبقاً على طبيعة عمله القادم وقد اقتنع آنذاك بعدم جدوى الاقتصار على مجرد ترميم منشآت الري. ولهذا السبب أدخل في مخططه أيضاً حماية العراق من الغرق بسبب الفيضان الربيعي للأنهار وكذلك تجفيف الأهوار التي تحتل حالياً ما يقرب من ثلث سهول العراق.

وتتكرر الفيضانات التي أشرنا إليها أعلاه سنة بعد أخرى فتسبب للسكان خسائر تتفاوت في حجمها تبعاً لحجم الفيضان نفسه ، فقد انقطعت بغداد مثلاً خلال الـ 75 سنة الأخيرة عن العالم الخارجي 17 مرة بسبب الفيضانات وكان انقطاعها لفترات تتروح بين شهر واحد وأربعة أشهر هذا إذا أهملنا الفيضانات الأخرى الأصغر حجماً [2].

.F. R Chesney : op. cit. Vol. 1. p. 21 (1)

(2) السالنامة الخاصة بولاية بغداد لسنة 1321 هـ ص 159 - 160.

أما في البصرة فقد دمر فيضان شط العرب في عام 1890 مليوني نخلة وهي الوسيلة الأساسية للغذاء والثروة بالنسبة للأهالي هناك. لكن الحكومة العثمانية ، بسبب قلة ما تحت يدها من أموال ، في وضع لا يمكنها من مكافحة هذا الشر الذي يعود في أصله بالدرجة الأولى إلى الاستعاضة عن السدود الغالية التكاليف بحواجز بدائية تبنى من حزم القصب المجدول والطين. فمثل هذه المنشآت القائمة حالياً في جميع أنحاء العراق العربي لا تتحمل بالطبع ضغط فيضان الربيع لذلك أصبح تسرب المياه إلى السهول المحيطة بالفرات ودجلة ظاهرة مألوفة.

وتمتد المياه الراكدة التي تكونت من الفيضانات التي تتكرر سنوياً والتي يسميها الأتراك بحيرة (موخ صو) ويطلق عليها العرب اسم جزائر المنتفك ، باتجاه مستقيم من بلدة سوق الشيوخ على الفرات حتى أسوار البصرة وتمتد نحو الغرب حتى مجرى الفرات القديم جيري زادة ، في حين تتصل في الشرق بمياه هور العمارة التي تحتل الضفة اليمنى لدجلة إلى الأعلى والأسفل من قبر عزرا. وتتكون من مياه هذه المستنقعات جميعها بحيرة حقيقية يبلغ طولها ما بين 50 إلى 60 ساعة سير في القارب وعرضها ما بين 2 إلى 3 ساعات في حين يتجاوز عمقها في بعض المواقع المتر الواحد وهناك مستنقع آخر لا يقل سعة عن ذلك يُعرف باسم هور عزام يحتل مساحة كبيرة إلى الشرق من دجلة تمتد من العمارة حتى نهر كيركة وموضع الحويزة.

إن تجفيف المستنقعات التي تتاخم المجرى الأدنى للفرات ودجلة وهو الاجراء الذي تضمنه مشروع السيد ولكوكس لدرء الفيضان السنوي لهذين النهرين هو قيمة حقيقية للبلاد لا في المعنى الاقتصادي فحسب وإنما من وجهة النظر الصحية في المنطقة إيضاً ذلك أن العراق العربي هو

في الوقت الحاضر بؤرة لكل أنواع الملاريا التي تتخذ في القسم الجنوبي منه وفي منطقة البصرة طابع الوباء المحض. ويمكننا أن نتبين إلى أي مدى يكون المناخ قاتلاً هناك بالنسبة للأجانب من المثل الذي اطلقه العرب والذي معناه كالآتي : أنا البصرة معروفة لكم جيداً إذا حضر غريب فانبئوني
وإذا ما ذهب عني سالماً معافى فلوموني [1].

وينطبق المثل المذكور على العراق الأدنى بأجمعه إذ أنه يشبه البصرة تماماً في مناخه ، ولكنه يفقد معناه بالنسبة للعراق إلى الشمال من كوت الامارة فلقد بات من الأكيد تماماً أن مناخ العراق يزداد جفافاً ويصبح صحياً أكثر كلما ابتعدنا عن الخليج. وهكذا فإن الأروبيين يتحملون حرارة الصيف التي تصل في بغداد في أحيان كثيرة إلى 50 درجة مئوية في الظل بفضل جفاف الهواء الرائع أسهل من تحملهم لدرجة الحرارة التي تقل عن ذلك في البصرة (45 درجة مئوية كحد أعلى في الظل) حيث الهواء مشبع ببخار الخليج والمستنقعات المحيطة بالمدينة على السواء.

ومما لا شك فيه أن العراق العربي ينتمي من حيث ظروفه المناخية العامة إلى البلدان الحارة حيث تنقسم السنة إلى فصلين حار وبارد يتميزان عن بعضهما بشكل حاد ، فالحرارة تبدأ بالارتفاع اعتباراً من النصف الثاني من آذار بعد ربيع قصير هو أطيب أوقات السنة في هذه الأصقاع ، وتصل في تموز في البصرة وفي آب في بغداد إلى أعلى معدل لها [2]. ولا تأخذ

(1) T. M. Lycklama a Nijeholt : Voyage en Russie au Caucase et en Paris. 1872. t. III. p. 74.

(2) في الوقت الذي يكون فيه الحد الأعلى في بغداد 50 درجة مئوية في الظل فإن هذا الحد لا يتعدى في البصرة 45 مئوية علما بأن الحرارة تستمر في الأخيرة بمعدل أعلى من 39 درجة مئوية في الظل لمدة لا تقل عن المائة والعشرين يوماً.

الحرارة بالانخفاض إلا اعتباراً من النصف الثاني من أيلول فتأخذ الليالي بالبرودة ويحل الخريف الذي يجلب معه الراحة للحيوانات والناس المنهكين. والشتاء في البصرة أدفأ منه في بغداد بشكل محسوس ، فدرجات الحرارة تتراوح في النهار ما بين 10 و 15 درجة مئوية تنخفض في الليل إلى 5 / 1 درجة مئوية ولكنها لا تنخفض أكثر من ذلك إلّا نادراً ، في حين لا يزيد متوسط درجات الحرارة في النهار في بغداد خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني عن 5 درجات مئوية ، أما في الليل فيحدث الصقيع أحياناً وتصل درجة الحرارة إلى 5 درجات مئوية تحت الصفر.

وظروف سكان البصرة أسوء من ظروف سكان بغداد من حيث وسائل الاحتماء من الحر ، فهؤلاء الأخيرون يقضون كل يومهم في الصيف

في سراديب تحفر في الأرض لعمق يصل إلى عدة أرشينات لذلك تكون درجة الحرارة فيها أقل بدرجة محسوسة منها على السطح ، أما في الليل فإنهم يأخذون أماكنهم في العراء على سطوح بيوتهم المستوية دون أن يخشوا الاصابة بالحمى وذلك بفضل جفاف الهواء المدهش.

أما في البصرة فليس بالامكان بناء سراديب بسبب قرب المياه الجوفية من سطح الأرض ولهذا يتحتم على الكثيرين في الصيف أن يقنعوا بالغرف الخانقة في الطابق الأسفل حيث تعلق على الشبابيك من الخارج ، بهدف خفض الحرارة في الغرف ، أطر من سعف النخل المجدول على شكل أقفاص تشبه رقعة الشطرنج وتملأ هذه الأقفاص بالعاقول أو الشوك الجاف ويصب عليها الماء بين الحين والأخر ، ولياِلي الصيف في البصرة بعكس حالتها في بغداد ، لا تختلف عن النهار من حيث القيض وانحباس الهواء كما أن الندى يسقط أثناءها ولهذا يتعذر النوم على السطوح إلا تحت سقائف سميكة معمولة من القصب. وتبعاً لهذه الظروف لا يتأتي

لساكن البصرة أن يستريح في الليل من تعب النهار لذلك فإنه يهرب عند أول فرصة إلى بغداد لكي يقضي برهة على الأقل من فصل الصيف الثقيل.

وليس بمقدور العراق الجنوبي ان يفخر بغزارة سقوط الأمطار فيه بالمعدل السنوي لسقوط الأمطار فيه لم يتعد طيلة 25 سنة ابتداء من 1888 مقدار 34 ، 8 أنج حيث وقع الحد الأعلى ومقداره 31 ، 22 أنج في عالم 1894

في حين كان الحد الأدنى ومقداره 47 ، 1 أنج من نصيب عام 1901 (1) وليس لهذه الأصقاع فصل محدد للأمطار كبقية البلدان المدارية ، فالأمطار تسقط في العراق العربي بشكل متفاوت وفي فترات متباعدة ابتداء من النصف الثاني من تشرين الأول حتى نهاية نيسان. أما حزيران وتموز وآب وايلول فهي خالية من الأمطار نهائياً. وفي الوقت الذي يكون فيه سقوط البرد ظاهرة اعتيادية في هذه الأنحاء يكون الثلج نادراً حتى في بغداد التي تقع إلى الشمال من البصرة كثيراً إلى درجة بحيث أن الأسفار التاريخية تشير إلى سقوطه الذي يحدث مرة أو مرتين في القرن ، على أنه حادثة خارجة عن المألوف.

وتعتبر الرياح الشمالية والشمالية الغربية من الرياح السائدة في العراق ، فالأخيرة تهب اعتباراً من شهر أيار لمدة ستين يوماً بدون انقطاع تقريباً ويقسم الأهالي هذه الفترة إلى فترتين هما البارح الصغير ومقدارها 20 يوماً والبارح الكبير (الريح) التي تستمر أربعين يوماً. وتجلب الرياح

(1) بلغ المعدل السنوي لكمية الأمطار الساقطة في السنوات السبع الواقعة بين 1904 ونهاية 1910 مقدار 96 ، 4 أنج حيث كانت النهاية العظمى ومقدارها 23 ، 10 أنج في 1907 في حين صادقت النهاية الصغرى ومقدارها 87 ، 2 أنج في 1909 : W. Willcocks : op. cit. p. 74

الشمالية الغربية معها سحباً من الغبار يتشبع بها الهواء إلى درجة بحيث تصبح الشمس بالنسبة لمن ينظر إليها عبارة عن قرص ضخم من النحاس الأحمر. ويحل في نهاية تموز والنصف الأول من آب فصل « السموم » أو الرياح الحارة التي تمر على رمال صحاري شبه الجزيرة العربية الحارة فتسخن إلى درجة بحيث أن أنفاسها الحارة تهدد بالموت من تصادفه في طريقها من الناس والحيوانات. وفي الفترة من أيلول حتى تشرين الأول غالباً ما تغير الرياح اتجاهاتها مما يؤدي إلى تغييرات حادة في درجات الحرارة فيسبب ذلك زيادة الأمراض من مختلف الأنواع. ويعتبر « الشرجي » أو الرياح الجنوبية الشرقية التي تسود في شهر شباط مضر بالصحة بشكل خاص لأنه يجلب الأبخرة من الخليج فيرفع بذلك نسبة أمراض الحمى بدرجة كبيرةِ.

أما بالنسبة لمدينة البصرة نفسها فهناك إلى جانب المناخ الردئ وأبخرة المستنقعات عامل آخر يساعد أيضاً على تحويلها إلى بؤرة لجميع الأمراض ذلك هو انعدام المياه الصالحة للشرب ، فالواقع أن الفقراء يشربون من قناة العشار التي تجعلها نفايات المدينة قذرة جداً ، بسبب بعد المدينة عن شط العرب والبصريون الموسرون هم وحدهم الذين يتأتى لهم جلب المياه لاستخدامهم الخاص من شط العرب ، ولكن حتى مياه هذا الأخير لا يمكن وصفها بالنقاء وذلك لأنه لا تصب في النهر في أثناء الجزر المياه الراكدة من المستنقعات المجاورة فحسب وإنما يرد إليه أيضاً القسم الأغلب من قاذروات المدينة عن طريق قناتي العشار والخندق. ويمكن الحكم على درجة قذارة شط العرب من التجربة التي أجراها الدكتور بوريل الذي كان رئيساً لمحطة الحجر الصحي في البصرة في تسعينيات القرن السابق فلقد وجد بعد أن كرر التجربة خمس مرات 68200 عصية

في السنتمر المكعب الواحد من ماء أخذه من الموضع الذي يأخذ منه السقاة المياه. وقد استطاع السيد بوريل أن يجد بين هذه العصيات عدداً كبيراً من جراثيم التيفوس والدزانتري وغيرها من الأمراض المعدية الخاصة بالبلدان الحارة فضلاً عن أن أحد الجراثيم كان كثير الشبه بمكروب الكوليرا. ويتحدث السيد بوريل عن هذا الموضوع في كراسه [(1)] قائلاً : « للأسف أنني لم أستطع بسبب عدم وجود الأدوات اللازمة أن أكمل إلى النهاية ملاحظاتي حول الشبه بين العصيات التي وجدتها في مياه شط العرب ومكروب الكوليرا. ومع ذلك فإن هذ الحقيقة فائقة الأهمية وهي تفتح آفاقاً جديدة بالنسبة لقضية أوبئة الكوليرا في ما بين النهرين عموماً وفي البصرة على وجه الخصوص ». ويبدو أن العراق العربي يكون تربة أخصب من ذلك بالنسبة لظهور وتطور الطاعون فحسابات E. Reclus)) [(2)] تشير إلى أن إثنين وعشرين وباء للطاعون ظهرت أو استشرت بشدة في هذه المنطقة ، من أصل أربعين وباء كانت قد ظهرت في الأرباع الثلاث الأول من القرن التاسع عشر.

ولا يسعنا ونحن ننتقل إلى وصف المملكة النباتية في العراق الجنوبي إلا أن نلاحظ مسبقاً بأن رواية الكتاب المقدس تشير إلى أن الجنة في الأرض أو المثوى السعيد للناس الأول قبل الخطيئة كانت ترويها اربعة أنهار ذكرت أسماؤها في الفصل الثاني من سفر التكوين. وفي الوقت الذي لا يزال فيه مكان وجود نهري فيشون وحيمون موضع جدل ، فإن وضع الفرات ودجلة أو حد اقل باللغة العبرية لم يتغير ولهذا السبب يمكن

.La defense Samitaire du golfe Persique et du Chatt - el - arab (1)

.Nouvellle Geographie Univetselle. T. IX. P. 418 (2)

الاعتقاد بأن الجنة كانت تقع ضمن العراق العربي. ومع ذلك فالسذج من الناس الذين يعتقدون بأن العراق العربي يذكرنا في شكله الخارجي ولو من بعيد بالحديقة الغناء التي عاش فيها اسلافنا سيخيب أملهم بمرارة لو رأوه رأي العين. فالمسافر فقط الذي يأتي من سواحل الخليج العربي القاحلة التي تحرقها الشمس فتبدو كالملعونة إلى شط العرب الذي تحيطه غابات لا نهاية لها من اشجار النخيل الدائمة الخضرة يمكن أن يعتقد للوهلة الأولى بأنه في الجنة حقاً.

ولكن يكفي للقادم أن تزاوله لحظة الافتتان الأولى لكي يدرك بأن أحراش النخيل التي بدت له وكان لا نهاية لها لا تتوغل في داخل البلاد إلا لمسافة فرستين أو ثلاث تحل بعدها نفس الأهوار والصحاري التي تكون الميزة السائدة في مظهر العراق العربي كله.

تحتل النخلة دون شك المكان الأول بين نباتات هذه المنطقة. لأن تربة العراق الجنوبي وظروفه المناخية أكثر ملائمة لنجاح زراعتها فالمثل العربي يقول بأن النخلة يجب أن تكون أرجلها في الماء ورأسها في النار ولهذا يجب أن تكون حدود انتشارها في الشمال على الفرات عنه التي تحتوي على آخر بساتين النخيل وعلى دجلة التي لا تحتمل النخلة تمراً إلى الشمال منها.

أما المرتبة الثانية من حيث الانتشار فهي من نصيب الحبوب التي تنقسم حسب موسم بذارها وحصادها إلى شتوية وصيفية ، ينتمي إلى الصنف الأول الشعير والحنطة اللذان تبدأ زراعتهما في تشرين الأول ـ تشرين الثاني وتنضج في نيسان وأيار ، ويعود إلى الصنف الثاني الرز والذرة البيضاء والصفراء والعدس والدخن والنباتات القرنية والسمسم حيث يكون بذارها في نيسان ـ حزيران وتحصد في تموز ـ ايلول. وإذا ما

أخذنا بشهادة المصادر القديمة [1] يزيد من خصوبتها طمي نهري دجلة والفرات كانت تدر في تلك الأزمان الغزيرة محصول الرز والشعير لا يقل عن 200 صنف لكن الشعب هنا لم يحفظ عن تلك الخصوبة الخيالية حتى ولا الحكايات ، حيث يعتبر الفلاحون حالياً 30 أو 40 صنفاً محصولاً ممتازاً. ومن بين الحبوب الرئيسية الشعير الذي يحتمل الجفاف أكثر من بقية الحبوب ويزرع بالدرجة الأولى في ولاية بغداد ، والرز الذي يحتاج إلى حقول تغمرها المياه فيزرع بالدرجة الأولى في ولاية البصرة وأما الحنطة التي تفضل مناخاً أكثر اعتدالاً فإنها تؤلف أكثر محاصيل ولاية الموصل انتشاراً.

ولا تنتشر زراعة الخضراوات وزراعة البساتين ، باستثناء بساتين النخيل ، في العراق الجنوبي إلا على نطاق ضيق ولا تكون لها أهمية صناعية. إن محاصيل تحتاج إلى مناخ أكثر اعتدالاً مثل البرتقال والعنب والفستق تنجح بشكل أفضل في ولاية الموصل. أما في العراق الأدنى فمن الممكن زراعة القسم الأغلب من الخضراوات المعروفة لأوربا. ومن بين المحاصيل كانت تزرع هناك في الأزمان الغابرة الحناء [2] وقصب السكر والتيلة وهذه جميعها اختفت تماماً في الوقت الحاضر. أما زراعة القطن فإنها لم تزدهر حتى الأيام الأخيرة إلا على ضفاف نهر ديالى وفي ضواحي عنه على الفرات ولكنها لم تكن تحمل طابع المشاريع الكبيرة المنفردة. ومن المحتمل أن يكون لزراعة القطن المحلية مستقبل زاهر بعد انبعاث العراق بفضل إعادة منشآت الري القديمة وإنشاء سكة حديد ببغداد. وتزدهر

.Fr. Lenormant : Histoire de Lorient. Paris 1888. T. IV. P. 7 (1)

(Lawsonia inermes) (2)

زراعـة التبـغ بشـكل أساسـي فـي الموصـل والسـليمانية وشـهرزور أي فـي حـــــــــــــــــــــــــدود مـــــــــــــــــــــــــا بين النهرين ، أما فـي العـراق الجنـوبي فلـيس لهـا أهميـة تُذكر حيث تقتصـر علـــى مساحات صغيرة في أقضية كربلاء والحلة والديوانية في ولاية بغداد وعلـى مساحات أقل في قضائي المنتفك والعمارة في ولاية البصرة.

إن غابـات شـجر الـدلب والحـور والجميز والتوت والأثـل البريـة التـي كانت في بداية القرن الماضـي أي القرن التاسـع عشـر تغطـي ضـفاف نهـري الفرات ودجلة اختفت حالياً وعلـى الأخص مـن ضـفاف النهـر الأخيـر. وقـد ســاعدت شــركات الملاحــة النهريــة علــى انقراضــها إذ افتتحــت خطوطــاً للملاحـــة المنتظمـة فـي نهـر دجلـة بـين بغداد والبصـرة وظلـت لوقـت طويـل تسـتخدم كوقود ، الحطب الذي يجهزها بـه بموجـب عقـود خاصـة الأعـراب القـاطنين علـــى الضـفاف. ولا يـزال يوجـد حتـى الآن قليـل مـن أحـراش الحـور والصفصـاف علـــى ضـفتي الفـرات. والحـور المحلـي المعـروف باسـم (Populus euphratica) تكـــون له أوراق تشبه المبضع فى شكلها وهو كثير الشبه بالصفصاف.

وبسـبب القضــاء علــى الغابــات فقـدت المملكــة الحيوانيــة فــي العــراق العربي الكثير من ممثليها. فالأسد العديم اللبوة الذي كـان قبـل خمسـين سـنة يثير بزئيره الفزع في نفوس المسافرين على السفن التـي تمخـر عبـاب دجلـة لـيلاً ، أصـبح فـي الوقـت الحاضـر مـثلاً مجـرد أسـطورة. ومـن الأنـواع التـي اختفت من العراق أيضاً حمار الوحش الذي كانت قطعـان كاملـة منـه تسـرح في الوقت الذي زار فيه هذه الأصـقاع الرحالـة الأيطـإلى (Pitro Della Valle) فـي 1625 ، أمــا الآن فـلا يمكـن للمـرء أن يصــادفه إلا فــي جبــال حمـرين. وكانت النعامة التي يذكرها كسينوفون هي الأخـرى قد تركت وهاد العراق قبـل حمــار الـوحش وتوغلـت فــي صــحاري بــلاد العــرب. أمــا الحيوانــات الوحشـية الأكثـر انتشـاراً فــي العـراق فـي الوقـت الحاضـر فهـي الخنزيـر والظبي

والذئب والثعلب والنيص والضبع وإبن آوى. وهذا الأخير بشكل خاص يوجد بأعداد كبيرة ويكون كثيرة الأزعاج فهو يبقي عادة على مقربة من محلات سكن الانسان وحتى في البصرة نفسها كثيراً ما نجده يعيش في بساتين النخيل وفي الصحارى حيث يتسلل إلى مضارب البدو أو خيام الرحالة الأوروبيين. ولقد تعود سكان العراق على تطاولات إبن آوى إلى درجة بحيث أنهم أصبحوا لا يعيرونه اهتماماً وذلك ما يستغله اللصوص من الأعراب الذي يعمدون إلى تقليد صوته عندما يزحفون في الظلام إلى الدار او الخيمة وهدفهم خداع الحرس. ويعيش في بساتين النخيل في العراق وبالدرجة الأولى في بغداد وحش صغير يشبه كثيراً في شكله الأخنمفون [1] المصري ولكنه أصغر حجماً وجلده أكثر احمراراً وسرعان ما يصبح أليفاً. ويطلق عليه الأهإلى اسم جرذ التمر [2].

على الرغم من أن هذا الحيوان لا يعيش على النخيل ولا يأكل التمر ، إنما يتألف طعامه كما هي الحالة بالنسبة للأخنمفون من الحيوانات القديية الصغيرة والحيات والبرمائيات والطيور الداجنة. إنه يستثار بسهولة وعند ذلك يسبب بأسنانه الحادة ألماً محسوساً [3].

أما بالنسبة للطيور فتكثر في العراق بشكل خاص كل أنواع الطيور المائية كالأنواع البرية من الأوز والبط والبجع والنحام ومالك الحزين والغطاس وغيرها من الطيور التي تبني أعشاشها في الجزر التي تكثر في

---

(1) يبدو أن المؤلف يقصد الحيوان الذي يسميه المصريون « التفا » أو ربما « العرسة » المترجم.

(2) يطلق عليه بالعامية في العراق إسم « جريدي النخل » ـ المترجم.

(3) G. A Oliver , voyage dans I , mpire Othoman. Paris An 12. T. IV. P. 393.

الفرات ودجلة. وتتعرض كل هذه الطيور إلى الفناء الجماعي بسبب مطاردة
الصيادين العرب الذين. يسعون على الحصول على ريشها الذي يُصدر إلى الخارج ، ولكنهم يطاردون بشكل أعنف مالك الحزين بسبب القيمة الكبيرة التي يمتلكها في أوروبا العرف الذي يوجد في رأس ذكر هذا الطائر ويسبب من أن شحم هذا الطير يعتبر دواءً جيداً للروماتيزم. ولقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى أن تمنع من حين لآخر صيد مالك الحزين تجنباً لانقراضه نهائياً. ومن بين الطيور الأخرى الموجودة في صحارى العراق ينبغي أن تذكر الحجل واليمام والحباري وغيرها. كما نصادف بين الطيور الجارحة مختلف أنواع الصقور التي يدربها العرب بمهارة فائقة على صيد الحباري والغزلان.

ومن بين الزواحف الموجودة في العراق يمكن أن نحصي كثيراً من أنواع العضائيات والحيات المائية والبرمائية ثم السلاميات والعقارب ... الخ.
غير أنه لا يوجد بينها أنواع خطرة على حياة الأنسان باستثناء ما يسمى بـ « الجرار » وهو عقرب مخطط يتواجد إلى الشمال الشرقي من بغداد في جهات مندلي وتؤدي لسعته على ما يؤكده الأهإلى إلى الموت حتماً [1]. أما الحشرات فإنها كثيرة الأنواع جداً ، فإلى جانب الأنواع التي لا يحصيها عد من الخنافس والذباب والفراش والنحل والزنابير فإن هناك آلاف مؤلفة من البعوض تسمم حياة الانسان وتلسع الجاموس في الأهوار حتى يقارب الموت ولكنه ينقذ بواسطة طلائه بالقطران أو عن طريق حجزه في زرائب يجري تدخينها بإحراق الروث. أما البراغيت فيمكن اعتبارها المأساة

---

(1) خورشيد أفندي ، سياحت نامة حدود. ترجمة كامازوف ، سانت بطرسبورغ 1877 ، ص 102.

الحقيقية لهذه المناطق ذلك أنها في خلال الربيع القصير تلتهم كل ما هو حي بالمعنى الحرفي للكلمة. ويزور العراق من حين لآخر الجراد الذي يكون لونه أصفر في العادة. وقد لاحظ الأهالي بأنه يأتي دائماً من الجنوب الشرقي الأمر الذي أدى إلى نشوء خرافة مفادها أن أمواج الخليج العربي تولد عدو المزارعين المجنح هذا. وعلى ما يشهد. (M. Otter) كان لا يزال يوجد في البصرة في منتصف القرن الثامن عشر النمل الأبيض الذي كانت تنقله إلى هناك السفن القادمة من الهند ولكنه معدوم تماماً في الوقت الحاضر. ويختار النمل الأبيض أماكن إقامته المفضلة في العنابر التي تخـــزن
فيها الأقمشة المصنعة فيقضي دون رحمة على بالات كاملة منها والطريقة الوحيدة للتخلص من أذاه ، هي وضع البضاعة على سقالات خشبية تغوص أرجلها في طبقة سميكة من الملح تغطي أرضية هذه العنابر.

وتكثر في أنهار العراق الجنوبي الأسماك من مختلف الأنواع ابتداءاً من الرنكة وانتهاءً بالقرموط بل وحتى القرش الذي يدخل في أثناء حرارة الصيف من الخليج إلى شط العرب ويرتفع في بحثه عن مياه أكثر برودة في نهر دجلة حتى يصل بغداد نفسها. ويؤلف الجميري المملح وكذلك وبشكل خاص الأسماك المجففة والمملحة غذاءً رخيصاً للطبقات الفقيرة من السكان لا سيما أن صيدها لا يتطلب مهارة خاصة إذ كل ما يحتاجه هو إقامة حواجز من القصب الضفاف يدفع إليها المد بالأسماك التي تبقى عند الجزر في القاع خلف تلك الحواجز. ويوجد في أهوار العراق الواسعة ،
إلى جانب المليارات من الضفادع التي تقيم في كل ليلة حفلات موسيقية تصم الأذان ولكنها لا تخلو من الأصالة » القندس الذي يسميه العرب « كلب الماء » ويجدون في صيده سعياً وراء جلده الذي يُصدر إلى الخـــارج.

وتوجد على ضفاف دجلة والفرات فضلاً عن ذلك عدة أنواع من

السلاحف منها واحدة من سلاحف الفرات يصل حجمها إلى مقاييس كبيرة جداً.

وتتألف ثروات العراق الطبيعية من البتيومين أو الأسفلت والنفط والفحم الحجري ومناجم الملح ، وكان استخراج هذه المعادن جميعها يجري حتى الأيام الأخيرة بأكثر الطرق بدائية ، وهو لا يزال ينتظر رجال الأعمال الأوروبيين لكي يقام على اسس أكثر تقدّماً.

وتوجد مكامن الاسفلت على جانبي سلسلة تلال الحدود اعتباراً من كركوك حتى مندلي كما أنها يمكن أن تصادف بمحاذاة دجلة فيما بين الموصل وبغداد وعلى ضفاف الفرات في هيت وكذلك في الحلة بالقرب من أطلال بابل القديمة حيث استخدم الأسفلت في أبنيتها على نطاق واسع. أن المنابع التي يستخرج منها تكون ذات حرارة عالية جداً فتدفع المياه التي تكون في حالة غليان دائم بالأسفلت إلى السطح فيأخذ الأهالي بجمعه بواسطة سعف النخل. وبعد أن يبرد الأسفلت بشكل بهيئة قطع مربعة الشكل سمك الواحدة أنج واحد ويستعمل لطلي أنابيب المياه والحمامات والمطابخ وما أشبه من المنشآت التي تلزم حمايتها من تخريب الماء ، وكذلك تطلى به السفن الشراعية من الخارج ، ذلك أن الأسفلت المخلوط بقليل من الرمل أو الطين لا يمنع تسرب المياه إليها فحسب ، إنما يحفظها مدة طويلة من التعفن والفساد أيضاً ، ويحصل الأهالي من الأسفلت السائل قبل أن يتصلب على نوع من النفط الأسود يصلح للاستخدام كوقود بهيئة أقراص مصنوعة من خليط من روث البقر المجفف والقش المقطع المشبع بالأسفلت.

أما عن النفط الحقيقي فإن مصادره تقع على الجهة الأخرى من الحدود مع فارس في موضع قصر شيرين على بعد 150 كم عن بغداد وقد

درسها بشكل مفصل الأثاري الفرنسي المعروف (De Morgan) فحدد طول العرق النفطي الممتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي أو من كركوك حتى سفوح شاه كوه وراء قصر شيرين بما يقرب من 300 كم [1] وتخرج تفرعات هذا العراق في هذه الجهة من الحدود في عدة مواضع ، بالقرب من كركوك وفي طوزخرماتو وكفري ومندلي حيث يظهر النفط على شكل زيت لزج ذي لون أخضر ورائحة كريهة على سطح المياه في الآبار التي تحفر خصيصاً لهذا الغرض. ولقد انتبه رجال الأعمال الأنجليز إلى الثروات النفطية في فارس فحصلوا في 1903 على إمتياز لاستخراج النفط من قصر شيرين ثم نقلوا نشاطهم من هناك بسبب عدم تحقق آمالهم بالحصول على غنيمة كبيرة إلى منطقة الأحواز التي يفترض أن يكون الموضع الرئيسي لمكامن النفط واقعاً على بعد 50 ميلاً إلى الشمال الشرقي منها. وكان التنقيب عن مكامن النفط الموجودة في الأراضي العثمانية التي تعتبر ملكاً للسلطان في 1901 يجري من قبل المهندسين الألمان بتفويض من عبد الحميد المخلوع حالياً الذي كان ينوي في البداية أن يستغلها شخصياً بعد الانتهاء من بناء سكة حديد بغداد ولكنه عاد بعد ذلك واعتبر بأن من الأصلح منح حق استغلال مصادر النفط العثمانية إلى شركة سكك حديد الأنضول الألمانية وعمد (Dentische Bank) فأرسل في 1905 باسم هذه الأخيرة لجنة خاصة للتنقيب عن النفط في ضواحي كركوك ولكنه لم يبدأ بالعمل فوراً الأمر الذي يشير على ما يبدو إلى عدم تحقق التوقعات بشان غزارة مكامن النفط في كركوك [2]

---

(1) J. de morgan , Mission Scientifique en Perese Qeographiques. Paris , 1895. T. II. P. 86

(2) تعتبر آبار النفط في كركوك حالياً من أغزر آبار العالم ـ المترجم

وتوجد مناجم الفحم الحجري التي يستخرج منها فحم جيد النوعية لسد حاجات الملاحة والصناعة المحلية في سلسلة جبال حمرين الواقعة على بعد 90 كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من بغداد.

ومع ذلك يبقى الملح الثروة الطبيعية الرئيسية في العراق الجنوبي فالأراضي السبخة تنتشر في كل مكان ذلك أن المجاري المائية أو ما تكون من تجمعات مائية صغيرة أو كبيرة تفرز حتماً تحت تأثير أشعة الشمس ملحاً من مختلف الأنواع ابتداء من الجيد في بياضه ونوعيته وانتهاء بغير الصالح نهائياً للاستعمال في الطعام. وقد منح احتكار استغلال الملح كما سنتحدث عن ذلك بالتفضيل في الفصل القادم إلى « إدارة الدين العثماني العام » التي لا تستغل مباشرة أو عن طريق المستأجرين إلا قسماً قليلاً من مكامنه وهو القسم الذي يقع بالقرب من المدن والمناطق المأهولة ، أما أغلبية الملاحات فإنها لم تستغل بسبب وقوعها في الصحراء أو في مناطق القبائل البدوية المتنقلة التي لم تتعود بعد على احترام الحقوق الاحتكارية التي تتمتع بها الادارة المذكورة. ويتمثل استخراج الملح في ولايتي بغداد والبصرة بموجب المعطيات التي اوردها قنصل النمسا ـ المجر في بغداد بالأرقام التالية (1).

السنة	الولاية	الكمية بالطن المتري
1899	ولاية بغداد	732
1899	ولاية البصرة	157 ، 7
في تسعة أشهر من	ولاية بغداد	367 ، 5
سنة 1900	ولاية البصرة	95 ، 1

(1) التقرير التجاري للسيد رابوبورت لسنة 1900 (باللغة الالمانية) ص 3.

وتفسر الشحة النسبية في الثروة المعدنية في العراق الجنوبي طبعاً بانعدام السلاسل الجبلية والمرتفعات فيه ، فالجبال التي تحيط به من الشرق والشمال ليست إلا حدوداً بين المنطقة التي يسكنها العرب من جهة وتلك التي يقطنها الفرس والأكراد من جهة أخرى.

وتتألف ولاية البصرة من الناحية الإدارية من أربعة سناجق تنقسم إلى أربعة عشر قضاء وتضم ستاً وعشرين ناحية كما يظهر بوضوح من الجدول التالي الذي وضع على أساس النشرة السنوية التركية للولاية المذكورة والخاصة سنة 1320 هـ (1910 م).

لقد اجلنا الحديث عن تفاصيل نظام السناجق والأقضية والنواحي وكذلك التفصيلات الخاصة بالإدارة والمؤسسات الحكومية في ولاية البصرة إلى الفصل القادم ولهذا فإننا سننتقل مباشرة إلى الحديث عن المدن والأماكن المأهولة في الولاية مبتدئين بمدينة البصرة باعتبارها المدينة الرئيسية في المنطقة ومركز الحكم الإداري فيها.

السنجق	القضاء	الناحية
	البصرة	الفاو ، الحارثة ، أبو الخصيب ، شط العرب ، الزبير
	القرنة	بني منصور ، المدينة ، النشوة ، الدير
1 ـ البصرة	الكويت	لا يوجد
	العمارة	على الغربي ، على الشرقي ، المجر الكبير ، المجر الصغير
2 ـ العمارة	الزبير	لا يوجد
	الشطرة	لا يوجد

	دويريج	لايوجد
	الناصرية	البطيحة ، الأزيرج
3 ـ المنتفك	شوق الشيوخ	الحمار ، كرمة بني سعيد
	الشطرة	البرعة ، ديجي ، شط الكار
	الحي	قلعة سكر ، محيرجة
4 ـ نجد أو الحسا	الهفوف	العجير ، الميرز ، الجفر ، العيون
	القطيف	لا يوجد
	قطر	لا يوجد

تقع البصرة على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد 70 فرستاً إلى الجنوب من القرنة وتتخلف بمقدار 100 فرست عن الحاجز الحصباوي القائم عند مصب شط العرب في الخليج. وتتألف من قسمين منفصلين عن بعضهما هما البصرة الأصلية التي تحتل نهاية قناة العشار على بعد يقرب من ثلاث فرستات من مصب [1] القناة المذكورة في شط العرب ، وضاحية مقام على الواقعة على جانبي قناة العشار بالقرب من مصبها في شط العرب.

والقناة المذكورة التي حفرت في البداية بهدف تجفيف المستنقعات المجاورة هي الآن بالنسبة للبصرة الشريان الرئيسي لحركة البضائع والركاب بين المدينة والنهر.

وضفاف العشار غاية في الجمال وهي مغطاة كلياً تقريباً ببساتين النخيل التي تطل ، في الجهة التي تقع على يمين القادم من جهة النهر ، على المياه مباشرة. أما الضفة اليسرى من العشار فقد عليّت بشكل اصطناعي

(1) قناة العشار تتفرع من شط العرب وتأخذ مياهها منه ولا تصب فيه ، والمؤلف.

بمساعدة قوائم من جذوع النخل وحولت إلى كورنيش يربط المدينة بضاحية مقام علي. ويستخدم هذا الطريق غير المعبد والكثير التراب أثناء الجزر عندما ينقطع الاتصال مع المدينة بواسطة القوارب بسبب عدم وجود المياه في القناة. ويسير على هذا الكورنيش المشاة والراكبون وتعمل عليه ايضاً مركبة لنقل الجمهور من جسر العشار إلى سوق المدينة.

وبالإضافة إلى قناة العشار يمكن الوصول إلى المدينة بواسطة قناتين اخريين موازيتين لها هما الخورة الواقعة إلى الأسفل من العشار والخندق الواقعة إلى الأعلى منها. وأولى هاتين القناتين أي الخورة قليلة السكان ولكنها أجمل من العشار بفضل بساتين النخيل التي تزدحم بها ضفتاها. أما الثانية أي الخندق فإن العمران فيها يزداد من سنة لأخرى بحيث بدأت تنافس العشار منافسة جدية من حيث أهميتها بالنسبة للبصرة. ولكي نصل إلى البصرة بواسطة الخورة أو الخندق ينبغي أن نستخدم قنوات جانبية تتفرع منهما إلى العشار وتؤلف ما يشبه الشبكة تغطي كل المنطقة التي تشغلها البصرة وضاحيتها. ولقد قدمت هذه الحقيقة للكثير من الرحالة الأوروبيين حجة لمقارنة البصرة بالبندقية رغم أن التشابه بين بندقية الغرب وبندقية الشرق لا يتعدى القنوات وربما أيضاً القوارب الطويلة والمسطحة القاع أو الأبلام التي تذكر بالمحفات التي تثبت فيها لحماية الركاب من أشعة الشمس ، بجندولات البندقية بعض الشيء.

ومدينة البصرة نفسها المختبئة في الصحراء تحتل مساحة واسعة نوعاً ما بين قناتي الخورة والخندق وتنقسم إلى ثمانية أحياء تحوي اكثر من 5000 بناء حجري إضافة إلى الكثير من أكواخ القصب أو الصرائف التي تؤلف مساكن للطبقة الفقيرة والتي تصادف في كل خطوة لا في أطراف المدينة فحسب وإنما في مركزها نفسه أيضاً.

ويبلـغ عـدد سـكان مدينــة البصــرة القديمــة دون ضــواحيها بموجـب الاحصائيات العثمانيـة الرسمية 35000 نسمة. مـا لا يقل عن 6000 منـهم مـــن المسيحين واليهود ومـا يقرب من هذا العدد من الفرس ، أمـا البقيـة فـإنهم عـرب أغلبيـتهم مـن أتبـاع المـذهب الشـيعي ، وهنـاك عـدد غيـر كبيـر مـن الأتـراك الـذين يشـغلون الوظـائف الإداريـة والعسـكرية العليـا. وكـان عـدد سكان البصرة في منتصف القرن الثـامن عشـر حسـب الوثيقـة التـي أوردهـا زويمـر (S Zwemer) [1] مـا لا يقـل عـن 150000 نسمة قـل فأصـبح حتـى 1825 (60) الفاً. وقـد سـاعدت أوبئـة الطـاعون فـي 1831 و 1838 علـى نقصـان السـكان لاحقـاً بحيـث ظلـت المدينـة بعـدها لفتـرة طويلـة لا يتعـدى عـدد سـكانها 12000 نسـمة. وهكـذا فـإن علينـا ، إذا مـا أخـذنا عـدد سـكان البصرة حالياً في الحسبان ، أن نستنتج بـأن سكانها ازدادوا منذ ذلك الوقت بمقدار ثلاث مرات تقريبـاً وبمقدار خمس مرات إذا مـا أضـفنا إليهم سكان ضاحية مقام على الذين لا يقل عددهم عن 15000 نسمة.

لقد بُنيت البصـرة القديمـة علـى يـد الخليفـة عمـر [2] وكانـت تقـع علـى مسيرة ثلاث ساعات إلى الجنوب الغربي من المدينة الحاليـة ولا يـذكرنا فـي الوقـت الحاضـر بعظمتهـا السـابقة ، إلا أطـلال كثيـرة نشـأت فيهـا فـي بدايـة القـــرن الثـامن عشـر بلـدة الزبيـر. وهكـذا فالبصـرة الحاليـة مدينـة حديثـة نسـبياً يـدل على ذلك عدم وجـود أيـة آثـار قديمـة مشـهورة فيهـا ولا يوجـد أي مسـجد مـن بـين الخمسـة عشـر مسـجداً القائمـة فيهـا يسـتحق الأهتمـام مـن ناحيـة فـن العمارة أو من ناحية أخرى. وتكاد تكون البنايات الحديثة أكثر بنايات

(1) Arabia The Cardle of Islam. P. 129 FF

(2) أنظر تفاصيل ذلك في الفصل السادس من هذا الكتاب

المدينة جدارة بالاهتمام.

يقع القوناق الذي يضم مقر الوإلي وجميع الدوائر الأخرى على ضفة العشار عند مدخل المدينة ، وهو عبارة عن بناية واسعة تتألف من طابقين مبنية باللبن لا يميزها شئ عن الأبنية المحيطة بها غير ضخامتها وشكلها الذي يشبه الثكنة.

وتضم سوق المدينة التي تمتد بمحاذاة العشار ما لا يقل عن ألف وخمسائة دكان تغص ، بسبب انعدام البضائع المنتجة محلياً ، أما ببضائع أوروبية صرفة مثل سكر مرسيليا ومنسوجات مانجستر أو بالمنتجات العربية المستوردة مثل عمائم مسقط وعباءات الحسا وهي عبارة عن طرحات صوفية بدون أكمام ، وما أشبه ذلك.

وتوجد في كثير من المواضع في السوق وفي جميع ساحات المدينة وتقاطع الشوارع فيها المقاهي التي تكاد لا تخلو من الرواد أبداً ذلك أنها تقوم هنا مقام النوادي حيث يجتمع فيها الناس يتحدثون في السياسة ويتبادلون فيما بينهم الأقاويل والشائعات المنتشرة في المدينة أو ينجزون عقد الصفقات التجارية بين فناجين القهوة المركزة المرة على الطريقة العربية. وتحوي المدينة ثلاث كنائس بعدد الطوائف المسيحية الغالبة فيها تعود أحداها إلى طائفة الكرمليين يقيم فيها السريان الكاثوليك شعائرهم الدينية ويمتلك الثانية وهي أوسعها وقد بنيت مؤخراً السريان الكلدان ، أما الثالثة وهي بحاجة ماسة إلى الترميم فتعود للأرمن.

أما ضاحية البصرة ، مقام على ، فإنّ بناءها لم يبدأ في 1870 عندما عمد مدحت باشا الذي كان يشغل آنذاك منصب وإلى بغداد التي كانت البصرة تابعة لها إلى نقل « القوناق » أو مقر الدوائر الحكومية إلى مقام علي

وأخذ يشجع بكل الوسائل بناء الدور هناك وتأجير الأراضي الأميرية

تأجيراً طويل الأمد. ولم يصادف هذا التدبير آنذاك تعاطفاً كبيراً فالسكنى على شط العرب لم تكن آنذاك آمنة من القراصنة لذا فقد توقف السكن في مقام علي في عهد الولاة الذين أعقبوا مدحت باشا مباشرة وعلى الأخص في عهد ناصر باشا المنتفكي [1] الذي عمد بعد أن وضع على رأس ولاية البصرة التي فصلت عن بغداد خصيصاً له على إعادة « القوناق » إلى البصرة وأصدر أمراً مشدداً لسكان البصرة يمنعهم فيه من السكن خارج حدود المدينة ، غير أنه لم يمض إلا ما يزيد على ربع قرن بقليل حتى استطاعت مقام علي التي بدا كما لو أنها هجرت خلال هذه المدة القصيرة نسبياً ، أن تنمو وتصبح مدينة كاملة يقطنها 15 ألف نسمة. وهكذا حقق الزمن ما تنبأ به مدحت باشا بشأن المستقبل الذي ينتظر الضاحية المذكورة ، حيث تتركز فيها الآن بفضل قربها من شط العرب كل حركة ميناء البصرة وقد استقر فيها لهذا السبب كل الأشخاص والمؤسسات الذين يرتبط نشاطهم بالميناء بشكل مباشر.

تقع في مقام علي حالياً الترسانة البحرية وورشة تصليح محركات السفن والمدافع والأسلحة الملحقة بها ، وكذلك إدارة الميناء ودائرة الكمارك ودائرة الحجر الصحي ومكتب الكومودور [2] أو قائد الأسطول الحربي العثماني الصغير الحجيم ، ومكاتب شركات الملاحة العثمانية والأجنبية وأخيراً ثكنات لأربع كتائب مشاة وكتيبة واحدة من جنود البحرية. وعلى الضفة اليسرى لقناة العشار عند مصبها [3] في شط العرب

(1) يقصد المؤلف ناصر باشا السعدون ـ المترجم.
(2) يسمى بالتركية قبودان ـ المترجم.
(3) الصحيح عند تفرعها من شط العرب ـ المترجم.

تقع بطارية مدفعية بنيت منشآتها من الطين وسعف النخيل ويقيم فيها جنود المدفعية ويقوم هناك أيضاً « فوناق » مدحت باشا المهجور. وعلى الضفة اليمنى المقابلة من العشار تقوم خلف دائرة الكمارك في الهواء الطلق ترسانة لصنع القوارب المسطحة القاع أو « الأبلام » لنقل المسافرين

وكذلك السفن الأكبر حجماً لنقل البضائع. ويتصل بدائرة الكمارك والترسانة سوق ضاحية مقام علي الذي يچشتمل على اكثر من أربعمائة دكان ، وعند بداية السوق بالضبط يقوم فوق العشار جسر مكوّن من الجذوع والألواح يؤلف مع جسر آخر يشبهه في مظهره البسيط ويقوم على قناة الخندق ، أكثر المنشآت من هذا النوع ضخامة في البصرة التي تتخللها القنوات.

وعلى أية حال ليست هذه الجسور البسيطة فقط وإنما أيضاً أي جذع نخلة يلقى على القناة بحيث يربط ضفتيها أحداهما بالأخرى ، يعتبر ترفاً لا مبرر له بالنسبة للطبقات الفقيرة من السكان التي يفضل أفرادها أن يعبروا القناة خوضاً أو سباحة بعد أن يتعروا مسبقاً ويضعوا ملابسهم على رؤوسهم.

وتعتبر جميع البيوت والمباني الواقعة على الضفة اليمنى لشط العرب والتي تحتل الموضع الذي كانت تشغله قرية المنياوي قبل ذلك ، من ضمن مقام علي. وجميع البيانات هناك تقريباً هي إما ملك للشركات التجارية الأنجليزية أو مستأجرة من قبلها ، تلك الشركات التي انتقلت إلى هناك منذ وقت قريب أي بعد أن أستوطنت مقام علي لكي تكون على مقربة من الميناء. فقد كان الأوروبيون قبل ذلك يسكنون في موضع يقال له ماركيل [1] أو

(1) ماركيل اسم يطلق في بعض الأحيان على المعقل ـ المترجم.

كوت أفرنجي يقع على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد ست فرستات إلى الأعلى من مدينة البصرة ، وهناك كانت توجد أيضاً القنصلية البريطانية التي تشغل الآن عمارة رائعة تمتلكها على ضفة شط العرب.

ويقوم حالياً في ماركيل حوض جاف وورشة تعود لشركة الملاحة الانجليزية (Lyncn Brothers) [1] التي أطلق عليها اسم آخر هو : Euphrates (and Tigris Steam Navigation) [2] والبناء الوحيد القائم على الضفة اليسرى لشط العرب المقابلة لمقام علي هو بناية المستشفى العسكري البحري الذي يتألف من طابقين ويضم ستين سريراً. إن عدم وجود مبانٍ أخرى في هذا المكان يفسر من ناحية بأن شط العرب العظيم الاتساع في هذا الموضوع يفصله تماماً عن المدينة ومن ناحية أخرى بانعدام أي حماية مهما كانت لسكان تلك المنطقة ضد هجمات اللصوص من الأعراب. أما إنشاء المستشفى في هذا المكان الخالي فقد حتمته الظروف المناخية الجيدة فيه بالمقارنة مع الضفة المقابلة وذلك بفضل انعدام المياه الراكدة في الجوار بحيث أن الكثير من أهالي البصرة من ذوي الدخل المتوسط ينتقلون في الصيف ، بهدف تحسين صحتهم إلى قرية گردلان الواقعة إلى الأعلى قليلاً م المستشفى على قناة تحمل نفس الاسم. ويعلل البصريون أنفسهم بأمل مفاده أنه بعد مد سكة حديد بغداد من الزبير إلى البصرة سيقام على شط العرب جسر سيؤدي إلى ازدياد السكن في ضفة شط العرب المقابلة فتتكون مع الوقت ضاحية لا تقل ازدهاراً عن مقام علي.

وتعتبر بلدة الزبير من ضواحي البصرة وهي تبعد عنها بما لا يقل عن

---

(1) الأخوان لنج ـ المترجم.
(2) شركة الفرات ودجلة للملاحة البخارية ـ المترجم.

ثلاث ساعات سيراً في الصحراء. لقد نشأت الزبير كما أشرنا إلى ذلك سابقاً على انقاض البصرة القديمة في بداية القرن الثامن عشر وهي مدينة بظهورها لوجود ضريحي الصحابيين طلحة والزبير هناك. وقد مات [1] الاثنان أثناء الصراع على السلطة مع على رابع الخلفاء الراشدين [2]، ولا يمجد ذكراهما بعد أن انقسم المسلمون إلى سنة وشيعة إلا الفريق الأول أي السنة لأن أفراد الفريق الثاني لا يستطيعون، باعتبارهم انصار علي وآل
بيته، أن يقفوا من طلحة والزبير إلا موقف العداء، وقد استمرت كراهية الشيعة لهذين الصحابيين السنيين قروناً طويلة، حتى أنه عندما حاصر نادر شاه البصرة في عام 1743 قام جنوده الشيعة بهدم جميع المساجد القائمة في الزبير ولم يعد بناؤها إلّا بعد مرور وقت غير قصير على ذلك. وقد ظلت الزبير بسبب هذا الشقاق الديني حتى الوقت الحاضر بلدة سنية صرف يثابر الشيعة على تجنبها [3].

ولا يقل عدد سكان الزبير في الوقت الحاضر عن ستة آلاف نسمة أغلبهم من الموسرين بسبب الكسب الكبير الذي يجنونه من تهريب البضائع. ويبدو كما لو أن موقع الزبير يشجع سكانها على هذا العمل فهي تقع على مجرى الفرات القديم جري زادة الصالح للملاحة لمدة ثمانية أشهر من السنة والذي تؤدي إلى مصبه قناتان تكونهما في البحر جزيرة

---

(1) للدقة يقال قتل الاثنان فالأول قتله مروان بن الحكم برميه سهم والثاني الذي كان ضمن جيشه قتله عمرو بن جرموز بضربة سيف وقد كان القاتل معتزلاً للحرب والمقتول منسحباً من ساحتها اعتزالاً ايضاً. حميد الدراجي.

(2) أنظر تفصيلات هذا الصراع في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(3) K. Ritter. Op. cist T. VII , AbtII S. 1046 FF.

بوبيان هما خور عبد الله وخور عسابي الصالحان لسير السفن بما في ذلك ذات الغاطس الكبير [1] وهكذا ينزل التجار الراغبون في تجنب كمارك البصرة بضائعهم في الكويت عادة ومن هناك وبعد أن يدفعوا لشيخ الكويت ضريبة مقدارها 2% ينقلونها بالطرق المائية المذكورة وبسفن شراعية عربية إلى الزبير التي يقوم سكانها بعد ذلك بتهريبها إلى جميع أنحاء العراق.

وتعتبر العمارة المدينة الثانية في العراق الأدنى بعد البصرة وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة على بعد 170 كم تقريباً أعلى مدينة البصرة.

ولا يزيد عمر العمارة عن نصف قرن ذلك أن تأسيسها يعود إلى عام 1836

وسببه النزاع بين قبيلتي بني لام وألبو محمد العربيتين القاطنتين في سنجق العمارة ، ذلك النزاع الذي أشاع في البلاد فوضى حقيقية [2] ، فعمد والي بغداد آنذاك محمد نامق باشا الذي كانت تخضع له كل تلك المنطقة وبهدف إعادة النظام ، إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة محمد بيك ديار بكرلي ضد العرب الثائرين ، وقد استطاع هذا الأخير أن يحرز على الثوار نصراً حاسماً في الموضع الذي تقع فيه العمارة حالياً فرأى بأنه من الضروري أن يرابط هناك إلى أن يهدأ البلد نهائياً فبنى ثكنة عسكرية موقتة لقواته وأقام أبنية من الطين له ولأركان حربه [3]. فبدأ رجال العمل يتقاطرون على هذا المعسكر الحربي من جميع أنحاء العراق ووضعوا باستقرارهم هناك أساساً لبلدة سميت في البداية الأوردي أن المعسكر.

---

(1) H. J. Whigam , op. sit. P. 107.

(2) T. M. Lycklama Nijeholt : op. cist. T. III. Pp. 80. 227 - 231.

(3) V. Cuinet , op cit. T. III. P. 280.

وقد نما هذا الموضع المأهول الجديد الذي كان في البداية مجرد قاعدة عسكرية تستخدمها تركيا لإخضاع القبائل العربية في المنطقة ، بسرعة وتحول إلى مدينة يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة وأصبح أسمها العمارة.

وتدين العمارة في تطورها لموقعها الممتاز ذلك أنها بسبب من وقوعها على بعد لا يزيد عن خمسين كيلومتراً عن قرى لورستان الحدودية ولا يتعدى بضعة ايام من سير القوافل عن المدن الفارسية شوستر ودزفول والحويزة ، أصبحت المجهز لكل منطقة الحدود هذه بالبضائع الأوربية التي تنقلها إليها السفن الإنجليزية والعثمانية التي اقامت لها خطوطاً ملاحية منتظمة في دجلة. ولقد أصاب افتتاح الملاحة في نهر الكارون الأزدهار التجاري للعمارة بضرر كبير إذ اقتطع منها أسواق خوزستان ولم يبق لها إلا التجارة النشيطة مع لورستان ومع القبائل العربية المنتقلة في الجوار.

وتبدو العمارة للناظر من سطح السفينة جميلة وذلك بفضل كورنيشها الذي تمتد عليه في خط واحد بيوت تتألف من طابقين مبنية بالأجر وتقسمها إلى أحياء منفصلة عدة شوارع عريضة ومستقيمة انّ هذه الواجهة الجميلة تبدو كما لو أنها ديكور يخفي وراءه العمارة الحقيقية بأبنيتها الطينية وصرائفها وبساتينها وحقولها المحروثة.

ويتألف سنجق العمارة التي تكون المدينة التي وصفناها قبل قليل مركزه الإداري من قسمين أحدهما عبارة عن صحراء والآخر اهوار وتسكن في هذا الأخير قبائل عربية تشتغل بالأساس بتربية الماشية وزراعة الرز في الأهوار. لذا فليس هناك ما يدهش ، في ظل مثل هذه الظروف ، في إننا لا نجد في هذا السنجق مدناً أخرى إلى جانب العمارة ، بل حتى عدد القرى والمدن الصغيرة محدود إلى درجة بحيث لا توجد في الأقضية

الثلاثة التي يتألف منها هذا السنجق وهي الزبير ودويريج وشطرة العمارة ،
نواحي وهي عادة تزداد كلما زاد عدد السكان الحضر في المنطقة. وهكذا فباستثناء قضاء شطرة العمارة التي تاسست في ثمانينات القرن السابق في الموضع الذي يقوم به الحصن العربي قلعة صالح وهو الحصن الذي كان مقراً لشيخ مشايخ البو محمد ، وكذلك قرية مسيعيدة في قضاء الزبير فإن الأماكن الوحيدة التي تستحق الذكر هي المزارات التي يؤمها الناس للزيارة.

ومن بين هذه المزارات هناك إثنان خاصان بالشيعة الذين يؤلفون ثلاثة أرباع سكان العراق الجنوبي هما علي الشرقي وعلي الغربي [1] يقع الأول منهما على بعد 40 كم إلى الشمال الغربي من مدينة العمارة على الضفة اليسرى لنهر دجلة وقد أطلق عليه إسم الشرقي تمييزاً له عن الثاني الواقع على الضفة اليمنى أي الغربية من النهر. ويدفن في علي الشرقي على
ما تذكره الروايات الماثورة علي الشاكي إبن الإمام الكاظم وحفيد الإمام موسى [2] ، وقد شيد على قبره ضريح ذو قبة. وتوجد بالقرب من الضريح

(1) ي. أيز تشيريكوف ، سجل الطريق ، بغشراف أز كمازوفو الجمعية الجغرافية الروسية ، قسم غرب القفقاس ، الكتاب التاسع ص 45 [بالروسية].

(2) لقد اختلط الأمر على المؤلف فالإمام الكاظم هو نفسه الإمام موسى كما هو معروف. أما عن علي الشرقي فيذكر السيد محمد حرز الدين في الصفحات 84 ــ 87 من « مراقد المعارف ، النجف 1971 » بأنه علي بن محمد بن موسى بن عبد الله الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأما علي الغربي فهو علي الغراب بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن زيد بن علي بن محمد بن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب « المصدر نفسه ص 82 - 83 » - المترجم.

قلعة صغيرة يحيطها سور من الطين وتتخذ مقراً للمسؤول التركي والقلة من الجندرمة التابعين له. وجميع أهل البلدة الذين يبلغ عددهم الفي نسمة يعيشون في بيوت من الطين منتشرة حول القلعة. أما مزار علي الغربي الذي تقول المآثر أن جثة علي الشاكي قد غسلت فيه بعد موته فإنه يقع على بعد 45 كم تقريباً علي الشمال الغربي من على الشرقي. ويسكن في تلك البلدة الكثيرة النشاط حوالي الفي نسمة يشتغل أغلبهم بالتجارة الصغيرة أو كوكلاء لتجار بغداد لمبادلة المنتجات الحيوانية التي يجلبها إلى هناك عرب بني لام بمنتجات الصناعة الأوربية التي أصبح الرحّل المذكورون يستخدمونها في اقتصادهم البسيط.

والمزار الثالث الذي يستحق الذكر هو ضريح النبي عزرا (العزير) الواقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة في منتصف الطريق تقريباً بين القرنة وشطرة العمارة. والعزير لا يحظى بتقديس اليهود فقط بل والمسلمين أيضاً. وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين اليهود يؤكدون بأن قبر النبي عزرا هو في القدس ، إلا أن اليهود العراقيين لا يشكون في صحة القبر الموجود عندهم وهم يستندون في ذلك على التلمود الذي يذكر أن الموت داهم عزرا في بلدة زمزوم على دجلة وهو في طريقة إلى سوسة. وتذكر الرواية التي أوردها (W. Ainsworth) [(1)] أن النبي عزرا كان قد دفن في البداية في المحل الذي مات فيه قبل أوانه ، وبعد أن أهمل قبره وتحول بالتدريج إلى تل من الخرائب فرض السلطان نفسه على الطائفة اليهودية في العراق أن تنقل رفاته إلى الموضع الذي يرقد فيه الآن وأن تبني له ضريحاً فيه. وعندما أخذ هذا الضريح يتهدم ، أهتم والي بغداد أحمد باشا

A personal Narrative Of the Enphrates expedition. London 1888 Vol. II. (1) .P. 455

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بإعادة بناء القبر وأقام عليه ضريحاً جديداً يتألف من قبة من القاشاني الأزرق. ولكن الضريح تهدم في 1904 فأعيد بناؤه مرة أخرى. وقد ألحقت بالضريح بناية تتألف من طابقين تحوي أماكن للنزلاء ، وخلف السياج الذي يحيط بالضريح وبالبناية المخصصة لاستقبال الغرباء قامت بلدة كاملة تعيش بشكل كلي على الزوار الذين يؤمون الضريح.

ومع ذلك فإن عدد الزوار لا يتناسب مع المكانة التي يحتلها النبي عزرا عند اليهود الذين يدينون له بالمحافظة على كيانهم. فقانون موسى كان قد وحد كما هو معروف اليهود آنذاك ومنع تفككهم ولكن هذه الرابطة بدأت تضعف بالتدريج نتيجة لتراجع اليهود المتزايد عن الالتزام الدقيق بتعاليم التوراة ، وإلى عزرا يعود شرف إعادة قانون موسى في نقائه الأول بين اليهود الموجودين في بابل أولاً ثم بين شركائه في العقيدة في القدس بعد ذلك حيث حرم التزاوج مع الكنعانيين فتلافى بذلك في الوقت المناسب ما كان قد بدأ قبل ذلك من تمثيل اليهود من قبل هؤلاء الأخيرين [(1)].

ولم يبق ، لكي ننتهي من وصف سنجق العمارة ، إلا أن نقول بأن قيام « إدارة الضياع السلطانية » أو ما يسمى بـ « الأراضي السنية » هناك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي المؤسسة التي احتكرت أراضي مزروعة واسعة في السنجق ، يمكن اعتباره بداية لتهدئة المنطقة. فالقبائل المحلية القليلة التحضر والحربية النزعة جذبتها الإدارة المذكورة إلى الاشتغال بالعمل الزراعي وذلك بفضل تأجير الضياع السلطانية إلى شيوخها الذين أصبحوا في الوقت نفسه موظفين حكوميين عثمانيين أي قائمقامين

(1) Lenormant , Histoire ancenne de I , orient T. VI. P. 322 FF.

ومديرين وما أشبه فأخذوا على عاتقهم بحكم ذلك مسؤولية المحافظة على الهدوء والنظام.

ويتأخم سنجق المنتفك سنجق العمارة وهو يشمل كلّ المجرى الأسفل لنهر الفرات من بلدة المدينة الواقعة بالقرب من القرنة إلى حصن قلعة الدراج الواقعة على حدود ولاية بغداد حيث يتوغل السنجق المذكور في هذه الأخير عميقاً ممتداً على طول قناة شط الحي حتى مصبها [1] في نهر دجلة عند كوت الأمارة. وهكذا يشمل سنجق المنتفك جميع الأراضي التي يقطنها عرب المنتفك الذين أصبحت الزراعة عندهم ، بالمقارنة مع القبائل العربية الأخرى في العراق أول حقوق المواطنة وذلك لأن التربة السوداء تغلب في المنطقة التي يقطنونها على الأهوار والصحراء ، فهذه الأخيرة أي الصحراء لا تلاحظ إلا على ضفة الفرات اليمنى حيث تتصل حدود سنجق المنتفك بالصحراء السورية ، في حين لا تشغل الأهوار والمستنقعات ، إذا استثنينا مستنقعات لملون [2] الواقعة خارج حدود السنجق ، مناطق واسعة إلّا في القسم الجنوبي من السنجق المذكور ابتداءً من سوق الشيوخ. لذا فإن ظروف الاشتغال بالزراعة تكون في جميع أنحاء سنجق المنتفك الأخرى مناسبة جداً بحيث ان انتقال سكان المنتفك من حالة التنقل إلى التحضر يحصل أسرع منه عند القبائل العراقية الأخرى.

والناصرية هي المدينة الرئيسية في السنجق [3] ، وتقع على الضفة اليسرى للفرات عند مصب شط الحي فيه. على بعد 140 كم تقريباً كخط

(1) لا يصب شط الحي أو الغراف في دجلة بل يأخذ مياهه منه ـ المترجم.

(2) الصحيح لملوم ـ المترجم.

(3) Demis de Eivoyre Les veais arabst et leur pays Pays Paris 1884. P. 167. FF.

مستقيم إلى الجنوب الغربي من العمارة و 170 كم إلى الغرب من البصرة. والناصرية كالعمارة مدينة حديثة.

وهي تدين بقيامها في سبعينيات القرن التاسع عشر لناصر باشا الشيخ المشهور من عائلة السعدون ، فلقد حصل مدحت باشا وإلى بغداد آنذاك رغبة منه في استمالة الشيخ المذكور وتهدئة المنطقة نهائياً وترسيخ سلطته عن طريقه ، على موافقة اسطنبول على فصل الأراضي التي يقطنها المنتفكيون وجعلها منطقة قائمة بذاتها يوضع على رأسها الشيخ ناصر الذي في الوقت نفسه على لقب باشا ورتبة متصرف عثماني. وقد قرر المدير الجديد أن يؤسس مدينة جديدة لتكون مقراً له فحاول أن يجد لها موضعاً ملائماً للمحافظة على طاعة المنطقة التابعة له وكذلك لصد هجمات القبائل المعادية للمنتفكين وخصوصاً الشمريين الذين كانوا يتنقلون في اطراف المناطق الشمالية لولاية بغداد. وبعد أن بنى ناصر باشا في المكان الذي اختاره قلعة واسعة وحصينة وألحق بها ثكنات بدأ بتشييد مدينة جديدة حولها سميت « الناصرية » نسبة لمؤسسها. أن تخطيط المدينة بل وحتى بناء الكثير من عماراتها كما تشير الشائعات ، هو من عمل مهندس بلجيكي وذلك ما جعل الناصرية بسوقها الواسع وبيوتها وشوارعها العريضة أحسن من أية مدينة أخرى على الفرات فهي تعطي للأوروبي أجود أنطباع.

وتقارن هذه المدينة التي بلغ عدد القاطنين فيها بعد سنتين من تأسيسها أربعة آلاف نسمة ، حالياً بالعمارة من حيث عدد سكانها الذين يتألفون إضافة إلى العرب والصابئة أو المسيحيين من أتباع يوحنا المعمدان [1] من جالية يهودية كثيرة العدد ، الأمر الذي يشير إلى أهمية الناصرية من الناحية

(1) أنظر عنهم الفصل الخامس من هذا الكتاب.

التجارية. فالواقع أن كثافة اليهود تزداد في مدن ولاية البصرة ومناطقها المأهولة بمقدار ما تزداد أهمية هذه المدن أو المناطق من الناحية التجارية ولهذا فإننا نجد الطائفة اليهودية في العمارة وشطرة العمارة وسوق الشيوخ وشطرة المنتفك والحي والكويت إلى جانب البصرة نفسها والناصرية. وتحتل الناصرية مكانة بارزة في التجارة باعتبارها مركزاً لشراء الخامات من جميع أنحاء السنجق وعلى الأخص الحبوب التي تكثر في المنطقة التي يرويها شط الحي.

أما عن القلعة التي بناها ناصر باشا فإنها ظلت غير مأهولة لوقت طويل ذلك أن الشيخ نفسه في زياراته للناصرية كان يتجنب التوقف فيها مفضلاً العيش في خيمة تُضرب له خارج سور القلعة. أما ابنه فالح الذي عُينّ متصرفاً لسنجق المنتفك فقد سكن في الناصرية واختار القلعة لتكون مقراً له حيث أقام فيها دون أن يتركها حتى ثورته على الحكومة العثمانية عام 1882 واضطراره للهرب. ومنذ ذلك الوقت تقلص نفوذ أل سعدون كثيراً وتحولت الناصرية من مقر لشيخ مشايخ المنتفك إلى مدينة عربية عادية يديرها الأتراك.

لقد تزامن ازدهار الناصرية مع تضاؤل المركز التجاري السابق سوق الشيوخ التي ظل البدو حتى ذلك الوقت يتقاطرون عليها لا من مناطق العراق العربي المجاورة فحسب وإنما من البلدان البعيدة أيضاً كالكويت ونجد وصحراء شمال شبه جزيرة العرب.

لقد قام أحد شيوخ المنتفك قبل مائتي سنة ببناء سوق الشيوخ على الضفة اليمنى أي الغربية من الفرات في منتصف الطريق تقريباً بين القرنة ومصب شط الحي في الفرات. ثم أخذت المدينة بالنمو بسرعة فامتدت وأصبح محيطها خمسة أميال وعدد سكانها يزيد على 000 ، 10 نسمة.

وعندما اجتاح الطاعون في 1831 العراق بأجمعه وجه أول ضربة لرفاهية هذا المركز التجاري العربي الصرف. ومنذ ذلك الوقت بدأت المدينة بالتدهور إلى أن حولتها منافسة الناصرية إلى وضعها الحالي كبلدة فقيرة ذات شوارع ضيقة متعرجة تغطيها البرك النتنة ومختلف أنواع القاذورات يقل عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة.

وما سوق الشيوخ حالياً إلا شبيه تافه للسوق المزدهر السابق الذي كان البدوي يستطيع أن يجد فيه كل ما هو ضروري ابتداءاً من السلاح الأبيض والأسلحة النارية والبارود والسروج ، وانتهاءاً بالرز والشعير والدخن والمصنوعات الأوربية والبن ومختلف الأواني البسيطة وما شابه ذلك من البضائع. وكانت التجارة هناك تجري عن طريق المقايضة أي أن البدو كانوا ، في مقابل البضائع التي يحتاجونها ، يقدمون الماشية والخيل والمنتجات الحيوانية كالصوف والجبن والجلود وما أشبه. وكان شراء المسروقات والأشياء التي تقع في أيدي البدو عند سلبهم للقوافل التجارية أو للمسافرين الانفراديين بشكل عام فرعاً مزدهراً من فروع التجارة المحلية بحيث أن أي أوروبي يسلبه العرب في الصحراء كان يستطيع وبشكل مؤكد تقريباً أن يعيد شراء أغلبية أشيائه التي فقدها في دكاكين سوق الشيخ.

وتشتهر سوق الشيخ ، بالإضافة لتجارتها المزدهرة مع البدو ، بكونها أيضاً مقراً للرئيس الديني لطائفة تسكن بعض مدن العراق العربي وتعرف باسم الصائبة [1].

وقد سكنت بضع مئات من عوائلهم حول مسكن أسقفهم فكونوا

---

(1) أنظر تفاصيل عنها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

قرية خاصة على ضفة الفرات المقابلة لسوق الشيوخ.

وتقع سوق الشيوخ وضواحيها وسط بساتين النخيل التي تغطي بشكل كلي تقريباً ضفتي نهر الفرات كلتيهما ضمن حدود سنجق المنتفك وتتحول إلى غابات نخيل حقيقية حول القرى العربية الكثيرة المنتشرة على جانبي النهر. وتقطع أحراج النخيل هذه إلى الشمال من سوق الشيوخ من حين لآخر شرائط من الأراضي الصحراوية. أما إلى الجنوب منها فإن تلك الأحراج تتداخل مع أدغال القصب التي تكون سوراً عالياً يخفي وراءه المناطق المتاخمة للنهر. وفي الأماكن التي تقطع فيها هذا السياج الطبيعي بعض القنوات كبيرة كانت أو صغيرة ينفتح من خلال الفجوات التي تكونها هذه القنوات مشهد تتراءى فيه قرى عربية صغيرة بيوتها من الصرائف أو أكواخ القصب ، يحيطها سياج مشترك من القصب.

وتعتبر كوت الشيخ أو قلعة الشيوخ [1] ، قرية من القصب من هذا النوع وإن كانت أكبر في حجمها ، وهي تقع على بعد عشرة أميال إلى الأعلى من سوق الشيوخ صعوداً مع الفرات ، وهي تقع على بعد عشرة أميال إلى الأعلى من سوق الشيوخ صعوداً مع الفرات. وكانت هذه القرية قبل تأسيس الناصرية وبناء قصر آل السعدون الواسع فيها ، مقراً لشيخ المشايخ أو الزعيم الرئيس لعشائر المنتفك وحاشيته كثيرة العدد والمقربين منه وكذلك لزعماء جميع القبائل الداخلة في هذا الاتحاد القبلي وهكذا كانت كوت الشيوخ تبدو كمعسكر ضخم للبدو الذين يأوون إلى أكواخ من القصب بدلاً من الخيام وذلك على الرغم من أن تفاعل الألوان في الصورة يخل به منظر بعض الأبنية الطينية التي أنشأت للوقاية من الحرائق

---

(1) K. Ritter. Op. cit. T. VII Abt. 2. S.1000.

أو لكي تستخدم كمخازن للحبوب ولمختلف الاحتياجات.

وتقع سوق الشيوخ على بعد 40 كم إلى الأسفل من الناصرية وهذه بدورها تقع على نفس المسافة من العبد إلى الجنوب من مدينة شطرة المنتفك الواقعة على شط الحي ومعناه « النهر الثعباني » وهو اسم أطلق عليه بسبب كثرة التعرجات في مجراه [1].

وتدين شطرة المنتفك بقيامها لضريح أحد الأولياء المسلمين الذي يقع غير بعيد عن المدينة الحالية ، فقد كان هذا الضريح يجذب منذ القدم الكثير من الزوار فنمت بسبب ذلك بالقرب من المزار قرية صغيرة. ولم يكن لهذه القرية الواقعة على بعد بضعة كيلومترات عن شط الحي على فرع شبه جاف منه ، أهمية تجارية كبيرة وظلت تحيا حياة تعسة إلى أن كلف ناصر باشا في نفس الوقت الذي بنيت فيه الناصرية ، واحداً من الذين يثق بهم وهو مسيحي من بغداد اسمه نعوم سركيس بنقل بلدة شطرة المنتفك إلى شط الحي نفسه. وقد وضع للمدينة الجديدة مخطط بني بموجبة على ضفة شط الحي نفسها سوق وشقت شوارع واقيمت كل البنايات العامة الضرورية كالثكنة والقوناق وما أشبه. وقد استوطنت المدينة الجديدة التي تشبه في مظهرها الخارجي الناصرية كثيراً بسرعة حيث لم يسكنها سكان القرية السابقة فقط وإنما استقر فيها ايضاً ناس من خارج المنطقة بحيث بلغ عدد سكانها بعد عشرين سنة خمسة آلاف نسمة. ويفسر هذا النمو السريع بالنسبة للعراق العربي ، الذي أصاب شطرة المنتفك بالأفضليات التي يتمتع بها موقعها الجديد الكائن على قناة صالحة للملاحة تجري في واحد من أكثر اجزاء العراق العربي خصوبة وتصب في

.Denis de Rivoyre , op cit. p. 239 (1)

نهر الفرات وهو الشريان الرئيسي الذي تنقل بواسطته إلى البصرة جميع الغلال المعدة للتصدير إلى الخارج.

وهناك مدينتان آخريتان تنافسان شطرة المنتفك في المجال التجاري تقعان على شط الحي أيضاً ولكن إلى الشرق قليلاً هما مدينة الحي التي يبلغ عدد سكانها 5000 نسمة وبلدة قلعة سكر الصغيرة التي تلعب دوراً بارزاً في التجارة المحلية على الرغم من أن عدد سكانها لا يزيد عن 2000 نسمة وذلك بفضل وقوعها في منتصف الطريق بين الشطرة والحي.

ويوجد على بعد 70 فرستاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة الحي ضريح السيد أحمد الرفاعي [1] المتوفى في عام 1182 م والذي يعتبر مؤسس الطريقة الدرويشية التي تعرف باسمه. فأفراد الطريقة الرفاعية يقيمون حلقات ذكر علنية يعمدون في أثنائها وبعد أن يصلوا إلى حالة النشوة الروحية بسبب الدوران الذي يدير الرأس ، على ضرب أنفسهم بالخناجر والسكاكين والسلاح الأبيض عموماً. وتؤكد المآثر السائدة بينهم بأن علياً نفسه صهر النبي محمد قد حصن السيد أحمد الرفاعي من ضرر كل الأدوات التي تستخدم للقطع أو الطعن. وقد نقل هذا الأخير بدوره هذه القوة الخارقة إلى أتباعه. وكان من بين أتباع هذه الطريقة السلطان عبد الحميد الذي توارى حالياً عن مسرح التاريخ.

ويظل وصف سنجق المنتفك ناقصاً إذا لم نشر ولو بكلمات عابرة على أطلال المدن القديمة الموجودة فيه ، فأطلال واسط القديمة التي أسست في نهاية القرن السابع الميلادي تقوم على شط الحي في منتصف المسافة تقريباً بين قلعة سكر والحي ، كما تقع بالقرب من شطرة المنتفك

K. Ritter , op. cit. T. VII Abt. I. S. 279.(1)

أطـلال سـرتيلا أو سـيبورلا [1] السـابقة علـى بابـل ونينـوى التـي اكتشـفها القنصـل
الفرنسي في البصرة السيد (de SarZec) في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وأخيراً ينتصب شامخاً على ضفة الفرات المقابلة لمدينة الناصرية على مسافة لا تزيد عن ساعي سفر ركوباً تل يسميه العرب المقير يضم بقايا مدينة أور موطن إبراهيم. وتشير المعلومات التي اودها كارل رتر [2] إلى أن
المثلث المحصور بين سوق الشيوخ وشط الحي والديوانية هو أغنى منطقة في العراق العربي والغني أصلاً بالآثار القديمة ، بالتلال التي تخفي في باطنها آثار العالم القديم ، الأمر الذي يشير إلى التطور الحضاري السابق الرفيع لهذه المنطقة وإلى كثرة سكانها.

ولا يمتد سنجقا العمارة والمنتفك اللذان جرى وصفهما أعلاه واللذان يشملان كل المجرى الأدنى لنهري الفرات ودجلة ، إلى الموضع الذي يلتقي فيه هذان النهران ذلك أن اللسان الأرضي الذي يتكون هناك يحتله قضاء القرنة وهو أبعد أقضية سنجق البصرة باتجاه الشمال بحيث يدخل كالأسفين في السنجقين المذكورين.

وقضاء القرنة عبارة عن مستنقع واسع يحوي مساحات صغيرة من اليابسة يسكنها الأعراب الذين يربون الجاموس ولا توجد فيه أماكن تستحق الذكر فيما عدا القرنة نفسها. وهذه الأخيرة تقع على بعد 70 فرستاً إلى الأعلى من البصرة وعلى نفس البعد تقريباً من كل من سوق الشيوخ على الفرات والعمارة على دجلة تبدو كقرية كبيرة لكنها رغم ذلك شهدت في السابق أوقاتاً أفضل ، فقد تأسست القرنة حسب المعلومات التي أوردها

(1) هي مدينة لكش القديمة ـ المترجم.
(2) K. Ritter : op. cit. T. VI Abt. 2. S. 963 FF.

نيبور [1] في بداية القرن الثامن عشر [2] كحصن ضد الفرس ولذا فإنها أحيطت بسور مزدوج وترابط فيها باستمرار حامية لا يستهان بها. وهكذا نرى أن الموقع الستراتيجي للقرنة قد جرى تقييمه منذ ذلك الوقت ذلك أنها تسيطر على وادي دجلة والفرات فتكوّن بذلك خطاً دفاعياً جديداً يضاف إلى دلتا شط العرب ولكنه يتميز عنها في أن جناحه لا تهدده أية محمرة كما هي الحالة بالنسبة لحصن الفاو.

لقد دمر طاعون 1831 المخيف وفيضان الفرات غير المعتاد بحيث ارتفع مستوى المياه في النهر في السنة نفسها بمقدار 27 قدماً أكثر من مستواها الاعتيادي ، كل المنطقة الواقعة بين البصرة وبغداد فتخربت القرنة تماماً بحيث لم يجد فيها (J. R. Wellsted) [3] في عام 1836 إلّا أكواخاً من القصب لا يزيد عددها عن 30 - 40 كوخاً يسكنها جميعاً أناس غرباء هم بالدرجة الأولى الموظفون الأتراك. ومنذ ذلك الوقت أخذت القرنة تعود بعض الشيء على حالتها الأولى إلى أن أصبح يسكنها حالياً ما بين 2000 و 3000 نسمة كما قامت فيها إلى جانب أكواخ القصب أو الصرائف بنايات من الأجر يشغلها « القوناق » أي مكتب القائمقام ومحطة التلغراف ودائرة الكمارك وغيرها من المؤسسات العامة.

---

(1) Reisebes Chribung nach Arabien und undern umliegendenden Iandern. Kopenhagen. 1778. T. II. S. 248.

(2) لقد ورد ذكر القرنة على لسان السواح في القرن السادس عشر ، ويؤكد المؤلف نفسه بشكل غير مباشر بأن القرنة كانت موجودة قبل هذا التاريخ عندما يذكر في الصفحة القادمة بأن البرتغاليين فيها محطة تجارية في القرن السابع عشر - المترجم.

(3) Teavels To The City of Caliphs. London. 1840. Vol. l. pp. 156. 157.

وللقرنة إلى جانب موقعها الستراتيجي الجيد أهمية تجارية وذلك بفضل صلاحية شط العرب لسير السفن البحرية الكبيرة حتى نقطة التقاء دجلة والفرات.

ولهذا فبمجرد أن تاسست القرنة اتخذت دور المركز الذي تتجمع فيه البضائع القادمة عن طريق الخليج ومنه تتوزع على المناطق المتاخمة لضفاف أعظم نهرين في مقدمة آسيا ، وذلك كما كان الحال تماماً في منتصف القرن السابع عشر عندما أقام البرتغاليون هناك محطة تجارية لهم ظلت أطلالها قائمة حتى بداية القرن السابق [1].

ولا يمكننا أن نصف القرنة وصفاً كاملاً دون أن نذكر الأسطورة التي تقول بأنها تقع في الموضع الذي كانت تقوم به جنة أجدادنا. ولتأكيد ذلك يقوم سكان القرنة باطلاع الرحالة المحبين للاستطلاع على « شجرة إدراك الخير والشر » [2] وهي عبارة عن شجرة طلح عربية قديمة تقوم على الضفة اليمنى لنهر دجلة بعيداً بعض الشيء عن بساتين النخيل المحلية [3].

وتقطع ضفتي شط العرب كلتيهما من القرنة حتى الفاو قنوات متوازية تأخذ مياهها من النهر وتتوغل في داخل البلد لمسافة تتراوح بين فرستين وثلاث فرستات.

ويصل عدد هذه القنوات إلى ستين قناة لكل منها اسم خاص وتقوم كل منها بدوره بتوزيع المياه على عدد كبير من القنوات والسواقي الصغيرة التي تتفرع من كلا جانبيها فتغطي المنطقة المتاخمة للنهر بأجمعها كالشبكة

---

(1) Description du Paghalik de Baghdad Par M. (Rousseau). Paris 1809 P. 40.

(2) لابد أن المؤلف يقصد ما يسمى بـ "شجرة آدم" ـ المترجم.

(3) Denis de Rivoyre : Op. Cit. P. 117.

الكثيفة ولا يبقى في ظل هذا النظام أي جزء من اليابسة دون إرواء ، لذلك إنتشرت بساتين النخيل التي تحتاج إلى تربة رطبة على شكل غابات واسعة وكثيفة على طول هذ القنوات. وبفضل هذه النبتة الرائعة أصبحت ضفاف شط العرب وقنواته جميلة جداً فأخذ الأغنياء من سكان البصرة العرب يشيدون فيها بشكل متزايد بيوتاً ريفية يقضون فيها أشهر الصيف الحارة. وتعتبر أبو الخصيب موضعاً ريفياً مفضلاً وهي تقع على قناة تحمل نفس الاسم ويقطنها ما يزيد عن 6000 نسمة يعيش أغلبهم عيشة هانئة من دخل بساتين النخيل التي يمتلكونها وبسبب من الموقع الستراتيجي المعروف الذي تتمتع به أبو الخصيب لكونها تظل تقريباً على قناة الحفار التي يصب بواسطتها الكارون في شط العرب عمدت الحكومة العثمانية إلى تقوية هذا الموضع حتى إنها أقامت هناك بطارية أرضية.

وعلى بعد ستين فرستاً أسفل أبي الخصيب تقع الفاو التي هي في الحقيقة عبارة عن قرية صغيرة من أكواخ القصب ولكنها تثير الأنتباه لأسباب أخرى تماماً فهي أولاً : المحطة الأخيرة لخط التلغراف البري الممتد من اسطنبول عن طريق سكوتاري [1] وسيواس وديار بكر إلى بغداد والبصرة ، ونقطة البداية للكابل الإنجليزي البحري الممتد إلى بندر بوشهر ومنها إلى كراجي عن طريق جاسك وهيثانياً : تتوغل في البحر بفضل موقعها على لسان ضيق وواطئ تكونه ضفة شط العرب اليمنى فتسيطر على مدخل مصب هذا النهر من الجنوب ولهذا السبب اشترطت الدولة

(1) كانت توجد في الدولة العثمانية مدينتان إسم كل منهما سكوتاري تقع الأولى على الضفة الأسيوية للبسفور وهي المقصودة هنا أما الثانية فإنها في البانيا - المترجم.

العثمانية وفارس اللتان وقعتا بوساطة روسيا وبريطانيا معاهدة وهي المادة التي تنازلت الدولة العثمانية بموجبها عن منطقة المحمرة والضفة اليسرى لشط العرب [1] وكان افتتاح الملاحة في نهر الكارون في 1888 بفضل إصرار بريطانيا العظمى يبشر بزيادة أهمية المحمرة بشكل يفوق العادة ويهدد في الوقت نفسه بفقدان البصرة وبغداد لجزء لا يستهان به من تجارتهما المزدهرة مع الجارة فارس ، الأمر الذي اضطر الحكومة العثمانية إلى أن تتخذ عدداً من الاجراءات التي اعتبرتها فعالة لحماية مصالحها. فبنت في الفاو طابية جهزتها بأحدث الأسلحة وكان ذلك على حد قول اللورد كرزن يشكل « خطراً جدياً يهدد جيران تركيا الفرس ومصالح التجارة والملاحة البريطانية على السواء » [2] ولهذا أصبح مفهوماً لماذا لم تكن بريطانيا العظمى تترك أية فرصة ملائمة للاحتجاج على وجود الطابية المذكورة ولماذا كانت تحاول بكل جهدها أن تعيق الدولة العثمانية عن تعزيزها في المستقبل. وقد قامت بسبب ذلك حادثة سياسية جدية عندما أطلقت الحامية العثمانية المحلية في شهر أيار 1890 النار على الكابتن بولديرو قائد اليخت الحربي الإنجليزي (Sphinx) عندما حاول النزول إلى الفاو لاستطلاع التحصينات [3]. وقد سوي هذا الحادث سلمياً بفضل إقالة

---

(1) كانت توجد في الدولة العثمانية مدينتان إسم كل منهما سكوتاري تقع الأولى على الضفة الأسيوية للبسفور وهي المقصودة هنا أما الثانية فإنها في البانيا - المترجم.

(2) Persia and The Persian Question. London. 1892 Vol. II p. 335

(3) C. U. Aitchison A colleetion of Teraties Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Counties. Calcutta. 1892. Vol. XI. P. 9.

قائد الطابية فوراً والحكم عليه بالسجن ستة أشهر. أما الكابتن بولديرو نفسه فقد حصل على ترضية شخصية جاءت على شكل سماح خاص من السلطان بأن يستطلع بشكل تفصيلي الطابية التي اقامتها الأتراك على بعد يبلغ حوالى ربع فرست من بلدة الفاو.

وناحية الفاو بأجمعها غارقة في أحراج النخيل التي يعود أغلبها إلى شيخ الكويت الحالى مبارك بن صباح انتقلت إليه بالوراثة من أخيه الأكبر محمد. ذلك إن السلطان كان قد أهدى الأحراج لمحمد المذكور مكافأة له عن المساندة التي أبداها للقوات العثمانية في أثناء الحملة العسكرية التي أرسلت على الحسا عام 1870.

وتمتد بساتين النخيل إلى خور عبدالله تقريباً وهو الفرع الشرقي الذي تكونه جزيرة بوبيان.

وهذه الجزيرة نفسها ظهرت حديثاً بفضل ما يجلبه تيار الخليج من الحاجز الغريني القائم عند مصب شط العرب. أما الفرع البذي يحيط بجزيرة بوبيان من الغرب والذي يعرف باسم خور الصبية فإنه يحادد الزاوية الشمالية الشرقية من خليج الكويت.

ويعتبر خليج الكويت المجاور لناحية الفاو أحسن خلجان الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب ، وقد أجبر الصحافة الأوربية بأجمعها في بداية

القرن الحالى على أن تتحدث عنه نظراً لأن المانيا اختارت أن تجعله المحطة التي تنتهي عندها سكة حديد بغداد. ولقد اقتفى المهندسون الألمان في هذا الشأن أثر بناة السكك الحديد الأنكليز من أمثال الجنرال (Chesney) والسير (W. F. Andrew) وغيرهم الذين كانوا منذ 1872 قد اختاروا هذا الميناء العربي ليكون نقطة النهاية للخط الحديدي الذي فكروا بمده من الاسكندرية إلى الخليج عن طريق حلب وبغداد رغم أن هذا

المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ [1]. هكذا كانت بريطانيا قد قيمت تقييماً عالياً أفضليات السيطرة على خليج الكويت الذي يعتبر ، إلى جانب أرخبيل البحرين الذي يبعد مسافة لا يستهان بها باتجاه الجنوب الشرقي ، البوابة الوحيدة التي تربط الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب بمركزها ، كما إنه ، وهذا هو الأهم ، يسيطر على مدخل شط العرب ذلك إنه يقع في موضع لا يبعد أكثر من 82 كم إلى الجنوب الغربي من الفاو.

ويبلغ طول هذا الخليج 20 ميلاً انجليزياً من الشرق إلى الغرب وعرضه 10 أميال. أما أقصى عمق له فيبلغ 84 قدماً يتناقض تدريجياً بمقدار ما تقترب من الساحل حتى يصبح على بعد ميل ونصف منه غير صالح لسير السفن البحرية الكبيرة. ولهذا فإن المرسى الوحيد لهذه السفن الكبيرة هو بندر سويني أو ثويني الواقع على مقربة من النهاية الشمالية لمدينة الكويت ، حيث يصل العمق فيه إلى 24 قدماً وحيث تستطيع السفن ، حتى عند هبوب الرياح الشمالية التي لا يصدها شيء عن خليج الكويت ، القيام بعمليات التحميل بهدوء. وتعرف الضفة الشمالية للخليج باسم الأقطي وهي عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها عدة مئات من الأقدام تبدأ من خليج صغير يسمى كاظمة وتمتد مكونة على طول امتدادها منحدرات وعرة وشديدة الانحدار حتى خور الصبية وهو الفرع الغربي الذي تكونه جزيرة بوبيان والذي سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة الكويت في الجزء الجنوبي من الخليج الذي مر وصفه حيث تمتد على ضفته لمسافة لا تقل عن ميل. وعند الاقتراب منها من البحر تظل لفترة طويلة محجوبة عن النظر خلف لسان رملي طويل يسمى

.Curzon. Op. Cit. Vol. P. 632 (1)

رأس العجوزة يقع عند مدخل الخليج.

وعندما ندور حول اللسان يصبح بإمكاننا أن نتبين على خلفية من الصحراء الرمادية الضاربة إلى الصفرة أبنية رمادية ضاربة إلى الصفرة أيضاً

تبدو من بعيد.

أشبه بأبنية النمل الأبيض الضخم منها ببيوت البشر. ويشدد من كآبة مظهر الكويت انعدام النباتات فحتى النخلة الواسعة الإنتشار في منطقة شط العرب المجاورة ينعدم وجودها هناك بشكل كلي تقريباً.

ويلفت بيت القنصل البريطاني المطلي بالجص من الخارج ، النظر بواجهته البيضاء ولذلك فإن ملاحظته أسهل من ملاحظة قصر الشيخ نفسه الذي لا يتميز عن بقية البيوت البسيطة إلا بصارية العلم وبضعة خيول مسرجة مرابطة بشكل دائم عند بوابته كانت قد جلبت إليه الضيوف .. ويقع قصر الشيخ على الساحل الذي يرتفع بعض الشيء في هذا الموضع والذي جرى تعزيزه بسد بني بلا إتقان. أما المدينة نفسها فتقع خلف صف البيوت الواقعة على الكورنيش البدائي. وشوارع المدينة واسعة وتتميز بالمقارنة مع مدن الخليج الأخرى بالنظافة. وأما السوق الذي يقع في الجانب الآخر من المدينة فإنه واسع جداً يزخر بالبضائع الأوروبية كمصنوعات مانجستر والسلاح الناري والأبيض وما شابه ذلك ، وكذلك بالخامات المستوردة وعلى الأخص الغلال ومنتجات الحليب وغير ذلك. وتستخدم الساحة الواسعة المتاخمة للسوق هي الأخرى سوقاً حيث تمتد حتى سور المدينة الذي بعده الصحراء الحقيقية لشبه جزيرة العرب. وتحتل هذه الساحة اعتباراً من سور المدينة ولمسافة فرستات كاملة مرابض البدو الذين قدموا إلى هناك خصيصاً لكي يحصلوا على منتجات الصناعة الأوروبية عن طريق مبادلتها بماشيتهم أو بالمنتجات الحيوانية التي

تعتبر الغذاء الرئيسي لسكان الكويت ذلك لأن التربة هناك لا تنتج شيئاً. بل حتى الماء العذب يعتبر هناك شيئاً ثميناً جداً لأنه يتحتم الحصول عليه من آبار تحفر في الصحراء ثم ينقل في قرب على ظهور الحمير إلى ساحة السوق في المدينة حيث يقوم السكان بشرائه. وقد أثيرت قضية تجهيز الكويت بمياه الشرب أكثر من مرة في الصحافة الإنجليزية ـ الهندية التي لم تجد وسيلة لحل هذه القضية أفضل من نقل المياه من شط العرب في خزانات عائمة خاصة [1].

وعدد سكان الكويت ليس ثابتاً على الدوام وذلك بسبب زيادة ونقصان الرحّل وفي أغلب الأحيان يتجمع داخل أسوار المدينة أفراد يصل عددهم إلى 40000 نسمة رغم أن عدد السكان الأصليين ينبغي أن لا يتجاوز بشكل عام 25 ألف نسمة. ويعيش الكويتيون بالدرجة الأولى على البحر حيث يعتبرون من أشجع البحارة في الخليج كله ، سفنهم يمكن أن تصادف حتى في بومباي وكراجي إذ إنهم يذهبون إلى هناك طلباً للرز وغيره من المؤن وبالأخص طلباً لخشب الساج اللازم لصناعة السفن في ترساناتهم في الكويت. وتقوم السفن الشراعية الكويتية بممارسة التجارة الساحلية وصيد الأسماك كما تشارك عدة مئات منها بنشاط في استخراج اللؤلؤ في أرخبيل البحرين ويذهب بعضها بحثاً عن اللؤلؤ إلى جزيرة سيلان أو إلى البحر الأحمر علماً بأن هؤلاء تطول غيبتهم عن بيوتهم سنوات كاملة.

وللكويت أهمية تجارية ليست قليلة فهي الميناء الوحيد لدواخل شبه جزيرة العرب ومنها تتجه يومياً تقريباً القوافل المحملة بمختلف

---

(1) The Times of India IIIustrated Weekly No. 3. January 16. 1907.

البضائع إلى نجد وحائل.

وفضلاً عن ذلك فإنها المورد لبضائع التهريب المختلفة وبالدرجة الأولى طبعاً الأسلحة المخصصة للقبائل التي تسكن العراق العربي والتي تنقل إليها عن طريق الزبير. كما إن نقل البضائع التجارية المختلفة التي تمنع الحكومة العثمانية تصديرها مؤقتاً من العراق العربي إلى الخارج ، كالحبوب والخيل مثلاً يتجه أيضاً إلى الزبير فالكويت ذلك أن الكمارك التركية لا تمتلك في هذه الأخيرة فرعاً خاصاً أو حتى وكيلاً.

ولقد أثارت الجولة التي قامت بها في ما بين النهرين في 1900 لجنة من المهندسين الألمان برئاسة السيد شتيمريخ الذي كان آنذاك قنصلاً عاماً لألمانيا في اسطنبول ضجة كبيرة في الصحافة الإنجليزية التي كانت تحاول عن طريق انهماكما بمناقشة الشائعات التي تشير إلى نية المانيا في إيصال سكة حديد بغداد إلى الكويت ، إن تقرر سلفاً أن يكون موضع محطة السكة الحديد المقبلة في خليج الكويت. ولقد اعتبر خليج « كاظمة » في بداية الأمر أكثر ملائمة لهذا الغرض لأن متوسط عمقه ملائم تماماً للسفن البحرية غير ان الصحافة الانجليزية ـ الهندية ركزت فيما بعد ، بسبب كون خليج كاظمة مفتوحاً للرياح الشمالية التي تعرقل عمليات التحميل ، على موضع آخر يقع على ساحل الخليج خارج خليج الكويت ويبعد بمقدار ستة أميال إلى الجنوب من رأس الأرض. وقد كان لهذا الموضع الجديد أفضليات منها أن العمق يبدأ من الشاطئ تماماً تقريباً كما إن الرياح الشمالية لا تعرقل التفريغ والتحميل وذلك بفضل الكثبان الرملية التي تحمي ذلك الموضع منها.

غير إن أياً من هذه الاقتراحات لم يتحقق بسبب من أن قضية تعيين المحطة النهائية لسكة حديد بغداد لم يجر حلها نهائياً إذ لا تزال حتى

الوقت الحاضر موضوعاً للمفاوضات بين الدول ذات المصلحة والدولة العثمانية.

وبإتمامنا لوصف الكويت نكون قد انتهينا من العرض الجغرافي للسناجق الثلاث التي يتألف منها العراق الجنوبي وهي سنجق العمارة وسنجق المنتفك وسنجق البصرة ولم يبقى أمامنا إلا الانتقال إلى استعراض القسم الأخير من ولاية البصرة وهو الحسا الذي يختلف في ظروفه بدرجة لا يستهان بها عن العراق الجنوبي.

يطلق إسم الحسا أو « الأحساء » بصيغة الجمع ومعناه باللغة العربية « التربة الرملية التي تمتص المياه » [1] على كل الشريط الساحلي الذي يمتد من خليج الكويت محتضناً منطقة القطيف الساحلية وواحة الحسا وشبه جزيرة قطر. وتؤلف هذه المناطق الثلاث جميعها سنجقاً واحداً يطلق عليه الأهالي هناك إسم « سنجق الحسا » علماً بأن اسمه في الوثائق التركية الرسمية وكذلك في الحوليات الخاصة بولاية البصرة « سنجق نجد » وهو أمر يبدو معه كما لو أن السنجق المذكور يشمل هضبة نجد الواقعة في وسط شبه جزيرة العرب يفصلها عن الحسا سلسلة جبلية عالية وصحراء رملية واسعة.

ويتعذر تعيين حدود سنجق نجد أو الحسا بدقة ذلك أن حدوده غير معينة إلّا من جهة الخليج أما في الجهات الثلاث الأخرى فإنها تضيع في الصحراء لذا فإن حدود الحسا لا يمكن معرفتها إلّا بشك تقريبي وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن السنجق المذكور يحده من الشمال الصحراء

(1) لكلمة الحس العربية معنيان الأول مص والثاني سهل من الأرض يستنقع فيه الماء وجمعها أحساء وحساء ـ المترجم.

السورية ومن الغرب رمال صحراء « النفوذ ».

ومن الشرق الخليج. أما في الجنوب فإنه يتاخم ما يسمى بـ « ساحل القرصنة » أو « السِّر » بالعربية وهو الساحل الذي يبدأ من نقطة تبعد 150 ميلاً أسفل رأس مسندم ويمتد حتى شبه جزيرة قطر تقريباً.

ويمكن تقسيم سنجق نجد الذي تبلغ مساحته 50000 كم من حيث تكوينات سطحه إلى ثلاثة أوسام تبعاً للمناطق الداخلة ضمنه وهذه الأقسام هي : الشريط الساحلي الضيق الذي يطلق عليه اسم القطيف وهو عبارة عن منخفض تغطيه الأهوار والمستنقعات ، والحسا وهو عبارة عن صحراء حجرية في بعض المناطق ورملية في بعضها الآخر وفيها واحة واسعة هي الهفوف. ثم شبه جزيرة قطر التي تتألف من عدد لا يحصى من التلال الواطئة التي تحرقها الشمس يحل محلها بالقرب من الساحل عدد من المضاحل الرملية والمستنقعات.

وتحيط الجبال التي لا تتميز بارتفاعها الشديد حيث لا يصل ارتفاعها إلى 1400 قدم فوق سطح البحر إلّا في مواضع قليلة ، بسنجق نجد من ثلاث جهات كما لو إنها تحميه من كثبان « النفوذ » الرملية الصغيرة المتحركة التي تطوق الحسا من الجنوب والغرب وتتحول في الشمال إلى تربة حجرية وهي التربة التي تميز الصحراء السورية. وتقترب الجبال المذكورة في القطيف من شاطئ الخليج جداً بحيث لا تترك بينها وبين المياه سوى شريط ضيق لا يتعدى عرضه 4 / 1 ، 1 ميل.

أما في قطر فإنها تتحول إلى تلال واطئة تنتشر في أرجاء شبه الجزيرة كافة وتصل حتى الساحل تقريباً. وعلى العموم ينبغي القول بأن ضفة الخليج الغربية أو ساحل الأحساء هي ساحل صخري يشكل العديد من الجزر والأماكن الضحلة والشعاب الأمر الذي يجعله غير صالح للسفن

الكبيرة في كل المنطقة الواقعة بين خليج الكويت وارخبيل البحرين.

ورغم أن الحسا خال من أي نهر أو أي مجرى مائي يستحق الذكر لا يمكن اعتبارها مع ذلك من البلدان غير المؤهلة للحياة الحضرية وذلك لوجود فيض المياه الجوفية التي تظهر في الحسا نفسه إلى سطح الأرض على شكل ينابيع كثيرة وفي القطيف على شكل أهوار واسعة. أما في ارخبيل البحرين فإن المياه العذبة تنفجر من قاع البحر نفسه. وتفسر هذه الظاهرة بأن السيول الجبلية التي تنحدر من هضبة نجد الوسطى تختفي بعد ذلك تحت التربة وتجري على شكل أنهار تحت سطح الأرض في سجق نجد كله متجهه نحو ساحل الخليج.

وينبغي أن نعتبر ينابيع الحسا [1] عيوناً معدنية نظراً لأن المياه فيها دافئة ومذاقها كبريتي كما إن لها خصائص علاجية وذلك ما تشتهر به على وجه الخصوص عين نجم [2] الواقعة على الطريق المؤدي إلى الهفوف وهي المدينة الرئيسية في الحسا ، وأم سبعة التي تقع على مسافة ثمانية أميال إلى الشمال من الهفوف والتي تكونها سبعة جداول تنبع من حوض طبيعي بهيئة حفرة مستديرة وعميقة يبلغ قطرها 50 قدماً. ولم يتعرض تكوين هذه الينابيع وكذلك درجة حرارتها إلى البحث الدقيق لحد الآن غير إن مياهها على اية حال ليست مضرة للمزروعات وبساتين النخيل التي تعيش على مياه هذه الينابيع وحدها.

وتتكون تربة شبه جزيرة العرب عموماً والحسا خصوصاً بشهادة

---

(1) W. Palgrave : Narrativ of a Year , s Journey Centeal and Eastern Arabia .Vol. II
London 1865. P. 150

(2) الصحيح عين نجمة ـ المترجم.

الباحث الانجليزي المعروف الكابتن سادلير (Sadleir)[1] الذي درس شبه جزيرة العرب من الصلصال الخالص أو من الصلصال المختلط بالحصباء باستثناء المناطق التي تسود فيها الرمال أو الأحجار. وربما استطاعت تربة الحسا الصلصالية ، بوجود الارواء الجيد ، أن تؤمن للمزارع ، مثل العراق العربي ، ليس فقط محصولاً شتوياً فحسب وإنما صيفياً أيضاً لو بذل العرب اهتماماً أكبر للمحافظة على المياه الثمينة التي تكون الآن مستنقعات في شمال مدينة الهفوف وشرقها.

ومناخ الهفوف يشبه نظيره في بغداد مع اختلاف واحد هو أن حرارة الصيف هناك أعلى بكثير والليالي التي لا تختلف عن النهار بشدة حرارتها لا تنعش الأحياء التي أعياها القيظ كما هي الحالة في مدينة الخلفاء. أما القطيف بمناخها الخانق المشبع بالأبخرة المتصاعدة من المستنقعات والخليج فيمكن اعتبارها مشابهة للبصرة ، وتزيد من شبهها بهذه الأخيرة الحميات التي تجتاح القطيف والتي تذهب سنوياً بالكثير من الضحايا من بين أفراد الحامية التركية المرابطة في المدينة التي اعتاد ضباطها ومراتبها الدنيا النظر إلى وجودهم هناك على أنّه نفي لهم. وينعكس مناخ القطيف غير الصحي بشكل مضر أيضاً على الأهالي الذين يتميزون حتى بالقياس على سكان ضفاف الخليج المرضى المنهكين ، بضعف بناء أجسامهم وصفرة امتقاع وجوههم.

ويتفوق سنجق نجد على العراق الجنوبي في قلة أمطاره ذلك إن فصل الأمطار الذي يأتي متوافقاً مع الرياح الجنوبية الشرقية والذي يمتد من شهر كانون الأول لغاية آذار يكون فيه أقصر بكثير منه في العراق

(1) R. R. Chesney : Cit Vol. II.P. 580 FF.

الجنوبي. أما الرياح الغالبة في سنجق الغالبة الحسا فهي الرياح الشمالية الغربية
التي تهب في أثناء الأشهر الحارة أي في الفترة من نيسان حتى تشرين الأول وتجلب معها سحباً من الرمال بحيث إنها بدلاً من تقضي إلى انخفاض الحرارة تؤدي إلى زيادة معاناه الناس بأن تملأ رئاتهم بالغبار الناعم الخانق.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن نباتات الحسا فينبغي علينا أن نذكر بأنها تتكاثف في القطيف التي نجدها غارقة في الخضرة بفضل مناخها الرطب وكثرة الأهوار والمستنقعات فيها. أما الحسا فالنباتات التي تغطيه أقل من ذلك لأن المزارع وبساتين النخيل تتركز في ضواحي الهفوف القربية فقط أما خارج حدود الواحة فتسود الصحراء التي ترعب بقحولتها. ولا يتحتم علينا أن نتحدث عن نباتات شبه جزيرة قطر ذلك إنها تقتصر فقط على الأعشاب المائية القائمة على ضفة البحر وعلى الاشواك علماً بأنه يوجد مقابل كل عود من العشب عشرون حجراً على حد تعبير بالكريف (1).

وتحتل النخلة ، كما هي الحالة في العراق ، المركز الأول بين نباتات سنجق الحسا لكنها هناك تختلف بعض الشيء عن النخلة العراقية ويكمن هدا الأختلاف في أن جذعها أرفع وأوراقها أقل كثافة ولحاؤلها أكثر نعومة وثمرها بلون الكهرب الضارب إلى الحمرة ويكاد يكون شفافاً كما إن طعمه يفوق طعم كل الأنواع العراقية إلى درجة بحيث أطلق عليه إسم « خلاص » أي « الخلاصة واللب ». ويوجد في بساتين الحسا إضافة إلى النخلة أشجار فاكهة أخرى كالرمان والتين شجرة البطيخ (2). أما الاشجار

---

w. palgrave : Op. Cit. Vol. II. P. 228. (1)

(2) يقصد الشجرة التي يطلق عليها إسم البابايا أو البوبوي ـ المترجم.

غير المثمرة فيوجد منها بويوبا الجزيرة العربية والسنط وغيرها. وشجرة البطيخ تشبه النخلة في شكلها وتعطي ثمراً يشبه البطيخ بيضوي الشكل لونه أصفر ضارب إلى البرتقالي يؤكل نيئاً أو مطبوخاً وهو يساعد جداً على الهضم لاحتوائة على مادة « البابائين » [1].

وتزرع في سنجق الحسا الحنطة والذرة والدخن من الحبوب والفجل والبصل والثوم من الخضروات وتغلب زراعة الرز في القطيف التي تكثر فيها المياه والمستنقعات.

أما عن النباتات التي تستخدم محصولاتها في الصناعة فيمكن الإشارة إلى القطن والنيلة ولكنها تزرع هناك بكميات لا تكفي حتى لسد الحاجة المحلية ، كذلك تعتبر زراعة قصب السكر في الحسا ناجحة ولكن الهدف من زراعته هناك متواضع جداً هو أن تصنع منه حلويات بسيطة.

أما عن الحيوانات التي تعيش في سنجق الحسا فأهمها الغزال والضبع وابن آوى والفهد والوشق [2] والذئب والثعلب والنيص إلى جانب حيوانات الصحراء الأصغر كاليربوع وابن عرس والجرذ وما أشبه ، والطيور التي تكثر فيها بشكل خاص الطيور الجارحة كالنسور والباشق وغيرها.

وأما الحشرات فأكثرها انتشاراً الجراد الذي تكثر غاراته على واحة الحسا لكن السكان هناك وخصوصاً البدو استطاعوا تحويله من حشرة ضارة إلى سند مفيد لمعيشتهم [3] وذلك بأن يستخدموه كغذاء بعد أن

---

(1) ايللوستريروف ؛ قاموس المعلومات ذات الفائدة العامة بإشراف البي نشر سوفورين ، سانت بطرسبورغ 1893 ص 350 وما بعدها. [بالروسية].

(2) الوشق حيوان من فصيلة السنانير أصغر من النمر ـ المترجم.

(3) أجازت الشريعة الإسلامية اكله فالامر لا يختص بالبدو او بسكان الاحساء كما يصوّره المؤلف او يتصوره. حميد الدراجي

يعدوه لهذا الغرض على النحو التالى : يوضع في ماء مالح ويغلي فيه ثم يجفف في الشمس وبعد ذلك يفصل عنه الرأس والأطراف والأجنحة وبعد أن ينظف الجسم من الملح يعرض مرة أخرى لأشعة الشمس المحرقة في شبه الجزيرة العربية. ويستخدم الجراد المحضر بهذه الطريقة للأكل وتجري المتاجرة به في أسواق سنجق الحسا كبقية المواد الغذائية. علماً بأن طعمه يكون الذ إذا ما قلي بالسمن.

ويتغذى سكان سنجق الحسا ، إلى جانب التمر وقليل من الخبز وبعض المأكولات ذات الطابع البدوي الصرف كالجراد ، على السمك الذي يقدمه لهم الخليج الذي يعتبر مع بحر عمان على ما يذكره (E. Revlus) [1] ، من أغنى بحار العالم بالأحياء المائية. وهكذا ينتشر السمك المحلي المجفف في كل الساحل العربي من الخليج كما ينقل إلى داخل شبه جزيرة العرب وإلى هند وزنجبار وسواحل أفريقيا الشرقية.

أما الثروات الطبيعية فهي في سنجق الحسا أقل منها في العراق العربي فهي تقتصر هناك على الملاحات. وهذه الأخير كثيرة جداً هناك غير إن استغلاله ينحصر بشكل كلي في أيدي البدو الذين يبيعون حمل الجمل الواحد من الملح ، بسبب وفرة إنتاجه ، بقرش واحد أو ما يعادل ثمانية كوبيكات ونصف.

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن الثروات الطبيعية في سنجق الحسا أن نغفل اللؤلؤ الذي يستخرج من محار ملتصق بالشعب المرجانية القائمة في قاع البحر على أعماق مختلفة تتراوح بين أربعة وعشرين ومائة وعشرين قدماً ، حيث يغطس الصيادون بعد أن يغلقوا أنوفهم بأداة خاصة مصنوعة

.Novelle Geographie Yniver sell. Paris. 1884. T. IX. P. 860 (1)

من العظام [1] ويسدون آذانهم بالشمع تحت الماء إلى عمق لا يتجاوز ثمانية وعشرين قدماً ويبدأون بجمع المحار في سلال مشدودة إلى خصورهم. ويوجد محار اللؤلؤ على طول شاطئ الحسا كله ابتداء من خليج الكويت تقريباً لكن الشعاب المحيطة بمجموعة جزر البحرين التي تبعد عن الساحل بمقدار عشرة أميال تقريباً تعتبر أكثر المناطق غنىً باللؤلؤ كماً ونوعاً. ويبدأ فصل استخراج اللؤلؤ اعتباراً من شهر حزيران ويستمر حتى أكتوبر وفيه تتجمع في تلك المياه سفن يصل عددها إلى أربعة آلاف وخمسمائة سفينة يعمل عليها ما لا يقل عن ثلاثين ألف ملاح. وتكون حصة الكويت وقطر والقطيف من هذا العدد ما يقرب من ألف سفينة ملاحيها [2].

واستخراج اللؤلؤ مباح لجميع سكان الساحل ولا تؤخذ ممن يمارسه أية ضريبة عدا تعريفة صغيرة يدفعها لشيخ البحرين كل قارب يقوم باستخراج اللؤلؤ :

السنة	قيمة صادرات اللؤلؤ بالروبية
1889	4300000
1896	3039410
1901	4107534

(1) تسمى هذه الأدارة « الفطام » وهي المشبك الذي يضعه الغائص على أنفه حتى لا يدخل فيه الماء أثناء الغوص وحتى يساعده في الاحتفاظ بالهواء الذي ملأ به رئتيه قبل الغوص ـ أنظر :

« عبد الله خليفة الشملان ، صناعة الغوص ، د. ت ، ص 53 ». ويتضمن هذا الكتاب معلومات وافية وشاملة حول ما يتعلق بصناعة الغوص واستخراج اللؤلؤ. المترجم.

(2) G. N. Curzon : op. Vit. Vol. II. P. 456 FF.

مــن الشــعاب التــي تحــيط بــذلك الأرخبيــل. وهكــذا يؤلــف اللؤلــؤ المصـدر الأسـاس للـرزق بالنسـبة لسـكان سـاحل الحسـا بـأجمعهم غيـر إن حصـة الغواصـين والبحـارة لا تتعدى جزءاً صـغيراً من الـربح الـذي يـذهب بكليتـه إلـى جيـوب محتكـري اللؤلـؤ الـذين يسـتعبدون بكـل معنـى الكلمـة شغيلة البحر هؤلاء عن طريق تسليفهم النقود والبضائع مسبقاً.

ويمكننــا بــالاطلاع علــى الجـدول الخــاص بالتقسـيم الاداري لسـنجق الحسا إلى أقضية ونـواحي الـذي ذكرنـاه سـابقاً أن نتبين بـأن قضـاء الهفـوف وحده تتبعه أربع نواحٍ هي ؛ العجير والمبرز والجفر والعيون في حين ليس للقضـائين الآخـرين القطيف وقطـر أيـة نـواحٍ تابعـة لهمـا وهـذا يعنـي أنـه لا توجـد فـي ذينيـك القضـائين نقـاط مأهولـة دائمـة عـدا المـدينتين الرئيسـتين القطيـف والبـدع. وقـد لاحـظ (Zwemer) [(1)] جميـع المـدن والنقـاط المأهولـة فـي السـاحل الشـرقي لشـبه جزيـرة العـرب تقـع فـي المثلـث المحصـور بـين المنامة وهي المدينـة الرئيسـة في البحـرين والقطيـف والهفوف ، أمـا خـارج هذا المثلث فتسود صـحراء قاسية رتيبـة : فـإلى الشمال حتـى خليج الكويـت تقـع بـلاد بنـي حجـار الموحشـة الخاليـة مـن النباتـات والقليلـة السكان وإلـى الجنـوب توجـد شـبه جزيـرة قطـر التـي لا تقـل جـدباً أمـا إلـى الغـرب فتمتـد رمال « النفود » لمسافة خمسة أيام حتى الرياض.

والهفـوف التـي تعـرف لـدى بسـطاء النـاس باسـم الحسـا هـي المدينـة الرئيسـة فـي سـنجق نجـد وهـي مقـر للحـاكم التركـي الـذي يحمـل رتبـة متصـرف. وتقع الهفوف علـى مسيرة يـومين مـن شـاطئ البحـر تقريبـاً وهـي تتألف من قسمين هي المدينة نفسها والضواحي ، يبلغ قطر الأول منهما أي

Zwemer. Op. Cit. P. 110 (1)

المدينة ميلاً ونصف وهو محاط بسور قديم تقوم في زواياه أبراج غير إن هذا السور نصف متهدم منذ وقت طويل وقد طمرت بقاياه الخندق المتاخم له. وراء السور ضاحية تتألف من ثمانين قرية ومستوطنة غارقة في البساتين والحقول التي تحتضن المدينة من الشمال والشرق والغرب في حين تمتد الصحراء في الجنوب بحيث تصل حتى سور المدينة تقريباً.

وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أحياء هي الشمالي الشرقي واسمه كوت والشمالي الغربي ويسمى رفاعة وأخيراً حي نصل الذي يشغل كل الجزئين الجنوبي والشرقي من المدينة. ولكل من هذه الأحياء طابعه الخاص وتفصلها عن بعضها ساحة واسعة تحتل موقعاً وسطاً فالكوت مثلاً هو إذا توخينا الدقة عبارة عن حصن المدينة يحيط به خندق عميق وسور عالٍ جداً فيه أبراج وكوّات ويتخذه المتصرف التركي مقراً له. أما حي رفاعة فهو محل سكن الأغنياء والناس الذي ينتمون إلى الفئات العليا من السكان الأمر الذي يبدو واضحاً في اتساع شوارعه ونظافتها وفي مظهر بيوته الحسن فهي مطلية بالجص ومزينة بالزخارف المصورة فوق الأبواب والشبابيك. وتقع في هذا الحي السوق الرئيسة في الهفوف واسمها « قيصرية » وهي تشبه رواقاً مسقوفاً تقع الدكاكين على جانبيه وتجري فيه المتاجرة بالتمر والجراد والسمك المجفف والمنتجات المحلية إلى جانب البضائع الأوروبية كالمنتوجات الصناعية. والسكر والأسلحة النارية والأواني وما أشبه. ونذكر من المنتجات المحلية العباءة الحساوية المعروفة جيداً في العالم العربي كله وتصنع من الصوف الرفيع مخلوطاً بالحرير وتوشى بخيوط من الذهب والفضة. وقوارير البارود والدلال ومختلف الأواني المصنوعة من النحاس.

أما ثالث أحياء المدينة وهي حي نصل فإنه يفوق الحيين الأخرين بحجمه فهو يشمل القسم الأغلب من المدينة ويسكن فيه الحياك ومختلف فئات الحرفيين والفقراء عموماً.

ولم يكن عدد السكان في الهفوف على ما ذكره (Palgrave) الذي زار تلك الواحة في 1863 ليتعدى آنذاك خمسة وعشرين ألف نسمة ، أما الآن فإن عددهم ازداد فأصبح استناداً إلى حولية عام 1901 التركية الرسمية الخاصة بولاية البصرة أربعين ألف نسمة. ويعتنق سكان الهفوف من الناحية الرسمية المذهب الإسلامي السني لكنهم تأثروا في واقع الأمر تأثراً شديداً بالوهابيين وهم اتباع المصلح الإسلامي [1] المشهور محمد بن عبد الوهاب. لقد وضع محمد بن عبد الوهاب هذا لنفسه هدفاً محدداً هو إعادة الإسلام إلى بساطته الأولى وتنقيته من الشوائب التي تراكمت فيه على مر العصور الأمر الذي أعطى تعاليمه طابعاً شديد التزمت إلى جانب التعصب بل وحتى القسوة تجاه كل المسلمين الذين لا يرغبون في اعتناق تعاليمه.

والوهابيون لا يتعرفون لا بقدسية الأولياء ابتداءاً من النبي العربي محمد نفسه ولا بتقديس أضرحتهم ويرفضون كل مظاهر الزينة في المساجد بما في ذلك المنائر التي يدعى منها للصلاة في البلدان الإسلامية ويدينون بلا رحمة كل مظاهر الترف كالملابس المصنوعة من الحرير أو الديباج وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب والفضة والتبغ والموسيقي وما

---

(1) كلمة المصلح الإسلامي لا يليق إطلاقها على مثل محمد بن عبد الوهاب فأي إصلاح كان باستباحة دماء المسلمين عبر تكفيرهم وحملهم على اتبتعه بالقوة ةالقسوة والا فمصيرهم القتل وتعاني الامة إلى يومنا هذا من اتباعه. حميد الدراجي.

أشبه [1]. لقد انتشرت التعاليم الأولية بالدرجة الأولى بين البدو في شبه جزيرة العرب والحسا الذين جذبهم إلى الإسلام في شكله الذي يدعو له الوهابيون بساطته وسهولته.

لكن أثر الوهابية كان أقل على الحضر [2] وبالأخص سكان المدن في الحسا وذلك بفضل التأثير القوى الذي تمارسه كل من الهند وفارس اللتان ترتبط بهما هذه المنطقة بعلاقات تجارية منذ القدم ، حتى إن هذا التأثير لم يقتصر على الأدوات واللوازم البيتية وعلى طراز البناء متمثلاً باستخدام العقادات التي ينعدم وجودها في أواسط شبه الجزيرة العربية فقط وإنما تعدى ذلك إلى اللغة التي هي هناك بعيدة عن النقاء الذي تتميز به في داخلية شبه الجزيرة. بل وحتى الملابس انعكس عليها الطراز الفارسي والهندي لذا فإننا نجد أن القميص البدوي الأبيض استبدل في الهفوف وضواحيها بدراعة ملونة في حين استعيض عن غطاء الرأس البدوي الكلاسيكي « الكوفية » أي المنديل الذي يثبت على الرأس بعقال من وبر الجمل ، بعمامة كبيرة بيضاء أو ملونة.

وفي الهفوف يمكن أن نجد أيضاً أثراً طريفاً من آثار الماضي متمثلاً

---

(1) Historie des Wahabis Par L. A. Paris 1810 Chap. II.

(2) لا يخفى ان هذين التبريرين السابق والآتي لا يصمدان عند أدنى تأمل حيث ان سهولة الحصول على الغنائم الغزو كانت سبب انضمامهم البدو إلى الوهابية لانه أباح لهم كل حرمة عبر التكفير وبهذا يتضح لماذا كان تأثيره على الحضر اقل كما ان الخوف من سيوفه المسلطة على رقابهم جعلت الكثير من البدو ينضمون إليه ونراهم عند الامن من سطوته واتباعه يعودون إلى حالهم الأول. حميد الدراجي.

في عملة خاصة أسمها « الطويلة » ليس لها شكل العملة الحالية وإنما هي عبارة عن قطعة مسطحة مستطيلة الشكل من النحاس المخلوط بقليل من الفضة مكونة من نصفين وتكون إحدى نهايتها مخرومة ويذكر (Zwemer) [(1)]

بأن أحد حكام الحسا القرامطة قام بسك هذه العملة عام 920 وإن على جانبيها مكتوب بالخط الكوفي عبارة تكاد تكون ممسوحة هي : « محمد السعود ».

أما العجير فهي ميناء للهفوف وتقع على ساحل البحر مقابل النهاية الجنوبية لجزيرة البحرين تقريباً لكن المياه في خليج العجير غير عميقة بما يكفي لمرور البواخر البحرية ولذلك فإن هذه البواخر البحرية ولذلك فإن هذه البواخر تقوم بتفريغ البضائع المخصصة للهفوف ولجنوب نجد في المنامة الواقعة في جزيرة البحرين ومن هناك تنقل إلى العجير بواسطة السفن الشراعية العربية المحلية. ويبلغ مقدار الحمولة المعتادة للقوافل التي تتوجه أسبوعياً من العجير إلى داخلية البلد ما بين 200 إلى 300 جمل تضم مصنوعات مانجستر والقهوة العربية والرز الهندي وسكر مرسيليا ومصنوعات برمنكهام الفولاذية علماً بأنه من غير النادر أن تتعرض هذه القوافل للنهب من قبل عصابات البدو قبل أن تصل إلى الهفوف.

تستغرق المسافة من الهفوف إلى الرياض عاصمة نجد سبعة أيام من سير القوافل في حين يصل المسافرون من الرياض إلى مكة بعد أن يقطعوا ثماني عشرة مرحلة. وكان الحجاج القادمون من الساحل الفارسي في الخليج يستخدمون هذا الطريق على نطاق واسع عند ذهابهم لأداء فريضة الحج حيث كانوا يتوجهون من بوشهر أو بندر عباس إلى البحرين ومنها

---

(1) Zwemer ; op. cit. P. 115.

ينتقلون إلى العجير حيث يكونون هناك قوافل لمواصلة السفر الذي يكون هذه المرة سفراً برياً بشكل كلي وتستغرق سفرتهم بأجمعها بما في ذلك انتقالهم بالبحر ما يقرب من شهرين.

ولا يوجد في العجير سكان حضر لذلك فإن بنايات هذا الميناء بأجمعها تقتصر على طابية طينية يعيش فيها المدير التركي وحامية صغيرة وبناية الكمارك التي تتميز بحجمها الكبير وبضعة خانات للقوافل يبيت فيها المسافرون والجمال.

وعلى الطريق بين العجير والهفوف وبالقرب من هذه الأخيرة تقع بلدة الجفر الصغيرة التي تؤلف المركز الأداري لناحية تحمل نفس الأسم وتكون مقراً لمديرها التركي. ويبلغ عدد السكان في هذه البلدة ألف نسمة ونظراً لأنها تقع على طريق كبير فإن التجارة المحلية تزدهر فيها بفضل مرور القوافل فيها باستمرار ينعكس أثر ذلك حتى على سوق البلدة الذي لا يتناسب في سعته مطلقاً مع حجم البلدة نفسها. أما المركز الاداري لناحية العيون فهو بلدة تحمل نفس الاسم وتشبه تماماً الجفر التي مر وصفها وتقع مثلها ايضاً على بعد لا يتجاوز بضعة أميال عن الهفوف غير إن المبرز التي تقع إلى الشمال من الهفوف بمسافة ثلاثة أميال فقط تعتبر بلدة كبيرة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة وتكمن أهميتها بالدرجة الأولى في السوق الدوري الذي يقام فيها اسبوعياً ويتقاطر عليه السكان من أنحاء الواحة كافة. ويجد الأهالي في هذا السوق كل ما هو ضروري لسد احتياجاتهم ابتداءاً من المنتجات الأوربية كالمرايا والقلائد والأسورة وانتهاءً بالمنتجات والمعدات المحلية المختلفة. وهذا السوق هو أيضاً السوق الرئيسي للمتاجرة بالماشية ومنها الحمار الحساوي الذي يقدرونه عالياً في بغداد وفارس بسبب ارتفاعه وتحمله وسرعة عدوه والأنواع المحلية من

الخيل التي تتميز على صغر حجمها بالقوة وجمال الشكل.

وهناك طريق آخر للقوافل يربط الهفوف بالقطيف قطعة بللگريف (Palgrave) في عام 1863 فوصفه على النحو التالى : « يجري الطريق في البداية سهلاً على تربة رملية خفيفة تقطعها من حين لآخر مرتفعات من البازات والأحجاز الرملية. وتوجد في كل أنحاء الطريق آثار المياه الجوفية الغزيرة على عمق قليل تحت سطح الأرض ولذلك تكثر في الطريق النخيل القصيرة والشجيرات بل وحتى القصب الذي يحيط بمستنقع صغير ما مختف في إحدى الوهاد. وفي اليوم الثاني من خروجنا من الهفوف باتجاه الشمال الشرقي شاهدنا قمة هرمية الشكل ارتفاعها 700 قدم هي جبل مشقر الذي يقع على بعد عشرة أميال إلى الجنوب من القطيف ، ثم يرتفع الطريق بعد ذلك إلى هضبة تلال القطيف الواسعة والقليلة الارتفاع فتحل الأرض الصخرية السوداء اللون محل الرمال. وتقترب هذه التلال من القطيف اقتراباً شديداً ثم تنقطع فجأة عند ساحل البحر تقريباً حيث تقع المدينة المحاطة بالبساتين والغارقة بالخضرة » [(1)].

والقطيف مدينة قليلة العرض لكنها تحتل بالطول مسافة لا يستهان بها وهي محاطة بسور فيه أبراج ويكاد سورها يصل إلى المياه إذ أنه لا يترك بينه وبينها إلا شريطاً ضيقاً يختلط بالتدريج بمضاحل رملية طويلة يغطيها السعد والقصب.

وتتحول هذه المضاحل أثناء المد إلى أهوار غير صحية تسمم الهواء عند الجزر بالأبخرة الخانقة المتصاعدة من الوحل والأعشاب المائية.

وخليج القطيف الذي تحميه الجزر والرؤوس البحرية من الرياح

.W. Palgrave : Op. Cit. P. 190 (1)

الشمالية والجنوبية غير صالح لسير السفن الكبيرة. والسفن الشراعية الصغيرة وحدها تستطيع بصعوبة أن تصل إلى الميناء في أثناء المد الذي تغمر مياهه الأماكن الرملية الضحلة الكثيرة العدد. وتقع على الشاطئ الداخلي للخليج قلعة تتجه واجهتها نحو الشرق وينسب الأهالي بناءها إلى ايام حكم القرامطة أي إلى القرن العاشر الميلادي وتتخذ حالياً مقراً للحامية والقائم مقام التركي.

ويبلغ سكان مدينة القطيف وحدها عدا سكان القرى المجاورة بموجب المعلومات الأحصائية التي أوردها (Cuinet) [1] عدداً كبيراً هو 18300 نسمة في حين تذكر النشرة السنوية التركية الرسمية الخاصة بولاية البصرة لسنة 1901 إن عدد سكان المدينة لا يتجاوز ستة الآف نسمة. وشكل سكان القطيف قليل الشبه بالشكل العربي النقي وذلك لأن الدم الفارسي اختلط بهم بكثرة بحيث انعكس ذلك حتى على المعتقدات الدينية للأهالي الذين يعتنقون في أغلبيتهم المذهب الشيعي.

وتقع مدينة القطيف على ما يذكره التاريخ في الموضع الذي كانت تقع فيه الجرعاء القديمة وهي ميناء أسسه الكلدانيون في فترة قديمة جداً لم تتحدد بدقة بعد.

وقد وصل هذا الميناء إلى مرحلة الأزدهار الكامل في عهد الملك الأشوري أسرحدون في 675 ق. م عندما أصبحت السفن الهندية تجلب إليه البضائع التي تنقل منه على سفن شراعية أصغر لإرسالها إلى بابل وتقوم هذه الأخيرة بإرسال البضائع المخصصة لآسيا بواسطة الفرات إلى ثوباكوس في حين ترسل البضائع المخصصة لفارس وأرمينيا بواسطة دجلة

.F. R. Lenormant. Op. Cit. T. VI. P. 379 FF (1)

حتى مدينة أوبيس [1] [2]. وهكذا كانت الجرعاء بمثابة الميناء لمدينة بابل التي تقع بعيداً بعض الشيء عن الخليج.

وساحل الخليج الذي يمتد إلى الشمال من القطيف لمسافة 363 كم حتى أراضي الكويت هو عبارة عن صحراء جرداء خالية من أي مركز حضري بسبب من أن جميع سكانه ينتمون إلى قبائل بني حجار المتنقلة المشهورة بالقسوة وممارسة قطع الطرق.

أما شبه جزيرة قطر التي يبلغ طولها مائة ميل وعرضها خمسين ميلاً فإنها تبدو كما لو إنها تؤلف نهاية الشريط الساحلي لسنجق نجد أوالحسا وهي تتكون من سلاسل من التلال الجرداء الواطئة تحرقها الشمس وتختفي بالقرب من البحر لتحل محلها رمال متحركة غرينية بعض الشيء يختلط فيها الوحل والأعشاب المائية.

ويوجد في الجهة الأخرى من التلال سهل أجرد يمتد حتى واحة الهفوف تنتقل فيه قبيلتان معروفتان بالقسوة وممارسة النهب هما آل مرة والمناصير.

والقرى في شبة جزيرة قطر [3] عبارة عن مجموعات صغيرة متناثرة ومتباعدة عن بعضها من المساكن الحقيرة المحفورة في الأرض ومن الأكواخ الأكثر حقارة تصنع من سقف النخيل وتحاط حتماً بأسوار لحمايتها من هجمات البدو. وتبنى فضلاً عن ذلك على التلال التي تحيط

---

(1) ينقسم الباحثون إلى فريقين في تحديد الموقع الذي كانت تشغله هذه المدينة فريق يعتقد بأنها كانت توجد في موقع سلوقية على دجلة والآخر يرى إنها كانت تقع عند مصب العظيم في دجلة ـ المترجم.

(2) F. R. Lenormant. Op. Cit. T. VI. P. 379 FF..

(3) Palgrave. Op. Cit. Vol II. P. 225 FF..

بكل قرية أبراج خاصة محصنة يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدماً يلجأ إليها السكان عندما تباغتهم إحدى الهجمات البدوية ، إذ يصعدون بواسطة سلم من الحبال إلى منتصف البرج حيث توجد فتحة يدخلون منها ثم يواصلون صعودهم بواسطة الدرج فيقطعون بذلك على مطاريدهم سبيل الوصول إلى ملجئهم ويتركون لهم كغنائم مواشيهم ودوابهم وجميع الأمتعة التي لم يتمكنوا من أخذها معهم إلى البرج.

وتبدو البدع عاصمة شبه جزيرة قطر كواحدة من هذه القرى وإن كانت أكثر حجماً حيث يقطنها 6000 نسمة. ويقوم في وسط المدينة بناء يشبه برج السجن هو قلعة حاكم البدع وشيخ قطر الذي يحمل اعتباراً من 1871 لقب قائمقام ويرفع على قلعته العلم العثماني ويحتفظ في العاصمة بفصيل من القوات النظامية العثمانية يبلغ تعداده 250 شخصاً.

وبسبب من أن شبه جزيرة قطر قاحلة كلياً فإن سكانها يعيشون على البحر الذي يقدم لهم السمك كغذاء ويوفر لهم وسيلة للعيش الرغيد ونعني الرزق الذي يتأتى من استخراج اللؤلؤ. ويقضي القطريون نصف عامهم في صيد اللؤلؤ في حين يصرفون النصف الآخر في صيد السمك بحيث إنهم إذا توخينا الدقة يقضون كل وقتهم تقريباً على ظهور سفنهم ولا يعيش على الساحل إلّا النساء والأطفال والشيوخ.

الفصل الثاني

إن النظام الأداري للولايات العثمانية بشكل عام ولولاية البصرة بأعتبارها إنها تكونت في وقت متأخر عن بقية الولايات ، بشكل خاص متشابه تماماً. لقد كان تغيير نظام الإدارة الإقليمية واحداً من سلسلة طويلة من الأصلاحات الداخلية التي قامت الدولة العثمانية تحت ضغط أوروبا منذ أربعينيات القرن التاسع عشر. وقد اتخذ تنظيم الدوائر الفرنسية نموذجاً اقتدى به عند إعادة تكوين الولايات ، وبعد أن أقيم على أسس تركية أتخذ شكله النهائي في 1867 بعد أن تعرض مشروع 1864 الأولي إلى تغييرات كبيرة حتمها تطبيقه عملياً في ولاية الدانوب السابقة [1] وكان التقسيم الإداري للولايات العثمانية الذي اقتبس من فرنسا على النحو التالي : كل ولاية تخضع لحكم الوإلي وتنقسم إلى « سناجق » يديرها متصرفون وتنقسم السناجق إلى « أقضية » يقوم على رأس كل منها قائمقام ويتألف « القضاء » من نواحي تخضع لإدارة المديرين.

ويتبع حاكم الولاية أو الوالي ملاك كامل من المساعدين الذين يدير كل منهم فرعاً من فروع الادارة وهم :

1 - المعاون أو نائب الوإلي.

---

(1) Ed. Engelhardt. La Turquie La Tanzimat , Paris 1882 , T , IP , 191. FF.

2 ـ الدفتر دار الذي يشرف على مالية الولاية.
3 ـ المكتوبجي أو مدير مكتب الولاية.
4 ـ مترجم الولاية الذي يقوم بشؤون العلاقات مع القناصل الأجانب وهناك إضافة إلى هؤلاء موظفون من الدرجة الثانية كالموظفين الذين يشرفون على « الأوقاف » (وهي الأملاك غير المنقولة العائدة للمساجد) [1]

وعلى طرق المواصلات والعقارات ومدراء البريد والتلغراف والبوليس .. إلـــخ

وكذلك مفتشي التجارة والزراعة.

ومن بين الموظفين المذكورين يستحق المعاون والدفتر دار اهتماماً خاصاً وذلك للطابع الاستثنائي الذي يرتديه عملهما. لقد استحدث منصب المعاون بإلحاح من الدول المشرقة على الدولة العثمانية في قضية الأصلاحات وذلك لإيجاد منفذ يستطيع رعايا السلطان المسيحيون من خلاله أن يشاركوا في الإدارة بشكل غير مباشر ولهذا كان يفترض أن لا يشغل هذا المنصب إلّا المسيحيون. غير إن هذا الإجراء لم يعط كل النتائج المرجوة منه لأن الباب العالى كان يتجنب إناطة الإدارة المستقلة بالمعاونين المسيحين في أوقات غياب الوالى ويعين بدلاً منهم الدفتر دار الذي يقف في مرتبة أعلى من حيث التدرج الوظيفي وتعطيه مرتبته هذه حق الأفضلية في أن ينوب عن حاكم الولاية ، هذا فضلاً عن أن اختيار المعاون لم يكن

---

(1) يطلق مصطلح « أراضي الوقف » على الأراضي التي أوقفتها الدولة أو الأفراد لغرض الصرف من ربعها على الخدمات الدينية والخيرية. وينقسم الوقف إلى نوعين : نوع رسمي ، والآخر خاص (ذري) الأول أو الرسمي : هو الذي توقفه الدولة والثاني أو الخاص : هو الذي يوقفه الأفراد. كذلك أوقفت عقارات من أبنية وحوانيت للأغراض ذاتها. ومن الجدير بالذكر أن الوقف لا يباع ولا يصادر. المترجم.

يجري ـ وذلك على الرغم مما خططت له فرنسا وبريطانيا ـ من بين أفراد الطائفة المسيحية السائدة في الولاية المعنية وإنما من بين أفراد الطائفة المنافسة لها الأمر الذي كان يقلل بدرجة كبيرة من دور هذا الإداري غير المسلم.

أما الدفتر دار فإنه كان يمثل وزارة المالية ويلعب دوراً كبيراً في حياة الولاية ذلك إنه لا يمكن أن تصرف أية وثيقة مالية ما لم تكن مختومة من قبله بكلمة « فيرليه » أي (يصرف) وتظهر تبعية هذا الوكيل المالي للوالي في أن كل المخصصات والحوالات المالية الواردة إلى الدفتر دار يجب أن تقترن بإمضاء هذا الأخير وبدونه تعتبر باطلة. وفيما عدا ذلك يكون الدفتردار مستقلاً تماماً في عمله ذلك إن كل مسؤولية الوالي في المجال المالي تقتصر على حرصه على أن ترد الضرائب والأتاوات بشكل صحيح ومراقبته لأعمال موظفي المالية واهتمامه بأن لا يقوم هؤلاء بأية تجاوزات.

وفي حالة وجود فرع للبنك العثماني الامبراطوري الذي أنيطت به كما سنرى فيما بعد مهمة تنفيذ مسؤوليات بنك الدولة ، يكون عمل الدفتردار الوظيفي بسيطاً إلى حد كبير إذ لا يبقى أمامه من العقبات الكبيرة إلّا ما يطلق عليه اسم « حوالة ». وتعرف بهذا الأسم الكمبيالات المسحوبة على خزينة الأقاليم من قبل الوزارات العثمانية التي تكون مضطرة ، لأجل صرف الفروض التي طرحتها على أساس الكشوف التقديرية التي أعدتها مسبقاً ، إلى اللجوء إلى هذه الطريقة في الدفع لدائنها وللموردين الذين تتعامل معهم. وعلى الدفتردار في هذه الحالة أن يبذل جهوداً غير قليلة لإيجاد المبالغ الواجب دفعها لحاملي مثل هذا « الحوالات » (1).

---

(1) Odysseus : Turkey in Erope , London 1990 , PP. 154. 155.

ويتبع الوالى إلى جانب الأفراد من الموظفين مجلس يضم بالإضافة إلى المعاون والدفتردار والمكتوبجي كلاً من المفتي او ممثل رجال الدين المسلمين والنائب أي رئيس المحكمة الشرعية وكذلك الرؤساء الروحانيين للطوائف غير الإسلامية وأربعة أعضاء يختارهم السكان إثنين عن المسلمين وإثنين عن غير المسلمين (المسيحيون واليهود) ويقوم هذا المجلس مقام الهيئة الاستشارية ويشترك في مناقشة جميع القضايا والدعاوي الجنائية منها والمدينة بسبب من أن ممارسة القضاء لا تدخل في دائرة اختصاصات الوالى. وإلى جانب المجلس الدائم المذكور يقضي قانون الولايات بدعوة ما يمسى بالمجلس العام عدة مرات في السنة. وهذا الأخير هو مجلس يتألف من ممثلين عن السناجق حيث يضم أربعة أشخاص عن كل سنجق يختارهم سكان ذلك السنجق إثنان عن المسلمين وإثنان عن غير المسلمين. ويفترض أن يناقش هذا المجلس الذي يرأسه الوالي نفس القضايا التي تعرض على المجلس الأول ولكن على نطاق أوسع. وعلى الرغم من إنه لم يعترف لهذا المجلس العام إلّا بحقوق المؤسسة الإستشارية فإنه في الواقع لايؤدي عمله بسبب من أن جميع الولاة في الأقاليم يسعون جاهدين إلى تجنب الاستفادة من خدمات مؤسسة الرقابة المحلية العليا هذه [1].

وتتركز السلطة التنفيذية بأكملها بيد حاكم الولاية الذي لم يكن مسؤولاً إلّا أمام اسطنبول فقط ، كما تظهر السيطرة المباشرة لهذه الأخيرة على الولاية في تبديل جميع موظفي الولاية المعنية ابتداءً من الوالي وانتهاء برؤساء الأقضية والنواحي وكذلك في حل جيمع القضايا المتعلقة

(1) A. Du Velay : Essai Sur L , Histoire Financiere de le Turquie , Paris. 1903. P.

بالحوادث التي تخرج عن حدود مجرى الحياة المحلية العادي في الولاية.

والوالى باعتباره سيد المنطقة التي عهد بها إليه يكون مسؤولاً عن الاهتمام بالاصلاحات والتحسينات في حقول التعليم والتجارة والزراعة وطرق المواصلات والصحة وأعمال الخير العام ، غير إن حرية التصريف
الممنوحة للوالي بهذا الشأن يحددها في الواقع بدرجة كبيرة النقص الدائم في الأموال ، ذلك إن جميع الفائض من دخل الولاية إن وجد ، يوجه فوراً لتغطية تبذيرها الهيئات الحكومية المركزية.

ويكون الوالى في الولايات التي يجري اختيار ولاتها من بين العسكريين كما هي الحال في البصرة ، قائداً للقوات المحلية أيضاً ، أما في الولايات الأخرى مثل بغداد فإن السلطة العسكرية تكون قائمة بذاتها في حين يتولى منصب الوالى موظفون مدنيون.

ويوضع تحت أمره الولاة الذين تناط بهم مسؤولية الحفاظ على أمن طرق المواصلات والمحافظة على الأمن والهدوء العالم في الولاية ، قوات من الشرطة والجندرمة. وتتألف الجندرمة في ولاية البصرة من خيالة ومشاة وجندرمة نهرية [1] أنيطت بها مهمة خاصة هي مراقبة ما تزخر به الولاية من قنوات ونهيرات كثيرة وكذلك الأهوار والمستنقعات التي كانت تستخدم أوكاراً لقراصنة الأنهار. ويقوم أفراد الجندرمة هنا بدور شرطة الحدود وذلك في الأصقاع المتاخمة لفارس ، بالإضافة على واجباتهم البوليسية البحتة ويحرسون طرق البريد والقوافل ، ويتوزع أفراد الجندرمة النهرية الذين يؤلفون حرس الكمارك النهرية على مواقع متفرقة يعمل في

---

(1) يبلغ عدد الجندرمة الخيالة في ولاية البصرة 554 شخصاً بينما يبلغ عدد المشاة 283 شخصاً والجندرمة النهرية 175 شخصاً.

كل منها ما بين أربعة إلى خمسة أشخاص في جميع المراكز الكمركية على جانبي شط العرب ودجلة والفرات.

ويماثل تكوين السناجق والأقضية تكوين الولايات كما إن للمتصرفين والقائمقامين الذين يحكمونها نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات التي للوإلى في ولايته ولكن في حدود سناجقهم وأقضيتهم فقط. ويخضع المتصرفون للوالى مباشرة ويتسلمون منه الأوامر والتعليمات اللازمة في حين يخضع القائم مقامون للمتصرفون بنفس الدرجة التي يخضع بها هؤلاء للوالى. ويتبع هؤلاء وأولئك ملاك من الموظفين يشابه الملاك الذي يتبع الوالى ولكنهم يحملون مراتب أقل ولهذا فإنهم يحملون تسميات مغايرة فالشخص يدير الشؤون المالية يسمى في السنجق « محاسبجي » وفي القضاء « مال مديري ». أما مدير مكتب المتصرف فيحمل الأسم نفسه أي « مكتوبجي » في حين يسمى في القضاء « كاتب ». وتوجد في السناجق والأقضية ، كما هي الحال في الولايات ، مجالس تناقش القضايا المتعلقة بشؤون الإدارة جميعها ولكنها مثل مجالس الولاية تحمل صفة استشارية فقط.

وينقسم كل قضاء ، كما ذكرنا سابقاً ، إلى عدد من النواحي أو الوحدات تغطي جميع القرى والمستوطنات في المنطقة المعنية بحيث تكون أكبرها مقراً لرئيس الناحية أي المدير. وهذا الأخير يخضع للقائمقام ويحتل مرتبة وسطاً بينه وبين المختارين الذين ينتخبون بمعدل إثنين عن كل قرية إذا زاد عدد بيوتها عن عشرين وواحداً إذا قل عدد البيوت عن ذلك. وتقع على المدير مسؤولية تنفيذ أوامر وتعليمات الحكومة والتأكد من صحة المعلومات الواردة من المختارين حول عدد الولادات والوفيات وإيصال شكاوى السكان التي يعرضها المختارون إلى القائمقامين وترؤس

مجلس الناحية الذي يتألف من ممثلي رجال الدين المسلمين وغير المسلمين ومن أشخاص منتخبين من قبل السكان.

ويهتم المختار بالدرجة الأولى بجمع الضرائب والأتاوات ويؤلف الحلقة الأخيرة في السلسلة الطويلة من الموظفين الذين تتألف منهم إدارة الولاية.

والهيئة الاستشارية لدى المختار هي مجلس يتألف من وجهاء ينتخبهم السكان بحيث لا يقل عددهم عن ثلاثة أشخاص ولا يزيد عن إثني عشر شخصاً ، ويتحتم أن يضم هذا المجلس إضافة إلى ذلك ممثلين عن رجال الدين المسلمين وغير المسلمين.

وتدخل في أختصاص هذه المجالس نفس الأمور التي تختص بها مجالس النواحي وهي توزيع الاتاوات بين الطوائف الدينية في القرية المعنية ومناقشة القضايا المتعلقة بالهدوء والأمن العام وحل المنازعات سلمياً. والمختار وأعضاء المجلس ينتخبون لمدة سنة ومن حقهم أن يعاد انتخابهم لعدد غير محدود من المرات.

وقد استحدثت في 1893 وظيفة جديدة هي « التحصلداريون » أو المحصلون الذين تنتخبهم في القضاء لجنة خاصة تتألف من القائمقام والمال مديري ومدير العقار وآمر الجندرمة المحلية. وقد أنيطت بالتحصلداريين مهمة الاشراف على المختارين ومراقبة صحة ورود الأتاوات كما إن من واجبهم اتخاذ كل الاجراءات القانونية لجباية الضرائب المتأخرة ابتداء من بيع الممتلكات المنقولة وغير المنقولة الخاصة بالأفراد الذين يتهربون من دفع الضرائب وانتهاءً باعتقال هؤلاء المتهربين.

وقد أضيف إلى التحصلداريين فيما بعد مراقبو ضرائب وشكلت في السناجق والأقضية لجان خاصة لخدمة نفس أهداف الرقابة المالية تلك بشكل أفضل.

ولن يكون وصفنا للتكوين الإداري للولاية كاملاً إذا لم نشر إلى « البلديـــة » ويقصد بها المجلس البلدي في المدينة حيث يوجد مثل هذا المجلس في ولاية البصرة في كل من العمارة والناصرية والهفوف أي في المدن الرئيســــــــــــــــــــــــية فــــــــــــــــــــــــي سناجق العمارة والمنفك والحسا إضافة إلى البصرة نفسها.

ويتألف المجلس البلدي من سبعة أعضاء ينتخبون لمدة أربع سنوات يختار الوالى من بينهم رئيساً للمجلس القائم في مركز الولاية في حين يجري اختيار الرئيس في السناجق من قبل متصرفي تلك السناجق. وهناك شرط معين ينبغي أن يتوفر لدى كل من الناخب والمنتخب لهذا المجلس وهو أن لا يقل ما يدفعه الشخص المنتخب (بفتح الخاء) من أتاوات والتزامات للدولة عن مائة قرش (ثمانية روبلات) وأن لا يقل هذا المبلغ بالنسبة للنائب عن أربعين قرشاً (ثلاثة روبلات وعشرين كوبيكاً) [1].

والمجالس البلدية تابعة لمجلس الولاية ولمجالس السناجق ولهذا فلا يمكن أن ينفذ أي قرار من قرارتها دون أن تقرة مسبقاً تلك المجالس. ولا تقتصر صلاحية المجالس البلدية على الاهتمام بتدبير شؤون المدينة فقط وإنما هي تهتم إضافة إلى ذلك بتنظيم وشق طرق جديدة وبمراقبة النظافة والصحة والمحافظة على طرق المواصلات وتحسينها. وقد منحت المجالس البلدية ، لكي تتمكن من تغطية المصاريف التي يتطلبها تنفيذ هذه الواجبات ، الحق في أن تجبي من السكان أتاوات وضرائب مختلفة كالمبالغ التي تأخذها منهم في مقابل الحراسة الليلية وفي مقابل استخدامهم للموازين واستخدامهم للجسور أو بيعهم للمأكولات في

(1) A. Du Velay : Op. Cit. P. 222. FF.

ساحات المدينة أو في خزن الكيروسين والكحول في مخازن خاصة قائمة خارج المدن.

ومن ذلك أيضاً الضرائب التي تؤخذ على المركبات والسفن والحمامات والمقاهي ... الخ. ويجبى القسم الأغلب من هذه الضرائب بطريق الالتزام حيث تؤجر لأشخاص يقومون ، بعد أن يدفعوا للبلدية المبلغ المقرر ، بجباية الضرائب التي أخذوها بالالتزام ، من الناس مباشرة.

ونورد فيما يلي مثلاً على مقدار الضرائب الرئيسية التي يجيبها مجلس بلدية مدينة البصرة :

1 - يؤخذ من كل دكان أربعة قروش أي اثنين وثلاثين كوبيكاً في الشهر للانفاق على الحراس الليلين

2 - يفرض على كل حمار مع حمله يعبر الجسر نصف قرش أي أربعة كوبيكات ويكون المبلغ بالنسبة للفرس أو الجمل ثمانية كوبيكات كما يفرض على الزوارق الصغيرة أربعون أو ستون أو ثمانون كوبيكا حسب حجم الزروق أما الصنادل الكبيرة فتبلغ الضريبة المفروضة عليها روبلين وأربعين كوبيكا لكل منها.

3 - تؤخذ على الحيوانات والفواكه والخضر المجلوبة للبيع ضريبة مقدارها 2 / 1 ، 2 من قيمتها.

4 - يفرض على كل علبة كيروسين ثمانية كوبيكات في الشهر وعلى كل علبة كحول أربعة كوبيكات في الشهر مقابل الخزن.

5 - يفرض على كل مركبة أربعون كوبيكاً في الشهر وعلى كل مقهى أو خان أو حمام ثمانون كوبيكا عن (1) كل كبش أو تيس يجلب للذبح

(1) هنا سقط في الترجمة أو الطباعة لم يذكر القيمة. حميد الدراجي

وأربعة وعشرون كوبيكا عن كل خروف أو جدي .. إلخ.

ويشكل الجانب القضائي دائرة مستقلة تخرج عن سلطة الوالى. وتنقسم المحاكم العثمانية من حيث تكوينها إلى : « محكمي شريعي » و « محكمي نظامي » الأولى هي محاكم ما قبل الاصلاحات التي تحل فيها القضايا استناداً إلى « الشريعة » أي تعاليم الإسلام [1] ، أما الثانية فهي المحاكم الجديدة التي أقيمت على أسس أوروبية وهي من ثمار النشاط الاصلاحي الذي شمل الدولة العثمانية منذ أن أصدر السلطان عبد المجيد في 1839 مرسومه الشهير خطي شريف كلخانة.

لقد أمن السلطان في هذا المرسوم لرعاياه كافة دون تفريق في الدين ، حصانة حياتهم وشرفهم وممتلكاتهم. لقد اتبع المصلحون الأتراك آنذاك الذين كانوا واقعين تحت تأثير فرنسا الشديد نظاماً سهلاً وذلك بإصدار قوانين مدنية وجنائية مكتملة مقتبسة من القوانين الفرنسية. وهكذا ففي خلال أربعين سنة اعتباراً من 1840 صدرت سلسلة طويلة من المراسيم والقوانين تتعلق بجميع فروع القضاء تقريباً [2].

وفي الوقت نفسه جرى إصلاح المحاكم ذاته على النمط الفرنسي أيضاً ، غير إن تكوينها لم يتكامل نهائياً إلّا بعد 1879. وتنقسم المحاكم العثمانية الجديدة ، من غير محاكم الصلح ، إلى ثلاثة أنواع هي :

1 ـ محاكم البداءة.

2 ـ محاكم الاستئناف.

---

(1) هل سبب احتياج تلك المحاكم إلى إصلاح هو اتباعها لتعاليم الإسلام أو بسبب ابتعادها عن تعاليم الإسلام. أن الكاتب وامثاله ينظرون إلى الإسلام من زاوية أخرى تختلط منها الأوراق والمفاهيم. حميد الدراجي.

(2) Ch. Morawitz : les Finances de la Turquie , Paris. 1902 PP 162. 163.

3 ـ محكمة التمييز في اسطنبول.

وتعتبر المجالس الإدارية في النواحي ومجالس الوجهاء التي تعمل على إنهاء القضايا بالتصالح من قبيل محاكم الصلح. وهي تنظر في الدعاوى وتفرض غرامات صغيرة وتحكم بالسجن لمدة لا تزيد على يوم واحد كما إن من حقها أن تجري التحري في البيوت. ولكن قرارات هذه المحاكم ليست ملزمة للمتخاصمين حيث إن بإمكان هؤلاء أن ينقلوا دعاواهم إلى محاكم البداءة الموجودة في كل قضاء [1].

وتتألف محاكم البداءة أو « بدايت محكمة سي » من رئيس هو « النائب » أو القائم بمهمة القضاء الشرعي وإثنين من الأعضاء المنتخبين أحدهما عن المسلمين والآخر عن غير المسلمين وفي الحالات التي تشتمل فيها الدعوة على جناية أو جنحة ذات طابع بوليسي يضاف إلى الهيئة المذكورة مدير الجندرمة الذي يقوم بمهمة نائب المدعي العام كما يضاف لها أيضاً محقق قضائي وأمين للسر. وأحكام هذه المحاكم غير قابلة للاستئناف في القضايا التي تحول إليها من محاكم الصلح وكذلك في الدعاوي المدنية التي لا تزيد على الخمسائة قرش أو ما يعادل أربعمائة روبل وفي الدعاوي الخاصة بالأملاك غير المنقولة التي لا يزيد ما تدره من دخل على خمسمائة قرش أي أربعمائة روبل. وتقوم هذه المحاكم مقام محاكم البداءة التجارية في الأماكن التي لا توجد فيها مثل تلك المحاكم وفي هذه الحالة يضاف إلى عضويها المذكورين أعلاه واللذين ينتخبان عادة لمدة سنتين ويتسلم كل منهما مقابل القيام بمهامه مائتي قرش في الشهر ، عضو ثالث ينتخبه تجار القضاء ويقوم بمهمته مجاناً.

وتعتبر محاكم السنجق محاكم استئناف بالنسبة لمحاكم القضاء وهي

A. Du Velay : Op. Cit.P. 216. FF.(1)

تنقسم إلى أربعة فروع : مدنية وتجارية ومحاكم البوليس الاصلاحية وجنائية وتعتبر قرارات محاكم السنجق نهائية في الدعاوى المدنية التي يتعدى حجمها العشرة آلاف قرش أو ما يعادل ثمانمائة روبل وفي الدعاوي الخاصة بالأملاك غير المنقولة التي لا يزيد ما تدره من دخل على الألف قرش أو يعادل ثمانين روبلاً. ويتألف الفرع المدني من هذه المحاكم من رئيس هو القائم بأمور القضاء الشرعي وعضوين منتخبين أحدهما عن المسلمين والآخر عن المسلمين. أما بالنسبة للفرع التجاري فإن الرئيس يعينه وزير العدل في حين ينتخب العضوان من قبل التجار. أما محاكم البوليس الاصلاحية فإنها تتألف من نفس الهيئة التي يتألف منها الفرع المدني في حين تتألف المحكمة الجنائية في السنجق من الهيئة نفسها مضافاً إليها عضوان منتخبان فضلاً عن المدعي العام ومحقق وأمين للسر.

ويتماثل التنظيم القضائي في مركز الولاية مع ما وصفناه أعلاه عدا أن
محكمة البوليس الاصلاحية تتميز هناك بميزة خاصة هي إنها تقوم ايضاً بمهمة دائرة الأتهام. والمحكمة في مركز الولاية ، هي في الوقت نفسه محاكم استئناف لمحاكم السناجق. أما محكمة التمييز فإنها موجودة في اسطنبول حيث تردها إلى هناك جميع القضايا من محاكم الولايات (1).

ولا يوجد في ولاية البصرة فيما عدا مدينة البصرة محاكم تجارية قائمة بذاتها إذ يستعاض عنها كما أشرنا إلى ذلك أعلاه بمحاكم مدنية اعتيادية بعد أن يضاف إلى هيئتها أعضاء ينتخبهم التجار. أما محكمة البصرة التجارية فتتألف من رئيس وأربعة أعضاء ينتخبون بالتساوي من المسلمين وغير المسلمين يضاف إليهم عند النظر في القضايا المختلطة وهي القضايا التي يكون فيها أحد الجانبين المتخاصمين من رعايا دولة

---

(1) Ed. Engelhard : Op. Cit. T. II , PP. 24 , 288 - 295.

أجنبية عضوان آخران ينتميان إلى قومية ذلك الأجنبي. وأصبحت مثل هذه المحاكم المختلطة تستخدم اعتباراً من 1879 للنظر في القضايا الجنائية التي يشترك فيها أجانب علماً بأن النظر في مثل هذه القضايا في المحاكم العثمانية لا يتم إلّا بحضور مترجم القنصلية ذات العلاقة.

وتوجد في الامبراطورية العثمانية ، إلى جانب المحاكم العثمانية ، محاكم قنصلية يجري فيها ، على أساس نظام الامتيازات ، النظر في جميع القضايا المدنية والجنائية التي تمس هؤلاء أو أولئك من الرعايا الأجانب دون أي تدخل من جانب السلطات القضائية العثمانية.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى محاكم الطوائف غير الإسلامية التي كان السلاطين العثمانيون في البداية قد اعترفوا لرؤسائها الروحيين باختصاصات واسعة. لكن هذه الاختصاصات تقلصت مع الوقت وهي في الوقت الحاضر تقتصر على الشؤون العائلية وحقوق الإرث التي سنتحدث عنها بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

وإلى جانب المحاكم الجديدة التي جرى وصفها أعلاه لا تزال قائمة في الدولة المحاكم الشرعية القديمة أي محكمي شريعي التي تحسم فيها القضايا على أساس القرآن وسنة محمد وتفسيراتهما الكثيرة التي كتبها رجال الدين المسلمون في الفترة من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر.

وتختص المحاكم الشرعية في جميع القضايا المتعلقة بالخصومات العائلية ودعاوى الإرث الخاصة بالمسلمين التي تتعلق بشؤون الأوقاف (الأملاك غير المنقولة التي جري التنازل عنها لصالح المساجد والشؤون الخيرية) كما أن اختصاصها يمتد أيضاً ، حسب رغبة المتخاصمين ، إلى الجوانب الأخرى من حياة المسلمين. كما يتحتم على غير المسلمين أن يلجأوا إلى المحاكم الشرعية في حالة كون الورثاء صغيري السن وفي كون

الخصومة بين أشخاص بالغين هم ورثة لشخص لم يترك وصية ، كذلك فإن الأجناب الذين لهم أملاك غير منقولة في الامبراطورية العثمانية والذين جرت مساواتهم بموجب قانون 1867 بالرعايا العثمانيين لا يستطيعون الاستغناء في كثير من القضايا المتعلقة بالملكية غير المنقولة عن أحكام الشريعة.

والمحاكم الشرعية لا تعرف المرافعة المعقدة وقراراتها يتخذها ممثل رجال الدين المسلمين المحليين منفرداً ويعتبر شيخ الإسلام في اسطنبول هو الاستئناف بالنسبة لها. ومن الخصائص الأخرى للمحاكم الشرعية عدم أخذها بشهادة المسيحيين ضد المسلمين وقد الغي هذا الأمر في المحاكم العثمانية بعد إصلاحها وذلك بإصرار من الدول الأوروبية.

ويضطرنا الوضع الخاص الذي يشغله شيخ الإسلام والدور المزودج الذي يقوم به رجال الدين المسلمون في الدولة العثمانية إلى التعرض لهذه القضايا بشيء من التفصيل.

إستولى السلطان العثماني سليم الأول على مصر 1517 وأجبر المتوكل أمريل حكيم [1] آخر خلفاء العباسيين الذي كان مقيماً هناك على ان يتنازل له عن حقوقه بالخلافة فأصبح سلاطين الامبراطورية العثمانية منذ ذلك الوقت يحملون لقب خليفة [2] مركزين في أيديهم السلطتين

---

(1) لا ندري من أين جاء المؤلف بهذا الأسم فآخر الخلفاء العباسيين في مصر هو المتوكل الثالث وأبوه هو أبو البصير يعقوب المستمسك وجده هو أبو الأعز عبد العزيز المتوكل الثاني ـ المترجم.

(2) هناك من الباحثين من يشك في تنازل المتوكل للسطان سليم الأول عن لقب خليفة وفي اتخاذ سليم لهذا اللقب. أنظر حول هذا الموضوع : عبد العزيز محمد الشناوي ؛ أوروبا في مطلع العصور الحديثة الجزء الأول القاهرة 1969 ص 588 - 592.

الدينية والدنيوية على رعاياهم المسلمين.

وإذ لم يكن بمقدور السلاطين بسبب التعقد التدريجي لجهاز الدولة أن يقوموا بأنفسهم بشؤون الجانب الروحي لرعاياهم فإنهم نقلوا الإدارة المباشرة للقضايا الدينية إلى شخص خاص يختارونه هم بأنفسهم من بين أكثر رجال الدين السنة تضلعاً. وشيخ الإسلام وهو اللقلب الذي يطلق على هذه الشخصية الدينية العليا في الإمبراطورية العثمانية يعين ويقال بمراسيم سلطانية ولهذا فإنه ليس أكثر من وزير للشؤون الدينية يشغل وظيفة هي في العادة أقل مرتبة من وظيفة الصدر الأعظم.

وعلى ذلك فإن كل قوة وأهمية شيخ الإسلام لا تكمن في مقامه الديني وإنما فيما يرتبط بهذا الأخير مباشرة وحسب تعاليم الإسلام من سلطة قضائية ذلك إنه يعتبر المرجع الأعلى في جميع القضايا التي تحل بموجب أحكام الشريعة وما يصدره من قرارات يعتبر نهائياً لا رجعة فيه وتكتب هذه القرارات أو « الفتاوي » كما كانت تسمى على شكل أسئلة مجردة يعطي لها شيخ الإسلام جواباً مقتضباً هو : « أولور » أي يجوز أو « أولماز » أي لا يجوز. ولا يمكن لأي مسلم أن يخالف الفتوى الصادرة بمن في ذلك السلطان نفسه الذي يملك وسيلة واحدة فقط لتعطيل الفتوى التي لا يرغب فيها وهي عزل شيخ الإسلام مسبقاً [1]. لقد كانت مثل هذه الفتاوي أساساً استند عليه في عزل السلطان عبد العزيز في ايار 1876 ثم ابن أخيه السلطان مراد بعد ذلك بثلاثة أشهر واخيراً السلطان عبد الحميد الأخ الأصغر لهذا الأخير وخليفته في نيسان 1909.

ومن الضروري أن نتذكر ونحن نتحدث عن وضع رجال الدين

---

(1) Odysseus : Op. Cit. P. 131 FF.

المسلمين في الدولة العثمانية بأنه من غير الممكن بأي شكل من الاشكال أن نطبق عليهم مفهومنا نحن عن رجال الدين. إن قادة المسلمين الدينيين لا يعرفون الارتسام وليس عندهم تدرج ديني وهم لا يخضعون إلا لشيخ الإسلام ويتمتعون باستقلال تام بعضهم عن البعض الآخر. والفرق الوحيد بين رجل الدين والشخص العادي يمكن في سعة علم الأول واطلاعه في القضايا الدينيية.

وبسبب ضرورة التأهيل العلمي كان يتحتم على الراغبين في ان يكونوا من فئة رجال الدين أن يصرفوا وقتاً غير قليل في دراسة جميع فروع الفقه الإسلامي.

وبمقدور الشخص الذي ينهي تعليمه في المدرسة الأولية التابعة للمسجد حيث يؤلف حفظ القرآن استظهاراً ، المادة الرئيسية أن يدخل ، بموافقة شيخ الإسلام ، كمستمع في إحدى المدارس الدينية حيث يدرس الطالب أو الـ « سوفتا » كما كان يسمى ، طيلة عشر سنوات النحو العربي والمنطق والميتافيزيقيا والأدب والبلاغة والفلسفة والشرع الإسلامي والهندسة وعلم الفلك. ويحصل من ينهي هذه المرحلة على لقب « ملازم » أي مرشح وعليه من أجل أن يحصل على اللقب السامي « مدرس » أي أستاذ أن يقضي سبع سنوات أخرى في دراسة العقيدة والتفاسير المتعددة للقواعد المكتوبة والتقاليد المأثورة. إن لقب مدرس كما هي الحالة بالنسبة للقب ملازم أيضاً يمنح من قبل شيخ الإسلام وهو يعطي لصاحبه الحق في أن ينسب إلى فئة « العلماء » وهم الطبقة العليا من رجال الدين المسلمين.

والمدارس الدينية التي يتلقى فيها رجال الدين المسلمون تعليمهم تكون عادة ملحقة بالمساجد ولا يقل عددها في الدولة العثمانية عن 2500 مدرسة علماً بأن الصرف على المساجد وكذلك المدارس التابعة لها يكون

من مدخولات الأوقاف وهي الأملاك التي يوصي بها المحسنون محبو الخير على اختلافهم بمن فيهم السلاطين أنفسهم. ورجال الدين المسلمون لا يتسلمون من الحكومة أي مبلغ لإعالتهم فهم يعيشون من مدخولات الأوقاف ومن الهدايا الاختيارية التي يقدمها الاتباع.

وتبعاً للدور المزدوج الذي يقوم به رجال الدين المسلمون في الدولة العثمانية الذين يمارسون التزامات قضائية في المحاكم الشرعية من جهة ويطمّنون الحاجات الدينية للسكان من جهة أخرى فإنهم ينقسمون إلى طائفتين تشمل الأولى :

1 ـ « الملالى » [1].

2 ـ المفتون أي مفسرو الشريعة.

3 ـ المفتشون الذين يصدرون القرارات في الشؤون الخاصة بالأوقاف.

4 ـ القضاة أي الحكام.

5 ـ النواب أي مساعدواالقضاة. وينبغي لمن يشغل المنصبين الأولين أن
يكون حائزاً على لقب « مدرس » أما المناصب الأخرى فيشغلها « الملازمون ».

أما الطائفة الثانية أي القائمون على شؤون المساجد فإنها تشمل :

1 ـ الشيوخ أو الوعاظ.

2 ـ الخطباء الذين يقومون أسبوعياً في كل يوم جمعة ، بالدعاء للسلطان الحاكم [2].

3 ـ الأئمة الذين يقومون بالخدمة الدينية المعتادة في المساجد.

---

(1) « الملإلى » جمع « ملا » وهي كلمة عامية تعني أصحاب الكتاتيب ـ المترجم.

(2) لا تقتصر خطبة الجمعة كما هو معروف على الدعاء للحاكم وإنما تتناول شتى الموضوعات التي تهم المسلمين ـ المترجم.

4 ـ المؤذنين الذين يدعون المؤمنين إلى الصلاة من على المأذن.
5 ـ القيمين الذين يقومون بعمل النظار في المساجد. ويتحتم على الشيوخ والخطباء أن يكونوا من العلماء أي يجب أن يكونوا حائزين على لقب « مدرس ». أما الباقون فيمكن أن يكونوا من الحائزين على لقب « ملازم ».
وكان يوجد لدى شيخ الإسلام في اسطنبول كل من :
1 ـ شيخ الإسلام كيخيه سي وهو المساعد الأقرب والمستشار في جميع القضايا غير الدينية.
2 ـ تليجيسجي. أي ممثل شيخ الإسلام لدى الباب العالى.
3 ـ مكتوبجي أي مدير الشؤون الكتابية.
4 ـ فتوى أميني أي رئيس المكتب الذي تضاغ فيه الفتاوى.
على إن عمل رجال الدين المسلمين في الدولة العثمانية لا يقتصر على تحمل مسؤولية القضاء الشرعي والرعايا الدينية وإنما يمس فرعاً مهماً آخر من فروع التنوير الشعبي ، ذلك إن شؤون المدارس كانت في عصر ما قبل الإصلاح تتركز كلياً في أيدي رجال الدين وكانت المؤسسات التعليمية الوحيدة هي المدارس الابتدائية (مكتب) والمدارس الملحقة بالمساجد. وكانت الدراسة في هذه وتلك تقتصر على دارسة القرآن والعلوم التي لها علاقة بالفقه الإسلامي وهي تسد بدرجة كبيرة أو صغيرة حاجة الحكومة إلى أن بدأت هذه الأخيرة بالسير في طريق الإصلاحات الجذرية التي تمس جميع نواحي الحياة الرسمية.
فالسطان عبد المجيد الذي أعلن من على [1] كرسي العرش حلول

---
(1) هذا الاستخدام لا يصح فعلى المترجم أن يقول (مِنْ فَوْق) بدل (مِنْ عَلى). حميد الدراجي.

عهد جديد لم يهمل الوضع غير المرضي من وجهة نظر النزعات الأوروبية.
الذي كان يعانيه التعليم الشعبي فأصدر في 1845 أمراً إلى الصدر الأعظم إشار فيه إلى ضرورة فتح مدارس يستطيع فيها الشعب أن يتلقى المعارف الحقيقية وأن يدرس العلوم والفن ذلك أن السطان كان يعتبر أن جهل الشعب هو السبب الرئيسي في إخفاق ما أجري من إصلاحات.

ولتنفيذ خطط عبد المجيد هذه عقد في اسطنبول مؤتمر لمندوبي الأقاليم وعندما لم يتمخض هذا التدبير عن شيء نقلت قضية إصلاح المدارس إلى لجنة حكومية خاصة توصلت إلى ضرورة إعطاء مسألة التعليم الشعبي طابعاً أكثر علمانية ووضعت برنامجاً متكاملاً أصبح مع التغييرات والاضافات التي أوردها قانون 1869 أساساً للوضع الحالي للشؤون المدرسية في الامبراطورية العثمانية (1).

وتنقسم المدارس إلى حكومية (مكتبي عمومية) وخاصة (مكتبي خصوصية) تقوم بالصرف عليها طوائف دينية منفردة وتخضع لرقابة الدولة.

وتنقسم المعاهد الدراسية الحكومية بدورها إلى ابتدائية ومتوسطة وعليا :

1 ـ تكون المدارس الابتدائية على نوعين عما :

2 ـ إبتدائي مكتبي ويتعلم فيها القراءة والكتابة الأولاد ما بين السادسة والحادية عشرة من العمر وكذلك البنات ما بين السادسة والعاشرة من العمر ولكن بشكل منفصل عن الأولاد (2).

Ed. Engelhradt : Op. Cit. T. 1. PP. 75. 77. Chap II and PP. 296 . - 298 (1)

(2) لا تعني كلمة الاولاد في اللغة العربية الفصحى الذكور فقط وإنما تشمل الذطور والإناث نعم هي في العامية تستخدم بهذا المعنى ولذا مقع المترجم في تلك الهفوة وهي من الأخطاء الشائعة. حميد الدراجي

ب - رشدي مكتبي ومدتها أربع سنوات يتعلم التلميذ خلالها أسس العقيدة الإسلامية والحساب والمساحة والتاريخ العام والوطني والنحو التركي والعربي والفارسي وكذلك لغة القومية غير المسلمة التي تؤلف أغلبية السكان في المنطقة المعينة.

2 - تتألف المدارس المتوسطة من « اعدادية » أي تحضيرية و « سلطانية » تقابل مدارسنا الثانوية ، وكلا النوعين يقبل الطلاب من جميع الأديان دون تفريق لذا فإن تدريس الدين فيها يقوم به معلمون منفردون لكل طائفة معلموها الذين ينتمون إليها. أما عن مناهج الدراسة فإن « الإعدادية » يمكن أن تعتبر إستمراراً لمدارس « الرشدي » مع بعض التوسع في المنهج فضلاً عن إدخال مواد إضافية كالعلوم الطبيعية وتاريخ الأدب التركي ومبادئ الاقتصاد السياسي. والهدف من هذه المدارس في إعتقاد رجال الإصلاح هو إعداد المعلمين والمعلمات للمدارس الإبتدائية وإعداد الأولاد للدخول في المدارس الثانوية أي « السلطانية ». لقد كان على هذه الأخيرة أن تشكل على غرار (Lycee Imperial de Galata Serai) التي افتتحت في اسطنبول عام 1868 والتي تدين في قيامها إلى علي باشا الصدر الأعظم آنذاك وإلى الاسناد الفعال الذي أبداه له في هذه القضية السفير الفرنسي لدى لباب العالي السيد (Bourec) وإلى جانب اللغات التي يكون تدريسها الزامياً في الليسية وهي التركية والعربية والفارسية والفرنسية تدرس في تلك اللغات أيضاً اللاتينية واليونانية والانجليزية والايطالية والألمانية والبلغارية والأرمنية. ويحوى منهاجها إلى جانب مواد الثقافة العامة كالتاريخ والرياضيات والتاريخ الطبيعي. علم المعادن والفيزياء والمحاسبة والرسم ومبادئ الحقوق أيضاً.

3 - وتنتمي إلى مدارس « العالية » أي المعاهد الدراسية العليا كل

من مدرسة الحقوق ومدرسة الطب والمدرسة العليا للعلوم السياسة والأدارية والمدرسة البحرية والمعهد الحربي والمدفعي ومدرسة التعدين والمعهد الصناعي ومعهد الفنون الجميلة والمعهد التجاري والمعهد البيطري والزراعي. وكل هذه المعاهد العليا وكذلك الليسية التي سبق ذكرها لا توجد إلا في اسطنبول ولم نذكرها هنا إلّا ليأتي وصفنا كاملاً [1].

لقد وضعت اللجنة التي كانت تعني بإصلاح المدارس برنامجاً متكاملاً يهدف إلى رفع مستوى التعليم. فتقرر أن يكون تعلم القراءة والكتابة مجانياً والزامياً وفرضت على الآباء الذين يمانعون في تعليم أبنائهم غرامة تتراوح ما بين خمسة ومائة قرش (ما بين أربعين كوبيكا وثمانية روبلات) وأتخذت اللجنة قراراً يقضي بأن كل مدينة يزيد عدد بيوتها على الخمسمائة بيت ملزمة بأن تكون فيها مدرسة « رشدي ».

أما إذا كان سكان المدينة ينتمون إلى أكثر من قومية فقد اعترف لكل قومية يزيد عدد بيوت أبنائها على المائة بيت بالحق في أن يكون لها مثل هذه المدرسة على أن تقوم الحكومة بالصرف عليها. وفي المدن التي يزيد عدد بيوتها عن الألف بيت افترض أن تفتح فيها مدرسة « إعدادية » واحدة على الأقل فضلاً عن مدرسة « سلطانية » أي ثانوية واحدة في مركز كل ولاية [2].

غير إن القسم الأغلب من هذه النوايا الطيبة لم يتحقق بسبب نقص المال اللازم. وإذا ما كان وضع الشؤون المدرسية في الأقاليم العثمانية في

---

(1) مجموعة التقارير القنصلية لعام 1903 ، الأصدار الأول مادة : الشؤون المدرسية في تركيا ، قنصلية السيد يترياييف السرية في خربوط.

(2) Ch. Morawitz : Op. Cit. P. 173.

أوروبا وهي الأقاليم التي خصص لها أهتمام أكبر ، يترك المجال لتمني وضع أفضل بكثير ، فإن التعليم في الأقاليم الأسيوية وعلى الأخص في البعيدة منها كالبصرة يقتصر على المرحلة الابتدائية فقط. وبالفعل لا يوجد في ولاية البصرة ولا مدرسة ثانوية واحدة بل ولا حتى مدرسة واحدة من نوع « إعدادية » ، كما إن عدد المدارس من نوع « مكتبي رشدي » و « مكتبي ابتدائي » لا يطابق البتة العدد الذي أقره القانون. ففي مدينة البصرة مثلاً التي تضم مع ضاحيتها مقام علي أكثر من ستة آلاف بيت عدا أكواخ القصب التي يعيش فيها الفقراء ، لا توجد إلّا مدرسة « رشدي » واحدة بدلاً من 12 مدرسة وهو العدد الذي أقره القانون في حين أن عدد المدارس الـ « إبتدائي » هو خمسة للأولاد وإثنتين للبنات. ولم تكن حالة مدن الولاية الأخرى بأفضل من ذلك كما يتضح من الجدول التالى الذي وضع اعتماداً على النشرة التركية الرسمية (سالنامة) لسنة 1320 هـ :

غير إن المدارس والمعاهد الدينية العليا الملحقة بالمساجد والكثيرة العدد بحيث يزيد عددها في مدينة البصرة وحدها على العشرين تعوض عن النقص في المعاهد الدراسية الحكومية في ولاية البصرة.

وأما عن « مكتبي خصوصية » أي المدارس الخاصة التي تنفق عليها الطوائف غير الإسلامية والتي تخضع لرقابة الدولة تمارسها وزارة المعارف فإن القارئ يجد عنها تفصيلات أكثر في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

المدينة	عدد البيوت	مدارس الرشدي	مدارس ابتدائي
البصرة	6000	1	7
الزبير	1500	لا يوجد	1
أبو الخصيب	400	1	1

القرنة	160	لا يوجد	1
الناصرية	500	1	1
سوق الشيوخ	500	لا يوجد	1
شطرة المنتفك	300	لا يوجد	1
الحي	600	1	1
العمارة	1000	1	1
شطرة العمارة	300	لا يوجد	1
الهفوف	3000	1	1
القطيف	6000	لا يوجد	1

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن المؤسسات المالية العاملة في العراق ونعني :

Bamque Imperiale Ottomane (1)

وكذلك :

Administration de la Dette Publique Ottomane (2)

و : (Societe de la Pegie Cointeressee des Tabacs de I , Empire Ottoman) (3).

التابعة لها فإنه يتحتم علينا أن نوضح الأسباب التي أدت إلى قيام هذه المؤسسات الدولية على أساس عثماني ذلك أننا لن نستطيع ، من دون هذا التوضيح أن نقيّم دورها وأهميتها بدرجة كافية.

---

(1) البنك الامبراطوري العثماني ـ المترجم.
(2) إدارة الدين العثماني العام ـ المترجم.
(3) شركة الريجي لانحصار التبغ في الامبراطورية العثمانية ـ المترجم.

يعتبر البنك الامبراطوري العثماني [1] الذي افتتح رسمياً في 1 حزيران عام 1863 من حيث الجوهر وريثاً للبنك العثماني الذي تأسس في 1856 برؤوس أموال انجليزية فقط والذي كان الهدف من إنشائه تشجيع تجارة الشرق الأدنى حيث تركز الجزء الأغلب من نشاطه. لذا فمن غير الممكن اعتبار البنك العثماني بنكاً عثمانياً للدولة خصوصاً بعد أن فشل في تبرير الآمال التي علقها عليه الباب العإلى لتحسين وضع العملة التي أشاع فيها الاضطراب تداول النقود الذهبية والفضيلة القليلة القيمة والتوسع اعتباراً من 1839 في إصدار النقود الورقية المعروفة باسم « قائمة » [2].

هذا في حين أن إنشاء بنك للدولة كان ضرورة ملحة بالنسبة لبلد زراعي مثل الدولة العثمانية حيث تجمع إيرادات الضرائب والاتاوات ، من جراء الانعدام التام تقريباً للضرائب غير المباشرة ، في أوقات معينة من السنة تتطابق مع مواسم حصاد أو جمع مختلف أنواع المحاصيل الزراعية. لذا لم يكن بمقدور الخزينة في مثل هذه الظروف أن تستغني عن القروض قصيرة الأجل لتغطية المصاريف الآتية الملحة فكان يتحتم عليها اللجوء إما إلى بيع المدخولات مسبقاً وإما على عقد القروض الداخلية.

وكلا الأمرين كان يؤدي إلى خسارة الحكومة بسبب الارتفاع غير الاعتيادي في نسبة الفائدة التي يتقاضاها مصرفيو گلطة [3] الذين كان يتحتم

(1) لقد إلتزمنا في جميع الحالات التي أوردنا فيها المسميات الفرنسية للدلالة على المؤسسات العثمانية بتعبير « عثماني » الذي دخل في الاستعمال دولياً والذي هو تحريف للكلمة التركية « عصماني ».

(2) A. du Veley. Op. cit. p. 189 FF : Ch. Morawitz : op. cit. p. 41 FF.

(3) گلطة أسم لأحد أحياء مدينة اسطنبول ـ المترجم.

الاقتراض منهم. وكان بالإمكان التخلص من كل هذه المساوئ لو أنشئ بنك للدولة يلزم بأن يفتح لصالح الحكومة حساباً جارياً دائماً يؤمن لها المبالغ الضرورية لتغطية المصاريف المعتادة طيلة الموسم الذي تتوقف فيه إيرادات الخزينة.

يضاف إلى كل هذه الإعتبارات الاخفاق الذي أصاب رجال المال العثمانيين عندما زاروا في 1860 العاصمة الفرنسية لعقد قرض خارجي ، الأمر الذي أقنع الحكومة نهائياً بضرورة أن يكون لها في محادثاتها مع الرأسماليين الأوروبيين وسيط يتمتع بثقة وتقدير أوروبا. وطبيعي أن بنكاً عثمانياً للدولة كان بإمكانه أن يلعب هذا الدور بنجاح.

وبعد أن قررت الحكومة تحويل [1] (Ottoman) الانجليزي إلى بنك دولة رأت بأن من الضروري أن تجذب إلى هذه القضية الرأسماليين الفرنسيين بحيث تكون حصتهم مساوية لحصة الانجليز ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد استفادت في قروضها السابقة من خدمات لندن وباريس على السواء. بيد أن نسبة مشاركة الرأسماليين الفرنسيين في البنك الأمبراطوري العثماني عند تأسيسه كانت بمقدار 5 : 8 بالمقارنة مع نسبة مشاركة الانجليز. ولم يتساو مساهمو باريس مع زملائهم مساهمي لندن في الحصص إلا في 1865 عندما زيد الرأسمال الأساس للبنك المذكور بدرجة ملحوظة.

وفي 1875 إنضم إلى هذه المجموعة الأساسية من الرأسماليين الانجلو ـ فرنسيين ، النمساويون أيضاً وذلك بفضل اندماج ما يسمى بـ (Ottomane - Banque Anstro) مع البنك الامبراطوري. وكانت مؤسستا

---

(1) البنك العثماني ـ المترجم.

الاعتماد (Creditanstalt) و (Bankverein) في وفيّنا قد انشأتا ذلك البنك النمساوي في 1871 أي عندما وصلت المشاريع النمساوية ذروتها في الدولة العثمانية بعد الحرب الفرنسية ـ البروسية غير أن هذا البنك تحتم عليه أن يتخلى عن وجوده المستقل بسبب الأزمة الصناعية الحادة التي أصابت النمسا في 1837.

وقد زاد رأسمال البنك الامبراطوري بعد الأندماج زيادة كبيرة بحيث بلغ 250 مليون فرنك كما مددت الامتياز من ثلاثين سنة كما كانت في البداية إلى خمسين سنة ثم مددت مرة أخرى لذا فإن عقد البنك مع الحكومة العثمانية ليس من المقدر أن ينتهي إلا في عام 1925 هذا إذا لم يمدد مرة أخرى.

وفي الوقت نفسه توسعت بشكل ملحوظ حقوق البنك الامبراطوري نفسها بحيث تحول من مجرد مؤسسة أقراض فأصبح الخزينة الحكومية للامبراطورية العثمانية. لقد ارتأت الحكومة أن تحول إليه جميع إيراداتها وفي الوقت نفسه ألقت على عاتقه مسؤولية دفع جميع ما تنفقه من أموال في أوجه الصرف المختلفة ضمن الكشوفات وإيرادات الميزانية. وقد زيد في مقابل ذلك الحساب الجاري الذي فتحه البنك للحكومة من 5 و 2 مليون فرنك إلى 5 و 67 مليون فرنك.

وقد تأكدت مرة أخرى امتيازات البنك السابقة وهي حقه في احتكار إصدار النقود الورقية وإعفاء البنك وفروعه من أي نوع من أنواع الضرائب

وحقه في أن تخصص له مجاناً الأراضي اللازمة لإقامة ما يلزمة من منشآت. وفضلاً عن ذلك سمح للبنك بأن يفتح له فروعاً داخل الامبراطورية وخارجها على حد سواء حسب رغبته هو مع الاستمرار في اعتباره الوسيط الرسمي الوحيد في عقد وإطفاء القروض العثمانية

الخارجية والداخلية. وقد منح البنك في مقابل قيامه بالتزامات خزينة الدولة عمولة مقدارها 15% من جميع المبالغ الواردة والمصروفة. هذا وقد استحدثت في البنك وظيفة خاصة باسم المراقب الحكومي وذلك لمراقبة صحة الحسابات.

وتتألف إدارة البنك الامبراطوري في اسطنبول من مدير وإثنين من المساعدين ومجلس من ثلاثة أعضاء تعينهم لجان خاصة من مساهمي البنك العشرين. وهناك لجنة خاصة تتألف من أربعة من الماليين الانجليز وأربعة من الفرنسيين مهمتها تنفيذ قرارات الادارة. وكان للبنك الامبراطوري في الدولة العثمانية حتى بداية القرن العشرين ستة وعشرون فرعاً إضافة إلى مركزه في اسطنبول. أما في الخارج فإن له فرعاً في كل من باريس ولندن إضافة إلى فروعه في كل من بورسعيد والاسكندرية والقاهرة.

وقد أفلح البنك الامبراطوري منذ افتتاحه في 1863 في أن يصبح ضرورياً للحكومة العثمانية إلى درجة بحيث أن أياً من مشاريع هذه الحكومة لم يكن من الممكن أن يتم دون مشاركته. وقد عقد الجزء الأغلب من قروض الدولة العثمانية الخارجية اعتباراً من 1863 بمساعدة منه. ولم يكن البنك يرفض إنجاد الحكومة في جميع الأوضاع الحرجة التي كانت تتعرض لها كما حدث مثلاً في 1877 في ذروة الحرب مع روسيا عندما لم يتسن للحكومة الحصول على النقود في الخارج حيث بادر البنك فأقرض الباب العالى المبالغ اللازمة لمواصلة الحرب. كما أن إدارة (Dette Publique) التي تعلب حالياً كما سنرى دوراً مهما في الاقتصاد الحكومى العثماني تدين بقيامها لمبادرة البنك نفسه.

وإلى جانب مشاريع الامبراطورية العثمانية ذات الصفة المالية البحتة

تلك المشاريع التي لم يكن بمقدورها الاستغناء عن مساعدة البنك المذكور فإن هذا الأخير شارك بنشاط حتى في قضية بناء السكك الحديد في الدولة العثمانية فقد أنهى في 1888 بمساعدة (Comptoir d , Esvompte) خطين فرعيين مخصصين لربط السكك الحديد التركية ، مع البلغارية والصربية عن

طريق بيلوف وأسكوب. وفي 1892 هب هذا البنك لمساعدة المصرفي الفرنسي (Rene Bandony) الذي كان قد حصل على امتياز لبناء سكة حديد « سالونيك ـ اسطنبول ». وأخيراً كان للبنك في بداية القرن العشرين يد بشكل غير مباشر في سكة حديد بغداد حيث أخذ على عاتقه مهمة تمثيل مساهمة شركة سكك الحديد سميرنا [1] ـ كسبة الفرنسيين في المحادثات التي جرت مع شركة سكك حديد الأنضول تلك المحادثات التي انتهت في أيار 1898 بالاتفاق على توحيد هاتين المؤسستين. وعلى أساس هذا الاتفاق جرى في 1901 في أفيون قره حصار اتصال قضبان خطوط السكك الحديد المذكورة الأمر الذي جعل من الممكن اعتبار الطريق الفرنسي مقدمة لسكة حديد بغداد نظراً للأفضليات الأكيدة التي تتمتع بها سميرنا من وجهة نظر التجارة الأوروبية بالمقارنة مع حيدر باشا نقطة الانطلاق السابقة لسكة حديد بغداد [2].

وإذا أضفنا إلى كل ما تقدم أن البنك الامبراطوري عمد ابتداء من 1891 إلى إنشاء صناديق للتوفير في فروعه كافة داخل الدولة العثمانية نكون قد صورنا بدرجة كافية النشاط المتعدد الجوانب لهذه المؤسسة المصرفية.

---

(1) سميرنا هوالاسم القديم لمدينة أزمير التركية ـ المترجم.

(2) A. Cheradame , Le Chemin de Fer de Bagdad Paris. 1903 PP. 44. 48.

كان البنك الامبراطوري العثماني قد افتتح فروعه في العراق الجنوبي منذ وقت قريب نسبياً وكان ذلك في آب 1893 بالنسبة لبغداد وفي بداية 1894 بالنسبة للبصرة ، فحل بذلك محل بنك فارس الشاهنشاهي هناك [1].
لقد كان البنك العثماني ينوي في البداية أن ينقل منافسته للبنك الشاهنشاهي إلى داخل فارس نفسها ، لكن هذا الأخير تناول فأغلق فروعه في العراق العربي وألزم البنك العثماني بالتخلي عن مد نشاطه إلى فارس. ومنذ ذلك الوقت يقوم البنك العثماني بكل عملياته مع فارس من خلال البنك الشاهنشاهي كما يقوم البنك الشاهنشاهي بعملياته في العراق العربي من خلال البنك العثماني وفي كلا الحالتين لا تتعدى العمولة المتفق عليها 8 / 1%.

كان فرع البنك العثماني في البصرة كما هي الحال بالنسبة لفرعه في بغداد يدار من قبل شخص اوروبي لكنه مات في سنة 1894 نفسها ولم يكن هناك ، بسبب المناخ القاتل ، من يرغب في اشغال هذا المنصب فاضطر البنك إلى إغلاق فرعه وأبقى في البصرة مراسلاً بسيطاً من الأهالي.
وأعيد فتح فرع البصرة في 1904 فسدت بذلك الحاجة الملحة التي كان التجار والبيوت التجارية الملحية يستشعرونها لمؤسسة مصرفية.

لقد انعكس ظهور البنك العثماني في العراق الجنوبي بشكل حسن على التجارة بالدرجة الأولى حيث قلل من شهية المصرفيين المحليين أي الصرافين الذين استغلوا فرصة عدم وجود منافسة أجنبية فاتفقوا فيما بينهم وأخذوا يفرضون فائدة عالية جداً على الأشخاص الذين يلجأون إلى مساعدتهم المالية. ويمكن أن نأخذ مثلاً على ذلك كبار المزارعين

---

(1) كان فرع البنك الشاهنشاهي في البصرة قد افتتح في 1891.

البصريين الذين كانوا بسبب حياتهم الباذخة يحسون بالحاجة إلى النقود في أغلب الأحيان فيقترضون من الصرّافين بفائدة لا تقل عن 24% في السنة. لقد أناخت الفوائد العالية التي يأخذها الصرافون بثقلها على مصدري الخامات المحليين بشكل خاص. فهؤلاء لا يملكون رأسمال متداولاً كبيراً لذا فإنهم يقومون بكل تجارتهم بالدين فيكون والحالة هذه انخفاض نسبة الفائدة على القروض التي ياخذونها من الصرافيين بكفالة وثائق شحن البضائع التي أرسلوها إلى الخارج قضية حيوية بالنسبة لهم. إن تلك القروض ضرورية لهم لكي يستطيعوا أن يفوا بديونهم لمجهزيهم. وقد أبدى البنك العثماني في هذا المجال خدمة كبيرة لرجال الأعمال المحليين هؤلاء.

ويمكننا أن نكون لأنفسنا تصوراً معيناً حول حجم النشاط الذي يمارسه البنك الامبراطوري في العراق الجنوبي ، باعتباره خزينة للدولة العثمانية يقوم بعمليات الايراد والصرف لجميع واردات الخزينة في هذه المنطقة إذا علمنا بأنه يرد إلى الخزينة في كل سنة ما يقرب من 4300000 روبل بالمعدل في ولاية بغداد وما يقرب من 1630000 روبل في ولاية البصرة وبأن البنك يدفع مثل هذا المبلغ في مجموعه العام لتغطية مصاريف المؤسسات الحكومية في كلا الولايتين المذكورتين [1].

أما المؤسسة الأوروبية الثانية من حيث الأهمية بعد هذا البنك في الدولة العثمانية فهي : " Administration de la Dette Publique التي تتألف

(1) لقد استخلصنا أرقام الايرادات والمصروفات هذه على أساس المعطيات الواردة في السالنامات أي الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة في سنوات مختلفة.

من ممثلين عن سديكاتات دائني الامبراطورية العثمانية من مختلف الجنسيات والتي تتصرف بربع إيرادات الحكومة العثمانية. وينظر رجال المال الأتراك إلى هذه المؤسسة على أنها وصاية دولية مقنعة على ماليات دولتهم ولهذا فإنها تستحق لهذا السبب أن نتعرف عليها بشكل مفصل.

لقد قامت هذه الوصاية نتيجة للافلاس الذي أصاب الدولة العثمانية بسبب عدم استعدادها للقروض الخارجية وهو عدم استعداد حتمته نواقص التنظيم المالى السابق في الامبراطورية العثمانية. فالدولة التي لا يوجد فيها كشف رسمي للإيرادات والمصروفات وتنعدم فيها بالتالى السيطرة على أوجه الصرف والتي تكون كل وزارة فيها غير مقيدة باعتمادات معينة وتقوم بالصرف دون اعتبار للحالة المالية ولواقع ورود المدخولات تكون محكوماً عليها بالعجز الدائم. لم تكن الدولة تستطيع أن توازن بين الدخل والمصروف وقد ارتبكت حساباتها النقدية نهائياً بعد أن أثقلت ميزانيتها بالقروض الخارجية الكثيرة العدد [1].

لقد لجأت الدولة العثمانية إلى مساعدة أوروبا المالية لأول مرة في 1854 بسبب حرب القرم ، حيث عمدت فرنسا وبدرجة أكبر انجلترا اللتان كانتا قد عقدتا حلفاً هجومياً ودفاعياً مع السلطان إلى مساعدته على عقد أول قرض بمبلغ 5000000 جنيه إسترليني مضموناً بما كان على مصر أن تدفعه للدولة العثمانية.

غير أن النقود المقترضة كانت بعيدة عن أن تكفي لتغطية مصاريف الحرب لذا وفرت الدولتان الحليفتان نفساهما للدولة العثمانية إمكانية عقد قرض جديد في 1855 بمبلغ مماثل وذلك بأن تعهدتا بدفع النسبة المئوية

A. du velay : op. cit. p. 134 FF. (1)

علـى أن يكـون ضـمان القـرض الجديـد مـدخولات كمـارك سـميرنـا وسـوريـا التـي استعيض عنهـا بعـد أن استولت بريطانيـا علـى قبـرض بمـدخولات هـذه الأخيرة.

ولـم يسـاعد القـرض الجديـد الخزينـة العثمانيـة علـى الـتخلص مـن المصـاعب التـي كانـت تعانيهـا لأن المصـاريف الهائلـة التـي تطلبتهـا الحـرب مـــع روسيا أضرت بمالية البلد ، تلك الماليـة التـي كانـت مرتبكـة أصـلاً ، كمـا أن الاسراف فـي إصـدار النقـود الورقيـة خرق هوالآخر أي توازن فـي الميزانيـة. فـي مثـل هـذا الظـرف الحـرج رأى كبـار المـاليين العثمـانيين آنـذاك أن إنقـاذ الحالــة يكمــن فــي عقــد قــرض خــارجي جديــد بمبلــغ 5000000 جينــه إسـترليني وقـد عقـد القـرض بالفعـل فـي 1858. لقـد عقـدت الصـفقة هـذه المرة دون مشاركة من حكـومتي بريطـانيـا وفرنسـا وإنمـا اسندها فقط البيت المصـرفي الانجليـزي (Dent Palmer and C) الـذي أمـن لنفسـه كضـمان للقـرض إيـرادات كمـارك اسـطنبول التـي اشـترط العقـد أن تجبـى بإشـراف مباشر من يفوضـهم المكتتبون في القرض.

ومنـذ ذلـك الوقـت أصـبح إعطـاء هـذا المرفـق أو ذاك مـن مرافـق إيرادات الدولة كضمان للقروض التـي تعقدها الدولـة العثمانيـة فـي الخـارج ظـاهرة معتـادة. وكانـت الحكومـة العثمانيـة بموافقتهـا علـى مـنح مثـل هـذه الضمانات لدائنيها الأوروبيين ، كما لو أنها تدعو بنفسها هؤلاء لأن يعتبروا أن أي وسـيلة لأقـراض الدولــة العثمانيــة المــال ليسـت مضـمونة بمـا فيـه الكفاية.

ولقـد اعتـاد رجـال المـال العثمـانيين بلجـوئهم إلـى القـروض الخارجيـة عند أول فرصة تسنح لذلك ، على هذه الوسيلة السهلة لتغطيـة العجـز المـالي وأصبحوا يلجأون إلى الاقتراض من أوروبا حتى في عمليات بسيطة مثل

دفع فوائد القروض السابقة.

وكانت الخزينة التركية في حالة فشلها في الحصول على الأموال في الخارج تلجأ إلى مصرفي گلطة فتستدين منهم ما تحتاجه من نقود بشروط مجحفة جداً بالنسبة لها.

كان وزراء المالية في الامبراطورية العثمانية في بحثهم عن النقود يسعون إلى البحث عن مصادر جديدة باستمرار للقروض التي يجتاجونها. فلقد استغلوا مثلاً حقيقة أن الدولة العثمانية التي بدأت تسير في طريق الاصلاحات أصبحت تجذب مختلف رجال الأعمال الأوروبيين فأخذوا يمنحونهم امتيازات لبناء سكك حديدية أو موانئ أو ما أشبه بشرط أن يعقد معهم من يأخذ الأمتياز مسبقاً قرضاً كبيراً كان أو صغيراً ودخل رجال الأعمال من مختلف الأمم الذين جذبهم إلى الدولة العثمانية التعطش للربح ، بدورهم ، في منافسة حامية فيما بينهم فكانوا يوافقون عن طيب خاطر على أقراض الخزينة العثمانية الأموال لمجرد أن يختطفوا من منافسيهم إمتيازاً ما يتوقعون الربح من وارئه.

وكان أصحاب الامتياز من مختلف الأمم يتفوقون في هذا المجال تبعاً للوضع الذي تحتله في اللحظة المعنية هذه الدولة الأوروبية أو تلك عند الباب العالى.

وهكذا ففي العقد الأول الذي تلا حرب القرم كان الانجليز في مقدمة رجال الأعمال هؤلاء فهم الذين ساندوا الدولة العثمانية في إصدارها لأولى قروضها وهم الذين أسسوا أولى البنوك الأوروبية في اسطنبول وهم الذين حصلوا على أولى الامتيازات لبناء السكك الحديد. ومع موت اللورد بالمرستون في 1856 ضعف نفوذ بريطانيا وانتقلت الأولوية إلى فرنسا التي احتفظت بدورها السائد في هذا المجال حتى الحرب الفرنسية ـ البروسية

في 1870 - 1871 عندها ظهر على المسرح الراسماليون النمساويون والألمان ومعهم عدد كامل من المشاريع المصرفية ومشاريع السكك الحديدية [1].

تميز تدفق رؤوس الأموال الأجنبية الجديدة بازدهار المشاريع والامتيازات من مختلف الأنواع وأدى إلى أن تفتتح في عاصمة الامبراطورية العثمانية بنوك كثيرة العدد أهلية وأجنبية. وقد بدا كما لو أنه قد حان وقت انبعاث مالية الدولة العثمانية وتجارتها وصناعتها. غير أن الواقع كان غير ذلك فقد ظل كل شئ على حاله فالحكومة ظلت كالسابق تعاني الحاجة إلى النقود وتقترض المبالغ التي تحتاجها بفوائد عالية في الوقت الذي كانت فيه مؤسسات الأقراض المختلفة تعطي لمساهميها فوائد لم يسبق لها مثيل علماً بأن أرباحها لم تكن تأتي من المشاريع التجارية أو الصناعية وإنما وبشكل كلي من القروض التي كانت تمد بها الخزينة العثمانية بشكل مكثف.

ولم يعد لدى الحكومة في نهاية المطاف من مرافق إيرادات الدولة ما هو حر لضمان القروض الجديدة ، وذلك نتيجة لنظام الضمان المعمول به. وبسبب من توزيع تلك المرافق على المقرضين القدماء تحتم الدخول مع هؤلاء في اتفاقية تقضي باقتطاع جزء معين من الايرادات التي سبق التنازل عنها لهم لمصلحة المقرضين الجدد.

وطبيعي أن فرص الدولة العثمانية للاقتراض من أوروبا كانت في ظل مثل هذه الأوضاع تتقلص باستمرار ، خصوصاً بعد أن أخذت الصحافة الأجنبية التي كانت منذ نهاية الستينيات تقرع ناقوس الخطر مشيرة إلى

---

(1) A. du velay. Op. cit. p. 293 FF.

وضع مالية الدولة العثمانية الميؤوس منه ، تشن حملة جديدة وتتنبأ لجميع دائني الباب العالى بحتمية الافلاس.

ولم تستطع حتى لجنة خاصة تشكلت في اسطنبول ، قبل أن تحل الأزمة ، من الماليين الفرنسيين والانجليز والنمساويين أن تقضي على المصاعب المالية التي وقعت فيها الحكومة العثمانية نتيجة لشغفها المفرط بالقروض الخارجية. لقد كانت اللجنة ترمي إلى إعادة تنظيم مالية الدولة العثمانية على أسس أوروبية ، غير أنها اصطدمت منذ خطواتها الأولى بسوء ظن ظاهر من جانب الأدارات التركية المختلفة. الأمر الذي اضطرها لان تغلق أبوابها دون أن تتمكن من عمل شيء باستثناء توصلها لوضع الخطوط العامة لأول ميزانية حكومية عثمانية ، غير أن أياً من الوزارات العثمانية لم تر ضرورة العمل بهذه الميزانية [1].

وهكذا كانت اللحظة الحرجة بالنسبة للدولة العثمانية تقترب بخطى حثيثة. ففي بداية 1874 احتج اصحاب السندات المالية الفرنسيون أمام حكومتهم بسبب امتناع الباب العالى عن دفع القسيمة الدورية الأمر الذي أدى إلى أن يفرض حجز موقت على جميع مبالغ الحكومة العثمانية المودعة في فرع البنك العثماني في باريس.

لقد كانت هذه الحادثة نذيراً للزوبعة التي هبت في السنة التالية عندما تبين أن دخل الحكومة الذي كان مقدراً له أن يصل في السنة المالية 1874 - 1875 إلى 5 ، 570 مليون فرنك لم يتجاوز في واقع الأمر 380 مليون فرنك ، في حين كان يتوجب أن يدفع كأقساط للقروض الخارجية فقط ما لا يقل عن 300 مليون فرنك ذلك أن دين الدولة الخارجي كان قد بلغ

---

(1) Ch. Morawitz. Op. cit / p / 26 FF.

حتى ذلك الوقت 4 مليارات و 811 مليون فرنك إضافة إلى 185 مليون أخرى كانت الحكومة قد اقترضتها من البنك العثماني ومن المصرفين المحليين في اسطنبول [1].

ولم تنجح محاولات الباب العالى لحل المشكلة باللجوء إلى قرض خارجي جديد لذا وجدت الحكومة نفسها مضطرة لأن تعلن إفلاسها في بلاغ رسمي صدر في 6 تشرين الاول 1875. فبحجة ضرورة إعادة التوازن إلى الميزانية أعلن الباب العالى على رؤوس الأشهاد قراره القاضي بأنه سيعمد طيلة السنوات الخمس القادمة إلى دفع نصف ما كان يدفعه سابقاً كفوائد وأقساط للقروض ووعد بأن يطرح في المستقبل القريب مقابل النصف الذي لم يدفع سندات بفائدة مقدارها 5% [2].

أن الانتفاضة التي اشتعلت في البوسنة والهرسك في تلك السنة ذاتها والحرب التي أعقبت ذلك مع صربيا والجبل الأسود أعاقت الدولة العثمانية عن أن تدفع لدائنيها حتى النصف الذي وعدت به ، وكانت النتيجة أن الدائنين الأجانب لم يتسلموا اعتباراً من نيسان 1876 ولا كبيكاً واحداً في مقابل الأموال التي كانوا قد اقرضوها للحكومة العثمانية.

في هذا الوقت بالذات اعلنت روسيا على الدولة العثمانية الحرب التي انتهت في غير صالح هذه الأخيرة وأضافت إلى ديونها الكثيرة السابقة غرامة حربية مقدارها 300 مليون روبل. وقد أثار ذلك لدى دائني الباب العالي الوطنيين الأجانب مخاوف غاية في الجدية حيث خشوا أن توجه الحكومة جميع مصادرها المالية لدفع هذه الغرامة متخلية عن ديونها

---

(1) A. du Velay. Op. cit. p. 324 FF. Ch. Morawitz , op. cit p. 51 FF.

(2) A. du Velay : op. cit. p. 316 FF.

السابقة. وهكذا نسي الدائنون الانجليز والفرنسيون تنافسهم الدائم وأسرعوا بالإتحاد في سنديكات واحد ووجهوا إلى ممثلي الدول الأوروبية المجتمعين في مؤتمر برلين مذكرة طلبوا فيها حماية مصالح حملة السندات العثمانية الأجانب. وحذا مصرفيو اسطنبول حذوهم فأرسلوا إلى برلين مندوبين عنهم للغرض نفسه.

وقد لاقت الالتماسات المشار إليها اهتماماً وعطفاً من جانب المؤتمرين فأعلن الكونت كورتي ممثل ايطاليا بتخويل من زملائه بأن « الدول الممثلة في المؤتمر ترى بأن من الضروري أن تنصح الباب العالي بأن يؤلف في اسطنبول لجنة مالية من المختصين الذين تعينهم الدول المعينة تناط بها مهمة النظر في مطالب دائني الدولة العثمانية والبحث عن أكثر الاجراءات فعالية لتطمين هذه المطالب بما يتفق وحالة مالية الدولة العثمانية ، وقد أيد ممثلو الدولة كافة اقتراح المندوب الايطالى هذا بما في ذلك ممثل روسيا لكن ممثل الدولة العثمانية اعتبر تأليف لجنة دولية أمراً مهينا لكرامة الامبراطورية فأسرع وقد باسم حكومته وعداً مهيباً بأن الباب العالي لن يتوانى عن الاتفاق مباشرة مع دائنيه وسيبذل جهده لإرضائهم بالقدر الذي تسمح به حالته المالية.

ومنذ ذلك الوقت أخذ شبح السيطرة الدولية يطارد بإلحاح الماليين العثمانيين الذين كانوا يجهدون بالبحث عن وسائل لإنقاذ الدولة العثمانية من مهانة كهذه.

وانبرى البنك الامبراطوري العثماني لسماعدتهم فتزعم مصرفيي گلطه وقدم للحكومة مشروعاً بدا كما لو أنه يدرأ الخطر المذكور [1].

A. du Velay. Op. cit. p 397 FF : Morawitz. Op. cit. p. 55 FF. (1)

وهكذا قضت الاتفاقية التي وقعت في 10 تشرين الثاني 1879 بأن تؤجر الحكومة لهذه البيوت المصرفية لمدة عشر سنوات ، احتكاري التبغ والملح ورسوم الدمغة وإيرادات الضرائب المفروضة على المشروبات الروحية وصيد الأسماك في مياه اسطنبول وضريبة العشر المفروضة على الحرير في ادرنه وبروصة وسامسون.

وقد خصص مبلغ 1 ، 100 ، 000 ليرة عثمانية أي 9 ، 350 ، 000 روبل من هذه المدخولات لإطفاء الدين المستحق للبنك نفسه ولمصرفي كلطة ، أما الباقي فكان يجب أن يدفع للدائنين الأجانب. وقد سارع المتعهدون بالمباشرة في إدارة الايرادات التي تنازلت لهم الدولة العثمانية عنها وشكلوا لهذا الغرض :

"Administration des six Contributions indirectes"[1].

الذي كان الشكل الأولى لـ (Dette Publique) الذي قام فيما بعد.

غير أن آمال الحكومة العثمانية في أن تقضي التدابير المذكورة على كل سوء تفاهم كانت سابقة لأوانها. فقد اعتبر دائنو الامبراطورية العثمانية الأجانب أنها قد تخطتهم ، فتوجهوا إلى الحكومات المعنية يطلبون حماية مصالحهم الأمر الذي أدى إلى عدة اتصالات رسمية قام بها مع الباب العالي سفيرا بريطانيا وفرنسا. وقد رأت الحكومة العثمانية في هذه الخطوة تهديداً جديداً بالتدخل الدولي في شؤون الدولة المالية فأسرعت بإصدار مذكرة خاصة في 3 تشرين الأول 1880 دعت فيها ممثلين عن دائنيها الأجانب للمجيئ إلى اسطنبول لوضع اتفاقية نهائية ووعدت بأن تخصص لهم بعض الموارد الأخرى عددتها في المذكرة إضافة إلى الفائض من

---

(1) إدارة الاسهامات الستة غير المباشرة ـ المترجم.

الايرادات التي كان قد جرى التنازل عنها لصالح مصرفيي گلطة المحليين.

وانصاع الدائنون الأجانب لإلحاح البنك الامبراطوري العثماني فإتحدوا في سنديكاتات شكلوها على أساس قومي وأسرعوا بالاستجابة لهذه الدعوة ، وهكذا افتتحت لجنة مالية مؤلفة من ممثلين عن سنديكاتات فرنسا وبريطانيا والنسما ـ المجر وايطاليا ومن خسمة مندوبين عثمانيين جلساتها في ايلول 1881 في عاصمة الامبراطورية العثمانية. وقد توصلت اللجنة إلى عقد اتفاقية مع الباب العالى أكدها مرسوم 28 محرم 1299 هـ (8 كانون الأول 1881 م) ، نصت على تأليف إدارة (Dette Publique Ottomane) على أن يقتصر نشاط وحقوق هذه المؤسسة المالية الدولية الدائمة على الأراضي العثمانية فقط [1].

وقد جابهت اللجنة أثناء وضعها لبنود الإتفاقية أكبر المصاعب من جانب « إدارة الضرائب الست غير المباشرة » التي سبق ذكرها ذلك أن مصرفي گلطة رفضوا أن يتنازلوا عن الإمتيازات التي منحتها لهم الحكومة وأصروا على ما أعترف لهم به من حق بالتقدم على غيرهم من الدائنين. وبعد محادثات طويلة جرى الإتفاق على أن يأخذ البنك العثماني على عاتقه تطمين جميع مطالب الأشخاص الموقعين على اتفاقية 1879 من الحكومة على أن توضع تحت تصرف البنك لتغطية هذه الديون التي اعتبرت ديوناً ممتازة 590000 ليرة عثمانية (0150000 ، 5 روبل) فقط وليس 1100000 ليرة (9350000 روبل) كما كان مقرراً في البداية.

وقد حصل البنك إضافة إلى ذلك على أن يكون من حقه أن يمثله

(1) A. du Velay. Op. cit. p. 421 FF.

في مجلس (Dette Publique) مندوب واحد بهيئة مفوض من قبل حملة السندات المالية العثمانية الممتازة. وقد أقر الباب العالى من جانبه بهذه الاتفاقية وألغى اتفاقه مع البنك ومصرفيي گلطة وبذلك انتقلت « إدارة الضرائب الستة غير المباشرة » إلى يد : Administration de la Dette Publique Ottomane "" وبعد أن انتهت اللجنة من هذه القضية الصعبة انهمكت بتوزيع قروض الدولة العثمانية الداخلية والخارجية على أساس القوة التي توفرها الضمانات التي أعطيت لكل منها. ونتيجة لذلك استثنيت قروض 1854 و 1871 من دائرة نشاط إدارة (Dette publiqe) باعتبار أنها ضمنت بالإيرادات المتأتية من مصر ، وكذلك فرض 1855 الذي ضمنته بريطانيا وفرنسا إلى (Dette Flottmane) [1] والغرامة الحربية التي ينبغي دفعها لروسيا ، علماً بأن البندين الأخرين قد فصلا عن دين الإمبراطورية العام رغم إرادة وإصرار الأعضاء العثمانيين في اللجنة.

ونتيجة لفصل الغرامة الحربية عن الدين العام أبعدت روسيا عن المشاركة في إدارة (Dette Publique Ottonane) ذلك أن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى الأقتراض منها عند عقدها لأي من قروضها الخارجية. وهكذا تالف مجلس إدارة (Dette Publique) من مندوبي بريطانيا وفرنسا والمانيا وإيطاليا والنمسا ـ المجر علماً بأن المندوب الإنجليزي يعتبر ممثلاً للأراضي المنخفضة وبلجيكا ، إضافة إلى مندوب عن دائني الدولة العثمانية المحليين وأحد أعضاء إدارة البنك العثماني الذي كان كما أشرنا يمثل حمل السندات المالية العثمانية الممتازة.

ولم يكن بإستطاعة أعضاء المجلس هؤلاء أن يشغلوا في الوقت نفسه أي منصب دبلوماسي أو قنصلي ولا أية وظيفة رسمية أخرى في

(1) الدين العائم ـ المترجم.

الدولـة العثمانيـة وهم لا يعينـون مـن قبـل حكومـات الـدول المعنيـة بالقضـية وإنمـا ينتخـبهم لمـدة خمـس سـنوات قابلـة للتجديـد حملـة الأوراق العثمانيـة أنفسهم ممثلين بالبيوتات المصرفية ومؤسسات الأقراض [1] من أمثال :

في بريطانيـا والسـتديكات "Council of foreign Bondholders "[2] المؤلـف مـن : "Banque de Paris et des Pays Bas "[3] و"Credit Luonnais"[4] و"Comptoir Natinal d , Escompte "[5] و"Societe Generale"[6] و"Credit Ansalt" واتحـاد "Bamque Lmperiale Ottomane" فـي فرنسـا و"Credit Foncier" و"Banque anglo - antrichienne" فـي النمسـا ـ المجـر والسـنديكات المؤلـف مـن البيـت المصـرفي "Bleichtoder" و"Deutsche Bank" والمؤسسـة الحكوميـة "Deehamdlung" فـي المانيـا وأخيـراً مجلـس روما التجاري في ايطاليا. أما في الدولـة العثمانيـة فـإن الجهـة التـي تضـطلع بهـذه القضـية هـي مجلـس الـدائنين العـام فـي حـين يعـين البنـك العثمـاني كمـا ذكرنـا مندوباً عن حملة النسدات الحكومية العثمانية الممتازة.

ويقـوم مجلـس إدارة (Dette Publique) بجمـع الإيـرادات بواسـطة الموظفين التابعين لـه ويراقـب صـحة دفـع الفوائـد والـديون ويضـع قبـل بدايـة السنة الماليـة كشفاً خاصـاً يصـبح بعـد أن تصـادق عليـه الحكومـة عامـاً لكـل الأمبراطورية. هذا إضـافة إلـى أنـه يقدم للباب العالـى تقارير شهرية عن

---

(1) Ch Morawitz. Op. cit. p. 225FF.
(2) مجلس حاملي السندات الأجانب ـ المترجم.
(3) بنك باريس والأراضي المنخفضة ـ المترجم.
(4) اعتماد ليون ـ المترجم.
(5) المؤسسة الوطنية للحسم ـ المترجم.
(6) الجمعية العامة وهو اسم لبنك فرنسي ما زال قائماً ـ المترجم.

عملياتـه الماليـة. وللمجلـس سـلطة غيـر محـدودة فـي مجـال تحسـين إدارة الإيـــرادات الموضـــوعة تحـــت أو إدخـــال الجديـــد فيهـــا بشـــرط أن لا تتعارض التغييرات والتحسينات التـي يـدخلها مـع القـوانين النافذة ولا تـؤدي إلى فرض ضرائب جديدة وإلا فيتحتم عليه فـي هذه الحالـة أن يحصـل علـى موافقة الحكومة مسبقاً.

وتتحقـق سـيطرة الحكومـة علـى نشـاط إدارة (Dette Publique) بأسـلوبين : بمسـاعدة المفتشـين وبواسـطة مفـوض خـاص مـن قبلهـا. يخـول المفتشـون بفحـص السـجلات وتفتـيش الخـزائن أو اسـتجواب المـوظفين وعموماً جميع الأعمال التـي تسـاعد علـى معرفـة الوضـع دون أن يكـون لهـا طـابع التـدخل المباشـر فـي شؤون الإدارة. أمـا عن المفـوض الحكـومي فإنـه يحضـر اجتماعـات المجلـس بصـفة إستشـارية فضـلاً عـن أنـه يقـوم بـدور الوسيط خلال الاتصالات المباشرة بين الحكومة وإدارة (Dette Publique).

والمجلس مستقل تماماً في جميـع النـواحي الأخـرى فهـو يعين وينقل ويفصـل المـوظفين كافـة بمـن فـيهم المـدير دون أي تـدخل مـن جانـب الحكومـة. وتتجسـد السـلطة المطلقـة. التـي يتمتـع فيهـا المجلـس فيمـا يتعلـق بمـلاك الإدارة يشكل أكثـر وضـوحاً إذا علمنـا بـأن مـوظفي مؤسسـة (Dette Publique) يعتبرون موظفين حكـوميين عثمـانيين يصـل عـددهم إلـى 5000 شخص موزعين على فروع إدارة الدين البالغ عـددها 720 فرعـاً وأغلبيتهم الساحقة مسلمون. ومما يزيد من تأكيد الوضـع المتميز الـذي تشغله إدارة (Dette Publique) فـي الإمبراطوريـة العثمانيـة أن المـادة التاسـعة عشـرة مـن مرسـوم محـرم نصـت علـى أن جميـع المنازعـات والخلافـات بـين الإدارة المـذكورة والحكومـة تحـل عـن طريـق مجلـس تحكيمـي قراراتـه غيـر قابلـة للاستئنـاف.

وقبل أن ننتقل على الحديث عن الإيرادات الحكومية التي وضعت تحت تصرف إدارة (de la dette Publique Ottomane) ينبغي أن نتعرض باختصار للاجراءات وضعتها اللجنة المالية الدولية التي سبقي ذكرها بهدف تسهيل تسديد ديون الدائنين العثمانين.

لقد رأت اللجنة قبل أي شيء بأن العدل يقضي بتخفيض حجم الدين العثماني الحكومي إلى النصف تقريباً آخذه بالحسبان لا القيمة الأسمية لكل قرض وإنما المبلغ الحقيقي الذي استلم من الاكتتاب فيه. إن الفرق الكبير بين الدين الاسمي والحقيقي يفضح الشروط المجحفة التي تحتم على الباب العالى أن يستفيد في ظلها من المساعدة المالية للمصرفين الأجانب.

وبعد أن توصلت اللجنة إلى تعيين مقدار الدين عملت على تحديد أسلوب إطفاء القروض المختلفة فقسمتها إلى المجموعات الأربع التالية :

1 ـ المجموعة (أ) وتضم قروض 1858 و 1862 ومقدارها 260 ، 902 ، 7 ليرة عثمانية (210 ، 169 ، 67 روبل).

2 ـ المجموعة (ب) وتضم قروض 1860 و 1863 ـ ومقدارها 260 و 1873 ومقدارها 151 ، 265 ، 11 ليرة عثمانية (783 ، 753 ، 95 روبل).

3 ـ المجموعة (ج) وتشمل قروض 1865 و 1863 ـ 1864 ـ 1872 ومقدارها 762 ، 905 ، 33 ليرة عثمانية (977 ، 198 ، 288 روبل).

4 ـ المجموعة (د) وتشمل :

1 ـ الدين المدور ومقداره 236 ، 365 ، 48 ليرة عثمانية.

2 ـ القرض الداخلي مع الفوائد ومقداره 548 ، 632 ، 15 ليرة عثمانية.

وبذلك يكون مقدار هذه المجموعة 784 ، 997 ، 63 ، ليرة عثمانية (164 ، 981 ، 543 روبل).

المجموع : 957 ، 070 ، 117 ليرة عثمانية (2 / 4 ، 13 ، 103 ، 1995 روبل 9.

وكان إطفاء هذه المجموعات يجري في بداية الأمر على النحو التالي : بعد أن يحسم من إيرادات السنة المعينة مبلغ 000 ، 590 ليرة عثمانية (و 000 ، 5015 روبل) وهو المبلغ المستحق للبنك العثمانييدفعه لحملة السندات الممتازة تخصص أربعة أخماس المبلغ المستحق للبنك العثماني يدفعه لحملة السندات الممتازة تخصص أربعة أخماس المبلغ المتبقي لدفع الفوائد في حين يخصص الخمس الأخير على أن لا تزيد قيمته على 1٪ من رأس المال لإطفاء مجموعات الديون المذكورة أعلا. وعندما رأت إدارة (Dett Publique) بأن المبلغ المخصص لإطفاء هذه المجموعات كان قليلاً على الدوام بحيث يذهب كله تقريباً لإطفاء المجموعة الأولى عمدت في 1890 وبالاتفاق مع البنك العثماني إلى تغيير قائدة السندات الممتازة من 5٪ إلى 4٪ وخصص المبلغ الذي توفر من هذه العملية ومقداره 500 ، 159 ليرة عثمانية 750 و 355 ، 1 روبل) سنوياً لإطفاء المجموعات المذكورة بواقع 000 ، 11 ليرة عثمانية 0 (500 ، 93 روبل) للمجموعة الأولي و 500 ، 49 ليرة عثمانية (750 ، 420 روبل) لكل من المجموعات الثلاث الأخرى.

وقد أطفأت المجموعة الأولى نهائياً في خلال السنة المالية 1798 - 1899.

أما المجموعة الثانية فكان يفترض أن تطفأ في فترة لا تتعدى عام 1911 في حين من المؤمل أن تطفأ الثلاثة عام 1936. أما الرابعة فلم يكن من المؤمل أن تنتهي قبل عام 1945.

وعلى هذا الأساس كان من الممكن لإدارة (Dette Publique) التي بدأت عملها في الدولة العثمانية اعتباراً من 1882 أن تستمر ثلاثاً وستين سنة لو لم يزدد طول هذه المدة كما سنرى بسبب التوسع الجديد الذي

طرأ على دائرة نشاط تلك الإدارة.

وهناك إيرادات لا توجد حتي الآن إلا على الورق وهي :

1 ـ الفائض من إيراد الزيادة المنوي إدخالها على ضريبة الدخل وهي الضريبة التي بإمكانها أن تعوض عن « التيميتو » القائمة حالياً أي ضريبة الخمسة بالمائة المفروضة على إيرادات التجار والحرفيين والموظفين وكذلك العمال باليومية.

وبما أن سكان العاصمة وكذلك جميع الأجانب معفوون من هذه الضريبة فقد بدأ الباب العالي يعمل ، بدفع من إدارة (Dette Publique) للحصول على موافقة ممثلي الدول في اسطنبول على أن تفرض ضريبة الدخل على الرعايا الأجانب كافة. غير أن الحاج الحكومة العثمانية في هذا المجال لا يصادف عطفاً من جانب السفراء الذين يعتبرون البدعة التي يجري التخطيط لها خرقاً مباشراً لنظام الامتيازات.

2 ـ فائص إيرادات الكمارك الذي سيتأتي من الضريبة الكمركية الجديدة المزمع فرضها على البضائع المستوردة بنسبة تتراوح بين 3٪ و 20٪

بدلاً من الضريبة الموحدة القائمة حالياً. وتشير الحسابات التقديرية إلى أن هذا الفائض سيبلغ 500000 ليرة عثمانية (4250000 روبل) في السنة ، ومن المستبعد أن يذهب الفائض المذكور إلى صندوق الإدارة حتى لو وافقت الدول على الزيادة المنوي إدخالها على التعريفة الكمركية وذلك بسبب المصاعب التي تجابهها الحكومة في قضية منح ضمانات كيلومترية (1)

(1) كانت الضمانات الكيلومترية إحدى الوسائل التي لجأت إليها الشركات الأجنبية لاستغلال الدولة العثمانية ومفادها أن الحكومية العثمانية كانت تضمن للشركات الأجنبية التي تبني السكك الحديدية في الدولة العثمانية دخلاً ثابتاً عن كل كيلومتر من خطوط السكك تقوم ببنائها في الأراضي العثمانية ـ المترجم.

لشركة سكة حديد بغداد.

3 ـ المبالغ المستحقة للدولة العثمانية من صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان وهي الدول التي وافقت بموجب قرارات مؤتمر برلين على أن تأخذ على عاتقها جزءاً من الدين العثماني الحكومي يتناسب مع سعة الأرض العثمانية التي ذهبت إلى كل من هذه الدول. غير أن حجم هذه المشاركة لم يجر تحديده لا في معاهدة برلين ولا في القرارات الدولية تبعت ذلك ، وإذا ما كان ينبغي علينا أن نشير إليها الآن فإننا ، بسبب

من تقادمها ، نفعل ذلك لا لشيء إلا لكي يكون عرضنا للموضع شاملاً.

أما عن المبالغ التي تدفعها الحكومة نفسها فهي :

1 ـ 100000 ليرة عثمانية (850000 روبل) مقابل الأتاوة التي لم تدفعها بلغاريا.

2 ـ 102596 ليرة عثمانية (872066 روبل) تعويضاً عن إيرادات جزيرة قبرص ذلك أن بريطانيا التي احتلت هذه الجزيرة في 1878 والتزمت بموجب اتفاقية عقدتها مع الباب العالي ، بأن تدفع إلى الخزينة العثمانية كل الفائض من مدخولات الجزيرة بعد أن تقتطع منها مصاريف إدارتها ، قامت في نهاية المطاف بتخصيص جميع إيرادات قبرص لإطفاء قرض 1855 الذي فصل عن إشراف إدارة (Dette Publique).

3 ـ 50000 ليرة عثمانية (425000 روبل) تدفع ممن ما تدره الضريبة الكمركية « تمبكية » أي تبغ النرجيلة المستوردة من فارس.

4 ـ الجزية التي كان على الروميلي الشرقية أن تدفعها والتي نص ميثاق 1879 على إنها ينبغي أن تؤلف 10 / 3 مدخولات ذلك الأقليم أي ما

يقارب 2040000 روبل كما أشارت التقديرات الأولية ، غير إن مجلس الشعب في ذلك الأقليم وهو أقليم يتمتع باستقلال ذاتي قلص هذا المبلغ

بمقدار الثلث ، بحيث أصبح مليون روبل تقريباً. وبسبب الخلل الذي كان يعتري ورود هذه المبالغ وصلت المبالغ المتأخرة حتى بداية القرن العشرين إلى خمسة ملايين فرنك وهو مبلغ كبير اعتبرته إدارة (Dette Publique) ديناً على الحكومة العثمانية.

وأما الصنف الثالث من الايرادات فهو فروع الاقتصاد الحكومي التي تستغلها إدارة (Dette Publique) نفسها بشكل مباشر ونعني احتكاري التبغ والملح ورسوم الدمغة والضريبة المفروضة على المشروبات الروحية والعشر المفروض على الحرير وضريبة صيد الأسماك. وبما إننا سنتحدث عن احتكار التبغ الذي أعطي بالإلتزام إلى شركة خاصة هي : " Regie Cointeressr des Tabacs de I , Empire Ottoman "بشكل منفرد ، فإننا سننتقل إلى الحديث عن احتكار الملح مباشرة ، لقد قام الإحتكار المذكور في 1862 ويشكل استغلاله مصاعب غير قليلة بسبب وفرة الملاحات المنتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية وبسبب النقص الواضح في طرق المواصلات الجيدة الأمر الذي يؤدي إلى زيادة التكاليف زيادة غير معتادة علماً بأن التكاليف مرتفعة أصلاً بسبب ضرورة مكافحة التهريب الواسع الأنتشار وكثرة الملاحات التي يتحتم استغلالها والتي تبلغ 117 ملاحة. وتقوم السلطات التركية الملزمة بمساعدة الإدارة ضد المهربين بقوة السلاح ، بتنفيذ واجبها هذا على كره منها.

وتجابه الإدارة المذكورة عقبات كثيرة أخرى لا يمكن تذليلها عند ممارستها لحقوقها في العراق الجنوبي حيث تقع مكامن ملح في اغلب الأحيان في المناطق التي تقطنها القبائل العربية الرحالة أو شبه الرحالة التي تقوم باستغلالها لمحصلحتها الخاصة دون أن تحسب حساباً بالطبع لأي احتكار. ولذلك فإن إدارة (Dette Publique) لا تستغل في ولاية البصرة إلا

ثمـان مكـامن للملـح هـي حمـدان والكبريـت فـي سـنجق البصـرة وسـيروت وأبو روية وبنـي مالـك فـي سنجق العمـارة والمنتفـك والجزائر ودوكـا فـي سنجق المنتفك [1]. ويباع الملح المستخرج من هذه المكـامن 2 / 1 كوبيكاً للباوند الواحد بـدلا مـن السـعر المعتـاد وهـو 2 / 1 ، 1 كوبيـك وذلـك لكـي يستطيع منافسة الملح الذي يبيعه المهربون.

وعلـى الـرغم مـن كـل مصـاعب الأسـتغلال كانـت إيـرادات (Dette Publique Ottomane) مـن احتكـار الملـح تـزداد مـن سـنة لأخـرى فقـد ارتفـع إيـراد هـذا الاحتكـار مـن 029 ، 618 ليـرة عثمانيـة (5253246 روبـل و 50
كوبيكاً) في 1882 إلى 949169 ليرة عثمانيـة (8067936 روبـل و 50 كوبيكاً) في 1900.

إمـا عـن ضـريبة الدمغـة فإنهـا لا زالـت حتـى الآن مثـاراً لسوء التفـاهم باسـتمرار بـين مجلـس إدارة (DettePublique) والحكومـة العثمانيـة مثلمـا كان شـأنها قبـل 1894 أي قبل تعميمهـا علـى الرعايـة الأجـاب عنـدما كانـت تثير نزاعات مستمرة بين الباب العالى وممثلـي الـدول. لقد تحـتم علـى إدارة (Dette Publique) منذ بدايـة نشـاطها فـي الدولـة العثمانيـة تقريبـاً أن تكـافح ضـد ادعـاءات الحكومـة العثمانيـة ، فـي امـتلاك هـذه الضـريبة أو تلـك مـن ضرائب الدمغـة : ففـي 1884 انتزعـت مـن أشـراف الإدارة ضـريبة الدمغـة المفروضة على جوازات السفر وشهادات المرور ، وفـي 1888 اسـتطاعت إدارة (Drtte Publique) أن تدفع الباب العالي إلى أن يفرض ضـريبة الطـابع علـي انـواع جيـدة كثيـرة مـن النشـاطات والوثـائق وغيرهـا ولكـن بشـرط أن تتنـازل الإدارة للخزينة العثمانية عن نصف المبالغ التي تحصل عليها من

---

(1) V.Cuinet : Op. Cit. T. III. P. 228.

هذا الطريق ، وفي 1889 طرحت الحكومة للاستعمال طوابع خاصة لا يدخل إيرادها في خزينة (Dette Publique) على اعتبار إنه مخصص لغاية معينة هي إعانة المسلمين الذين ينزحون إلى الدولة العثمانية من الأقطار الأخرى مادياً.

وعلى الرغم من كل ما تأخذه الحكومة من إيراد ضريبة الدمغة مما ذكر أعلاه فإن هذا الإيراد يتجه اتجاهاً واضحاً نحو الزيادة فقد ازداد من 392 ، 138 ليرة عثانية (332 ، 176 ، 1 روبل) في 1882 إلى 926 ، 225 ليرة عثمانية (371 ، 920 ، 1 روبل) في 1900.

أما الضريبة المفروضة على المشروبات الروحية فإنها تنقسم إلى ثلاثة أصناف هي :

1 ـ الضريبة المفروضة على النبيذ والجعة والعرق.

2 ـ الضريبة المفروضة على الكحول الأجنبي والمحلي.

3 ـ الـ « بيئي » وهي الضريبة التي تفرض على من يحصل على ترخيص بالمتاجرة بالمشروبات الروحية.

وإلى جانب ضريبة العشر وضريبة الأرض التي يذهب إيرادها إلى الخزينة مباشرة تفرض على صانعي الخمور ضريبة أخرى تسمى « رسمي مبري » مقدارها 15٪ من قيمة جميع ما يصنعونه من الخمر. ويجري تحديد كمية الخمر هذه بواسطة تحديدها سنوياً من قبل المجالس الإدارية القائمة في الأقضية والسناجق. وتخفض هذه الضريبة على الخمور التي تصدر إلى خارج الدولة العثمانية بمقدار النصف في حين لا تخضع الخمور المستوردة من الخارج لهذه الضريبة وإنما تدفع عنها الضريبة الكمركية فقط. وتنطبق هذه القواعد نفسها على العرق والجعة المنتجة محلياً وتؤخذ منها أيضاً نفس النسبة أي 15٪ من القيمة الكلية.

وينبغي أن نلاحظ بأن إدارة (Dette Publique) لا تكتفي بجباية الضرائب المذكورة فقط وإنما كانت تتخذ الاجراءات اللازمة لتوسيع صناعة الخمور المحلية وذلك بمساعدتها مثلاً في مكافحة الفيلوكسيرا [1]. فقد وزعت لهذا الغرض مجاناً كرمات أمريكية محسنة وافتتحت مدرسة خاصة في أيرنكوب لتعلم كيفية تطعيمها. [2]

كان مقدار الضريبة المفروضة على الكحول المحلي والمستورد 32 بارة (4 ، 6 كوبيک) على الحقة التي تعادل 1 ، 3 باوند ، إضافة إلى الضريبة الكمركية ، وقد زيدت في 1897 فأصبحت 48 بارة (6 ، 9 كوبيک) على الحقة وهي إما أن تأخذ راساً على جميع كمية الكحول الموجود عند الشخص المعني وإما تدريجياً على كل كمية من الكحول تخرج من المستودع الذي يحفظ مفتاحه عند وكيل إدارة (Drtte Publique). وقد أرادت الإرادة المذكورة أن تزيد دخلها من هذا المرفق فحاولت أن تدفع الحكومة إلى زيادة الضريبة المفروضة على الكحول الأجنبي أو السماح بانشاء مصلحة خاصة لتقطير الكحول بهدف إقامة احتكار خفي في الدولة العثمانية ولكنها لمن تنجح لا في هذا ولا في ذلك.

أما عن الـ « بيئي » أي الضريبة المفروضة على رخص المتاجرة بالمشروبات الكحولية فإنها كانت تعادل 25٪ من قيمة الإيجار السنوي للمحل الذي يقتصر على بيع المشروبات الكوحلية ونصف هذا المبلغ من المحلات التجارية التي لا تتجاوز كمية المشروبات الكحولية نصف

---

(1) الفيلوكسيرا هي نوع من الحشرات تتضرر منها النباتات وخصوصاً العنب ـ المترجم.

(2) Ch. Morawitz Op Cit. PP. 311 - 312.

البضاعة المعروضة فيها.

لقد وصل إجمالي الدخل من جميع أوجه الضريبة المفروضة على المشروبات الروحية في1900 إلى 121 ، 277 ليرة عثمانية (2 / 1 ، 528 ، 355 ، 2 روبل) وبذلك يكون قد ازداد بالمقارنة مع 1882 بمقدار 000 ، 100 ليرة عثمانية (000 ، 850 روبل).

وتقتصر ضريبة صيد الأسماك التي وضعت تحت تصرف إدارة (Dette Publique على ما يصاد من البسفور وبحر مرمرة فقط. وقد بلغ إيراد هذه الضريبة في 1882 - 636 ، 22 ليرة عثمانية (406 ، 192 روبل) ازداد في 1900 إلى 504 ، 50 ليرة عثمانية (284 ، 429 روبل). ولكي لا يعمد صياد والاسماك إلى سوء الاستغلال قامت الإدارة بالزامهم بجلب كل ما يصطادونه إلى مكان معين تباع فيه الأسماك بالمزاد العلني ، حيث تأخذ الإدارة 20٪ من الثمن إضافة على 3٪ أخرى لتغطية مصاريف تنظيم المزاد المذكور. وفي 1888 تنازل (DrutdcheBank) لإدارة (Dette Publique) عن جميع الضرائب المفروضة على بقية مصائد الأسماك في الامبراطورية والتي كان قد حصل عليها كضمان للقرض الذي قدمه للدولة العثمانية في العام المذكور.

ولا تقل ضريبة العشر المفروضة على الحرير عن 2 / 1 ، 12٪ من قيمة الشرانق تذهب 10٪ منها لمصلحة إدارة (Dette Publique) أما ال2 / 1 ، 2٪ الباقية فتقوم الإدارة المذكورة ايضاً بجبايتها بتخويل من الحكومة ويخصص إيرادها للصرف على المؤسسات الحكومية المختلفة كالبنك الزراعي ووزارة المعارف ... إلخ. وتقوم الإدارة بجباية ضريبة العشر هذه بإعطائها بالإلتزام في بعض الولايات ، ومباشرة بنفسها في بعضها الآخر. ويلزم مربو دود القز الحاصلون على ترخيص رسمي بممارسة هذه المهنة

بأن يقدموا جميع الشرانق التي يحصلون عليها لكي يفحصها وكلاء (Dette Publique) الذين يقيمون بعد إجراء هذا الفحص مزاداً علنياً للشرانق الجافة ويتركون الشرانق الرطبة لكي تباع عن طريق الصفقات الخاصة التي ينبغي أن لا تتم إلّا تحت إشراف السلطات العثمانية المختصة.

واهتماماً منها بتوسيع تربية دود القز وهي الحرف التي كانت في الماضي مزدهرة في الدولة العثمانية استصدرت إدارة (Dette Publique) قراراً يمنع بيع جميع أصناف بيض دود القز فيما عدا النوع الباستيري في الامبراطورية العثمانية وأنشأت في بروصة مختبراً خاصاً لدراسة البيوض المحلية تحول فيما بعد إلى معهد لتربية دود القز وزرعت مشتلاً خاصاً لأشجار التوت وأسست بمساعدة الحكومة معملاً لغزل الحرير بالقرب من سالونيك [(1)].

لقد بلغت الايرادات التي تحصل عليها إدارة (Dette Publique) من ضريبة العشر المفروضة على الحرير والتي تنازلت لها عنها الحكومة في 1882 في أقاليم بروصة وأدرنة وسامسون 18952 ليرة عثمانية (161092 روبل) ازدادت في 1900 بفضل الاجراءات التي أشرنا إليها فبلغت 69842 ليرة عثمانية (593691 روبل) هذا إضافة إلى أن الضريبة المفروضة على الحرير في الولايات الأخرى والتي جري التنازل عنها عام 1888 لـ (Deulsche Bank). أما في العراق الجنوبي فإن تربية دود القز مهملة تماماً ولهذا السبب فإن ضريبة العشر المفروضة على الحرير لا تدخل في عداد الايرادات التي تذهب إلى إدارة (Dette Publique) من هذه المنطقة.

---

(1) Ch.Morawitz. Op. cit. P. 230.

يبرز من كل ما تقدم بوضوح الدور الكبير تلعبه هذه المؤسسة المالية العالمية لا باعتبارها حامياً لمصالح دائني الدولة العثمانية فحسب وإنما باعتبارها هيئة تستغل الثروات الطبيعية في الامبراطورية العثمانية أيضاً.

لقد عززت إدارة مجلس (Dette Publique) الناجحة للمرافق الاقتصادية الحكومية الموضوعة تحت تصرفه الثقة بالأمبراطورية العثمانية

إلى درجة استأنفت فيها المؤسسات المصرفية ومؤسسات الأقراض في أوروبا الغربية صفقاتها المالية مع تلك الدولة بعد أن كانت قد أوقفتها بعد أزمة 1875. وقد أدي ذلك بدوره إلى توسيع دائرة نشاط ونفوذ إدارة (Dette Publique).

وهكذا عقدت الحكومة العثمانية ابتداء من 1888 سلسلة من القروض تضمنها كالعادة بنود جديدة من الايرادات الحكومية. في حين رافقت الامتيازات الستة التي منحت لبناء سكك حديدية ضمانات كيلومترية [1] أي ضمان حد إجمالي أدني للدخل على كل كيلومتر من السكة وذلك عن طريق الاستحواذ على ضريبة العشر من السناجق التي تمر بها السكة. ولم تؤثر هذه الضمانات كلها على إدارة (Dette Publique) ذلك إن الجهات التي عقدت هذه الصفقات مع الحكومة ضمنت اتفاقياتها

(1) كانت الطرق التي حصلت على ضمانات كيلومترية هي : سكة حديد الأناضول ، وخط سالونيک ـ موناستير ، وخط سالونيک ـ اسطنبول وخط سميرنا ـ كسبة وخط بيروت ـ دمشق ، برجک على الفرات وسكة حديد بغداد ، وكانت ثلاثة منها وهي خط سالونيک ـ اسطنبول وخط بيروت ـ دمشق ـ برجک وخط سميرنا ـ كسبة ، مشاريع فرنسية ، أما الثلاثة الأخرى فهي المائية.

شروطاً القيت بموجبها إدارة الايرادات التي جري التنازل عنها لهم ، على عاتق الادارة المذكورة ، فامتد بهذا الشكل نشاط هذا الأخيرة إلى أقاليم كانت حتى ذلك الوقت خارج حدود نفوذها وأخذت تستحوذ باستمرار على فروع جديدة من الاقتصاد العثماني لم تكن حتى ذلك الحين تابعة لها. كانت النتيجة أن غطت الإدارة (Dette Publique Ottamane) جميع الامبراطورية العمانية إشراكها في مشاريع حكومية مهمة كبناء السكك الحديدية ، على أن تترسخ أكثر في الأرض العثمانية.

وتشير حسابات [1] (du Velay) إلى إنه من أصل 555 ، 644 ، 17 ليرة عثمانية (717 ، 978 ، 149 روبل و 50 كوبيكاً). وه مجموع إيرادات الدولة العثمانية في 1902 ذهب إلى مجلس (Dette Publique) 398 ، 656 ، 4 ليرة عثمانية (383 ، 579 ، 39 روبل) أي ما يؤلف ربع مجموع الايرادات كلها ، ولم يذهب ولا كوبيكاً واحداً من هذا المبلغ الضخم إلى الخزينة العثمانية. وهكذا لم تكن الحكومة لها مصلحة في النجاحات التي تحققها إدارة (Dette Publique) خصوصاً وإنه حدث أكثر من مرة أن كانت تعاني الحاجة إلى النقود في الوقت الذي كانت فيه خزائن تلك الادارة الممتلئة مغلقة في وجهها وهذا ما يفسر موقف الحكومة الذي يتسم باللامبالاة من الادارة المذكورة ذلك الموقف الذي كان يظهر بالأساس في عدم إبداء المساعدة والاسناد الواجبين لمشاريع ووكلاء هذه الأخيرة.

كان استمرار هذا الوضع الشاذ يهدد بالقطعية المكشوفة بين الباب العالي ومجلس (Dette Publique) ، وقد استشعر المجلس المذكور هذا الخطر في الوقت المناسب وقرر أن يقتسم الفائض من إيراداته مع الباب

---

(1) A. Du. Velay : o. Cit. P. 649.

العالي ، وكان من السهل تنظيم هذه القسمة ذلك أن الديون من المجموعة (أ) كانت قد أطفأت بمجموعها في حين أطفأت المجموعات الأخرى جزئياً في الوقت الذي ظلت فيه إيرادات إدارة (Dette Publique) على حالها لم تتغير ذلك لأن مرسوم محرم قضد بعدم جواز أخذ الإيرادات منها إلى أن يتم إطفاء الديون بأجمعها.

وبينما كان مجلس (dette Publique) يبحث عن أفضل الطرق لاقتسام إيرادته مع الخزينة العثمانية كان مشروع سكة حديد بغداد يقترب من التحقيق أكثر فأكثر ، لذا فإن جل اهتمام الحكومة العثمانية أخذ يتركز الآن على محاولة إيجاد الأموال اللازمة لكي تتمكن من دفع الضمانات الكيلومترية التي وعدت بها رجال الأعمال الألمان ذلك أن شركة سكك حديد الأنضول كانت ترفض أن تباشر في الخط من قونية إلى بغداد دون أن تأخذ تلك الضمانات. وبسبب معارضة الدول لم تثمر حتى الآن محاولات الباب العالى لسد حاجته الملحة للأموال عن طريق زيادة الضرائب الكمركية أو عن طريق إقامة احتكارات حكومية جديدة (على الكيروسين والكحول والثقاب وورق اللعب وورق السكاير) [1] ، لذا كان من الضروري إيجاد مصادر أخرى. وقد قدم وزير المالية الفرنسي السابق (M. Rouvier) إلى الباب العالى في 1902 مشروعاً لتوحيد الديون الحكومية العثمانية أخذاً بنظر الاعتبار وضع الفائض المتبقي من هذه العملية بأكمله تحت تصرف الخزينة العثمانية. غير إن الباب العالى لم يوافق على هذا المشروع كما لم يوافق على أي مشروع اقترح عليه ومن شأنه أن يحدث تغييراً في شروط القروض الممنوحة له. ولهذا السبب تحتم اللجوء إلى

A. Cheradame. La Question D , orient Paris. 1903. P. 149 FF.(1)

مساعدة إدارة (Dette Publique) وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تخصص للخزينة اعتباراً من 1913 مبلغ 572000 ليرة عثمانية (4862000 روبل) سنوياً تقتطعه من الإيرادات الموضوعة تحت تصرفها ، فاستطاعت بذلك أن تجعل الحكومة ذات مصلحة مادية في استمرار وجودها.

ويمكننا أن نحكم على نشاط إدارة الدين العثماني العام في العراق الجنوبي على اساس المعطيات التالية التي استقينا من الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة لسنة 1321 هـ.

للادارة في ولاية بغداد اربعة عشر فرعاً إضافة إلى الادارة الرئيسية في مدينة بغداد ولها في البصرة ستة فروع بما فيها فرع البصرة الخاضع للمركز في بغداد. وقد بلغت مصروفات الادارة في السنة المذكورة 993 ، 830 ، 1 قرشاً (465 ، 157 روبل) أما إيراداتها فقد بلغت في السنة نفسها 408 ، 383 ، 4 قرشاً (973 ، 376 روبل) أي إن زيادة الإيرادات على المصروفات بلغت 507 ، 219 روبل. (1)

ولن يكون وصفنا لنشاط (Administration de la Dette Publique) كاملاً إذا لم نتعرض لذكر احتكار التبغ الذي وضع مع إيرادات أخري تحت إدارة المؤسسة المذكورة التي تنازلت عنه بدورها لشركة مساهمة تعرف باسم :

(Docirte de Regie Cointereressee des tabacs de L , Empire Ottaman)

كانت هذه الشركة مؤلفة من المؤسسة الفينية (Anstalt - Credit) والبنك العثماني التي توسطت منذ 1881 أي قبل المصرفي البرليني (

---

(1) السالنامة الخاصة بولاية بغداد لسنة 1321 هـ ، ص 407.

Bleichroder) والبنك العثماني التي توسطت منذ 1881 آي قبل آن تتشكل إدارة (Dette Publique) بأحد مصرفيي اسطنبول هو ليوبولد بالتاتسي لكي تمنحها الحكومة حق استثمار احتكار التبغ. وقد ساندت إدارة (Dette Publique) التي بدأت عملها في 1882 مطلب هذه المجموعة من البيوت المصرفية واستطاعت الحصول على موافقة الحكومة عليه بشرط أن يخصص للخزينة العثمانية جزء معين من الربح الصافي.

وقد بدأت الشركة التي تألفت على هذا النحو والتي تعرف اختصاراً باسم ريجي باستثمار احتكار التبغ اعتباراً من شهر أيار 1883 بعد أن التزمت بأن تدفع لإدارة (Dette Publique) طيلة ثلاثين سنة وهي مدة نفاذ الامتياز مبلغاً مقداره 000 ، 750 ليرة عثمانية (000 ، 375 ، 6 روبل) في السنة ، أما باقي الايراد فقد تقرر أن يقتسم بأجمعه باستثناء فائدة مقدارها 8٪ تدفع لرأس المال الأصلي ، بين مساهمي ريجي وإدارة (Dette Publique) والحكومة بنسبة تتزايد لصالح الأخيرة أي الحكومة بمقدار تزايد أرباح ريجي.

كانت صعوبة مكافحة التهريب الذي كان واسع الانتشار نتيجة لان زراعة التبغ كانت منتشرة في الدولة العثمانية في كل مكان تقريباً ، أحد الأسباب التي دفعت إدارة (Dette Publique) لأن تتخلى عن استثمار احتكار التبغ استثماراً مباشراً ، إن الـ « ريجي » وقد تسلمت احتكار شراء وتصنيع وبيع التبغ والسكاير المخصصة للاستهلاك المحلي والتصدير إلى الخارج جردت رعايا السلطان من الحق في الاشتغال بزراعة التبغ بشكل حر. وهكذا منعت زراعة التبغ دون الحصول على موافقة الـ « ريجي » مسبقاً وذلك بهدف حماية مصالح تلك الشركة. كما إنّ التبغ الذي يجري جمعه من الحقول كان يجب أن يرسل بأجمعه إلى مخازن الشركة لكي يخزن

فيهـا إلـى أن يقـوم أصـحابه بتصـديره إلـى الخـارج أو إلـى أن تشـتريه الــ « ريجي » نفسها.

وطبيعـي أن يـزداد فـي ظـل مثـل هـذه الشـروط المجحفـة تكـرار خـرق الحقوق الاحتكارية التـي كانـت تتمتـع بهـا الــ « ريجـي » وقـد اضـطر ذلـك الشركة ، ونظراً لزيادة التهريب بدرجـة كبيـرة للغايـة ، إلـى أن تنشـئ جيشـاً كـاملاً مـن الــ « قـولجي » أي الحـرس وإلـى أن تشـغل لحسـابها فـي الميـاه العثمانية الساحلية طرادات خاصة وقد أضيفت إلـى هـذه المصـروفات التـي لا يستهان بها منذ أن ظهـرت « الريجـي » مصـروفات كثيـرة أخـرى سـببها الشـروط التـي وضـعتها الحكومـة عنـد منحهـا الاحتكـار والتـي يكـاد يكـون أخفها الطلب من الـ « ريجي » أن تجهز خلال تسـعة أشـهر فقـط وإلّا فقـدت الامتيـاز ، كـل مـا هـو ضـروري لاسـتثمار احتكـار التبـغ أي شـراء المكـائن اللازمـــة وبنـاء المخـازن والورشـات وأخيـراً اسـتئجار العمـال والمسـتخدمين لـيس فقـط في الأماكن القريبة من العاصمة وإنما في الأقاليم الأسيوية النائية أيضاً.

ولم يكن أقل من ذلك صعوبة بالنسبة للـ « ريجي » التزامهـا بتسـليف مزارعـي التبـغ بـدون فائـدة بهـدف التشـجيع ، دون أن يكـون لهـا الحـق فـي تقليص زراعة هذا المحصـول لغـرض إقامـة التـوازن بـين العـرض والطلـب. وممـا زاد خسـارة الــ « ريجـي » اضـطرارها لأن تلغـي فـوراً بإلحـاح مـن الحكومة ، 450 مصنعاً للتبغ كان أصـحابها قـد زادوا اسـعار مخـزونهم مـن التبغ والسكاير. وإتماماً للإخفاق نـزح أغلبيـة أصـحاب مصـانع التبـغ هـؤلاء إلـى مصـر واسـتطاعوا أن يـدفعوا حكومـة الخـديوي إلـى أن تلغـي الحظـر المفروض على استيراد التبوغ غير التركية ، الأمر الذي سبب للـ « ريجـي » سيئة الحظ ضرراً محسوساً آخر ، ذلك إنهـا أي الــ « ريجـي » كانـت تأخـذ عـــن كل كيلو من التبغ التركي الذي يصدر إلى مصر مباشرة ضريبة تسمي

« رفتية » مقدارها 10 قروش (80 كوبيكا) وكان ذلك يدر عليها ما يقرب من 000 ، 150 ليرة عثمانية (ما يقرب من 000 ، 275 ، 1 روبل) من الايراد الصافي ، الذي فقدته الآن نتيجة لأن التبغ لم يعد يرسل إلى مصر مباشرة وإنما كان يذهب إليها عن طريق اليونان وغيرها من البلدان المجاورة الأخرى التي تكن تدفع الـ « رفتية ».

وقد أدت هذه الشروط الثقلية كلها إلى أن تخسر الـ « ريجي » في السنوات الثلاث الأولى من وجودها مبلغاً مقداره 548 ، 364 ليرة عثمانية (658 ، 098 ، 3 روبل) فاضطر مجلس (Dette Publique) أن يهب لنجدة هذه الشركة الاحتكارية وأعطاها سلفاً نقدية لتغطية العجز السنوي. وبدأت أحوال الـ « ريجي » تتحسن بفضل هذه المسائدة فحققت في السنة المالية 1897 - 1898 ربحاً صافياً مقداره 975 ، 63 ليرة عثمانية (787 ، 543 روبل و 50 كوبيك) ارتفع في 1900 - 1901 إلى 964 ، 279 ليرة عثمانية (541 ، 379 ، 2 روبل).

لقد أفرزت الـ « ريجي » في فترة وجودها شركة مساهمة جديدة أطلق عليها اسم : (1) (Turkish Regie Export Company) وقد حصلت الشركة الجديدة على احتكار أعداد التبغ والسكاير للتصدير إلى الخارج مقابل دفعها لمبلغ معين سنوياً.

يتحتم علينا ونحن ننتقل إلى الحديث عن نشاط الـ « ريجي » في العراق الجنوبي أن نلاحظ مسبقاً بأن حقوقها في هذه المنطقة كما في بقية ما بين النهرين محدودة بمعني إنها تقوم فقط بجمع الضرائب التي كانت في السابق تذهب إلى الحكومة.

---

(1) شركة الريجي التركية للتصدير ـ المترجم.

ومن هذه الضرائب : الـ « مرورية » ومقدارها خمسة قروش (40 كوبيكاً) على الحقة وضريبة الاستيراد المفروضة عي السيكار وعلى السعوط وتبغ المضغ والضرورية المفروضة على التبغ العثماني المصدر إلى الخارج وأخيراً الـ « بيئي » أي الرسوم المفروضة على رخص المتاجرة بالتبغ ومقدارها 30٪ من قيمة الايجار السنوي للحانوت الذي تجري فيه تلك المتاجرة. ولكي تتمكن الـ « ريجي » من جمع كل هذه الإيرادات فإنها عينت لها وكيلاً رئيسياً في بغداد يكون أوروبياً ويتبعه وكيلان أخران أحدهما في الموصل والآخر في البصرة وهما من الأهالي. وللـ « ريجي » إثنا عشر فرعاً في ولاية بغداد وثلاثة فروع في ولاية البصرة. أما الموصل مركز زراعة التبغ والسكاير المخصصة للاستهلاك المحلي وذلك أمر كان له انعكاسات أيجابية على زراعة التبغ المحلية. إن زراعة التبغ في العراق لا يعتد بها وذلك بسبب الظروف المناخية وظروف التربة وهي تقتصر على أقضية كربلاء والحلة والديوانية في ولاية بغداد حيث ينتج سنوياً ما يقرب من 15000 بود [1] وعلى قضائي المنتفك والعمارة في ولاية البصرة حيث الكمية المنتجة لا تزيد على 600 بود. أما في ضواحي الموصل والسليمانية وكذلك في سنجق شهر زور فإن زراعة التبغ هي الحرفة الرئيسية للسكان حيث يبلغ الانتاج السنوي للتبغ 100000 بود. إن أفضل أنواع التبغ هي « شاور » و « كورد » اللذان يزرعان في شهر زور والسليمانية ، يتخلف عنهما تبغ الموصل بعض الشيء. أما تبغ ولاية بغداد فإنه من الأنواع الرديئة. أما عن أسعار الجملة فإنها 70 كوبيكاً للباوند بالنسبة لل « شاور » و 50 كوبيكاً بالنسبة لل « كورد ». أما الأنواع الرديئة فإن سعرها يصل إلى 30 كوبياً

(1) البود مقياس روسي للوزن يعادل 38 ، 16 كيلو غراماً ـ المترجم

للباوند الواحد [1]. وليس هناك ما يدهش في ظل أسعار التبغ المحلي الواطئة هذه ، في أن تكون إيرادات الـ « ريجي » من بيع منتجاتها في العراق الجنوبي زهيدة جداً.

تعتبر دائرة الحجر الصحي واحدة من المؤسسات الدولية الأخرى التي يستحيل تجاوزها في الامبراطورية العثمانية بشكل عام وفي مدينة البصرة بشكل خاص ، فقضية الوقاية الصحية في الخليج وفي العراق الجنوبي هي قضية ذات أهمية كبيرة بالنسبة لروسيا نفسها وذلك لسهولة انتقال عدوي الطاعون والكوليرا إلى سواحل بحر قزوين عن طريق فارس او بواسطة طريق : البصرة ـ بغداد ـ كرمانشاه وهو الطريق الذي يسلكه الزوار الشيعة من سكان ما وراء القفقاس. ولهذا السبب فإننا لا نعتقد بأنه من الممكن الاكتفاء بوصف دائرة الحجر الصحي في البصرة فقط وإنما سنسمح لأنفسنا بالتعرض لقضية الحجر الصحي في الخليج نفسه ايضاً.

لقد أثيرت قضية إنشاء مراكز للحجر الصحي في موانئ الخليج بالارتباط مع قضية الوقاية الصحية في ذلك الخليج في مؤتمر الصحة الدولي الذي انعقد في باريس عام 1894 ، لكنها جوبهت بمقاومة عنيفة من جانب المندوب الانجليزي الذي كان يؤكد بأن بريطانيا التي كانت تحتكر كل الملاحة في الخليج تقريباً ، لا يمكن أن تسمح بإقامة مراكز للحجر الصحي فيه ، لأن عبء الضرائب الصحية المختلفة سوف ينيخ بثقلة على السفن الانجليزية وعلى التجارة الانجليزية بالدرجة الأولي [2].

---

(1) مجموعة التقارير القنصلية لعام 1905 ، الأصدار الأول مادة : « الزراعة في العراق الجنوبي » الكسنادر أداموف.

(2) Proust L , orientation nouvelle de la Politique Sanitaire , Paris 1896 . P.250

ونتيجة لهذه المعارضة ظلت قرارات مؤتمر باريس التي قضت بإنشاء مراكز للحجر الصحي في كل من المحمرة والكويت والمنامة في جزيرة البحرين وبوشهر وبندرعباس وكوادر ومسقط إلى جانب المستوصف الرئيس في الفاو والمركز الصحي في البصرة مجرد حبر على ورق. غير إن بريطانيا [1] لم تكن هي وحدها التي رفضت المصادقة على هذه القرارات وإنما انضمت إليها في ذلك الدولة العثمانية أيضاً مدفوعة إلى ذلك باعتبارات مالية ذلك إن المؤتمر كان قد قرر توزيع نفقات الصرف على المراكز المذكورة كلها بين الحكومة العثمانية والمجلس الصحي الدولي الأعلى في السطنبول.

وعقدت بريطانيا في الوقت نفسه إتفاقية من المجلس الصحي في طهران فاضطلعت في 1896 وبترخيص من الشاه بشؤون الحجر الصحي في الساحل الفارسي من الخليج.

وقد بحث مؤتمر الصحة الدولي الجديد الذي انعقد في البندقية في 1897 الوضع في الخليج مرة أخرى وقرر إنشاء مركز للحجر الصحي في جزيرة هرمز أو قشم وآخر في ضواحي البصرة في موضع ملائم لذلك. لقد قصد من ذلك أن تتعرض السفن المتوجهة إلى الخليج للرقابة الصحية

(1) لم يكن دافع المعارضة البريطانية اقتصادها فقط وأنما وراء ذلك دافع القضاء على اكبر عدد من سكان العراق والمنطقة حتى يتسن لها الاحتلال بسهولة واقل تكلفة ثم لتحصل على ثراوتها المتنوعة هذا ما كان وراء تلك المعارضة التي عبر عنها المؤلف انها كانت مقاومة عنيفة من جانب المندوب الانجليزي على اننا لا نستعبد انها كانت وراء نشر بعض الأوبئة في العراق والمنطقة في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين للاسباب التي المعنا اليها آنفاً. حميد الدراجي

في المركز الأول على أن لا يسمح لها بالإبحار في موانى الخليج إلّا بعد الانتهاء من جميع شكليات الحجر الصحي. أما السفن المتجهة إلى شط العرب فكان سيسمح لها وهي في وضع سيرها إلى البصرة حيث ينبغي أن تتعرض مرة أخرى للكشف الطبي والتطهير اللازم.

كان مؤتمر باريس وكذلك مؤتمر البندقية قد قررا أن تخضع المؤسستان الصحيتان في هرمز والبصرة للمجلس الصحي الأعلى القائم في اسطنبول وإن كانا قد اشترطا أن تعقد اتفاقية خاصة بين الحكومتين العثمانية والفارسية بالنسبة للأولى منهما. غير إن خطا كلا المؤتمرين يكمن في أنهما لم يأخذا بالحسبان ما كان قائماً في الخليج من مصالح سياسية متنوعة خاصة بثلاث دول هي الأكثر اهتماماً بالملاحة في الخليج ونعني الدولة العثمانية وفارس وبريطانيا. فإذا ما اعترفت جميع هذه الدول الثلاث للمجلس الصحي في اسطنبول بالدور القيادي في قضية الحماية الصحية للخليج فإنه ستبقي مع ذلك القضية الأصعب دون حل وهي إلى من ينبغي من بين هذه الدول الثلاث ، أن تفوض قضية إجبار شيوخ مسقط والبحرين والكويت وغيرها من الممتلكات العربية الساحلية الصغيرة المستقلين وشبه المستقلين على الخضوع لقواعد الحجر الصحي المقررة ذلك إن من السذاجة أن نتوقع بأن هؤلاء الشيوخ سينفذون هذه القواعد طوعاً ، علماً بأن الحصول على موافقة الدولة العثمانية على أن تمنح بريطانيا مثل هذه السلطة على شيخ الكويت كان أمراً غير ممكن بدرجة مشابهة للحصول على موافقة بريطانيا على خضوع حكام البحرين في القضية المذكورة ، للدولة العثمانية كما عن تخويل بريطانيا احتكار إدارة مؤسسات الحجر الصحي في امامة مسقط يمكن أن تنظر إليه الدول الأخرى ذات المصلحة على أنه اعتراف رسمي بفرض حمياتها على أئمة تلك المنطقة

في حين أن سيطرة الدولة العثمانية أو فارس على أولئك الأئمة سوف لن يعترف بها لا حاكم مسقط ولا بريطانيا العظمى نفسها. وهكذا تكونت حلقة مفرغة يصعب إيجاد مخرج منها.

يضاف إلى ذلك أن قرار مؤتمر البندقية الصحي الذي يقضي بإقامة مركز واحد للحجر الصحي في جزيرة هرمز عام لكل الخليج كان سيؤدي إلى خسائر كبيرة للسفن التي ستضطر للتوقف وهدر الكثير من وقتها في حين كان بإمكانها لو وجدت مراكز صحية في كل ميناء أن تقوم بعمليات الشحن والتفريغ وهي في حالة الحجر دون أن يصادفها عائق ما.

وعلى هذا الأساس يعتقد الدكتور بوريل [1] بأن الحل الوحيد الممكن لمسألة الحماية الصحية الدولية للخليج يكمن في إخضاع المسافرين وعلى الأخص الحجاج المسلمين بالطبع لرقابة صحية صارمة تقوم بها محطة حجر صحي واحدة تقام في جزيرة هرمز مثلاً ، على أن يكتفي ، تجنباً للتضييق على حرية الملاحة ، بعزل السفن في كل ميناء ومنحها حق القيام بعمليات الشحن والتفريغ وهي في وضع الحجر.

غير إن الدكتورين (Compo San Piero) و (Tjerepis) اللذين أرسلهما مجلس الصحة في السطنبول في 1898 للبحث في جزر خليج هرمز عن مكان ملائم لإقامة محطة للحجر الصحي أقرا بعدم إمكانية تنفيذ هذا المشروع بسبب رداءة الظروف المناخية ورشحا بندر بوشهر باعتباره مكاناً يستجيب من جميع النواحي لكل متطلبات الحجر الصحي.

أما بشأن محطة الحجر الصحي في البصرة فإنها افتتحت في 1895 في النهاية الشمالية لجزيرة صلاحية الواقعة في شط العرب على بعد

(1) كراس الدكتور (Borel) الموسوم بـ.
La Defense Sanitaire Du Golfe Persique et du Chai el-arah.

ساعتين من البصرة تقريباً. فإن جميع السفن القادمة من هناك بما في ذلك سفن البريد تتعرض للحجر والمراقبة لمدة عشرة أيام ويعزل ركابها في مركز الحجر الصحي ويجري تعقيم أمتعتهم في الغرف التابعة للمحطة. أما السفن القادمة من أوروبا فإنها تتعرض إيضاً للحجز والمراقبة غير إنها لا تبقي في مركز الحجر إلّا وقتاً لا يصل إلى عشرة أيام كاملة اعتباراً من يوم مغادرتها لأخر ميناء من موانيء الخليج [1].

ومع ذلك لا يسعنا إلّا أن نلاحظ بأن إقامة مركز للحجز الصحي في البصرة لا يحقق إلا جزئياً الهدف المقصود وهو منع انتشار الطاعون من الهند والكوليرا من موانيء الخليج إلى ما بين النهرين. فالبصرة تقع على بعد مائة فرست تقريباً من الخليج وبامكان السفن القادمة إليها من البحر أن تتصل بكل حرية بميناء المحمرة الواقع في منتصف المسافة بين مصب شط العرب والبصرة لذا فإن ركاب السفن يستطيعون إذا أرادوا ، وخصوصاً ركاب السطح الذين تكون مراقبتهم أصعب من ركاب القمرات ، أن يتجنبوا المكوث في مركز الحجر في البصرة وذلك بأن ينزلوا في المحمرة حيث يكون الطريق إلى البصرة بواسطة النهر أو في اليابسة مفتوحاً أمامهم [2].

(1) لقد تغيرت هذه القواعد في 1909 بحيث أصبح بإمكان السفن القادمة من الهند مواصلة السير رإساً بعد إجراء الكشف الطبي ، إذا كان قد قضي عليها في الطريق أكثر من عشرة أيام. أما السفن التي مضى عليها أقل من عشرة أيام فإنها تظل في مركز الحجر الصحي حتي تكمل الأيام العشرة ، كما إن السفن التي تحمل الحجاج الهنود تكون مدة حجزها خمسة أيام.

(2) بخصوص تجنب اللورد كرزن لمركز الحجر الصحي في البصرة وذلك بنزوله في المحمرة أنظر كتابه :

Persia and the Persiam Questimn London 1892 Vol II. P. 337 Ff.

إن من غير الممكن وضع حد لمثل هذا الالتفاف على مركز الحجر الصحي في البصرة طالما أن مدينة المحمرة الفارسية الموجودة على الجوار والواقعة على شط العرب أيضاً لا تقيم هي أيضاً مركزاً ممائلاً للحجر الصحي ، وإلّا فإنه يتحتم أن يقام على جانبي النهر وفي الصحراء المحيطة بالبصرة نطاق صحي دائم لا يقل عدد المشتغلين فيه عن 1000 - 1500 شخص ، وطبيعي أن دائرة الحجر الصحي ليس في طاقتها إقامة مثل هذا النطاق.

إن مركز الحجر في الصحي الرئيسي الذي قضي بإقامته مؤتمر باريس الصحي في الفاو كان يمكن أن يكون أكثر فعالية على ما يبدو وذلك لأنه سيكون من الأصعب على ركاب السفن التجارية والشراعية أن يتسللوا إلى البصرة خفية لان الفاو تقع عند مدخل شط العرب مباشرة وهو موقع تسهل منه مراقبة الصحراء. بيد أن محطة الحجر الصحي هذه لا تحقق هدفها بشكل تام إلّا إذا اقترنت بإقامة حماية صحية دولية للخليج نفسه. هذا ويوجد في الفاو في الوقت الحاضر مركز للمراقبة الصحية يتألف من ناظر وإثنين من الحراس.

إن محطة الحجر الصحي في البصرة والكادر الطبي الذي يديرها تقع ، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات الحجر الصحي في الامبراطورية العثمانية تحت إدارة « المجلس الصحي الدولي الأعلي » الموجود في اسطنبول وفي تبعية مباشرة له. ويتألف المجلس المذكور من ثمانية ممثلين عن الدولة العثمانية وممثل واحد عن كل من روسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا - المجر وبريطانيا العظمي وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا وهولندا واليونان والسويد والنرويج وفارس والولايات المتحدة الأمريكية.

ويعود تأسيس هذا المجلس إلى سنة 1838 عندما قرر السلطان

محمود متأثراً بالطاعون الذي كان قد اجتاح اسطنبول في السنة السابقة فأعاد إلى الذاكرة الأوبئة المخفية السابقة التي محقت سكان عاصمة الامبراطورية أكثر من مرة ، اللجوء إلى مساعدة ممثلي الصحة العالميين لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع انتشار الأمراض الوبائية في الدولة العثمانية .(1)

ومنذ ذلك الوقت ظلت هذه المؤسسة الدولية قائمة حتى إنها اصبحت واحدة من أكثر مؤسسات الامبراطورية العثمانية ازدهاراً. ويعود السبب في هذه الظاهرة إلى أن الادارة الصحية لا تكلف الدولة مصاريف كبيرة ذلك إن جميع إيرادات مراكز الحجر الصحي في الامبراطورية تذهب إلى تلك الادارة.

وتتألف الايرادات المذكورة من الضرائب التالية :

1 ـ من الرخص الصحية التي تمنح للسفن حيث تدفع كل سفينة 20 بارة (4 كوبيكات) عن الطن الواحد إذا لم تكن حمولتها تزيد على 500 طن و 12 بارة (2،4 كوبيك) إذ كانت الحمولة ما بين 500 ، 1000 طن و 8 بارات (1،6 كوبيك) إذا عن الألف طن.

2 ـ الضرائب التي تؤخذ من السفن مقابل مكوثها في مركز الحجر الصحي ويتراوح مقدارها ما بين 40،10 قرشاً (ما بين 80 كوبيكا وثلاثة روبلات و 20 كوبيكاً) لليوم الواحد تبعاً لمقدار حمولة السفينة ، فضلاً عن 25 قرشاً أخري (روبلان) في اليوم تذهب لصالح حرس مركز الحجر الصحي وضريبة خاصة أخرى تؤخذ مقابل تعقيم البضائع.

3 ـ ضريبة مقدارها ثمانية قروش (64 كوبيكاً) في اليوم تؤخذ من كل حاج يقضي مدة الحجر الإلزامية في مركز الحجر الصحي.

---

(1) Ch. Morawitz : Op. Cit. P. 218.

ويمكننا ان نحكم على قيمة المبلغ الاجمالي لإيرادات دائرة الصحة إذا ما علمنا بأن هذا الإيراد وصل في السنة المالية 1874 - 1875 إلى 356 ، 38 ليرة عثمانية (026 - 326 روبل) وارتفع في 1900 - 1901 إلى 000 ، 80 ليرة عثمانية (000 ، 680) وتسهم مصلحة الحجر الصحي في البصرة في هذه الايرادات بالدرجة الأولى عن طريق الضرائب التي تفرضها على السفن والركاب وقد بلغ المعدل السنوي للحمولة المسجلة للسفن في الفترة من 1890 إلى 1900 كما يلي :

41994 طن بالنسبة للسفن الشراعية و 963 ، 149 طن بالنسبة للسفن البخارية كما بلغ العدد الاجمالي للمسافرين ما يقرب من 9000 شخص.

أما في الفترة من 1900 إلى 1901 فقد كان المعدل السنوي لحمولة السفن 470 ، 29 طناً بالسنبة للسفن الشراعية و 070 ، 191 بالنسبة للسفن التجارية في حين بلغ معدل عدد الركاب 000 ، 11 شخص في السنة ، وإذا ما أضفنا إلى الضرائب التي تؤخذ على حمولة السفن والضرائب التي تؤخذ مقابل السفن والركاب في مركز الحجر الصحي في ميناء البصرة إيرادات مركز الحجر الصحي في خانقين ، الذي يمر من خلاله سنوياً ما بين 50 إلى 60 ألف حاج بالمعدل يدفع كل منهم عشرة قروش 80 كوبيكاً) إضافة إلى ما لا يقل عن 5000 جثة يدفع عن كل منها خمسون قرشاً (4 روبلات) ، فإننا نستطيع أن نستنتج بأن ما يقرب من نصف إيرادات مصلحة الدولية في اسطنبول يأتي من مراكز الحجر الصحي في العراق الجنوبي.

ولا يسعنا ونحن نختتم هذا الفصل إلّا أن نتحدث باختصار عن إحدى المؤسسات التي تعمل ، على الرغم من إنها لا تتمتع بصفة دولي ، بشكل مستقل عن إدارة العراق الجنوبي كما لو أنها تتمتع بنفس الحقوق

التي يتمتع بها في الدولة العثمانية السفارات والبعثات والمؤسسات الأخرى التابعة للدول الأوروبية. إن هذه المؤسسة التي تعرف باسم « أراضي السنية » أي إدارة ضياع السلطان تستحق اهتماماً خاصاً باعتبارها حامل لـــواء
الاعمار في هذه الأصقاع.

لم تبدأ أراضي السنية بالتوسع في شراء الأراضي البور والمتروكة أو
التي قلت خصوبتها سواء كانت أميرية أو مملوكة ملكاً خاصاً في العراق الجنوبي إلّا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وبعد أن تحصل الادارة
المذكورة على مثل تلك الأراضي العقيمة الفائدة بثمن بخس تكرس لها جهوداً ورؤوس أموال غير قليلة وذلك لتعميرها ورفع إنتاجيتها ولا يعيقها عن ذلك شيء حتى لو اضطرت لاتخاذ إجراءات غالية التكاليف كفتح قنوات ري جديدة أو تعمير القنوات القديمة. هذا وقد ازدادت قيمة الضياع السلطانية زيادة هائلة كما حدث مثلاً بالنسبة لضيعة جحلة في سنجق العمارة التي ارتفع ثمنها من 000 ، 50 إلى 000 ، 50 ليرة عثمانية. إن طــرق
الاستثمار النموذجية المستخدمة في هذا الضياع أصبحت تقلد من قبل الملاكين المحليين ومن قبل الجهات التي تدير أراضي الوقف بل ومن قبل الزراع العاديين.

لقد استطاعت إدارة الاراضي السلطانية أن تحقق مثل هذه النتائج الباهرة بفضل ما تتمتع به من حرية العمل والاستقلال التام عن الادارة العثمانية المحلية بالدرجة الأولى. حيث لم يكن لهذه الأخيرة أي الادارة العثمانية المحلية أي إمكانية للتدخل في شؤون إدارة أراضي السنية ذلك إن الأراضي العائدة للسلطان لا تخضع لأي ضرائب أو فروض حكومية كما عن جميع الضرائب والاتاوات التي تؤخذ من القبائل الرحالة التي تنتقل فيها كالضريبة التي تؤخذ على الماشية أو التي تؤخذ على الخيام وما

أشبه تذهب مباشرة إلى خزينة إدارة أراضي السنية. هذا فضلاً عن إن موظفي هذه الادارة مشمولون بـ « حصانة » خاصة بحيث لا يستطيع البوليس ولا السلطات القضائية أن تتخذ ضدهم أي إجراء دون علم وموافقة الأشخاص الذين يقفون على رأس إدارة أراضي السنية. ولهذا فليس هناك ما يدهش في أن تكون ظروف الزراع البسطاء والفلاحين العاملين في خدمة تلك الادارة أفضل بما لا يقاس من ظروف نظرائهم العاملين لدى الملاك الخاصين بحيث تعتبر الطبقات العاملة من السكان المحلين الانضمام إلى مستخدمي هذه المؤسسة ذات الامتيازات نجاحاً خاصاً.

على إن إدارة الضياع السلطانية لم تقتصر على التوسع في شراء الأراضي الخالية والموجودة بالقرب من المدن والمراكز المأهولة وإنما تعدت ذلك إلى الأراضي التي تتنقل فيها أكثر القبائل وحشية وعدوانية في العراق الجنوبي حيث السبيل إليها مغلق تماماً بالنسبة للبسطاء من عامة الشعب. وهكذا قامت الادارة بشراء أراضي واسعة في سنجق العمارة ، وعمدت من أجل أن تجذب الرحل المحليين إلى العمل بالزراعة ولكي تؤمن حماية الضياع السلطانية الجديدة من نهب عصابات البدو إلى اتخاذ إجراء ذكي حيث أجرت كل تلك الأراضي للشيوخ المحليين هناك. وبعد أن استأجر هؤلاء الشيوخ قطع الأرض بشروط ملائمة أصبحوا ذوي مصلحة مادية في زراعتها فأخذوا يسعون على استخدام قبائلهم لزراعتها ولقد منح هؤلاء الشيوخ مع الايجار الالقاب الرسمية المختلفة فأصبحوا مديرين أو قائمقامين وما اشبه فألقي ذلك على عاتقهم مسؤولية المحافظة على النظام والهدوء في المناطق الخاضعة لسلطتهم. وهكذا وضعت بفضل هذا الاجراء الناجح البداية لعملية انقراض الكثير من القبائل ذات النزعة الحربية المتنقلة في سنجق العمارة وللتوسع الكبير في مساحة الأرض المزروعة في

ذلك السنجق الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد استثمر إلّا قليلاً.

وقد انعكس نشاط إدارة أراضي السنية بشكل إيجابي في العراق الجنوبي في مجال آخر ايضا ونعني القضاء على المجاعات المتكررة التي كانت تحدث بسبب المضاربة. ذلك إن محتكري الحبوب في سباقهم من أجل الربح كانوا يتوسعون في تصدير الحبوب إلى الخارج الأمر الذي كان يؤدي رأساً وبسبب محدودية احتياطات الحبوب إلى ارتفاع أسعار هذه المـــادة الضرورية وإلى حدوث مجاعة مصطنعة بين الطبقات الفقيرة من السكان.

وكانت الوسيلة الوحيدة لمكافحة التهريب في السابق وهي منع تصدير الحبوب فيقوم مجلس الولاية بأخطار جميع المراكز الكمركية بذلك لكي تعمد تلك المراكز إلى إصدار التعليمات بهذا الشأن لكن مع قيام إدارة الأراضي السلطانية في العراق الجنوبي وتحولها في وقت قصير إلى أكبر مالك محلي للأرض ورفعها لإنتاجية الأرض بدرجة كبيرة ، أصبحت المجاعات المذكورة من حكايات الماضي بحيث لم تظهر ضرورة لإيقاف تصدير الحبوب إلى الخارج خلال العشرين سنة الأخيرة.

ونظراً لعدم توفر أية معلومات عن مقدار الأراضي التي اشترتها إدارة أراضي السنية وعن إنتاجية هذه الأراضي ومقدار الايرادات المتأتية منها إلى خزينة السلطان ينبغي أن نكتفي بإحصاءات تقريبية يعود بموجبها إلى السلطان في ولاية البصرة ما لا يقل عن 40٪ وفي ولاية بغداد ما لا يقل عن 30٪ من جميع الأراضي المزروعة.

أما عن الجانب الآخر من نشاط إدارة أراضي السنية ونعني امتلاكها للملاحة العثمانية في نهر دجلة ، فإننا سنتحدث عنه بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب وذلك عند حديثنا عن وسائل المواصلات في العراق الجنوبي.

الفصل الثالث

لا يمكن تحديد عدد سكان ولاية البصرة بدقة حتى ولو بشكل تقريبي وذلك لعدم وجود إحصائيات حول عدد أفراد بعض القبائل البدوية التي لا يمكن إحصاؤها بسبب حياة التنقل التي تحياها. أما عن السكان العرب الحضر فإن الولادات والوفيات تتميز حتى بالنسبة لهم بالقصور وذلك بسبب تهرب المسلمين من إعطاء المعلومات الصحيحة عن عدد أفراد عوائلهم لاعتقادهم بأن مثل هذا الاحصاء سيؤدي حتماً إلى موت أحد أفراد العائلة [1].

ولهذا فإن الأرقام الواردة التي تشير إلى عدد سكان بعض السناجق والمأخوذة من النشرة العثمانية الرسمية الخاصة بولاية البصرة لسنة 1898

1899 ينبغي اعتباراه أرقاماً تقريبية وهي على أية حال أقل من الواقع [2].

(1) إن إمتناع السكان عن إعطاء المعلومات الصحيحة بهذا الخصوص مبعثه أيضاً رغبتهم في التهرب من الخدمة العسكرية بعد أن أقر التجنيد الالزامي - المترجم. لعل ما ذكره المترجم هو ما كان يرمي اليه المؤلف من قوله سيؤدي إلى موت أحد العائلة والا من أين للمؤلف هذا الاطلاق والتعميم في قوله بسبب تهرب المسلمين إلى قوله لاعتقادهم. حميد الدراجي

(2) السالنامة الخاصة بالسنة المذكورة ، ص 170.

السنجق	عدد الرجال	عدد النساء	المجموع
البصرة	60 و 730	99 ، 850	180 ، 580
المنتفك	121 ، 210	125 ، 160	246 ، 370
العمارة	109 ، 810	113 ، 210	223 ، 020
الحسا	138 ، 185	147 ، 440	285 ، 625
	449 ، 935	485 ، 660	935 ، 595 (1)

أما من حيث المعتقد فإن السكان يتوزعون على النحو التالى تقريباً :

السنة 850 ، 261 نسمة.

الشيعة 845 ، 662 نسمة.

الأرمن الكريكوريين 1500 نسمة.

الكاتوليك 1300 نسمة.

الصائبة 3000 نسمة.

اليهود 5000 نسمة.

ذوو معتقدات أخري 100 نسمة.

وسكان الولاية المسلمون فيما عدا عشرة الآف من الموظفين والعسكريين الأتراك والأكراد والألبانيين وباستثناء بضعة آلاف من الفرس القاطنين في المدن هم بأجمعهم من العرب الذين يؤلفون لهذا السبب ما لا يقل عن 85٪ من مجموع السكان.

وينقسم العرب إلى : « أهل البيت » و « أهل الحيط » أي ساكني الخيام أو الرحل وسكان الجدران أي الحضر. ولقد احتفظ عربي الصحراء المتنقل

(1) يذكر CuinetV في كتابه :
"La Turquie d , Asie. Geographie Adminstrative. Paris 1894 T. III. P. 220

أي البدوي (مأخوذة من كلمة « بادية » التي تعني الصحراء وقد تحرف نطقها لدي الأوروبيين فأصبح بدوين) بالعادات والأعراف العربية القديمة بكمالها ونقائها الأول بحيث أن حياته الحالية لا تكاد تختلف عن حياة أسلافه في عصر التوراة. أما العربي الحضري فقد تخلي بتأثير الحضارة وظروف الحياة الأفضل ، عن الكثير من عادات حياة التنقل السابقة وفقد لدرجة ملحوظة الخصائص المميزة لعرقه وهذا هو السبب في كونه قليل الشبه بأصله البدوي.

والبدو حتى الآن هم العنصر الغالب بين العرب من سكان العراق ولهذا ينبغي أن يفرد « لأبناء الصحراء هؤلاء » المحل الأول في الوصف الاتنوغرافي لمدينة البصرة وأن تدرس حياتهم بشكل أكثر شمولاً.

يتميز البدو عادة بطول القامة ورشاقة الجسم وشدة النحافة رغم كونهم ضخمي العظام مفتولي العضل. والبدانة بينهم ظاهرة نادرة إلى درجة حيث تعتبر من صفات القبح وتصبح مثاراً للسخرية. إن الشعر الطويل الكثيف الذي يكون أسوداً في العادة وأشقراً أو أحمراً في حالات نادرة والمجدول في بضعة ضفائر تنسدل على جانبي الوجه يعطي البدوي مع اللحية الطويلة على وطراز الملبوس الفضفاض المتدلي حتى الأقدام والمهابة الهادئة هيئة شيخ من شيوخ التوراة وعيون البدو في الغالب سمراء داكنة تقرب من السواد وزرقاء في أعيان نادرة ونظرتهم نفاذة فاحصة وتعبير وجوههم صارم وجاد يشوبه الكثير من الدهاء.

والبدو على العموم يتميزون دون شك بجمال الطلعة لكنهم يشيخون بسرعة حتى أن الواحد منهم عندما يصل الثلاثين من العمر يعتبر أن شبابه قد ولي منذ زمين طويل ، ففي مثل هذا العمر تكون عيونهم قد أحاطتها تجاعيد عميقة نظراً لأنهم مضطرون لأن يضيقوا عيونهم باستمرار حماية

لها من تأثير أشعة الشمس الساطعة ، كما أن خدودهم تكون قد غارت ولون وجوههم قد علته مسحة بنية داكنة بتأثير الشمس التي لا ترحم. وعندما يبلغ البدوي ال 40 - 45 من العمر تشيب لحيته نهائياً وفي سن الخامسة والخمسين يكون قد أصبح شيخاً طاعناً على الرغم من أنه يحتفظ في العادة بحركتة وبانتصاب قامته وتناسقها حتى نهاية حياته.

وملابس البدوي غاية في البساطة فهي تتألف من قميص طويل حتى الكعب ويكون لونه أبيض في الغالب يلبس فوقه الموسورن منهم كاستثناء رداءً مخططاً تركماني الطراز. ويلقي أبناء الصحراء على أكتافهم ، اتقاءً للبرد والمطر ، « عباءة » وهي رداء من الصوف يستخدم أثناء النوم أيضاً بدلاً من اللحاف. والبدو لا يلبسون السراويل فهي تعيق الحركة وأقدامهم عارية وإن كانوا يلبسون النعال في بعض الأحيان ، ورؤوسهم تغطي بمنديل قطني أو حريري مطوي على شكل مثلث بحيث تحيط قاعدته بالوجه ويتدلي جانباه على الكتفين ورأسه على الظهر. ويثبت هذا المنديل أو « الكوفية » >على الرأس بواسطة « العقال » وهو عبارة عن ضفيرة طويلة من وبر الجمال يلف حول الرأس على شكل دائرتين. وغالباً ما يتمنطق البدوي فوق القميص بحزام من الجلد بسيط الصنع أما عرب المدن فإن الرداء والسروال يعتبران عندهم من لوازم البدلة الضرورية ، كما أنهم يستعملون الستر من الطراز الأوروبي على نطاق واسع كلباس خارجي في الشتاء.

ويؤلف السلاح الذي لا يفارقه البدوي الحقيقي تتمة لا غنى عنها للمظهر الخارجي لابن الصحراء بحيث لا يكون تصور مظهره الخارجي كاملاً من دونه وشغف البدوي بالسلاح الأوروبي الحديث عظيم إلى درجة بحيث انه يعاني العوز ويحرم نفسه طوعاً من الكثير لا لشيء إلا لكي

يمتلك بندقية جيدة أو قربينة[1] مارتيني ، من التي بكميات كبيرة إلى بلاد العرب عن طريق مسقط والكويت وإذا ما كان الرحالة الأوروبيون القليلون الذين تغلغلوا في أعماق شبه جزيرة العرب قد لا حظوا في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن وجود البنادق الشطف[2] عند البدو يعتبر ظاهرة غير إعتيادية فإن مثل هذا السلاح يعتبر الإن حتى في الصحراء
سلاحاً قديماً فقد نصف قيمته السابقة.

وتنتشر بين البدو على نطاق واسع ، إلى جانب الأسلحة النارية الحديثة ، أسلحتهم القديمة ومنها رمح من القصب يتراوح طوله ما بين 2 / 1 ، 1
و 2 ساجين[3] يثبت في نهايته العليا رأس مدبب من الحديد على شكل مثلث وتكون نهايته الدنيا مدببة ليسهل غرزه في الأرض. ويستخدم هذا الرمح لرمي العدو الهارب عند الاقتراب منه أثناء تعقبه وكذلك لا ضاقة حصان العدو في حالة كون العدو هو الذي يتعقبهم. وذلك بتوجيه الرماح الحادة إلى وجهه. ومن الأسلحة العربية القديمة الأخرى السيف والخنجر وأخيراً ترس بدائي مصنوع من وبر الجمل. ويكتفي الفقراء جداً من البدو بهراوة (دبوس) أو مجرد مقلاع وهذا الأخير يكون أيضاً في سن الطفولة اللعبة المفضلة لصبيان البدو.

والنساء بوجه عام أقل جمالاً من الرجال على الرغم من حسن تكوينهن وسلامة ملامح وجوهن. فالقوة الرجولية البحتة التي تعبر عنها ملامح وجوهن وحركاتهن التي تتسم بالخشونة ومشيتهن الثابتة تجردهن

---

(1) بندقية قصيرة ـ المترجم
(2) تسمي بالعامية « أم جداحةً » ـ المترجم
(3) الساجين مقياس روسي للطول مقداره متر واحد و 13 سنتمتراً ـ المترجم

من كل أنوثة. إضافة إلى أنهن ، من وجهة النظر الأوروبية ، يشوهن أنفسهن بالوشم الذي يرسمنه على وجوهن وصدورهن وأيديهن وأرجلهن وكذلك بتعليقهن لحلقات خاصة في الأنف ولبسهن لعقود وما أشبه ذلك من الحلي. وفوق ذلك كله تكاد البدويات يذوين أسرع من الرجال وذلك أمر تحتمه ظروف حياتهن الصعبة. فإذا ما كان ممثلو الجنس الخشن في الصحراء محكوم عليهما منذ أن يولدوا إلى أن يموتوا بالعوز الدائم والمصائب المستمرة فإن الجنس اللطيف يتحتم عليه أن يعيش حياة أصعب وذلك لأن جميع أشغال البيت وأعمال تدبيره ملقاة كما سنرى على عاتق النساء البدويات.

وسنحاول في السطور التالية أن نرسم صورة تقريبية للحياة البدوية بكل ما تمتاز به من سوء ابتداء من طعام العربي المتنقل الثقيل العسر الهضم وانتهاء بكفاحه المستمر من أجل البقاء وهو الكفاح الذي يتحتم عليه أن يخوضه لا ضد الطبيعة التي يعيش فيها فقط وإنما ضد أبناء جلدته أيضاً.

يتألف طعام العربي المتنقل من التمر والرز والدخن والشعير أو الحنطة وهو يحصل على هذه المنتجات مرة أو مرتين في السنة من المدن حيث يستبدلها بالمنتجات الحيوانية.

ويحضر العجين من الحبوب بعد طحنها برحي يدوية ثم يخبز إما على أحجار محمية أو بإلصاقه على جدران حفر خاصة تحفر بالأرض بعد أن يشعل فيها الشوك اليابس أو روث الجمال المجفف. والخبز الذي يحضر بهذه الطريقة هو عبارة عن أرغفة نصف ناضجة يصعب مضغها. وتكون مائدة البدوي في القبائل التي تمتلك الماشية غنية بالكثير من حليب النوق إضافة إلى حليب الغنم والماعز والزبدة المستخرجة منهما. ويصنع

البدو للشتاء الذي يعتبرونه « فصل الجوع » كرات صغيرة من حليب النوق تنشف جيداً وتكبس ثم تجفف في الشمس [1] ويحتفظون بها أشهراً.

وتعطي هذه الكرات بعد أن تذاب بالماء شراباً أشبه بالحليب الحامض وإذا ما كان التمر يؤلف الغذاء الرئيسي بل والوحيد في بعض الأحيان بالنسبة للأعراب في جنوب العراق الجنوبي. فإن استهلاك ثمار النخيل هذه إذا زاد عن الحد يعتبر في ولاية بغداد أي إلى الشمال أكثر أمراً مضراً بالصحة بحيث أن السكان هناك يعمدون من أجل القضاء على الدزانتري الذي تسببه تلك الثمار إلى شرب القهوة سوداء قوية بدون سكر.

ويستهلك هذا المشروب أي القهوة على نطاق واسع بين سكان المدن العرب وكذلك لدى البدو الذين يقدمونه لضيوفهم قبل أي شيء آخر كما أن رفض الضيف لتناوله يعتبر إهانة مقصودة لصاحب الخيمة. وإلى جانب هذا الأثر النافع للقهوة يعتقد البدو أن لها خصائص علاجية أخرى كتحسين النظر وتقوية الذاكرة وما أشبه ولهذا فإنها تتمتع بالاكبار بين البدو ، حتى أن تحضيرها يحاط بطقوس خاصة. حيث يقوم بذلك خادم خاص لهذا العمل أو رب الدار نفسه بأن يغلي الماء في الدلة ثم يبدأ بتحميص البن وهو أمر يجري دوماً قبل تقديم القهوة مباشرة. تحمص حبوب البن في مغرقة حديدية كبيرة على نار هادئة إلى أن تحمر ثم تبرد وتطحن في جرن خاص ويوضع المسحوق في الدلة التي يكون الماء فيها آخذ بالغليان. ويضيف البدو إلى القهوة في العادة قليلاً من الزعفران أو جوز الطيب ويشربون هذا الشراب العطر بلا سكر لأنهم يعتقدون بأن

(1) بقصد المؤلف ما يسمي بالعامية بـ « الجثي » ــ المترجم. يسميه البدو بلهجتهم (المَكُل)

السكر يفسد مذاقة.

ويأكل البدو بين الحين والآخر لحم الغنم أو الابل لكن مثل هذا الطعام يعتبر ترفاً لا يقدمون عليه إلا في المناسبات المهمة وبالأخص أثناء المناسبات العائلية الزواج والختان وكذلك عند استقبال كبار الضيوف. ويعتبر لحم الابل وعلى الأخص الصغيرة منها طعاماً شهياً جداً بحيث أنهم بمجرد أن تكسر رجل حيوان منها في الطريق يبادرون إلى نحره رأساً ويقيمون منه وليمة حقيقية. ويأكل البدو مرتين في اليوم حيث يتناولون طعاماً خفيفاً في الصباح ووجبة أدسم في المساء بعد غروب الشمس. ولا بد أن تدخل في الوجبة المسائية الأكلة التي يطلق عليها اسم « عيش » وهي عبارة عن عجينة تصنع من الطحين وحليب النوق الحامض بعد أن تغلي سوية ودون أن تضاف اليها أية توابل أخرى.

وإذا ما كان مثل هذا الغذاء مضراً للبالغين بحيث أن من النادر أن نجد بدوياً في سن الأربعين أو الخمسين لا يعاني من سوء الهضم ، فإنّ تاثيره على الأطفال وبيل أيضاً ، وكل من تأتّي له أن يزور مضارب البدو أدهشته رغماً عنه بطون الأطفال المنتفخة انتفاخاً مرضياً ونسبة الوفيات بين الأطفال كبيرة إلى درجة بحيث يمكننا القول دون مبالغة بأنه لا يعيش منهم إلا شديد والقوة الذين يستطيعون التكليف لظروف الحياة القاسية في الصحراء.

وينشأ أطفال البدو على الحرية التامة يمنحونها لأنفسهم كلياً دون أي إشراف او عناية من جانب الكبار ، ففي أي من مضارب البدو يمكن أن نلاحظ أطفالاً عراة يمرحون حول الخيام مختلطين بالخيل والكلاب والماشية البيتية ، حيث نجد الأولاد دون السادسة والبنات دون الخامسة من العمر يتراكضون عراة حاسري الرؤس. إذ أنهم لا يرتدون القمصان إلا

بعد أن يتعدوا هذا السن.

وفي ظل غياب التربية من أي نوع كان تأخذ جميع صفات الطفل وميوله الفردية سواء كانت حسنة أم سيئة بالتطور والترسخ دون عائق فتكون في نهاية المطاف مجمل السجايا التي يتميز بها البدوي الذي تتوائم فيه بشكل لا ينفصل متناقضات متعارضة. فلكي نصف أخلاق البدوي يتحتم علينا أن نضيف إلى صفاته الايجابية كالطيبة واللياقة في المعاملة والكرم والشهامة غير قليل من الصفات السلبية ونعني الريبة والجشع والمكر والغطرسة والشهوانية.

ورغم أن الأب لا يعني بتربية أولاده فإنه يعتبر الطفل الجرئ الفطن والشاطر إبناً مثالياً ويفتخر به. والبدوي يحب الأطفال ولكنه لا يظهر في تعامله معهم أي رقة ولا يتنازل للطفل مهما كان لمجرد كونه طفلاً. لذا يتحتم على الأطفال في ظل معاملة الكبار هذه أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى شطارتهم فقط في كل شيء ولهذا السبب يترک أطفال البدو في سن مبكرة حياة الطفولة الخلية وهم لا يكادون يعرفون العاب الطفولة الحقيقية. وبفضل الحياة المشتركة مع الكبار في خيمة واحدة يتعرف أطفال البدو في وقت مبكر عن طريق أحاديث أولئک على كل الجوانب القبيحة للحياة البشرية بحيث أنهم يبدون وهم في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر وكأنهم أناس ناضجون ، حيث يكون البدوي حتى هذه السن قد أتقن فهم العلاقات البشرية بكل تفاصيلها وأدرک كلياً قوانين الكفاح من أجل البقاء ودرس بشكل ممتاز الصحراء بعاداتها ودسائسها وسياستها مع بقائه في كل ما عدا ذلک ابتداء من القراءة والكتابة جاهلاً جهلاً مطلقاً.

وبمجرد أن ينهي الغلام البدوي مدرسة الحياة هذه ويتقن أساليب الحصول على رزقه اليومي ويتعلم مختلف أساليب الدفاع عن الذات يعتبر

الأب أن التزاماته تجاه ابنه قد انتهت فيحمله على أن ينفصل عنه بعد أن يعطيه جملاً أو حصاناً ليبدأ حياته بهما وليصبحا منذ تلك اللحظة المرافقين الأمينين لعضو القبيلة الجديد الكامل الحقوق في بنائه لحياته المستقلة اللاحقة.

ولا يعيش من أطفال البدو كما سبق أن ذكرنا ألا أقواهم وأكثرهم تحملاً وهذا هو السبب في أن البدو يتميزون بشكل عام بالصحة الجيدة ولا يمرضون إلا نادراً ولكنهم عندما يصابون بالمرض جدياً فإنهم لا يتمانلون للشفاء لأنهم في الصحراء لا يعرفون أساليب الطب المعقدة لذا فإنهم يتركون الجسم يصارع المرض وحده. إن كل ما تعرفه بلاد العرب بهذا الشان يقتصر على تحضير عقاقير بسيطة من بعض الأعشاب لا يمكن أن يكون لها أي تأثير على سير المرض أما الجراحة اليدوية فإنها ليست أفضل من علاج الأمراض الباطنية فهي لا تسمح بإجراء أية عمليات جراحية فيما عدا إخراج الدم بواسطة سكين اعتيادية [1] أو وخز أعضاء الجسم المصابة بالروماتيزم أو عرق النسا بإبرة محمية أو إحراق الجروح التي يسببها السلاح الأبيض والناري بدهن مغلي.

ونادراً ما يتمتع المريض بالهدوء الذي يحتاجه ذلك أنه يتحتم عليه بالرغم من إرادته أن يتبع قبيلته في كل تحركاتها حيث لا أحد يفكر براحته ، في تلك الحالة. فبعد أن يضعه أهله على الجمل لا يعودون يهتمون إلا بالحرص على أن لا يقع من جمله المنهك أثناء السير. وهكذا يستمر هيكل المريض نصف الميت بالتأرجح على « سفينة الصحراء » تغذيه الريح والغبار والقيظ إلى أن يصل إلى المحل المنشود.

---

(1) يشير المؤلف هنا إلى الحجامة ـ المترجم.

ويأخذ الجدري والطاعون الذي ينتشر أحياناً في الصحراء أكبر عدد من الضحايا. أما الأمراض الجلدية كالدمل والقرح المختلفة فإنها ظاهرة اعتيادية تسببها القذارة التي تشيع بين البدو الذين لا يغسلون ملابسهم وإنما يستمرون على لبسها إلى أن تتهرأ ، وذلك بسبب ندرة المياة وقيمتها العالية. وأمراض العيون واسعة الانتشار في الصحراء وفي المدن على السواء فهناك في البصرة مثلاً ما بين عشرين إلى ثلاثين أعور أو أعمي أو يشوب عينيه نقص ما من بين كل مائة شخص. ويجدر بنا أن نضيف إلى الأمراض المذكورة أمراضاً أخرى كالحمي ومرض الاستسقاء وتكون الحصا في الكبد أو الكلي أو المثانة وكذلك بفضل ما يتمتع به البدو من عفة كبيرة بالمقارنة مع أبناء جلدتهم في المدن كما أن ظروف حياة التنقل نفسها لا تساعد على الفساد لأنها تحتم على النساء أن يكن على الدوام على مرأى من الجميع وان يعشن في محيط قبيلتهن الضيق حيث يصعب إخفاه أي شيء عن ساكني الخيمة الآخرين.

لكن ظروف حياة التنقل تحتم أن تتمتع البدويات بحرية كبيرة بالمقارنة مع نساء المدن ، ذلك أن أنعدام البيوت الدائمة يؤدي إلى انعدام الحياة المغلقة حيث يكون من المفهوم تماماً أن يتعذر في ظل العيش تحت الخيام إفراد جزء خاص للنساء منفصل تمام الانفصال كما تصعب اكثر من مراعاة الصرامة المطلقة في حجز الحريم في ظل حياة التنقل الدائم ومع وجود المناوشات الحربية بين القبائل المعتادية.

وبسبب هذه الظروف الاستثنائية يحتل حريم البدوي عادة نصف الخيمة الواقع إلى يمين المدخل ولا يفصله عن الجزء الخاص بالرجال إلا ستارة خفيفة من وبر الابل.

هذا ولا يمكن للبدوي أن يخفي زوجته عن أعين رجال قبيلته

بسبب من أن النساء يضطلعن بجميع الاهتمامات المادية ويقمن بأصعب وأثقل الأعمال البيتية فهن ينصبن الخيام ويرفعنها ويجلبن المياه ويجمعن الشوك الجاف للوقود ويجلبن الماشية ويسقنها إلى المرعي والمورد ويستخرجن الزبدة ويطهين الطعام ويغزلن ، وباختصار ترتكز عليهن بشكل كلي حياة العائلة بأجمعها. وفي ظل مثل هذه الحياة الحافلة بالعمل والنشاط لا يمكن إطلاقاً تحويل البدويات كما جرى بالنسبة للعربيات من سكان المدن إلى مخلوقات عاجزة لا تكاد تستطيع تحريك أرجلها تحت عدد لا يحصى من الحجب والأغطية.

إن ملابس البدويات ملائمة تماماً لنمط حياتهن وهي تتألف من قمصان عريضة واسعة الأكمام وطويلة تصل حتى أخمص القدمين تلبس النساء فوقها « عبا » كتلك التي يلبسها الرجال. أما الأرجل فتبقى حافية في حين يغطي الرأس بمنديل من القطن أو الحرير من ألوان مختلفة بما فيها الأحمر والأسود علماً بأن الصارخة تفضل بالنسبة للفتيات والمعتمة بالنسبة للعجائز. والبدويات شأنهن في ذلك شأن النساء الشرقيات كافة يحببن جداً. أن يتزين بالأشياء التافهة كالأسورة والحجول التي تكون إما زجاجية بسيطة أو فضية وذهبية تحيط بأيديهن وأرجلهن في حين تتدلى على جباههن شنوف من العملة أو قطع من القصدير إذا كن فقيرات ، وتحيط العقود بأعناقهن. ولا تفترق النساء في الصحراء عن هذه الحلي كلها أبداً وهن يتنافسن مع صديقاتهن وقريباتهن بعدد هذه الحلي ونوعيتها ، ولهذا يعتبر كل بدوي أن من واجبه أن يشتري لزوجته أكثر ما يمكن من الحلي حيث يجد في ذلك إرضاءً لغروره لأنه هو نفسه قليل الاهتمام بمظهره ولباسه.

ونساء القبائل المتنقلة في شبه جزيرة العرب أقل من الرجال من

حيث المستوى العقلي وذلك أمر لا يعيقهن عن التمتع بنفوذ كبير في العائلة وعن أن يكون للبعض منهن من خلال ازواجهن تأثير على قبيلتهن بأجمعها. على أننا يجب أن لا نستنتج مما ورد أعلاه بأن حرية البدويات غير محدودة فعلى الرغم من أنهن يتواجدن مع الرجال في نفس الخيمة إلا أنهن يعشن بصورة منفصلة تماماً عنهم ولا يسمح لهن أن يخالطن أو يلتقين إلا بأقاربهن المقربين أما أكلهن مع الرجال حتى ولو كانوا من أفراد عائلتهن فإنه يعتبر من أعلى درجات التبذل.

وبعد أن ألقى الرجال بكل ثقل الأعمال اليومية على عاتق النساء بحجة أن العمل البدني والسلمي بما فيه الزراعة مهين للبدوي الحر ، لم يبقوا لأنفسهم إلا الغارات الوحشية والأعمال الحربية والصيد. وما حياة البدوي خارج نطاق هذه الاعمال التي يعتبرونها أعمالاً شريفة إلا خمول تام وبطالة ، حيث يقضي الرجال الجزء الأغلب من النهار متمددين على أرض الخيمة يتجاذبون مع بعضهم احاديث لا تنتهي. أما في الأمسيات فيجتمعون في خيمة الشيخ التي تكون مفتوحة للجميع وهناك يناقشون بحرارة كل القضايا المتعلقة بالصحراء وسكانها وكذلك الشؤون الخاصة بالأقطار المجاورة فيظهرون خلال ذلك دراية بحوداث العالم الخارجي مدهشة بالنسبة لأناس منعزلين في الصحراء. إن جميع ما يحدث في الصحراء كالصلح أو القطيعة بين القبائل والعلاقات القائمة بين مختلف الشيوخ والوضع في هذا الجزء أو ذاك من بلاد العرب وكذلك في المدن المجاورة حيث يوجد لكل شيخ عين موثوق.

كل ذلك معروف للجميع بأدق تفاصيله. إن أي خبر أو إشاعة ينقل على الفور من فم إلى فم وينتشر بسرعة في المضارب المجاورة ولهذا السبب يمكن التأكيد بشكل قاطع بأنه لا وجود للأسرار في الصحراء.

وغالباً ما يصل الأمر إلى حد أن خبر عزم إحدى القبائل على شن هجوم مباغت على الأعداء يصل إلى أولئك الأعداء قبل أن تنتهي الاستعدادت للحملة وهي استعدادات تجري في غاية السرية.

إن ولع العرب بمثل هذه الأخبار والنمائم والاشاعات كبير إلى درجة بحيث أنهم لا يستطيعون التخلي عن هذه العادات حتى في المدن حيث يجتمعون مرة عند هذا ومرة عند ذاك لكي ينهمكوا في الحديث والاستماع إلى مختلف الأخبار وهم يتناولون القهوة. وتكون هذه الاجتماعات عادة مملة في الصحراء ولا تخرج عن رتابتها إلا نادراً عندما يغني موسيقي بدائي على آلة الصحراء الموسيقية « الربابة » (نوع من الكيتار) يصاحبها الطبل « الدمام » أو عند رمي الكعاب وهي لعبة يحرص عليها البدو الشغوفون باللعب بفطرتهم.

إن قدوم ضيف أو عابر سبيل وهو أمر يدخل بعض التسلية على حياة البدوي الرتيبة والكئيبة بشكل عام ، يقابل دائماً بالترحيب الحار ويبادر الجميع إلى استضافته من صميم قلوبهم. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحفاوة الدائمة التي يصادفها القادم أو عابر السبيل لدي البدو تفسر أيضاً بحقيقة أن البدو لو لم يرفعوا الضيافة إلى مرتبة القانون فإنه لا أحد منهم يستطيع أن يتنقل منفرداً أو على شكل جماعات صغيرة في الصحراء حيث لا يوجد منزل بشري غير المخيمات وحيث يحكم على الانسان بالموت المحتم إذا لم يستطع أن يلجأ إلى ضيافة الآخرين. ولهذا السبب يفرض العرف الاعتيادي للصحراء على كل واحد التزاماً مقدساً هو أن يؤوي ويطعم الغريب بدون أي مقابل على الاطلاق.

وقد تغلغل هذا العرف الذي كونته قرون طويلة من الزمن في لحم البدوي ودمه إلى درجة بحيث أن أعظم الاهانات التي يمكن أن يصاب بها

الشخص هي وصمه بالتقصير في أكرام الضيف وحسن معاملته فالضيوف يعتبرون بمثابة أفراد العائلة التي استضافتهم بل من أفراد القبيلة ككل. غير أن مثل هذه النظرة للضيف خصوصاً إذاً لم يكن عربياً لم تبق سائدة إلا لدي القبائل الكبيرة والقوية مثل عنزة وشمر فمثل هذه القبائل ترى أن سرقة الغريب الذي يتمتع بضيافتها أو الاساءة إليه عار. لكن مثل هذه المعاملة السيئة للأوروبيين تعتبر عند بعض القبائل الصغيرة ظاهرة عادية نوعاً ما. تؤكد ذلك الحادثة التي رواها الرحالة الروسي البارون نولده وهو أحد القلائل الذين زاروا نجد وقد ترك لنا وصفاً شيقاً لرحلته باللغة الالمانية.

يحدثنا البارون نولده في كتابه [1] بأنه لم يصادف بعد وصولة إلى حائل (عاصمة نجد) استقبالاً بارداً من جانب السكان فحسب وإنما قابلوه بعداء صريح. ولم يتأخر عن أبناء جلدته في ذلك حتى حمود ابن عم محمد بن رشيد أمير نجد آنذاك الذي كان يحكم حائل في غياب أميرها المذكور. فقد أرسل إلى القادم صورة الرحالة الفرنسي (Hunert) الذي كان قد ذُبح في نجد. ولكن من حسن حظ نولده أن المطر بدأ بالسقوط بعد وصوله مباشرة واستمر لمدة ست وثلاثين ساعة ثم أصيب حمود ربما بسبب تبدل الطقس بسعال ظل يعذبه طيلة ثمانية اشهر وفي أثناء ذلك وصل إلى حائل خبر النصر الباهر الذي أحرزه محمد بن رشيد على قبيلتي عتيبة ومطير حيث ظهر أن العدو بادر إلى الفرار في اللحظة التي دخل فيها صاحبنا إلى المدينة بالضبط. إن توافق كل هذه الظروف المواتية صدفة دفع النجديين

---

(1) Baron Eduard Nolde Reise nach Innerarabien , Kurdistan und Armenien , 1892 S. 46 - 47.

إلـى أن ينظـروا إلـى ضـيفهم نظـرتهم إلـى شـخص يجلـب السـعد الأمـر الـذي غيـــر موقفهم منه وهو الموقف الذي كان حتى ذلك الوقت معادياً [1] [2].

إن هـذا المثـل يمكـن أن يكـون أيضـاً شـهادة بليغـة علـى مـدي إيمـان البدو بالخرافات على الرغم مما تؤكده الرحالة الانجليزية المشـهورة Lady (Anne Blunt) التي تحاول في الصفحة 223 من الجزء الثاني من كتابها : " Bedouin Tribes of the Enphrates" أن تبـرز لهـم ذلـك ، فجميـع الأوروبيين الـذين تعـاملوا مـع البـدو بهـذا الشـكل او ذاك يمكـنهم التأكيـد بـأنهم يؤمنـون باللقاء المشؤوم وأيام النحس وعين الشؤم وما شابه ذلـك. فمصـادقة الضـبع أو الأرنـب علـى العكس علامة شؤم. كمـا أن البـدو يعتبـرون الثلاثـاء والأحـد مـن أيـام الـنحس بعكـس الخمـيس والسـبت اللـذين همـا فـي رأيهـم ملائمـان للشـروع بـأي عمـل ، كـذلك تحمـل البـدويات ويقلـدن أطفـالهن بـل ويقلـدن الحيوانـات أيضـاً تمـائم تقـيهم مـن إصـابة العـين. وأخيـراً فـإن مـن الحقـائق المعروفـة للجميـع أن البـدوي مسـتعد لأن يبيـع بـثمن بخـس أحسـن مهـر لديـه إذا ما ظـهرت عليه علائم تشير في اعتقاده إلـى الـنحس كالنجمـة تظـهر علـى عنق الفرس أو قوائمه مثلاً أو ما شابه ذلـك [3].

---

(1) يثبـت الرحالـة الفرنسـي Dennis de Rivoyre حقيقـة مماثلـة فـي الصـفحة 195 - 196 من كتابه : "Les Vrais arabebes et leur Pays"

(2) غيــر بعيــد أن هــذا التعامــل مــع هــؤلاء كــان نابعــاً مــن اعتبــارهم جواســيس فهــم ينظــرون الــيهم بعــين الريبــة وكانــت ظــاهرة الجاسوســية قــد تمــادت بشــكل كبيــر فــي القــرن التاســع عشــر علمــاً ان عــدداً مــنهم كــان يحتمــي بــبعض الامــراء والشــيوخ فــي تلك المنطقة. حميد الدراجي

(3) J. L. Burckhardt Notes on the Bedouins and Wahabys , London , 1831 , Vol. - 1. PP. 213 - 214.

وبالإضافة إلى الضيوف يجلب إلى المخيم الكثير من الانتعاش أيضاً قدوم بائع متجول حيث يقوم أثناء تجواله ببضائعه بين القبائل بجمع الأخبار المختلفة ونشرها في أنحاء الصحراء فيلعب بذلك دور الجريدة البدوية الواسعة الانتشار. و « المحدث » يعتبر هو الآخر زائراً مرغوباً فيه فهو يشد انتباه مستمعيه بقصائد رائعة ينشدها حول هذا البطل البدوي أو ذاك يختمها بمديح يرتجله بحق القبيلة المضيقة له وشيخها ، أو أنه يثير إعجاب « إبناء الصحراء » بأنغام عربية فريدة في حزنها تؤثر ألحانها بشكل لا يمكن مقاومته حتيعلى الأوروبي.

وبعد أن بينا بوجه عام كيف يقضي البدوي وقته في أيام السلم سننتقل إلى وصف لحظات حياته المترعة بالخطر والحرمان والمليئة بالقلق والاضطراب التي تجعل من عربي الصحراء مقاتلاً شجاعاً صبوراً لا يعرف الخوف.

والواقع البدوي يعي وحشيته التي يولدها موطنه الموحش القاسي المفقر حتى أنه يتباهي بها. أنه على أية حال يفخر بأنه الوحيد الذي يستطيع العيش في الصحراء ويتوائم معها ولا يخافها. وبوعي تام بتفوقه في هذا المجال هو يعمد إلى إخافة الغرباء مصوراً الصحراء وسكانها أكثر رعباً وقبحاً وقساوة مما هم في الواقع. وتظهر في هذا التخويف خشية البدوي الخفية الدائمة من العدوان الأجنبي خشيته على حريته وعلى كل نمط حياته التي لم يستطع مرور آلاف السنين أن يغيره.

والبدو الذين يعيشون نمط حياة رعوي يتنقلون في بحثهم عن العشب لماشيتهم ، من مكان إلى آخر باستمرار. والبدو الرحل لا يتحركون من أماكنهم طالما أن ماشيتهم تجد العشب ولا تشعر بالنقص في الماء ولكنك لا تجد بعد أن يرفع مخيم البدو لا عشباً ولا حتى شوكاً كما لو أن

الجراد قد اكتسح المكان ، فكل شيء أجرداً وكل شيء يكون قد أكل وأتلف وأبيد. وبمجرد أن تظهر الحاجة للبحث عن مرعى جديد يجتمع وجهاء القبيلة في خيمة الشيخ للتداول فيتفقوا على تعيين يوم يرفع فيه المخيم ويحددوا محل نزولهم الجديد. وبمجرد أن يتم ذلك تبدأ القبيلة بالاستعداد بنشاط للانتقال حيث يقتصر دور الرجال على نقل أوامر الشيخ إلى النساء اللواتي تقع بعد ذلك على عاتقهن كل أعباء العمل في إعداد عوائلهن للمسير.

وقبل أن تبدأ القبيلة تحركها ببضع ساعات ترسل في البدء الأغنام إن وجدت يرافقها الرعاة وعدد كبير من الكلاب وكذلك النوق وأبناؤها وضعاف الابل. وتلافياً لأي عارض يقوم فرسان مسلحون بحراسة جناحي القطيع ومؤخرته ، أما في المقدمة فيسير بضعة أشخاص من الأدلاء. وبعد القطيع ترسل الجمال بأحمالها الثقلية التي تتألف من متاع البيت وأكياس الطعام ثم الخيام التي كانت النساء قد طوينها ، ثم بعد ذلك تسير القبيلة نفسها حيث تحمل النساء على الجمال أيضاً علماً بأن نساء الشيخ وأغنياء البدو يجلس أحياناً فيما يسمى بـ « شبراي » [1] وهي محفات تغطيها الستائر لكن الأغلبية يكتفين بـ « شكدوف » [2] وهي عبارة عن سلال كبيرة معلقة على جانبي الجمل يجلس فيها أيضاً الاماء والأطفال ، أما الفقيرات جداً فيجلسن مباشرة فوق الحمل على الجمل بعد أن يجلسن أطفالهن في أقفاص صغيرة مجدولة من الأغصان ومثبتة على جل الجمال. ولا تبدأ القبيلة بالمسير دفعة واحدة في العادة وإنما تنفصل عنها حسب انتهاء

(1) الصحيح « شوداي » وهي لفظة يطلقها البدو على الهودج ـ المترجم.
(2) اسمها عند البدو هو « لبيد » ـ المترجم :

استعداداتها للمسير مجموعات صغيرة تتألف الواحدة منها من بضع عوائل معها عدد من الراجلين يسوقون الابل.

وتحاول هذه المجموعات أن تسير إلى يمين أو إلى شمال الطريق الذي اتبعه من سبقوها في السير وذلك لكي تؤمن لحيواناتها أثناء السير العشب الذي ترعاه والذي لا يمكن توفره طبعاً في حالة السير على نفس هذا الأسلوب في الحركة تنتشر القبيلة من مكان إلى آخر في مسافة تمتد لعدة فرستات طولاً وعرضاً وتزحف ببطء نحو محل النزول الذي كان قد حدد سلفاً بالقرب من المياه أو أحد الأبار.

وتحدد المسيرة اليومية عادة بـ10 - 12 فرستاً وتأخذ القبيلة من حين لآخر فترة راحة تستغرق من يومين إلى ثلاثة ولكن الأمر في كلا الحالين يعتمد مباشرة على مكان وجود الماء. لذا يتحتم في بعض الأحيان استمرار السير لأكثر من يوم قبل الوصول إلى مكان الماء. وفي مثل هذه الحالة يسبق قسم من الفرسان المسلحين على جمال أو خيول سريعة. القبيلة ويحتلون مورد المياه لكي يؤمنوا الماء لذويهم. إن ضرورة البقاء بدون ماء لعدة أيام لا تقلق البدو ذلك أن البشر والحيوانات في الصحراء قد اعتادوا على الصبر على العطش. وهم يكتفون أثناء الأسفار الطويلة في مناطسق معدومة المياه بحليب الابل ولهذا فإنهم لا يقومون برحلائهم الطويلة جداً الا في الربيع بعد أن تلد النوق والبدوي البالغ الصحيح الجسم يستطيع على ما يقوله البارون نولده [1]، أن يستغني عن الماء على الرغم من الحر اللافح لمدة ست وثلاثين ساعة على أن تحسب على أساس ليلتين ونهار واحد. وتعتبر الفرس جيدة إذا استطاعت أن تسير يومين بدون ماء. أما الجمل فلا

Eduard Nolde. Op. cit. S. 30 (1)

ينبغي أن نتحدث عنه ذلك أن قوة تحمله معروفة للجميع.

وعندما تصل القبيلة أخيراً إلى الهدف الذي تقصده ، يختار الشيخ مكاناً ليقام فيه المخيم ويعينه بأن يغرز رمحاً في الأرض ويربط به حصانه.

ثم يعين كل بدوي موضع خيمته بالطريقة نفسها تاركاً للنساء تدبير الشؤون الأخرى. وأول عمل تقوم به البدويات في هذا المجال هو نصب الخيمة وإعداد الغذاء للعائلة ثم الاهتمام بعد ذلك بالحيوانات كسقيها الماء ووضعها في محل تبيت فيه إلى جوار الخيمة. وبعد الانتهاء من هذه الواجبات تشرع البدويات بترتيب الأمتعة التي تمتاز بالبساطة فيضعن في القسم الخاص بالرجال البنادق والسروج وفي هذا القسم تبيت أيضاً الحيوانات الضعيفة. أما الجزء الخاص بالنساء فإنه يكون محلاً للنوم وللأطفال ومطبخ ومستودع في الوقت نفسه. ولهذا تخزن فيه أكياس المؤونة وتوضع فيه كل لوازم البيت وهي : جرن خشبي للقهوة وبضعة دلال وعدة فناجين وعدد من الملاعق وأواني خشبية وطست نحاسي ورحى يدوية ومجمرة صغيرة وقرب للماء والحليب ولمخاض الزبدة. وهكذا فإن أثاث البدوي ، كما يظهر من هذا التعداد بسيط ومتواضع كحياته نفسها.

إن الانتقال بالطريقة التي وصفناها تقوم به القبائل الكبيرة في وقت محدد من السنة وباتجاهات معلومة. فعنزة مثلاً تهبط في الشتاء إلى الجنوب فتصل إلى حبل شمر تقريباً وتتجه مع الربيع بحثاً عن المرعى إلى الشمال مرة أخرى فتقترب من حلب. ويقطع هؤلاء البدو بهذا الشكل على ما تذكره الرحالة الجريئة السيدة (Anne Blunt) حفيدة اللورد بايرون ، سنوياً فيما بين تشرين الثاني وأيار ما يقرب من ألفي ميل. أن مثل هذه المسيرات الطويلة تقوم بها القبائل التي تشتغل بتربية الابل بالدرجة الأولى ،

أما القبائل التي تربي الأغنام فإنها لا تستطيع الاستغناء عن الماء ، ولهذا فإنها لا تقطع مسافات كبيرة في تنقلاتها.

وهكذا فإن المراعي بالنسبة للبدو هي قضية حياة أو موت لذا فمن الطبيعي تماماً ان يعادي بعضهم بعضاً من أجل امتلاكها وإن تستمر عداوتهم سنين طويلة حتى يفقرهم ذلك الصراع إفقاراً تاماً. ويبدأ النزاع عادة عندما تعمد إحدى القبائل بعد أن تعجز عن إطعام ماشيتها التي ازدادت أعدادها كثيراً بتأثير جملة من العوامل الملائمة في الأماكن المعتاد لها. إلى احتلال مراعي تعود إلى قبيلة اخرى تحاول هذه الأخير أن تستعيد حقوقها بقوة السلاح فيقوم صراع دموي يتسع بالتدريج فيشمل قبائل متزايدة باستمرار لأن الجانب المنكسر يعمد فوراً إلى طلب المساعدة والاسناد من القبائل الصديقة التي ترى ضرورة الاستجابة للطلب على اساس قانون المبادلة بالمثل.

وإذا ما اندحرت القبيلة التي امتلكت مراعي الغير بالقوة اندحاراً تاماً لا يبقى أمامها إلا الهرب وذلك لكي لا تفقد كل ما تملك. إن تراجعاً مثل هذا يجري تحت ضغط الخصم وملاحقته ، لا يشبه بالطبع الانتقال السلمي ذلك أن النجاة في مثل هذه الحالات تكمن في سرعة الحركة فقط.

وتحمي القبيلة المتراجعة نفسها من الخصم بفصيل من الـ « مردوف » وهي جمال سريعة الحركة يركب على كل منها إثنان من المحاربين (1) (2)

---

(1) المعروف ان « المردوف » كلمة تطلق على الراكب الثاني الذي « يردفه » الراكب الأصلي خلفه على الحصان أو الجمل ـ المترجم.

(2) المردوف هو الدابة التي يركب عليها والراكب الاول هو المردوف يضم الميم وفتح الدال ويمكن تسميته مردوفاً إذا كان خلفه راكب آخر هذا الراكب الأخر يسمى الردف والرادف والرديف والمرتدف لا ما دكره المترجم. حميد الدراجي.

وتستمر بالهرب تخلصاً من المطاردة ، دون أن تعرف الراحة ودون أن تتوقف لإعداد الطعام أو للمبيت فهم ينامون أثناء السير وذلك بأن يتمددوا على طول ظهر الجمل ويدخلوا أرجلهم في أكياس مثبتة في عنقه كي لا يسقطوا أثناء النوم. وقد أوجدت الممارسة أيضاً وسيلة للطهي لا تتطلب التوقف وتقوم على مبدأ تقسيم العمل بين عدة نساء حيث تقوم واحدة منهن بطحن الحنطه المعدة سلفاً برحي يدوية دون أن تترجل عن جملها ثم تعطي الطحين إلى أمراة أخرى تقوم وهي على الجمل أيضاً بتحضير العجين منه وذلك بأن تسكب عليه الماء من قرب معلقة بجل الجمل. وأخيراً تقوم راكبة أخرى بخبز العجين على مجمرة [1]منقولة صغيرة بعد إحمائها بروث الابل المجفف. ثم تخلط الأرغفة نصف الناضجة التي تحضر بهذه الطريقة بحليب الابل الذي يستحضره الرجال أثناء السير أيضاً.

وحتى مثل هذا التراجع السريع لا يؤدي في بعض الأحيان إلى النجاة من أيدي العدو الذي يلحق بالمؤخرة فيقضي عليها ويدرك الهاربين فيأخذ منهم جميع ما يملكون ابتداءً من الابل. وتعتبر الخيول من الغنائم المفضلة أكثر من غيرها حيث أن لها في نظر البدو قيمة كبيرة إلى درجة بحيث أن العرف السائد يقضي بأن يرجم المنتصر العدو الذي يعطيه إياها اختياراً. ويكون فقدان الحيوانات السبب الرئيسي في فقر وإملاق القبائل وذلك لأن حياة البدو الرحل برمتها تستند بشكل كلي كما رأينا على الماشية وعلى المنتجات الحيوانية.

وعلى الرغم من احتمال الوصول إلى مثل هذه الحالة فإن المنازعات الداخلية في الصحراء لا تتوقف تقريباً حتى أنه من المشكوك فيه أن تكون

---

(1) إن اسمها هو « تاوة » أو « صاج » ـ المترجم.

هناك اوقات يسود فيها بين القبائل البدوية جميعاً دون استثناء السلام والهدوء والاطمئنان إن السعي إلى الغنائم والأمل في الانتفاع على حساب الأقرباء يتغلبان عادة على التعقل والحذر فيلجأ البدو إلى السلاح بمجرد أن تسنح لهم الفرصة. ويعتبر الأخذ بالثأر والحسابات القديمة بين قبيلتين والكراهية الموروثة بين الشيوخ وأخيراً النزاع بسبب المراعي أو الآبار ، حجة كافية لإعلان الحرب.

لقد كانوا في الماضي يعلمون العدو بالقطيعة لكن هذه العادة أخذ استعمالها يبطل في الوقت الحاضر أكثر فأكثر بحيث أصبحت الغارات المفاجئة الهادفة إلى أخذ العدو على غرة ، التكتيك المفضل للبدو في الوقت الحاضر ، كما يلاحظ الرحالة المختلفون.

ويمكن أن تقسم الحروب ، تبعاً للأسباب التي تثيرها إلى سياسية وغير سياسية؛ الأولى يكون أساسها صراع بين قبيلتين أو تنازع الشيوخ على السلطة ولا يتنهي الصراع إلا بعد أن ينحدر أحد الخصمين نهائياً ويتمزق بحيث يفقد فترة طويلة أية قوة أو أهمية. إنهم لا يلتفتون في مثل هذه الحروب إلى غزارة الدم المسفوك فتسقط آلاف الضحايا من كلا الجانبين. ويمكن أن يكون مثلاً على ذلك النزاع الأخير بين أمير نجد الراحل عبد العزيز بن متعب من جهة والأمير الوهابي عبد الله بن مسعود (1) وشيخ الكويت مبارك بن صباح من جهة أخرى.

أما الحروب غير السياسية وهي التي لأي سبب كان فإنها أكثر اعتدلاً لأن هدفها الرئيسي يكون الاستيلاء على ممتلكات العدو وليس

---

(1) الصحيح انه عبد العزيز آل سعود وسيأتي ذكر احداث النزاع في الجزء الثاني من الكتاب. حميد الدراجي

القضاء على حياته.

ولهذا فإن سفك الدم يكون في هذه الحالة ظاهرة نادرة واستثنائية علماً بأن مثل هذه النزعة الانسانية غير المعتادة في أبناء الصحراء مع ما يتميزون به من مزاج حاد سريع التأثر واحتقار تام للحياة عموماً ولحياة الأغراب على وجه الخصوص مردها قانون انتقام الدم (الثأر) الصارم.

إن مبدأ « العين بالعين » الثابت يرجع في اصله إلى قرون طويلة سابقة. فقبل ظهور محمد بفترة طويلة كان من الحقائق الثابتة لدي الناس أن دم الضحية لا يغسله إلا دم القاتل الذي سقطت تلك الضحية بيده. وقد تغلغلت هذه العادة بين سكان شبه جزيرة العرب إلى درجة بحيث أنها وردت في القرآن [1] فجرت بذلك المحافظة عليها حتى وقتنا الحالي وتقضي الأعراف التي تكونت عبر القرون بأن لا يجري الانتقام من القاتل نفسه فقط وأنما يقع الثأر على أقاربه المقربين أيضاً. أما الذين يأخذون بالثأر فهم جميع أقارب المقتول. ولكي لا يفسر هذا المبدأ تفسيراً واسعاً وتلافياً للاستمرار في إراقة الدماء دون طائل يحدد العرف المعتاد في الصحراء بدقة درجة القرابة بالنسبة للذين يأخذون بالثأر وبالنسبة للذين يؤخذ منهم الثأر حيث يقضي بأن يشمل الثأر جميع أفراد العائلة الرجال حتي الجيل الخامس صعوداً ونزولاً. ويعبر البدو عن ذلك بصيغة مجازية قصيرة هي : « الثأر في الخمسة » ولأرقاب القاتل طبعاً الحق في الاتفاق مع

---

(1) ما ورد في القرآن الكريم من أحكام القصاص لا يلتزم بها البدو وهي أحكام في غاية الاتقان والعدالة إذ انها من لدن المولي عز وجل العلم والحكم والفقه الإسلامي تكفل ببيان ذلك بوجه تام اذ ان البون شاسع بين التعاليم القرآنيه وجاهلية الاعراب. حميد الدراجي

أقارب القتيل حول دفع ثمن الدم « الدّية » لكن أولئك قلما يوافقون على مثل هذه الصفقة ويفضلون في أغلب الأحيان تنفيذ قانون الثأر حرفياً. فيحل بذلك بالنسبة للقاتل وأقاربه وقت عصيب ويتحتم عليهم البحث عن النجاة بالهرب والانتقال إلى قبيلة أخرى حيث يستخدمون عرفاً مقدساً آخر عند البدو هو حق اللجوء (دخيل) [1].

والامتناع عن قبول الدخيل محرم حتى لو كان عدواً إذا استطاع أن يتسلل خفية إلى خيمة الشيخ ويتشبث بعمودها أو أن يصيب الشخص الذييبحث عنده عن الحماية بحجر صغير يرميه عليه أو بلعاب ببصقة عليه [2] أو بأن يعقد طرف كوفيته على أن يردد في كل حالة من هذه الحالات عبارة « أنا دخيلك » أي أنا تحت حمايتك. ولهذا بإمكاننا أن نجد في كل قبيلة تقريباً عوائل كاملة ملتجئة هرباً من الثأر وهناك اصطلاح خاص يطلق على مثل هؤلاء الهاربين هو « جيلاوي » [3].

وحتى الذين يسقطون في ساحة المعركة يؤخذ بثأرهم إذا كان القاتل معروفاً بشكل مؤكد غير أن القضية في مثل هذه الحالات تنتهي بالصلح على أساس أن يدفع خسمون جملاً عن كل قتيل. وعندما تتصالح قبيلتان متعاديتان يحاول شيخاهما قبل كل شيء تصفية مثل هذه الحسابات ثم يحفران حفرة يدفنان فيها سبعة أحجار علامة على الصلح التام ونسيان الخلافات السابقة.

---

(1) تطلق كلمة « دخيل » على الشخص الذي يتمتع بحق اللجوء هذا ـ المترجم.
(2) لا تستخدم البصقة في طلب اللجوء عند البدو على حد علمنا ـ المترجم.
(3) اعتقد أن الكلمة التي تستخدم في هذه الحالة هي « مجلي » من « يتجلي » التي تعني يرحل. وتطلق على من يرحل عن عشيرته غضبها عليه ـ المترجم.

وتفسر لنا موضوعات قانون الثأر الأساسية السبب الحقيقي الذي يجعل الحروب البدوية العادية عديمة القتلي نسبياً. فالواقع أن المهاجمين يحاولون ، بسبب المسؤولية التي أشرنا إليها والتي تترتب على كل قتيل ، أن يتجنبوا قدر الامكان أن يسببوا جروحاً قاتلة لأعدائهم الذين يتبعونهم أيضاً الأعتبارات نفسها [1] لذا فإن القضية برمتها تحل في بعض الأحيان عن طريق المبارزة التي يقوم بها البعض والتي يحب البدو أن يظهروا فيها شجاعتهم وحذقهم وفطنتهم ، وتختتم المبارزة في العادة باشتباك عام. وكل مقاتل يشعر بعدم مقدرته على مواصلة القتال ينطلق هارباً فيعمد المتنصر إلى تعقبه إلى أن تخور قوي الهارب فيترجل ويرتمي على الارض معلناً الاستسلامة فيلقي المنتصر عقاله ، وهو ضفيرة من وبر الابل وظيفته تثبيت الكوفية فوق الرأس ، على عنقه ويجعل منه أسيراً له ، وتصبح فرس الأسير وسلاحه ملكاً للمنتصر في حين يبقي هو في الأسر إلى أن يتسلم الاسر فدية عنه. ويعامل هؤلاء الأسرى في الوقت الحاضر معاملة إنسانية لكنهم كانوا في العصور السابقة يعرضونهم لكل أنواع التعذيب والآلام وذلك بهدف الحصول على الفدية بسرعة.

وبسبب الطابع الرياضي للمنازعات غير السياسية لا يعتبر الهرب عاراً وإنما مجرد وسيلة لأرجاء الاستسلام الذي ينظرون إليه بدوره نظرتهم إلى الاستسلام في جولة من اللعب اعتبرت خاسرة.

على أية لا تثير الحرب لدي البدوي ذلك الاهتمام الأخاذ الذي يثيره « الغزو » أي الغارات الوحشية على الجيران التي يستطيع البدوي فيها أن يظهر بسالته ويستخدم فائض قواه وطاقاته ، ولهذا فإنهم ينصرفون إليها

---

(1) (denis de rivoyre. Op. cit. p. 176ff.)

بشغف خاص ويستعدون لها بعناية وبسرية تامة وذلك لكي يضمن تماماً نجاح الغزو. ويرسل في مثل هذه المهمات عادة شباب البدو على شكل عصابات تختلف في عدد أفرادها لكن الواحدة منها لا تقل بأية حال عن ثلاثة أشخاص لأن أحدهم يجب أن يجذب انتباه كلاب المخيم في حين يتولى الآخر الحراسة في مدخل الخيمة بينما يقوم الثالث بحل الابل والخيول الموجودة في تلك اليخمة. ويشترك في مثل هذه الحملات أحياناً جميع رجال القبيلة فلا يبقى في المخيم غير النساء والأطفال والشيوخ والعجزة ، ويحدث أحياناً أن تعود القبيلة من الغزو فلا تجد من مخيمها إلّا آثاراً قليلة حيث يكون قد تعرض أثناء غياب أصحابه لهجوم مضاد من جيرانهم استولوا فيه على كل ما يسهل حمله واخذوه معهم ولم يرحموا إلّا النساء والأطفال والشيوخ والعبيد لأن هؤلاء لا تجيز قوانين الصحراء أسرهم.

ولا تسلم من هذا « الغزو » حتى المدن فالبصرة مثلاً تعرضت في الفترة التي بقيتها فيها للهجوم عدة مرات وتركزت الغارات في أغلب الحالات على ضواحي المدينة المتآخمة للصحراء حيث يستطيع المهاجمون أن يختفوا بسرعة وبدون عقاب قبل أن يطلق الانذار. فالغارات على مركز المدينة كان تقترن بخطر الصدام مع حاميتها التركية ولهذا فإنها كانت أندر حدوثاً ولكنها أكبر حجماً. حيث يحتل قسم من العصابة جميع مداخل ومخارج هذا الحي أو ذاك يحرسها بانتباه بينما تنهمك بقية المشاركين بالغزو في النهب حيث يتوجهون إلى الموسرين والتجار ويجبروهم عن طريق تهديدهم بالذبح على أن يتخلوا لهم عن نقودهم وحليهم. وقد دفع بعض العنيدين الذين لم يريدوا أن يتخلوا عن ممتلكاتهم حياتهم في حين كان المستطرقون الذين أوقعتهم الصدفة في

الحصار ينجون إلا من جروح بعضها خطير وبعضها الآخر بسيط وكانت العصابة في العادة تنسحب دون عقاب وتأخذ معها غنائم كانت تقدر في بعض الأحيان بعشرات الألوف من القروش.

ولا يرحم الشجعان الذين يخرجون إلى الغزو ويغيرون على المخيمات قوافل الحجاج والمسافرين المنفردين الذين يصادفونهم في الطريق ولهذا فإن مصادفة الناس في الصحراء تثير دائماً القلق فبمجرد أن تظهر من بعد مجموعة من الفرسان أو المشاة يتيقظ الجميع ويستعدون لكل الاحتمالات. ولهذا السبب أيضاً يرتاب العربي الذي يصادف في الصحراء دائماً في الأسئلة التي توجه له عن الطريق أو عن مكان هذه القبيلة أو تلك فيحتج عادة بالجهل أو يعطي متعمداً معلومات مغلوطة ، وبسبب هذا الخوف من التعرض لهجوم عصابة تجوس الصحراء لأجل « الغزو » لا تبيت القبائل المتنقلة أبداً قرب الماء أو البئر أو في طريق الذي يؤدي إليهما وإنما تختبئ في موضع يمتاز بالتموج أو وراء رابية ويتجنب أفرادها إشعال النار في الليل. وبسبب ذلك يستحيل تقريباً معرفة مكان وجود أية قبيلة في الصحراء دون إدلاء وذلك على الرغم منت اتساع مدى الرؤية.

والصحراء جميعها يقطنها من وجهة نظرنا وحوش غير أن البدوي ينظر إلى هذا الاستنتاج على أنه إساءة كبيرة له. إنهم شديد والاحتقار للصوص (حرامي) أي الأشخاص الذين تثبت سرقتهم لذويهم ، وهم يقطعون يد السارق اليمنى إذا لم يستطع أن يدفع خمسة من الابل كغرامة ، ويطردون المجرمين من القبيلة دون أسف ، ويتحد جميع هؤلاء المطرودين على ما تقوله (1) (Anne Blunt) فيشكلون قبائل قائمة بذاتها تتألف كلياً من

(1) Anne blunt : op. cit. vot. II. P. 225.

اللصوص.

أما الغزو أي نهب الجيران الذي تقوم به جماعة كبيرة فإنه لا يعتبر لصوصية وإنما على العكس ينظرون إليه على أنه عمل شريف كرسته القرون بل على أنه عمل شرعي ذلك أن الصحراء يسود فيها نظام كامل « للغزو » يقضي « بحق النهب » إذا صح التعبير. ويبرر البدو ذلك خصوصاً تجاه الأجانب بان اراضيهم قاحلة ، الأمر الذي يعطيهم الحق في أن يكافئوا أنفسهم بالقوة على حساب سكان الأقطار الغنية.

وقد أدي « حق النهب » هذا بدوره إلى ظهور نظام الأفتداء من غارات النهب ومفاده أن يدفع الشخص الراغب في أن يؤمن لنفسه سفراً آمناً في الصحراء إلى شيوخ القبائل التي سيتحتم عليه المرور بالقرب من مخيماتها مكافأة معينة مقابل تخليهم عن ممارسة « حق النهب » هذا.

وبهذه الطريقة نفسها تكون عرف خاص يقضي أن تدفع القوافل التجارية السائرة خلال بلاد العرب جزية محددة للشيوخ الذين يمدونها بالادّلاء وبالحرس المسلمين لحمايتها من « الغزو » أو من غارات القبائل الأخرى التي لم تأخذ التعويض. وتعمد القوافل السائرة من حلب أو دمشق إلى بغداد وبالعكس إلى تسوية مثل هذه الحسابات مع جمعيات من وكلاء الشيوخ المعنيين تتألف في المدن المذكورة لضمان أمن الحركة التجارية. وتأخذ القبائل التي تقع مخيماتها على طريق سير القوافل المذكورة قسماً معلوماً من التعويض المدفوع.كما أن الجمعيات المذكورة تعين من بين أعضائها وكيلاً عنها يعرف باسم « كروان باشي » أي قاد القافلة يكون مسؤولاً عن أمن وسلامة هذه الأخيرة ، وتقع على عاتقه مهمة اختيار طريق السير وإرسال الكشافة وتعيين موضع المبيت والحرص على الانتهاء من الأكل قبل مغيب الشمس وإطفاء النيران كلها تلافياً للتعرض لغارة ليلية.

وبسبب الحر الشديد الذي لا يحتمل تبدأ القوافل في الصيف سيرها مع المساء وتنتهي منه قبل منتصف الليل.

وقد أخبرني بعض المسافرين بأنهم لكي يسيروا إلى بغداد بأمان كانوا يدفعون في حلب جزية معينة لممثل الشيوخ البدو هناك فيعطيهم ذلك الممثل رسائل توصية خاصة ممهورة باسمه ، وفي بعض الأحيان كان يعطيهم مجرد عصا عليها حزوز غامضة. لقد كانت هذه العصا السحرية بالنسبة لهم جواز مرور يكاد يكون أفضل من الرسالة نفسها.

وتفتدي نفسها من هجمات البدو ، إلى جانب القوافل التجارية والمسافرين المنفردين كثير من المدن الصغيرة مثل هيت الواقعة على الفرات والفلوجة وغيرها.

فكل من هذه المدن تدخل مع القبيلة القوية المجاورة في أخوة (خوّة) لكي تحميها من هجمات ونهب القبائل الرحالة الأخرى مقابل مبلغ معين يفوق في أحيان كثيرة مجموع الضرائب الحكومية.

ولا تقل عن ذلك الفدية التي كانت تدفعها حتى وقت قريب قوافل الحجاج الفرس التي تتوجه سنوياً من بغداد إلى مكة والمدينة بعد زيارة مرقد الحسين في كربلاء وعلى في النجف ، ويمر طريق هذه القوافل من خلال حائل عاصمة نجد حيث يأخذ أمير نجد منها مبلغاً كبيراً ثم يجعلها تواصل سيرها بعد أن يجهزها بتوصيات إلى شيوخ الحربيين الذين تربطهم به علاقات وديةز لقد كان الحجاج الفرس يستطيعون بفضل هذه الحماية أن يؤدوا حجهم بأمان نسبياً إلى أن قام منذ وقت قريب الصراع المستمر والقاسي بين أمير نجد وزعيم الوهابيين عبد الله بن سعود وحليفه مبارك شيخ الكويت فتوقفت حركة قوافل الحجاج على الطريق المذكور نهائياً. والآن ومع استقرار أبن سعود في حائل يصعب أن نأمل بعودة السفر إلى

الحج من طريق الصحراء ذلك أن الوهابيين كما هو معروف أعداء لدودين للحج [1].

أما بخصوص ما يسمى بـ « القافلة المقدسة » التي تتوجه سنوياً من دمشق وتنقل منها إلى مكة باسم السلطان « مخمل » وهو ستارة من القطيفة الموشاة بالفضة للكعبة المقدسة فإن الحجاج السائرين معها يتعرضون عادة للغارات والنهب. فمع كثرة الحجاج المنضمين إلى هذه القافلة والذين ينتشرون بإهمال على مسافات كبيرة تكون الحراسة العسكرية غير كافية لحماية القافلة كلها ويستغل البدو ذلك وعلى الأخص أولئك الحربيون الذين سبق ذكرهم فيقومون بغارات ليلية مباغتة ويسلبون المتخلفين والمتوانين من الحجاج ثم يختفون في ظلام الليل بسرعة قبل أن تستطيع القوات التركية إنجاد من وقع عليهم الهجوم.

ويصيب المصير نفسه القوافل التجارية المسافرة من العجير ميناء الحسا إلى عاصمتها الهفوف ، فرغم أن الجنود الأتراك يحمون هذه القوافل إلّا انها تتعرض بانتظام للنهب ، كلياً أو جزئياً من قبل القبائل البدوية المجاورة التي تكون مثل هذه الغنيمة بالنسبة لها ثمينة إلى درجة بحيث تدفعها إلى أن تخاطر بتبادل النيران مع الحفنة من الجنود الأتراك.

وإذا ما كان حب « أبناء الصحراء » للسلب يبرر لحد معين غاراتهم على القوافل التجارية والمسافرين الانفراديين وعلى المجتمعات المجاورة

---

(1) الحقيقة إن الوهابيين ليسوا ضد الحج كفريضة من فرائض الإسلام ولكنهم لا يعتبرون زيارة قبل الرسول الكريم من متطلبات الحج كما أنهم منعوا المظاهر الاحتفالية التي كانت تصاحب مواكب الحجاج القادمة من مصر والشام مثلاً - المترجم.

فـإن الحجـاج المسـلمين الـذين يـؤدون إحـدى فـرائض الإسـلام الأساسـية بصعوبات كبيرة وخسائر مادية ملحوظة كـانوا يستطيعون علـى مـا يبـدو أن يأملوا باحترام كبير من جانب البدو إخوانهم في الدين. وحتى في عصور الوثنية قبل محمد بوقت طويل كانت هناك أربعة أشهر في السنة اعتبرت أشهراً مقدسة يمتنع العرب خلالها عن الغارات والعمليات الحربية وذلك لكي يستطيع من يرغب الحج بسلام إلى معبد الأصنام في مكة ويستطيع المشاركة في البيع والشراء في السوق المحلي.

أما سلب البدو في الوقت الحاضر لحجاج مكة فإن تفسيره يكمن في حقيقة أنّ إسلام هؤلاء البدو لا يمت بصلة إلّا قليلاً للدين الذي يعتنقه أتباع النبي محمد [1] فالبدوي يعترف بإله حقيقي واحد وهو الخالق القادر على كل شئ يملك مصير الانسانية كله ويجب أن تخضع له الخلائق بأجمعها.

إن هذا الإيمان المقتضب هو في واقع الأمر كل اعتقاد البدوي بالإسلام فالبدو لا يؤدون لا الصلوات الخمسة التي يجهد المسلمون في الاقطار الإسلامية كافة على تأديتها بعناية ولا الطقوس والالتزامات الدينية الأخرى فهم يتميزون على العموم بالكثير من اللامبالاة تجاه كل القضايا المتعلقة بالدين ولا يهتمون بالقضايا المجردة إلّا قليلاً. فليس لدي البدوي ، في ظل عيشه الدائم على مرأى من الناس وتنقلاته المستمرة ووطيس منازعاته التي لا تنتهي ، وقت لأن يستسلم للتفكير. إنه منهمك بكليته في الحاضر ويعيش ليومه هذا إضافة إلى أنه لا يوجد من بين سكان الصحراء إلّا القليل ممن يعرفون القراءة ولهذا ظل القرآن بالنسبة للأغلبية الساحقة

(1) Palgrave : op. cit. vol I. p. 9. FF.

بعيد المنال سيما وإنه لا يوجد رجال دين في الصحراء ، فالسيدة (Anne Blunt) هي وحدها من بين الرحالة الذين نعرفهم ، التي تذكر أنها رأت عند بدو شمر ملّا أنيطت به مهمة مراسلة السلطات التركية نيابة عن شيخ القبيلـــة الرئيس أكثر من مهمة قيامه بالشؤون الدينية.

أما في العراق الجنوبي فبإمكاننا أن نصادف ملّا في كل مخيم بدوي تقريباً ، وهو هناك لا يتمتع بالتبجيل والاحترام فقط ، إنما يتمتع أيضاً بســـلطة معينة في قبيلته. وينبغي أن نبحث عن تفسير هذه الظاهرة في حقيقة إن أغلبية القبائل العربية التي تقطن العراق تعتنق المذهب الشيعي وتتميز عن أبناء جلدتها في صحراء الجزيرة العربية بالتدين الشديد والتنفيذ الصارم لتعاليم الإسلام الأساسية ، وينعكس في ذلك دون شك أثر قرب مدينتي الشيعة المقدستين كربلاء والنجف.

وبسبب اللامبالاة التي يتميز بها موقف البدو من الإسلام فإن جميع العادات والطقوس التي ترتبط عندهم باللحظات المهمة في الحياة البشرية تختلف بعض الشئ عن تلك النافذة عند المسلمين عموماً حيث تحمل عنـــدهم آثار العصور السحيقة القدم أكثر من كونها تحمل آثار تعاليم محمد الدينية.

وتكون ولادة الطفل وخصوصاً الذكر حادثاً سعيداً ، فتدعو القابلة الأب على الستارة التي تفصل الجزء المخصص للنساء من الخيمة عن الجزء المخصص للرجال وتخبره بجنس الوليد فتتسلم عن الوليد هدية خاصة لا تدخل ضمن ما يدفع لها نظير ما قامت به من عمل. إن ولادة وريث للأب تكون فخراً له وتسبغ عليه اعتباراً بين العرب بحيث لا يدعونه منذ تلك اللحظة إلّا بأبي فلان (اسم الوالد). أما ولادة البنت فإنها لا تثير فرحاً خاصـــاً لأن الفتاة لا تعتبر إلّا عضواً مؤقتاً في العائلة أي إلى أن تتزوج.

لقد كانوا ينظرون إلى الفتيات في عصر الجاهلية نظرتهم إلى أفواه

زائدة ينبغي التخلص منها في اول فرصة حتى أنّ عادة بربرية كانت سائدة بين الأسر العربية الشديدة الفقر هي دفن البنات الوليدات وهن أحياء ولم تبطل هذه العادة إلّا بعد أن ترسخ الإسلام في شبه جزيرة العرب.

وبعد أن يعلم الأب بولادة الطفل يسرع بنقل هذا الحدث العائلي إلى الأقارب والأصدقاء المجتمعين خارج الخيمة أو في الخيمة المجاورة. وبعد التهاني والتبريكات تبدأ الوليمة علماً بأنهم يذبحون في بعض الأحيان خروفاً كان قد نذر مسبقاً ليوزع على الفقراء. وفي اليوم الثالث يسمح للأقارب المقربين الدخول على النفساء حيث تطلب الجدة بحضورهم أن يسمى الوليد. وغالباً ما يسمى الوليد باسم جده أو أبيه أما البنت فإن الجدة هي التي تختار لها اسمها [1] على اننا ينبغي أن نشير إلى أن الرحل العراقيين

هم وحدهم الذين يلتزمون بدقة تزداد أوتقل بالأسماء الاسلامية مثل محمد وعلى وما أشبه أما بدو شبه جزيرة العرب فإنهم يطلقون العنان تماماً لخيالهم بهذه المناسبة وخصوصاً بالنسبة للبنات اللواتي يطلقون عليهن أسماء أبراج النجوم أو الطيور أو حيوانات الصحراء.

ولا تحظى كل البدويات بمثل هذه العناية أثناء الولادة ، فأغلبيتهن وخصوصاً اللواتي ينتمين إلى عائلات فقيرة طبعاً يواصلن العمل حتى اللحظة الأخيرة ولهذا فإنهن غالباً ما يلدن وهن يجمعن الشوك الجاف للوقود بعيداً عن المخيم أو أثناء السير حيث تترجل المرأة التي يأتيها المخاض عن الجمل وتتخذ منه ستراً تحتمي خلفه. وتقوم الأم بنفسها بتنظيف الولد وغسلة بالتراب ، وبعد ان تلفه بمنديل تنزعه من رأسها

(1) العادة الشائعة عند البدو هي عن اسم البنت الوليدة تختاره لها الجدة التي تولت ولادتها ـ المترجم.

تحملـه إلـى الخيمـة أو تمتطـي معـه جملهـا وتسـرع للحـاق بأهلهـا. ويتغـذى الطفل بحليب الأم طيلة شهور ثلاث يحولونه بعدها إلى حليب الإبل.

وبعد أن يبلغ الطفل السابعة من عمره يجري لـه الختـان الـذي ترافقه عادة الاحتفالات والولائم المصحوبة بالموسيقي والرقص. والرقص عنـدهم هو أن يمسـك البـدو بأيـدي بعضـهم فيكونـون حلقـة ويبـدأون بالحركـة ببطء بمصـاحبة نغمـات رتيبـة يطلقهـا الراقصـون أنفسـهم. وبسـبب مـن أن الختـان يعتبر أكبـر الاحتفـالات فـي الصـحراء فـإنّ الوالـدين يجهـدان لأن يجعـلا هذا العيد العائلي أكثر بهاء قدر الامكان.

ومن أجل تلافي المصروفات التي تفوق الطاقة تتفق عدة عوائـل علـى جعـل ختـان أولادهـا فـي يـوم واحـد فتشـترك سـوياً بإستضـافة المـدعوين. ويعتبر من الملزم في مثل هذه الحالات أن يوزع على فقراء القبيلـة خـروف أو حتى حوار مشوي.

والـزواج عنـد البـدو يكـون مبكـراً ويـأتي فـي الغالـب عـن حـب ، فعدم وجـود حيـاة الحـريم المغلقـة عنـدهم يمكـن الشـباب والشـابات مـن مشـاهدة بعضـهم بعضـاً. فيرتبطـون فـي بعـض الأحيـان ببعضـهم منـذ سـنوات الصـبا ، والطريف أن قوانين الصحراء تقضـي بـأن يكـون عـريس الفتـاة الحقيقـي أبـن عمها الذي له حق الأفضلية في الزواج منها ، وابن العم هذا غيـر ملـزم بـأن يتزوجها بشكل حتمي لكن الفتاة لا تستطيع الزواج مـن آخـر إلّا بموافقتـه أو بعد أن يرفض الزواج منها رسمياً. وقد حـافظت هـذه العـادة علـى رسـوخها كاملاً حتى الوقت الحاضـر وذلـك مـا يؤكـده الخـلاف الطريـف الـذي جـرى وصفه في كتاب [1] (Lady Anne Blunt) والذي قام بين شيخ عنزة القوي

Anne Blunt : op. cit. vol. II. Pp. 105.- 106 (1)

آنذاك جدعان وشاب مغمور تماماً من قبيلة سرحان ، فقد جاهر الشاب بحقه في الزواج من ابنة عمه التي كانت قد تزوجت لتوها من الأول. انّ هذا الشاب لم يرفض الزواج من ابنة عمه رسمياً ولكنه كان يؤجل الزفاف من سنة إلى أخرى إلى أن بلغت الفتاة الثلاثين من عمرها فأصبحت بالنسبة للصحراء عانساً تماماً. ولذا فقد وافق والداها بسرور على تزويجها من جدعان الذي حصل ، كما يقضي العرف ، على موافقة أقارب العروسة بواسطة الخطاب ثم ذبح أمام خيمة صهره المقبل خروفاً بحضور الشهود ومهر بدمه المسفوح على الأرض عقد الزواج. وبعد غروب شمس هذا اليوم نفسه اقتيدت العروس ، التي كانت تحاول حسب العرف السائد أن تختبئ عند إحدى صديقاتها ، إلى خيمة العريس التي كانت قد ضربت على مبعدة من المخيم ، ثم بدأت بعد ذلك الولائم المعتادة عند أقارب العروس. وقد حضرت (Anne Blunt) التي كانت قد وصلت إلى المخيم مع زوجها هذه الولائم. ولم تكد احتفالات الزواج هذه التي تستمر عند البدو سبعة ايام تنتهي ، إلّا وظهر المطالب بيد العروس الذي سبقت الاشارة إليه. وقد رفض المطالب جميع الاقتراحات التي قدمها له العريس بما في ذلك استعداده لدفع التعويض واستمر يطالب بإصرار بيد ابنة عمه. وقد تحتم على جدعان أن يتنازل لمنافسه الذي كان يستند إلى العرف البدوي القديم ، فأرسل عروسه إلى شيخ قبيلة سرحان على أن يحضر بعد مضي الوقت زفاف المرأة التي كانت زوجته منذ عهد قريب إلى ابن عمها.

وفي الوقت الذي يلاحظ فيه اختلاف في طقوس الزواج لحد معلوم فإن الخطبة تكون عند جميع قبائل البدو على نمط واحد. ويقضي العرف السائد في الصحراء بأن بنات الشيوخ هن وحدهن القادرات على اختيار عرسانهن أما بقية الفتيات البدويات فإن عليهن في هذه الحالة أن يخضعن

لإرادة الوالدين الذين يحسمون القضية عادة عن طريق المحادثات المباشرة مع خطاب العريس. ومع ذلك لا يخاطر العريس بطلب يد الفتاة التي راقته دون أن يحصل على موافقتها سلفاً ، ولتحقيق ذلك يرسل إلى محبوبته إحدى قريباته الكبيرات السن او وهو الغالب ، عجوزاً من مخيمه تعمل خاطبة. ويتفق الخطاب في حالة الموافقة مع والدي العروس على مقدار مهر الفتاة أو ما يسمى بـ « حق البنت » الذي يدفعه العريس لأبي العروس أو إلى كبير الأسرة أخاً كان أو عماً في حالة كون الأب متوفياً. ويكون المهر إما على شكل نقود تدفع نقداً أو ماشية علماً بأنه غالباً ما يدفع على أقساط وإذا لم يكن العريس في حالة تمكنه من دفع المبلغ كله أو في حالة كونه فقيراً يوافق والدا العروس أحياناً على أن يعوض صهرهما المقبل مهر البنت أو جزءاً منه عن طريق العمل لحسابهما.

ويتكون صداق الفتاة عادة من الملابس التي ترتديها والفراش وهو وسائد محشوة بالصوف وبساط من الصوف حاكته العروس بنفسها. وبنات الأغنياء هن وحدهن اللواتي يتسلمن صداقهن ملابس جديدة وجمل يقوم على سنامه هودج تنقل به العروس إلى خيمة خاصة تضرب للشابين خارج المخيم. وإلى تلك الخيمة يقاد بعد ذلك العريس الذي يقضي أسبوع الزفاف كله مع عروسه في تلك الخيمة المنفردة لا يخرجان منها إلا للمشاركة في الولائم والاحتفالات التي يقيمها لهما أقاربهما وأصدقائهما الشبان. ولا ينتقل المخيم الذي يجري فيه زواج من مكانه طيلة « اسبوع العسل » ذلك إن الانتقال قبل انقضاء أسبوع العسل ، حتى ذلك الذي تحتمه الظروف الاضطرارية يعتبر علامة شؤم بالنسبة للمتزوجين حديثاً.

وإذا ما كان على العرائس من الفتيات على ما يقضي به العرف في الصحراء أن يظهرن عفتهن بأن يقاومن ويبكين وينتحبن ويحاولن الاختفاء

في مكان ما أو الهرب عندما يقودوهن إلى خيمة العريس ، فإن مثل هذا التصنع يعتبر مبتذلاً تماماً بالنسبة للأرامل والمطلقات ، حتى إن من تحاول منهن أن تقاوم تصبح مثاراً للضحك ، هذا فضلاً عن أنّ احتفالات لا ينبغي أن تجري عندما تتزوج الأرملة أو المطلقة من جديد إلّا إذا كان العريس يتزوج للمرة الأولى. لقد تكونت عند البدو نظرة خاصة إلى الأرامل فهم يعتبروهن مجلبة للنحس ولذا فإن على زوجها الجديد أن يمتنع طيلة ثلاثين يوماً عن أن يمس الحاجيات التي تعتبر ملكاً خاصاً لها ، كما أن الضيوف يأتون ومعهم فناجينهم لكي لا يشربوا القهوة في فناجين تعود لها.

وقوانين الصحراء لا تحرم تعدد الزوجات ولكن نادراً ما يكون لدى البدوي أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد [1]. وبالمقابل فإن سهولة الطلاق عندهم تثير الدهشة فهو لا يتطلب أسباباً خاصة ، يكفي أن يكرر الرجل ، حتى ولو كان في سورة غضب ، عبارة « أنت طالق » ثلاث مرات فلا يبقى أمام المرأة إلّا العودة إلى أهلها. ويعتبر عقم المرأة أو عدم إنجابها ذكوراً أحد الأسباب الشائعة والغالية لفسخ عرى الزواج. ولا يمكن للمطلقة أن تتزوج ثانية قبل مضي أربعين يوماً في حين لا يوجد ما يمنع الرجل من أن يتزوج ثانية حتى لو كان ذلك في نفس اليوم الذي حصل فيه الطلاق. وإذا كان للبدوي أطفال صغار السن من مطلقته فإنه يسمح لها أحياناً بأن

---

(1) تلاحظ بين قبائل العراق جنوبي ظاهرة معاكسة فكل بدوي موسر يجب أن تكون له عدة نساء. ويوصل الشيوخ المحليون في بعض الأحيان عدد حريمهم إلى أرقام خيالية ، مثل شيخ البو محمد المشهور فيصل الذي نسجت حوله اسطورة مفادها أن في حريمه 980 إمرأة.

تبقى معهم كمربية.

وإلى جانب سهولة الطلاق بالنسبة للرجل يبقى العرف البدوي للمرأة أيضاً الحق في ترك الرجل والعودة إلى أهلها ولكنها لا تستطيع أن تتزوج ثانية إلّا بعد أن يتفوه زوجها الأول بصيغة الطلاق. ولهذا فإن البدويات اللواتي يرغبن في تغيير أزواجهن يسعين إلى أن يحولن حياتهم إلى جحيم حقيقي وذلك لكي تفلت من شفاههم في لحظة غضب عبارة « أنت طالق » التي يردنها. ويحدث أحياناً أن يرغب الأزواج الذين فسخوا زواجهم بسبب انفعال طارئ في الارتباط مجدداً بهن ، لكن ذلك لا يمكن أن يكون إلّا بعد أن يعقد الزوج مع امرأة أخرى ولو ليوم واحد [1].

والزنا عند البدو ظاهرة موجودة ولكنها نادرة للغاية وذلك بسبب عدم وجود أية صعوبات أمام الطلاق وبسبب طبيعة حياتهم المكشوفة. ولا يؤخذ بثأر شخص قتله زوج اهانه القتيل كذلك لا يؤخذ بثأر الشخص الذي يغوي فتاة إذا قتل في يوم إرتكابه للجريمة.

لم يبق إلّا نضيف إلى كل ما قلناه أعلاه عن الطلاق بأنه ليس من النادر ، على ما يقوله بورخات [2] ، أن تصادف في الصحراء أعراباً بلغوا الخمسين من عمرهم واستطاعوا خلال حياتهم أن يتزوجوا ما لا يقل عن خمسين زوجة. وطالما أنه يكون للبدوي أطفال من كثير من زوجاته المطلقات فلنا أي نتصور أي علاقات تقوم بين الآباء وأطفالهم من أمهات

---

(1) يبدو الأمر التبس على المؤلف ، فالصحيح في مثل هذه الحالات أن الزوجة السابقة هي التي يتحتم عليها أن تعقد زواجاً آخر مع رجل ثان ولو ليوم واحد وليس زوجها الذي يريد أن يستعيدها بعد أن طلقها ـ المترجم.

(2) J. L. Burckhardt. Op. cit. vol. 1. p. 112.

مختلفات والواقع أن الخلافات والمنازعات والخصومات هي ظاهرة اعتيادية في مثل تلك العوائل إن الأطفال وهم ملزمون باحترام الأب يتصرفون تجاه أمهم بحب واحترام كبيرين وغالباً ما ينضمون إليها ويأخذون جانبها في مواجهة الأب الأمر الذي غالباً ما يؤدي إلى تنافر عائلي تام.

ويحدث الكثير من المرارة بين الأب وأبنائه عند القسمة عندما يرى الأبناء أن أباهم قد أساء إليهم زاعمين أنه لم يعطهم جملاً أو فرساً. وعلى العموم لا تسود العلاقات الودية على الدوام بين أفراد العائلة الذكور ولذا يسرع البدوي الشاب بمجرد أن يشعر بالقدرة على أن يبدأ حياة مستقلة بالانفصال وامتلاك بيت خاص به. وعندما يمرض الأب أو يصبح شيخاً يعمد إبنه إلى مساعدته في العادة ولكن ذلك يعتمد كلياً على حسن ذاته إذ لا أحد يستطيع أن يجبره على مثل هذه المساعدة. ولهذا فمن غير النادر أن نجد أباً بعيش على إعانات القبيلة أو يتوسل بكل بساطة وله في الوقت نفسه أبناء موسرون.

وتقوم بين الأخوة في كثير من الأحيان أيضاً علاقات كتلك التي سادت بين هابيل وقابيل. ويعطي التاريخ غير قليل من الأمثلة على ذلك ابتداء من شيخ المحمرة الحالى الذي عبر إلى السلطة على جثة أخيه مزعل ، ومروراً بشيخ الكويت مبارك الذي فعل الشيء نفسه ، وانتهاء بأمير نجد محمد بن رشيد الذي أزاح عن طريقه ستة من أبناء أخيه قبل أن يصبح الأمير القوي في وسط شبه جزيرة العرب.

ولا يمكن أن نتحدث عن العائلة البدوية دون أن نتطرق إلى ذكر العبيد السود الموجودين في الصحراء بكثرة ، إنهم يجلبون عادة من افريقيا ويقوم الشيوخ وكذلك الموسرون من البدو بشرائهم في المدن القريبة من

مضـاربهم. ويعامـل العبيـد فـي الصـحراء معاملـة إنسـانية حيـث يعتبـرون كـــــــــأفراد
العائلة ويعتقون عادة بعد بضعة سنين. ومع ذلك فلا أحد من البدو يتزوج من أمة كما إن أية بدويـة لا توافق علـى الـزواج من عبد حتـى ولـو كـان قد أعتق. ولذا فإن العبيد والاماء لا يتزوجون إلّا من بعضهم. ويوجد الرقيق بأعداد كبيرة حتـى فـي المـدن فكل مـن زار البصـرة مـثلاً لابـد وأن لفتـت انتباهه حتماً كثرة الزنوج والزنجيات الذين يصادفون في كل خطوة.

ولـم يبـق فـي الختـام إلّا أن نقـول بضـعة كلمـات عـن مراسـيم الـدفن. عنـدما يمـوت أحد سـكان المخيم يعلـن النسـاء من عائلتـه ذلـك بـأن يطلقن عـويلاً عاليـاً فيـؤدي ذلـك إلـى أن يبـادر كـل أفـراد القبيلـة بالاجتمـاع حـول خيمة المتوفي. وإذا كان الممتوفي قد سقط قتيلاً فـي معركـة فـإن النسـاء مـن أقاربه يشدن عند نـدبهن لـه ببطولاتـه ، أمـا عنـدما يمـوت البـدوي حتف أنفـه فـإن رثـاءه ياخـذ طـابع الأسـف علـى إن الراحـل لـم يمـت ميتـة الشـجعان. وتـدفن الجثـة بعد الوفـاة مباشـرة ، حيث تتعلـق النسـوة خـلال ذلـك بـالنعش الذي يضم الجثة وهن يطلقن عويلاً يمزق القلـب ، كمـا لـو أنهـن يسـعين إلـى منع المتوفي من مغادرة الخيمـة ، فيقـوم الرجـال بإبعـادهن ويحملـون الـنعش علـى أكتـافهم إلـى القبـر الـذي يحفـر فـي مكـان لا يبعـد كثيـراً عـن المخـيم فالبدو بالطب ليس عندهم مثابر دائمة. ولا تسير النساء وراء الجثة بل يبقين فـي المخـيم عـادة لمواصـلة النـدب والعويـل. وأغلبيـة القبـائل البدويـة لا تقـيم حـداداً ، والـبعض يـدفنون مـع الراحـل سـيفه فـي حـين ينـزل الـبعض الآخـر الجثـــــــــــة
إلى القبر وهي ملفوفة بعباءة بلا كفن أو أي غطاء آخر.

وبعد ن انتهينا من الحديث عن حياة البدو سنحاول أن نرسم ببضعة أسطر دور وأهمية الشيوخ البدو. لا بد أن نلاحظ ابتداءاً بـأن سـلطة هـؤلاء الشيوخ تقيدها الحرية الفردية التي يعتز بها البدو والتي تدفع كل عربي

متنقل على انفراد إلى أن يحرص على المحافظة على مصالحة الشخصية من أن يتطاول عليها أبناء قبيلته وأن يجابه باستقلاليته الاستبداد العائلي أو العشائري. إن هذا النزوع إلى الحرية الشخصية سببه ضعف تطور الحياة الاجتماعية عند البدو أي ضعف الوعي الواضح لضرورة التخلي عن « الآنا » من أجل المنفعة الاجتماعية او المصلحة العامة.

في مثل هذه الظروف يكون من الطبيعي تماماً أن لا يعترف البدو بسلطة الشيخ عليهم إلا بالقدر الذي يكون فيه هذا الشيخ ممثلاً للقبيلة ومعبراً عن إرادتها وأحكامها. والشيخ الذي يخطر له أن ينفرد في تقرير مصير أبناء قبيلته لن يستمر في مشيخته طويلاً ، ولا يستطيع أن يأمل بالحتفاظ بالسلطة باستمرار إلا رئيس القبيلة الذي يرى بأن من الضروري التشاور في كل شيء مع الوجهاء ويتخذ القرارات بالاتفاق العام. والشيخ ملزم بأن يسترشد بقرار الأغلبية حتى في القضايا التافهة كاختيار المكان لإقامة المخيم مثلاً فضلاً عن قضايا السلم والحرب ، وإلا فإن أفراد قبيلته لن يتوقفوا تاركين الشيخ وحيداً ، بينما يقيمون هم مخيمهم على مسافة عدة ساعات من خيمته.

وتلعب شخصية الشيخ بالطبع الدور الحاسم في اتساع ورسوخ مكانته. فالشخص الذكي الحاذق الموفق في الغارات والذي يمتلك إرادة قوية وطبيعة صلبة وحازمة يستطيع بصفاته هذه أن يحصل على سلطة غير محدودة تقريباً تقوم على الثقة به والانجذاب إلى شخصيته ، لكن ذلك لا يمتلكه إلا أشخاص قليلون يؤثرون على الجميع بقوة جاذبيتهم.

والالتزامات المفروضة على الشيخ باعتباره ممثلاً للقبيلة متنوعة جداً ، فهو يقود القبيلة إلى الحرب ، رغم أن ذلك ليس حتمياً كما سنرى فيما بعد ، ويعقد الصلح وينظر في الدعاوي والمنازعات بين جميع الذين يتوجهون

طالبين حكمه وتتركز في بديه جميع خيوط سياسة القبيلة ، وبفضل ذلك تكون خيمته مفتوحة للجميع حيث تلعب دور النادي السياسي. أما المطلب الرئيسي الذي يراد من كل شيخ فهو أن يكون مضيافاً جداً ويكون ذلك هو المقياس لسمعته وكلما كان الشيخ قوياً وشهيراً كلما كان يصرف أكثر على إطعام أفراد قبيلته وكلما كان يعيش بشكل أكثر انفتاحاً.

ويذكر الرحالة الروسي البارون نولده [1] الذي سبق ذكره ، بأن ما يقرب من 2000 شخص كانوا يأكلون يومياً عند أمير نجد محمد بن رشيد ، أما الضابط الأنجليزي (Wellsted) [2] فيذكر بأن عدد الذين يستضافون يومياً في خيمة أحد شيوخ المنتفك وهو عجيل يصل إلى 300 شخص.

وينبغي على الشيخ ، إلى جانب الضيافة المعتادة أن يظهر كرمه باستمرار وذلك بمساعدة الفقراء أو بإهداء أصدقائه وأنصاره فرساً أو بعيراً أو مواد غذائية. وطبيعي أن مثل هذه الحياة الواسعة تتطلب أموالاً غير قليلة غير أن شيوخ القبائل الكبيرة والقوية مثل عنزة وشمر لا تعوزهم هذه النقود ، أما صغار الشيوخ فلا يسمح لنفسه منهم بمثل هذا البذخ إلا أولئك الذين يتسلمون رواتب من السلطات التركية [3]. أو الذين تمولهم حكومة بريطانيا العظمى. وتتألف إيرادات الشيخ بالإضافة إلى ذلك ، من الجزية التي تفرض على القبائل الخاضعة ومن الاتاوات التي تدفعها القوافل والحجاج والرحالة في مقابل المرور في أراضيه بسلام وأخيراً من غنائم

Eduard Nolde. Op. cit. S. 36. (1)

J. R. Wellsted. Op. cit. Vol. 1. p. 198. (2)

J. L. Burekhardt : op. cit. Vol. 1. pp. 119. 285. (3)

الحرب التي يخصص منها للشيخ عند بعض القبائل جزء يصل إلى خمس المواشي والممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الخصم.

ويعتبر الاحترام الظاهري هو الآخر من امتيازات الشيخ ، فهو يترأس كل الاجتماعات والجلسات وعند قدومه ينهض الجميع ولا يجلسون إلا بعد أن يحتل مقعده. والشيوخ الأغنياء هم وحدهم الذين يتخذون لأنفسهم حرساً خاصاً أي حراساً شخصيين ، أما في العادة فيكتفي الشيخ بحاشية صغيرة من الأقارب والعبيد. وتوجد لدي شيوخ القبائل في العراق الجنوبي فصائل عديدة من الحرس الشخصيين يزداد عددهم كلما كان وضع الشيخ أرفع.

والقبيلة كلها تشترك في انتخاب الشيخ ولا يفرض على ذلك أية شروط لا على الناخبين ولا على المنتخبين وكل واحد حر في أن يختار الشخص الذي يفضله.

وهنا لابد أن نلاحظ بأن المشيخة تبقى في الغالب ، على الرغم من ديموقراطية البدو ، في أسرة واحدة تنتقل فيها من الأب إلى الابن أو الأخ أو العم. لكن عدم أهلية خلفاء هذا الشيخ أو ذاك هي وحدها التي يمكنها أن تدفع القبيلة إلى سحب الرئاسة من أسرته فتنتخب بدلاً منه شخصاً يمتاز بخصائص بارزة ويمتاز بالنجاح والموهبة. ويلعب نسب المرشح دوراً بارزاً في ذلك لأن عراقة الأسرة لها في أعين العرب أهمية كبيرة والكثير من العوائل التي تفخر بطول سلسلة أسلافها لا تخضع كرهاً لأول حشري دون أن تجرب مسبقاً كل الوسائل الممكنة لأن تحتل مكانه هي نفسها. إن هذا الخلق الارستوقراطي هو من القوة لدي البدو إلى درجة بحيث أن الأسرة العريقة لا توافق مطلقاً على مصاهرة عائلة متواضعة الأصل. وفضلاً عن ذلك فإنهم يعتبرون أن من العار التصاهر بين القبائل

التي تعد من الاشراف والقبائل التي تعد من غير الاشراف ويقصد البدو الأقحاح بهذه الأخيرة الفلاحين والمزارعين كافة.

وكما أن رأس العائلة هو أكبر أعضائها سناً ، وأن رئيس الفخذ يقف على رأس الفخذ أي مجموع العوائل التي يتألف منها الفخذ كذلك فإن القبائل الصغيرة (عشائر) يسوس كلا منها شيخ خاص ، ويقف على رأس القبيلة التي تضم جميع « العشائر » شيخ رئيس يحمل بخلاف الشيوخ الخاضعين له لقب « الشيخ الكبير » أو « شيخ المشايخ ».

ولا تشمل المشيخة إطلاقاً مفهوم القيادة في وقت الحرب ، ولهذا فإن البعض من الشوخ فقط يقودون قبائلهم في بعض الأحيان بأنفسهم ضد العدو. أما غالبية القبائل فيتزعمها في أثناء العمليات الحربية قائد خاص يسمى « عجيد » يجري اختياره عن طريق الانتخاب كالشيخ ولكنه يمنح طيلة الوقت الذي تستغرقه العمليات الحربية سلطة أكبر بكثير من سلطة رئيس القبيلة الاعتيادي ذلك لأنه منح حق التصرف بحياة أو ممات الخاضعين له. ويجب أن يطاع « العجيد » دون أعتراض لا من قبل البدو فقط وإنما من قبل الشيخ نفسه أيضاً الذي أبعد عن القيادة بسبب المرض أو الشيخوخة. أو عدم الأهلية. ويصل الأمر إلى أن « العجيد » يمكن أن ينتخب حتى من قبيلة أخرى وذلك إذا لم يستطيعوا ان يجدوا بين أفراد قبيلتهم قائداً موهوباً بما فيه الكفاية [1].

وكما أن على الشيخ أن يقتسم سلطته في شؤون الحرب مع « العجيد » فإنه يستطيع أن يتفادي في الأحكام القضائية التعاون مع من يسمى بـ « قاضي الفرع » أو « العارفة » أي الملم بالأعراف المعتادة في

- Anne Blut. Op. cit. Vol. II. Pp. 236 237. (1)

الصحراء ويعمد هؤلاء الأخيرون باعتبارهم. قضاة تحكيم على محاولة مصالحة المتخاصمين في القضايا الصغيرة. أما في القضايا والدعاوى الأكثر جدية فينبغي عليهم أن يشحذوا ضمائرهم وحكمتهم لإيجاد حل عادل يرضي المتضررين علماً بأن العرف المعتاد في الصحراء قد حدد بدقة لكل ذنب أو جريمة ابتداء من الاهانة بالكلام وانتهاء بالقتل غرامة معينة. أما إذا كان الذنب يقع على المتخاصمين كليهما فإن دور القضاة المذكورين يقتصر على تحديد الجانب الذي ارتكب الذنب الأكبر لكي يفرض عليه لصالح الجانب الذي ذنبه أقل غرامة يساوي مقدارها الفرق بين الغرامتين المفروضتين على الذنبين اللذين ارتكبهما هذا وذاك من المتخاصمين. ويحوز هؤلاء القضاة في بعض الأحيان شهرة واسعة بحيث يلجأ إلى حكمهم عدم قبولهم بحاكم قاضي أخرى ذلك أن المتخاصمين يعترف لهم في حالة عدم قبولهم بحاكم قاضي قبيلتهم بالحق في أن ينقلا القضية لينظر فيها « عارف آخر بالشرع المعتاد » لكن الأمر يتطلب في مثل هذه الحالات أن يعلن القاضي الذي أصدر الحكم السابق بطلان ذلك الحكم.

وينـاط تنفيذ الأحكام التي يصدرها « قاضي الفرع » او « العارفة » بشيخ القبيلة التي ينتمي إليها المذنب ، وإذا ما رفض هذا الأخير الخضوع لقرار القاضي اختياراً يلجأون عادة إلى تأثير الأقارب عليه فيعمد هؤلاء ، تجنباً للنزاع مع عائلة المتضرر ، وهو أمر يمكن أن يؤدي دوماً إلى إراقة الدماء ، إلى إجبار قريبهم المتمرد عادة على تنفيذ الحكم. وإذا كانت الدعوى التي حسمها القاضي تمس قبيلتين فإن القبيلة التي تربحها هي التي تنفذ الحكم بقواها الخاصة دون أن تتردد حتى لو اقتضى الأمر إعلان الحرب على الجهة الأخرى إذا ما أصرت تلك الجهة على رفض ترضيتها :

وعند تلخيصنا لحصيلة ما ذكرناه أعلاه عن البدو لا يمكن إلا أن

نستنتج بأن حياتهم قاسية وخالية من المسرات كالصحراء المحيطة بهم التي لا تسمح ظروفها المناخية ولا ظروف التربة فيها بأي نمط آخر للحياة غير الترحال. لقد ظلت هذه الظروف منذ أقدم الأزمان ثابتة لا تتغير. ولم يتغير أيضاً نمط حياة العربي المتنقل الذي لم يستطع حتى[1] الاسلام أن يدخل فيه أي تحسينات ملحوظة. ومع ذلك فبمجرد أن يجد هذا البدوي نفسه في ظروف طبيعية أفضل ، نجده يبدأ ببطء وبالتدريج وانصياعاً للقوانين الفيزيولوجية المشتركة بالنسبة لجميع الشعوب بالتخلي عن عاداته البدوية والتكليف لظروف الحياة الجديدة. ويمكن أن تؤلف قبائل البصرة تأكيداً واضحاً لذلك.

ويؤلف سنجق الحسا من حيث تكوينات سطحه استمراراً لصحراء شبه جزيرة العرب الكبرى ولهذا فإن الجزء الأغلب من سكانه باستثناء الحضر في الواحات النادرة الوجود ، يعيشون نفس نمط الحياة الذي يعيشه أبناء جلدتهم البدو في وسط شبه الجزيرة العربية. وهكذا فإن قبائل سنجق الحسا مثل بني حجار والضفير وعتيبة وعجمان والمرة ومطير وبني خالد الذين يؤلفون في مجموعهم أكثر من 200000 نسمة احتفظوا كلياً بطابعهم البدوي البحث.

أما العراق الجنوبي فإنه على العكس من الحسا يرويه اكبر نهرين في مقدمة آسيا هما الفرات ودجلة ويتميز بكثرة مراعية وخصوبة تربته بدرجة غير معتادة الأمر الذي يخلق ظروفاً ملائمة تماماً لتربية الماشية والعمل الزراعي السلمي. وهكذا فإن القبائل العربية البدوية التي تسكن العراق الآن

---

(1) سبب هذا ان صحّ عدم التمسك بتعاليمه واحكامه حيث لُبِسَ لُبِسَ لُبْسّ الفرو مقلوباً فصار أثره محجوباً. حميد الدراجي

والتي انتقلت إليه منذ عدة مئات من السنين خضعت في نهاية الأمر لتأثير الطبيعة المحيطة المهدئ فأخذت تنتقل بالتدريج إلى الحياة الحضرية.

ولكن هذا التطور لم ينته بعد ولم يشمل حتى الآن إلّا جزءاً صغيراً نسبياً من قبائل العراق العربي ، الأمر الذي يحتم انقسام كل منها إلى أربع مراحل انتقالية هي كالآتي :

1 ـ البدو : أي الرحل الذين لا يختلفون إلا قليلاً عن أخوانهم في أواسط شبه جزيرة العرب ويشتغلون بتربية الجمال والخيول.

2 ـ الشاوية : أي المشتتون الذين انصرفوا إلى تربية الماشية ينتقلون منها باستمرار من مكان إلى آخر ولكنهم يقتصرون في تنقلهم على منطقة صغيرة متأخمة للنهر ،

3 ـ الفلاحون : أي الزراع المستقرين في قطع من الأرض يزرعونها والذين يؤلفون المرحلة الانتقالية الأخيرة بين البدوي والعربي ساكن المدينة.

وتبعاً لتحول العربي المتنقل تدريجياً إلى حضري يتغير نوع المسكن نفسه. فإذا ما كان البدو والشاوية يكتفون بخيام الرحل العادية المصنوعة من شعر الماعز فإنّ « المعدان » انتقلوا لأنهم أقل حركة إلى أكواخ القصب.

أما عن الفلاحين فإن بيوتهم هي عبارة عن « صرائف » وهي أبنية خفيفة من

سعف النخيل والقصب والحصران يحل محلها عند المزارعين الأكثر يساراً بيوت من الطين نظراً لأن « الصريفة » قابلة للإشتعال بسرعة.

ينقسم العرب القاطنون في سناجق البصرة والمنتفق والعمارة ، إذا تركنا القبائل الصغيرة ، إلى اتحادين كبيرين هما المنتفق وبنو لام. وهذا القبائل بأجمعها ليست في أصلها من العراق الجنوبي ، إنما هي تنحدر من أواسط شبه جزيرة العرب طوحت بها موجة الهجرة منذ مئات السنين إلى

الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية أولاً ثم اضطرت تحت ضغط النازحين من الجنوب إلى التوجه شرقاً فاحتلت مخيماتها العراق الجنوبي الحالي. وقد سكن المنتفقيون على جانبي شط الحي وعلى جانب الفرات الأيمن وبين الفرات ودجلة في المنطقة الواسعة الممتدة بين السماوة وكوت الامارة وحتى القرنة. ويمكن أن يعتبر هذا الاتحاد أقوى الاتحادات العراقية وأكثرها عدداً فهو يعد ما لا يقل عن 250 ، 000 نسمة وفي مقدوره أن يقدم إلى ساحة المعركة ما يقرب من 50 ، 000 مقاتل. وبسبب من عدم وجود إحصاءات للسكان في الدولة العثمانية ونظراً لتعذر جمع المعلومات الاحصائية الدقيقة عن القبائل الرحالة وشبه الرحالة في العراق الجنوبي ، فإن التقديرات العددية التي ذكرناها عنهم أعلاه وكذلك التي سنذكرها أدناه ينبغي اعتبارها تقريبية فقط.

واسم « المنتفقيون » نفسه جاء كما يذكر خورشيد أفندي الذي اشترك في لجنة الحدود العثمانية ـ الفارسية في عام 1849 في كتابه [1]. من الكلمة العربية « متفق » التي تعني « متحد » ذلك أن هذا الاتحاد تكون من اتحاد ثلاث قبائل رئيسية هي بنو مالك والأجود وبنو سعيد حيث توصلت هذه القبائل الثلاث بعد منازعات وخلافات طويلة إلى الاتفاق على انتخاب شيخ مشترك واحد. وقد وقع اختيارها على عائلة الشبيب التي كان جدها قد نزح من الحجاز قبل ما يقرب من مائتي سنة واستقر مع اسرته بين القبائل المذكورة ومنذ ذلك الوقت أصبح شيوخ المنتفقيين ينتخبون من الأسرة فقط. وبما أن هذه العائلة قد انقسمت إلى ثمانية أفخاذ [2] فإن

(1) سياحت نامه حدود ترجمة كمازوف ، سانت بطر سبوزغ 1877 ص 47.

(2) أسماء هذه الأفخاذ هي : السعدون. الرشيد ، الذكير ، العزيز ، الصالح ، العيسي ، العلي ، العثمان.

ممثلي كل منها كانوا يشغلون منصب الشيخ بالتتابع. وقد برز من بين هؤلاء بشكل خاص في نهاية القرن الثامن عشر كما سنرى في الفصل السابع من هذا الكتاب الشيخ معني ، كذلك علت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مكانة الشيخ ناصر باشا من فخذ السعدون الذي استطاع أن يرسخ نفوذه بين المنتفقيين إلى درجة بحيث ظلت المشيخة منذ ذلك الوقت في أسرته. وينبغي أن نلاحظ بأن عائلة الشبيب التي ينتخب منها شيوخ المنتفك تعتنق بأجمعها المذهب السني في حين أن أغلبية المنتفقيين هم من الشيعة.

أما قبيلة بني لام التي تتألف أغلبيتها من الشيعة أيضاً والتي يبلغ تعدادها ما يقرب من 150 ، 000 نسمة منهم ما لا يقل عن 30 ، 000 مقاتل فإنها تحتل كل الجانب الأيسر من نهر دجلة بين كوت الامارة والحويزة وحتى جبال بشتكوه ، وتسكن أيضاً في الجانب الأيمن من النهر إلى الجنوب من قناة شط الحي وحتى العمارة. وأكبر القبائل الداخلة في هذا الاتحاد آل بلاسم والصرخة وآل كعب والبو جراد وغيرها.

وقد انتقل الكثير من قبائل بني لام ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى منطقة الحويزة داخل الحدود الفارسية. ثم ذهب بعدها إلى هناك أيضاً في بداية القرن التاسع عشر قسم من المنتفقيين.

وقد حدثت بين بني لام الذين ظلوا دخل الحدود العراقية وسكنوا على جانبي دجلة منازعات ومصادمات مستمرة سببها الشيوخ ، الامر الذي دفع الحكومة العثمانية إلى أن تصر على انتخاب شيخين منفصلين واحد للقبائل التي تسكن الجانب الأيمن من دجلة والآخر للقبائل التي تقطن جانبه الأيسر. وينتمي بنو لام في أصلهم على ما يذكره (LYcklama a Nijeholt)[1] إلى قبيلة « الفصول » التي تقطن قرب مكة وقد

Lycklama a Nijeholt : op. cit. T. III P. 225. (1)

جاءهم اسمهم الحالى من واحد من شيوخهم اسمه فرج لام نزح أحفاده إلى العراق فأصبحوا يعرفون هناك بـ « بنو لام » أي « أبناء لام ».

أما عن القبائل التي تنطوي تحت اسم عام مشترك هو « المعدان » فإنها تشمل القبائل التي تقطن في الأهوار والمستنقعات ضمن حدود ولاية البصرة والتي تشتغل بتربية الجاموس وزراعة الرز. ولا يزيد العدد الاجمالي لهذه المجموعة التي تعتنق غالبيتها المذهب الشيعي على المائة ألف نسمة وأكبر قبيلة فيها هي قبيلة البو محمد التي تقطن على جانبي نهر دجلة من العمارة حتى القرنة تقريباً. وتحتفظ قبائل المعدان باستقلالها الداخلي ولكنها تكون تابعة إلى المنتفقيين أو بني لام تبعاً لعائدة المنطقة التي تقطنها إلى أي من هذين الاتحادين القويين. وقد خضع البومحمد إلى بني لام حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما رأي وإلى العراق داود باشا بأن من الأنسب أن يتبع قسم من هذه القبيلة وهو القسم الذي يقطن إلى الجنوب من العزير أي مرقد النبي عزرا ، المنتفقيين.

وإذا ما انتقلنا عن الحديث عن المهن التي تزاولها القبائل القاطنة في العراق الجنوبي فإننا نستطيع التأكيد بثقة بأن تربية الماشية تحتل عندهم المكان الأول حيث ينصرف إليها على حد سواء « المعدان » الذين يربون الجاموس في مستنقعاتهم و « الشاوية » الذين يمتلكون قطعاناً كبيرة من البقر والأغنام وكذلك « البدو » الذين تشيع بينهم تربية الابل والخيول. وطالما أن البدوي هو النموذج الأساس للعربي العراقي الذي لم يتحول إلى « شاوي » إلا تحت ظروف ملائمة بشكل استثنائي ، أي أنه تحول من الاشتغال بتربية الجمال والخيول إلى تربية البقر والأغنام ، فإننا سنبدأ وصفنا لأنواع الحيوانات الداجنة التي تربي في العراق العربي بالجمل باعتباره المرافق الذي لا غني عنه لعربي الصحراء المتنقل في صراعه القاسي والصعب من

أجل البقاء.

لم يسم الجمل « سفينة الصحراء » عبثاً ذلك أنه لا يوجد حيوان قد أهلته الطبيعية للتنقل في مناطق لا يصادف فيها الماء إلا نادراً ويقتصر كل ما فيها من عشب على الأشواك ، أكثر من الجمل. فالتكوين الخاص لمعدته المجهزة بأكياس لخزن المياه يمكنه من الاستغناء عن الشرب لمدة تصل إلى خمسة أيام ، كما أن نسيج فمه الغضروفي يسمح له بأكل الأشواك دون أن يتأثر بها. إن تكوين هذا الحيوان الأخرق من ذوات الأربع ، بأجمعه ابتداء من عنقه الطويل الذي يساعده في الوصول إلى الأشواك القصيرة وانتهاء بأخفافه التي تشبه الوسائد ولها نهايات متصلبة كالقرون والتي تجعله يتنقل بسهولة فوق الرمال الملتهبة ، مكيف بشكل مدهش للحياة في الصحراء.

ولا تقل قيمة الجمل البدوي البيتية عنها في أثناء الانتقال في الصحراء فهو يقدم لصاحبه المأكل على شكل حليب ولحم والملبس والمأوى بهيئة وبر يحاك منه القماش وتصنع منه الخيام وأخيراً الوقود على شكل روث مجفف. وهكذا ينقذ الجمل العربي المتنقل من الجوع والعطش والبرد لذا فإن حياته في الصحراء تكون مستحيلة بدون هذا الحيوان المفيد. ولهذا فليس من الغريب أن نجد أن للجمل في اللغة العربية اسماء كثيرة يصل عددها إلى 5744 اسماً وأن مقياس الغني والفقر في الصحراء هو عدد الابل علماً بأن البدوي الذي يمتلك عشرة ابل لا يعتبر غنياً وإنما يلزمه من أجل أن يصبح كذلك أن يمتلك ما بين ثلاثين إلى أربعين رأساً منها على الأقل.

والجمل الذي يربيه البدو في شبه الجزيرة العربية ذو سنام واحد وهو تبعاً للغرض الذي يؤديه على ثلاثة أنواع هي : 1 - « حواس » 2 -

« دلول » 3 - « هجين ».

يستخدم الأول للحمل فقط وهو حيوان أخرق ثقيل الوزن. أما النوع الثاني فإنه يدرب منذ الصغر خصيصاً لكي يستخدم للركوب لذا فإنه أكثر خفة وحركة ويسهل عليه احتمال العطش أكثر من الأول. وأما النوع الثالث فهو جمل الجري الذي يتميز بسرعة مدهشة في الجري وهو لا يتعب ويستطيع أن يقطع بسهولة مسافة تصل إلى ثمانية أميال في الساعة وسبعين ميلاً في اليوم ، حتى أن البريد بين دمشق وبغداد ينقل على مثل هذه الجمال السريعة. وتعتبر عمان موطناً لأحسن الجمال السريعة هذه ولهذا يطلق عليها العرب اسم « أم الأبل ».

ويربى في العراق الجنوبي وبالشكل الرئيسي في ولاية بغداد الجمل ذو السنامين من النوع البكتيري الذي يتميز عن جمل شبه جزيرة العرب السريع بوبر أطول وقابلية أكثر على تحمل العطش وبطء أكثر في الحركة.

ويربي نوعا الابل العراقية كلاهما أي « الجودي » و « الحوار » لكي تكون حيوانات للحمل فقط ولتتكون منها القوافل التي تقوم عليها حتى الوقت الحاضر علاقات بغداد التجارية مع الموصول وغرب فارس ومع حلب عن طريق الصحراء.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار بأن الحكومة تفرض على الابل ضريبة مقدارها عشرة قروش أي ثمانية كوبيكا على الرأس الواحد وأن المبلغ الاجمالي المتآتي من هذه الضريبة في ولاية بغداد كان في سنة 1321 هـ - 800 ، 459 قرش [1] فإننا يمكن أن نستنتج بأن عدد الأبل التي تمتلكها القبائل المتنقلة في ولاية بغداد يصل إلى 980 ، 45 رأساً ، واستناداً إلى

---

(1) السالنامة الخاصة ولاية بغداد للسنة المذكورة ص 406.

الأرقام [1] المتعلقة بضريبة الأبل في ولاية البصرة لسنة 1318 هـ يمكننا أن
نتوصل بالطريقة نفسها إلى ان عدد الابل في تلك الولاية هو 539 ، 11 رأساً.

والحيوان الآخر الذي لا يقل قيمة بالنسبة للبدوي هو الحصان ، الرفيق الأمين للعربي المتنقل في غزواته الوحشية. وقد حيكت اساطير كثيرة حول جمال الخيول العربية وقوة احتمالها وذكائها النادر. لكن هذه الخصائص لا تلازم في الواقع إلا صحراء شبه جزيرة العرب والتي يصعب
إيجادها عند القبائل البدوية من المنتفقيين وبني لام ، ذلك أن هؤلاء في تكالبهم على الربح المتآتي من تجهيز الخيالة الهندية ـ الانجليزية بالخيول أفسدوا سلالة خيولهم وذلك بتلقيحها بالفحول الفارسية والتركية سعياً وراء زيادة طول قامتها. حيث يذكر الميجر [2] (Yptony) الخبير بالخيول العربية
بأنه لم يصادف في صحراء شبه الجزيرة العربية أي حصان أصيل يتعدي طول قامته الخمسة عشر كفاً. وترسل الخيول الهجينة الناتجة عن هذا التلقيح إلى الهند على أنها خيول « عربية » أصلية حتى أنها تقيم هناك بأغلى من هذه الأخيرة.

وطبيعي أن البدو العراقيين الذين يربون الخيول لغرض المتاجرة بها بالدرجة الأولى ينظرون إلى الخيل نظرة تغاير تماماً نظرة بدو صحراء شبه
جزيرة العرب الذين يربون خيولهم للـ « غزو » وللأعمال الحربية. ويستخدم
عربي الصحراء في مثل هذه الحالات الأفراس فقط لأنها لا تصهل وبذلك فإنها لا تكشف الفارس للخصم قبل الأوان ولهذا فإنه لا يفرط فيها إلا في

(1) السالنامة الخاصة بولاية البصرة لسنة 1381 هـ ص 291.

(2) Upton. Gleanings from The desert ot Arabia. London 1881. p. 343.

حالة الضرورة القصوى ولا يبيع إلا فحول الخيل الزائدة حيث يجلبها إلى المدن المتآخمة للصحراء مثل حلب والدير [1] والموصل وبغداد أو يبيعها لمشتري الجملة الذين يزورون مخيمات البدو في أثناء إقامتهم الصيفية في الحدود الشمالية للصحراءالسورية.

وتربية الخيل نفسها تجري عند القبائل البدوية في شبه جزيرة العرب بأسلوب خاص. فمنذ اللحظة التي يخرج فيها المهر إلى النور يحاط بالرعاية والاهتمام من قبل العائلة كلها فيصبح بفضل ذلك أليفاً ويتعلق بالانسان بسرعة. وبعد شهر يبدأون بتغذيته بحليب الابل الذي يعتقد البدو أنه يقوي المهر ويساعد على زيادة قابليته على التحمل. وهذه الخاصية الأخيرة يكون لها في الصحراء القاحلة وفي ظل التنقل المستمر أهمية أكبر حتى من سرعة العدو ولهذا يبدأ البدو تدريب الافلاء في وقت مبكر. فبعد أن يبلغ الفلو السنة من العمر يأخذ الأطفال بركوبه ثم يستبدلون بمقدار نمو الفلو بصبيان أكبر عمراً ، وعندما يبلغ الحصان سنته الثالثة يأخذونه في مسيرات غير طويلة. وهكذا يتكون نوع من الخيول العربية الممتازة في قوة تحملها.

ودون أن ندخل في وصف تفصيلي لفضائل الحصان العربي الأصيل التي تكوّن القيمة الأساسية له ولذا فإنها تهم المختصمين وحدهم ، نسمح لأنفسنا بالاشارة إلى الصفات الخارجية الأكثر وضوحاً لهذا الحيوان. وهذه الصفات هي في نظر البدو أنفسهم كالآتي :

1 ـ سعة وبروز عظام الجبهة واليافوخ باعتبارها دليلاً على الذكاء.

2 ـ وضعية الرأس الخاصة مع سعة وتباعد عظام الوجنتين الأمر الذي

---

(1) المقصود مدينة دير الزور ـ المترجم.

يؤمن للفرس تنفساً حراً عميقاً.

3 ـ الأذان مائلة بشكل جميل إلى الداخل بحيث تكاد نهايتهما تتلامسان ويتوصل البدو إلى ذلك بربط آذان الفلو الحديث الولادة ربطاً خاصاً [1].

وتدهش الأوروبي الذي يشاهد الفرس العربية لأول مرة ، قبل كل شيء طريقتها في رفع ذيلها عالياً وعيونها الكبيرة اللامعة التي تعبر عن الذكاء والطيبة ثم عنقها القوي الذي ينثني بشكل جميل وقوائمها الرشيقة.

ومن بين الصفات التي تمتاز بها الخيول العربية يستحيل أن لا نذكر إلى جانب الذكاء والطيبة والجرأة. الانصياع غير المعتاد للانسان ولهذا السبب يركبه البدو بالرسن وحده بدون ركاب ويكتفون بدلاً من السرج بوسادة صغيرة تثبت على ظهر الفرس برباط بسيط من الجلد.

وأحسن الخيول العربية هي تلك التي تنتمي إلى « الخمسة » والمقصود بذلك هو السلالات الخمسة وهي « الكحيلان » و « الصقلاوي » و

« العبيان » و « الحمداني » و « الغضبان » التي تذكر المآثر أنها تعود في أصلها

إلى فرس النبي أو حتى إلى جد العرب اسماعيل نفسه. ويفخر البدو بأصالة هذه الخيول إلى درجة بحيث أن أي عائلة تمتلكها تحتفظ بسلسلة مفصلة لنسبها تعطي عادة إلى اشارة مع الحصان الذي يشتريه ، ولا توجد مثل هذه الخيول الثمينة إلا عند القبائل القاطنة في جبل شمر في وسط شبه جزيرة العرب وعند القبائل البدوية المنطوية تحت التسمية العامة « عنزة » [2].

وتباع خيول العراق الجنوبي الهجينة في الهند على أنها خيول

Upton. Op. cit. p. 336. (1)

Anne Blunt. Op. cit. Vol. II p. 271 FF. (2)

« نجدية » أي على أنها خيول أصلية من وسط شبه جزيرة العرب وهذا أمر لا يطابق الحقيقة كما ذكرنا أعلاه ، وينبغي أن ينسب كلياً إلى مهارة ووقاحة تجار الخيول الذين استطاعوا أن يرفعوا ثمن الخيل بهذا الشكل. وبالمناسبة يمكن أن يصبح العراق الجنوبي بمراعية الخصبة واحتياطيه الذي لا ينضب من مياه الأنهار ، وطناً لأحسن الخيول العربية نظراً للصعوبة الفائقة التي تعترض تربية الخيول في صحارى شبه جزيرة العرب حيث لا تجد الخيل العشب إلا في أشهر الشتاء والربيع أما في فصول السنة الأخرى فيتحتم على البدو أن يطعمونها التمر أو حليب الابل.

لقد بدأ تصدير الخيل من العراق الجنوبي إلى الهند منذ نهاية القرن الثامن عشر عندما كان (Manesty) مقيماً لشركة الهند الشرقية في البصرة. فقد كان هذا المقيم أول من أنتبه إلى أن من الملائم إصلاح الخيالة الهندية بواسطة الخيول العربية وحاول أن ينظم هذه القضية جدياً. ويمكن القول بأن تصدير الخيول العراقية لم يتوقف منذ ذلك الوقت حتى الآن ، حيث يبلغ متوسط ما ينقل إلى الهند سنوياً ما بين 2500 و 3500 رأس يتراوح ثمنها بين 400 و 1000 روبل للرأس الواحد أو أكثر تبعاً لجودتها. وقد عمدت الحكومة العثمانية إلى منع تصدير الخيول إلى الخارج أكثر من مرة ولمدة قد تطول أو تقصر وهدفها من ذلك المحافظة على سلالات الخيل العربية الأصلية ، لكن هذا المنع لم يحقق الغرض منه لأن تجار الخيول كانوا يعمدون طيلة فترة المنع إلى تهريبها. ولتحقيق ذلك كانوا ينقلون جميع الخيول التي يشترونها من بني لام ومن القبائل البدوية المتنقلة على ضفاف نهر دجلة إلى ميناء المحرمة ، أما تلك التي يشترونها من المنتفقين ومن قبائل الزبير المتآخمة للفرات فينقلونها إلى الكويت ، ومن هناك يرسلونها إلى الهند على سفن انجليزية بعد أن يدفعوا ضريبة بسيطة للشيخ

المحلّـــي. ولأن الســـلطات المحليــــة لـــيس فيمقـــدورها أن توقـــف ســـوء الاستغلال ، هذا فقد أقتنعت بضرورة التخليمن الآن فصاعداً عن فرض المنع على تصدير الخيول عن طريق ميناء البصرة ورفعت الضريبة الكمركية المفروضة عليها في 1899 من 1٪ من قيمة البضاعة إلى 43 روبل على كل رأس. ويقع فصل تصدير الخيول في الفترة من آب إلى تشرين الأول وتبلغ تكاليف نقل الرأس الواحد من الخيل مع مصروفات إطعامه في الطريق والمصاريف الأضافية الأخرى ما يقرب من 60 إلى 80 روبية (2 / 1 ، 38 إلى 52 روبلاً).

ومن حيوانات الركوب والحمل الأخرى التي تربي في العراق الجنوبي ينبغي أن نشير إلى الحمير والبغال. والحمير على نوعين الأول هو ما يسمى بالحمير النجدية [1] التي تتميز بشدة بياضها وطول قامتها ولهذا فإنها تستعمل للركوب فقط وتتراوح كلفة الواحد منها ما ين 80 ، 250 روبلاً ، أما النوع الثاني فإنه لا يتميز بشئ غير عادي ويربيه بالدرجة الأولى الفلاحون أو القبائل المنصرفة إلى العمل الزراعي حيث تستعيض بهذا النوع من الحمير الواطئة والقوية عن حيوانات الحمل ، كما أنها تستخدم في أعمال الحقول في بعض الأحيان.

أما البغال فإنها تأتي بالدرجة الأولى من كردستان وفارس أما في العراق فإنها تربي بأعداد محدودة. وقد أنشأ مدحت باشا [2] المشهور في تاريخ العراق الجنوبي ، أو رؤوف باشا الذي خلفه في ولاية بغداد على ما

---

(1) يقصد الحمير التي يطلق عليها بالعامي اسم « الحساوية » ومفردها « حساوي » ـ المترجم.

(2) أنظر تفاصيل عن مدحت باشا في الفصل التاسع الخاص بالتاريخ.

تذكر معلومات أخرى ، جندرمة خاصة تستخدم البغال في سبعينيات القرن التاسع عشر كانت تسمى « أستر ساور » وكانت مخصصة لحراسة القوافل والمسافرين أثناء سيرهم عبر الصحراء من بغداد إلى حلب. ولا تزال هذه الخيالة التي تستخدم البغال قائمة حتى الوقت الحاضر ويبلغ عدد أفرادها 653 فرداً من الرتب الدنيا إلى جانب أحد عشر ضابطاً.

وليست هناك إحصائيات حتى ولو تقريبية عن عدد الحمير والبغال في العراق الجنوبي وذلك لان الحكومة لا تفرض عليها ضرائب يمكن أن نحكم على اساس ما يتجمع منها ، على عدد هذه الحيوانات. ويحدد (V.cuinet) في كتابه [1] عدد الحمير والبغال في ولاية بغداد بـ 000 ، 104 رأس وفي ولاية البصرة بـ 000 ، 110 رأس أي أن عددها الاجمالي في العراق الجنوبي كله يبلغ 000 ، 214 رأس ، لكن هذا المؤلف لا يوضح لنا في كتابه مع الأسف المصدر الذي استقي منه هذه الأرقام خصوصاً وإنه لا يوجد تسجيل لهذين النوعين من الحيوانات كما تتسم النظرة إلى قضية جمع المعلومات الاحصائية عموماً في الامبراطورية العثمانية بعدم الجدية.

وإذا كانت تربية الابل والخيول تجري في العراق الجنوبي على نطاق واسع نوعما فإن تربية الأغنام والبقر هي أوسع من ذلك انتشاراً. فقد انصرفت القبائل العربية بعد أن تهيأ لها كل ما هو ضروري لازدهار تربية الماشية ، إلى هذا العمل بحماس كبير. إنّ قرب المدن والمستوطنات يؤمن لهم بيع حليب الماشية وزبدتها ولحمها بشكل ملائم وباستمرار ، كما أن استهلاك الجلود والجلود المدبوغة محلياً وتصديرها إلى الخارج يزيد بشكل ملحوظ من ربح هذه الحرفة.

---

(1) V. Cuinet : Op. cit. Vol. III. Pp. 22.239.

وينقسم مربو الماشية حسب نوع الماشية التي يربونها وحسب نمط حياتهم إلى مجموعتين انتقاليتين هي : « الشاوية » و « المعدان » يحترف أفراد المجموعة الأولى تربية الخرفان والنعاج والثيران والأبقار وينتقلون مع قطعانهم من مكان إلى آخر دون أن يبتعدوا عن دجلة والفرات إطلاقاً. أما أفراد المجموعة الثانية فإنهم ينصرفون إلى تربية الجاموس فقط ويسكنون الأهوار والمستقعات التي تكونت من فيضان النهرين المذكورين ولا يتركون أكواخهم المعمولة من القصب لأن الجاموس لا يمكنه أبداً الاستغناء عن الماء الذي يقضي فيه القسم الأغلب من النهار. وتأتي الخرفان والنعاج في المقدمة من حيث العدد تتبعها الثيران والأبقار ثم يأتي الجاموس بعد ذلك أما التيوس والماعز فإنها تحتل المرتبة الأخيرة فهي تربى بالشكل الرئيسي في جبال كردستان ولا تصادف في سهول العراق الجنوبي إلا كأستثناء.

وتعود الخرفان والنعاج التي تربي في العراق الجنوبي في أصلها إلى ثلاثة أنواع فهي إما عراقية أو كردية أو نجدية من أواسط شبه جزيرة العرب ، وتسمى تبعاً لذلك « عربي » و « كردي » و « نجدي » علماً بأن العربي ينقسم إلى « شفال » و « عواس ».

والنوع العراقي أو « العربي » وعلى الأخص النوع المعروف باسم « شفال » هو بالطبع أكثر الأنواع انتشاراً في ولايتي بغداد والبصرة ، ذلك أن النوع المعروف باسم « عواس » يربى بالدرجة الأوليإلى الشمال أكثر في الشريط الممتد بين بغداد والموصل ولا يتميز النوع « العربي » لا بالضخامة ولا بالسمنة لذا فإنه يقيم لأجل صوفه الذي يتميز بالقوة واللمعان والنعومة والذي يضم كل الألوان المعروفة من الأسود حتى الأبيض. وتوجد أحسن فئات هذا النوع عند ذلك الجزء من قبائل بني لام الذي يمتلك المراعي

الغنيـة الواقعـة علـى فرعـي دجلـة طيـب ودويـريج. أمـا النـوع الكـردي فإنـه يصادف علـى الحـدود التركيـة ـ الفارسية وينتشـر بشـكل خـاص فـي نـواحي كركـوك والسـليمانية. وتشـتهر الخرفـان الكرديـة بكبـر حجمهـا وضـخامة أليتهـــا
ولهـذا فإنهـا كماشـية مخصصـة للـذبح أغلـي مـن العراقيـة ويربـى النـوع « النجـدي » بشـكل كلـي تقريبـاً فـي ولايـة البصـرة وبالدرجـة الأولـى فـي ســنجق
الحسـا. ولـيس لهـذا النـوع لا قـرون ولا إليـه ولا صـوف جيـد ولـكنـه يتمتـع باعتبار كبير لدي الأهالى هناك بسبب لحمه الدسم اللذيذ [1].

واستناداً لمقدار « الكودة » أي الضـريبة الحـكوميـة المفروضـة علـى الأغنام ومقدارها ثلاثة قروش ونصف (ما يقرب من 28 كبيكاً) للـرأس الواحد ، يسهل علينا أن نستنتج العدد الاجمالى للأغنام في العراق العربـي على أساس مجموع المبالغ المتأتية من هذه الضريبة والواردة فـي الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة.

وقد بلغ إيراد الكودة في ولاية بغداد في سنة 1321 هـ - 405811 ، 3
قرشاً في حين بلغ في ولاية البصرة في سنة 1320 هـ - 1615700 قرشاً الأمـر الـذي يجعلنـا نسـتنتج بـأن عـدد الأعنـام فـي أول هـاتين الـولايتين هـو 089 ، 973 الثانيــة 628 ، 416 رأســاً وفــي الثانيــة 628 ، 461 رأســاً. وينبغــي أن
نـذكر بـأن هـذه الأرقـام تسـاوي ثـلاث أخمـاس مـا هـو موجـود بالفعـل مـن الأغنام في البلد كله ذلك لأن هذه الاحصائيات لا تشمل القطعان التي تربـى في اراضي السلطان لانها تدفع الكودة مباشرة إلى إدارة « الأراضـي السنية »
التي لا تنشر إحصـائياتها مـن جهـة ، ومـن الجهـة الأخـرى لا يـدخل فـي هـذا الأحضـاء أيضـاً مـا يولـد مـن الحمـلان فـي السـنة التـي جـري فيهـا جمـع الضريبة

---

(1) مجموعة التقارير القنصلية لسنة 1904 الاصدار الأول ص 4 ، 5.

لأن هذه الضريبة لا تؤخذ على الخروف إلا بعد أن يقضي السنة الأولى من عمره.

أما الماعز والتيوس التي جرى دمجها في الناتج العام مع الخرفان والنعاج بسبب من أن الضريبة على هذه وتلك هي ضريبة واحدة فإنها تؤلف ما لا يزيد على خمس كل ما هو من الماشية الصغيرة في العراق العربي [1]. ومن بين أنواع الماعز الثلاثة التي توجد هنا وهي : « العراقية » التي توجد في ولايتي بغداد والبصرة و « الكردية » التي تربى على طول الحدود التركية ـ الفارسية و « الشامية » التي تنتشر في الأماكن المتآخمة للصحراء السورية ، يتميز الأخير منها بطول الآذان وغزارة الحليب ويوجد في جبال كردستان أيضاً ماعز من النوع المعروف بالأنغوري يعرف شعره الناعم الرفيع في العراق العربي باسم « مرعز » ويقيم عالياً في أسواق لندن.

ويحتل سنجق الحلة من حيث عدد الماشية الصغيرة الموجودة فيه المرتبة الأولى تأتي بعده بالترتيب سناجق كربلاء وبغداد والمنتفق والعمارة والحسا والبصرة.

وبالإضافة إلى « الكودة » تفرض على الماشية الصغيرة التي تجلب للذبح ضريبة أخرى لصالح « البلدية » أي مجلس المدينة ومقدارها خمسة قروش (40 كبيكا) للرأس إذا ما كان كبيراً وثلاثة قروش (24 كوبيكا) إذا كان صغيراً. وتعطي هذه الضريبة عادة بالالتزام ولكن للرعايا العثمانيين فقط حيث يلتزم هؤلاء بدفع إيجار ذبح الماشية مقدماً مرة في كل أربعة أشهر.

وتربى فيالعراق الجنوبي عدة أنواع من الأبقار والثيران هي :

---

(1) مجموعة التقارير القنصلية لسنة 1904 الاصدار الأول ص 6.

« الرستقية » التي يذكرنا سنامها بالزبو الهندية وهي ملائمة بشكل خاص لأعمال الحقل وذلك بفضل ضخامتها وقوتها ، و « العراقية » التي تخصص بالدرجة الأولى للذبح وتصدر بكثرة إلى الموصل وديار بكر وغيرها من المدن ، و « الداري » التي يربيها المنتفقيون بالدرجة الأولى والتي تتخلف في كل الحالات عن الأنواع الأخرى ، وأخيراً « النجدي » التي تصادف في ولاية البصرة بالقرب من نجد والتي تشتهر بغزارة حليبها.

والأبقار هي العون الرئيسي لا لمربي الماشية شبه المتنقل فقط وإنما للمزارع المستقر أيضاً فهي تؤمن لعوائل هؤلاء وأولئك الغداء من منتجات الحليب التي يبيعون قسماً منها أيضاً وبشكل مربح لسكان المدن والارياف. كذلك تقوم الأبقار بالنسبة لأفراد الفئة الأولى مقام حيوانات الحمل اثناء انتقالهم مع قطعانهم من مرعى إلى آخر ، في حين تكون بالنسبة لافراد الفئة الثانية دابة عمل يستخدمونها فيحراثة وإرواء الحقول وفي أثناء مواسم الدرس وما يشبه ذلك من أعمال الحقول. وبسبب فوائد الأبقار والثيران المتعددة هذه أعفت الحكومة العثمانية التي تهدف إلى تسهيل وضع المزارعين وتشجيع العمل الزراعي ، هذه الماشية من أي ضريبة عدا ضريبة الذبح حيث تأخذ أحد عشر قرشاً - 88 كبيكاً) عن كل رأس.

ومن غير الممكن تحديد العدد الأجمالي للثيران والأبقار في العراق الجنوبي بسبب عدم تسجيلها ولأنها لا تخضع للضريبة الحكومية ، هذا طبعاً إذا لم نقنع بالأرقام الوهمية ، غير إن من الشائع على أية حال أن سنجق العمارة يحتل المرتبة الأولى من حيث عدد الثيران والأبقار تاتي بعده سناجق الحلة وكربلاء وبغداد ، والمنتفق والبصرة.

بقي علينا لكي ننتهي من الحديث عن تربية الماشية ، أن نورد بضعة كلمات عن الجاموس. إن القبائل التي تمتهن تربية الجاموس تقطن في

الأهوار الممتدة على طول دجلة والفرات وتعرف باسم عام هو « المعدان ».
وهي قبائل متوحشة لم تخضع بعد لتأثير المدنية الذيترك أثراً نافعاً جداً على القبائل العربية الأخرى حيث أشاع روح المسالمة عندها. فالمعدان لم يتخلوا حتى الآن عن عاداتهم القرصنية فهم عند أول فرصة ملائمة يهجمون في قواربهم الصغيرة المسطحة القاع على السفن التي تمر في الجوار متسترين بظلام الليل. وعندما يجري صدهم أو يفشلون يعمدون إلى الاختفاء بسرعة في أهوارهم حيث لا تتمكن من الوصول اليهم حتى القطعات العسكرية المؤلفة من الجندرمة المجهزة بالقوارب ذلك لأن سكان الأهوار يبادرون عند سماعهم باقتراب هؤلاء الجندرمة إلى تحويل أكواخهم المعمولة من القصب إلى أرماث عائمة يخلصون بواسطتها أنفسهم وأفراد عوائلهم وأمتعتهم كافة حيث يذهبون إلى مجاهل يصعب المرور بها. ويسكن مربو الجاموس هؤلاء الذين ينظر إليهم حتى أبناء جلدتهم بازدراء ظاهر ، على قطع من اليابسة مبعثرة على شكل جزر صغيرة في الأهوار الشاسعة ، وهم يسيرون شبه عراة ويتألف غذائهم بشكل كلي من حليب الجاموس والرز الذي يزرع هناك في الأهوار أيضاً.

والجاموس المتكيف بطبيعته للعيش في الأهوار يتطلب مع ذلك رعاية كبيرة ، ففي الصيف ينبغي حمايته من البعوض والناموس الذي يعذبه حتى يوشك على الموت ولهذا فإنهم يطلون الجاموس ليلاً بالنفط أو يسوقونه إلى حظائر يجري تدخينها بالروث المضغوط [(1)] وفي الشتاء يتحتم المحافظة عليه من البرد الذي لا يتحمله الجاموس فيضعونه في أكواخ من القصب تجري تدفئتها بالقصب وتبن الرز. ويؤلف الجاموس الثروة

(1) يقصد ما يسميه العامة بـ « الجلّة » أو « المطال » ـ المترجم.

الوحيدة للمعدان الذين يحصلون على مبالغ كبيرة ثمناً لما يبيعونه من حليب الجاموس وزبدته ولحمه ، وهي المنتجات التي تستهلكها الطبقات الفقيرة من سكان المدن والقري بسبب رخصها.

ومقدار الضريبة الحكومية المفروضة على الجاموس هو عشرة قروش (80 كبيكا) للرأس الواحد ، لذا فبإمكاننا أن نستنتج بأن عدد الجاموس في ولاية بغداد هو 218 ، 10 رأساً وفي ولاية البصرة هو 500 ، 18

رأس [1] وذلك استناداً إلى المبلغ الأجمالى لضريبة الجاموس الوارد في الحوليات العثمانية لسنة 1318 هـ بالنسبة لولاية بغداد ولسنة 1317 بالنسبة لولاية البصرة. لكن هذه الارقام هي في الواقع بعيدة عن الحقيقة لأن جامعي الضريبة لم يتوغلوا إلى داخلية الأهوار التي يقطنها المعدان. وتترتب السناجق من حيث عدد الجاموس الموجود فيها على النحو التالي : العمارة أولاً ثم المنتفق ثم الحلة ثم البصرة وأخيراً بغداد ، علماً بأن أجود الجاموس هو ذلك الذي تملكه قبيلة البومحمد التي تقطن الأهوار الواقعة إلى الشمال من القرنه. هذا ويؤخذ على كل رأس من الجاموس يرد إلى المجزرة أحد عشر قرشاً (88 كبيكاً) لصالح « البلدية » أي مجلس المدينة.

وبانتقالنا إلى الحديث عن الزراعة لا يسعنا إلا أن نلاحظ ابتداءً بأن من الصعب أن تتعرف في زارع الأرض المسالم أي الفلاح على ذلك البدوي الذي أصبح بعد أن ارتبط بالارض وفقاً لنوع أشغاله الجديدة لا يقل عن الحكومة العثمانية نفسها حرصاً على الهدوء والنظام في البلاد.

لقد كان تعزيز هذا العنصر المسالم في العراق الجنوبي يؤلف منذ القدم الأهتمام الرئيسي والطبيعي للولاة المحليين الذين لم يترددوا حتى

(1) مجموعة التقارير القنصلية لسنة 1904 الاصدار الأول ص 10.

أمام محاولة تحويل العرب الرحالة إلى الحالة الزراعية بالإكراه وقد نظم باشوات بغداد لهذا السبب في ستينيات القرن التاسع عشر عدداً كبيراً من الحملات العسكرية التي كانت تحاصر مخيمات القبائل وتجبرها بالقوة على أن تباشر بزراعة الأرض. ولم يكن لهذا الأجراء اية نتائج إيجابية لسبب بسيط هو أن الرحل كانوا يبادرون فوراً وبمجرد ذهاب القوات العسكرية على ترك الحرفة التي فرضت عليهم بالقوة.

وكانت محاولة إدارة أراضي السنية لجذب الرحل إلى زراعة الضياع السلطانية الكثيرة العدد في العراق وذلك عن طريق منحهم الامتيازات المختلفة أكثر واقعية بعض الشيء ويمكن اعتبار ما جري في السبعينيات الاجراء الأكثر نجاحاً من حيث نتائجه. فقد بيعت الأراضي الحكومية الخالية والقليلة الايراد أو اعطيت بالإيجار الطويل الأمد إلى بعض شيوخ اتحادي المنتفق وبني لام. وقد كان هذا الأجراء الخطوة الأولى على طريق تحويل الرحالة إلى مزارعين حيث جعلهم يتعرفون لأول مرة على مفهوم ملكية الارض ذلك لأن الأرض عند البدو وفي ظل نمط حياة التنقل التي يعيشونها لا تعتبر ملكاً لأحد.

وكان حفر قناة السويس التي قربت البصرة من اوروبا الدافع الثاني لأن يزيد البدو من تثمينهم لفوائد امتلاك الأرض بمعني الحصول على منتجات العمل الزراعي والانتفاع بها بشكل كلي. لقد وفرت طرق المواصلات المباشرة التي تربط العراق الجنوبي بلندن ومرسيليا بواسطة البواخر ، للخامات المحلية الوصول إلى الأسواق الأوروبية التي أخذ الطلب على حاصلات العراق الزراعية فيها ينمو بسرعة مزيداً بذلك من قيمة المنتجات الحيوانية والزراعية.

وأخذت إيرادات الشيوخ الذين استأجروا الأراضي الحكومية

واشتغلوا بزراعتها تزداد وأخذ عدد القبائل التي تنتقل إلى الزراعة يزداد بالتدريج ولكن باضطراد. وهكذا ازدادت في الثلاثين سنة الأخيرة مساحة الارض المزروعة بشكل كبير في العراق الجنوبي ، رغم أنه من غير الممكـــن
اعتبار أن الزراعة المحلية قد تجاوزت مرحلة تطورها الأولى ، فلكي ترتفـــع
إلى مستواها السابق الذي كانت عليه في عصر الكلدانيين قبل 2000 إلى 3000 سنة أو في عصر خلفاء بغداد في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ،
ينبغي أن يمر وقت غير قليل.

ويعود مستوى الزراعة الواطئ في العراق الجنوبي إلى أسباب كثيرة ،
يأتي في المقدمة منها تخريب شبكة قنوات الري والسدود التي تنظمها والتي كانت في العصور القديمة تغطي البلد كله وتنقل المياه إلى أبعد المناطق عن الأنهار في العراق الذي لم يكن بمقدوره الاستغناء عن الري الاصطناعي ، بسبب شحة مياه الأمطار. لقد وجهت الضربة الساحقة الأولـــى
لمنشآت الري في القرنين الثالث عشر والخامس عشر على يد المغول. ثم تخربت نهائياً بسبب الفتن وحوادث الشغب المتواصلة التي سادت في هذه المنطقة طيلة القرون الثلاثة التي استغرقها التنافس بين تركيا وفارس على امتلاك العراق الجنوبي من جهة ، ومن الجهة الأخرى النقص الدائم في الأموال لدي الحكومة المركزية مما يعيقها عن صرف مبالغ لا يستهان بها تتطلبها إعادة شبكة الري القديمة ولو جزئياً على الأقل. ولا تتمتع بالارواء الجيد في الوقت الحاضر من مساحة العراق الجنوبي الهائلة إلّا مناطق دلتا نهر ديالي التي ترويها قنوات الخالص وخراسان وبلدروز [(1)] ثم المناطق

(1) الواقع أن بلدروز هو إسم لمدينة أما النهر فإن اسمه الروز وتقع عليه المدينة المذكورة ـ المترجم.

المتآخمة للفرات والممتدة من الناصرية إلى سوق الشيوخ وأخيراً ضفاف شط العرب.

والعقبة المهمة الثانية التي تعيق ازدهار الزراعة في العراق الجنوبي هي قلة سكان المنطقة وما يؤدي إليه ذلك من قلة الأيدي العاملة فعلى الرغم من أن كثافة الكسان تبلغ في ولاية البصرة 2 ، 6 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد إذا اعتبرنا أن مساحتها تبلغ 000 ، 150 كم^2 وسكانها 959 ، 935 نسمة فإن نسبة المزارعين من ذلك ضئيلة جداً لأنه ينبغي أن نسقط من العدد الكلي أعداداً كبيرة من العرب الرحل وشبه الرحل إضافة إلى سكان المدن الكثيرين في عددهم أيضاً. وتشير إحصاءات (V. BERARD) [1] الخبير بالشؤون التركية إلى أن ثلث جميع سكان العراق الجنوبي الحضر وشبه الحضر أي عدا الرحل منهم ، يتألف من سكان المدن ونصفهم من مربي الماشية وسدسهم فقط من الزراع.

ومن العوامل الأخرى التي تعيق تطور الزراعة ، عدم كفاية رؤوس الأموال لدي الزراع وعدم وجود مؤسسات تمنح قروضاً صغيرة في العراق الجنوبي ورداءة طرق المواصلات وتأخر الفلاحين الذين يزرعون الأرض بطرق متأخرة وبأدوات بدائية جداً مثل جذع نخلة يقسمونه إلى نصفين ويستخدم بدلاًمن المعزقة ، وأخيراً فإن الشيء الرئيسي هو إن الوقت لم يحن بعد لانبعاث هذه المنطقة.

ويجري الري الاصطناعي المتبع في هذه المناطق بأساليب مختلفة تبعاً لطبيعة الأرض التي ترتفع تدريجياً بالتقدم من الخليج شمالاً. ولهذا فإن الحصول على الماء من النهر ليس متشابهاً في سهولته في كل المناطق.

---

(1) V. BERARD , Le Sultan et les Pusssances. Paris , 1907 , P. 396.

وبالإمكان تقسيم العراق الجنوبي من هذه الناحية إلى ثلاث مناطق تمتد المنطقة الأولى منها لمسافة لا تقل عن 90 كم إلى الشمال من البصرة أي إلى موقع المدينة على الفرات والعزير على دجلة وتكون هذه المنطقة في مستوى النهر ولذلك فإنها تروي تلقائياً بواسطة المد ، الذي يتكرر مرتين في اليوم فيرفع المياه في المنطقة الممتدة حتى البصرة إلى ارتفاع يتراوح بين المتر الواحد والثلاثة أمتار تبعاً للفصل الذي يجري فيه ، أما عند العزير فأن المياه ترتفع بمقدار خمسة وعشرين سنتمتراً. أما المنطقة الثانية فإنها تشمل القسم الأوسط من العراق [1] أي إنها تمتد حتى قناة شط الحي التي تأخذ مياهها من دجلة عند كوت الامارة. وتروى هذه المنطقة بواسطة الترع والسواقي التي تتفرع من النهر دون صعوبة تذكر نظراً لأن ارتفاع الأرض في هذه المنطقة غير كبير. وتمتد المنطقة الثالثة إلى الشمال من شط الحي وهي عالية إلى درجة بحيث لا يمكن فيها الحصول على المياه من النهر إلّا بواسطة الآلات التي تغرف المياه من النهر والتي تعرف باسم « الكرود » أو « الجرود » و « النواعير » [2].

وتنقسم الأراضي المزروعة في العراق الجنوبي تبعاً لأسلوب الري المتبع فيها إلى ما يأتي :

1 - « ماوي » أو « سكي » .. التي تروي بواسطة الترع والسواقي.

2 - « كردي » أو « جردي » .. التي تروي بواسطة آلات رفع المياه.

3 - « كبيس » أو « جبيس » .. التي تقع ضمن الأراضي التي تغمرها المياه.

---

(1) يقصد المؤلف هنا القسم الأوسط من العراق الجنوبي - المترجم.

(2) مجموعة التقارير القنصلية لسنة 1901 ، الاصدار الأول ص 4 ، 3.

4 - « الديم » التي تعتمد كلياً على الأمطار ولهذا فإنها نادراً ما تصادف في العراق [1] وتعتمد كمية الحاصل الزراعي اعتماداً مباشراً على نظام الري ففي أراضي الـ « ماوي » يكون متوسط كمية الحاصل عشرة للواحد بالنسبة للحنطة والشعير وعشرين للواحد بالنسبة للرز ، أما في أراضي « الكرود » فإن الشعير يكون عادة ثمانية للواحد في الوقت الذي يزداد فيه حاصل الحبوب جميعاً بمقدار أربع مرات في أراضي الـ « الكبيس ».

وبما أننا سبق أن تحدثنا عن المزورعات الشتوية والصيفية في الفصل الأول من كتابنا هذا فبأمكاننا أن ننتقل رأساً إلى الحديث عن الضرائب التي تفرض على الزراع مباشرة. ومن هذه الضرائب الـ « ويركي » و « العشر » أي ضريبة الأرض ضريبة العشر المفروضة على الحاصل ويستعاض عن الأولى في العراق الجنوبي بتعريفة موحدة مقدارها 50 قرشاً (4 روبلات) في السنة تفرض على كل خيمة أو كوخ من القصب (صريفة). ويعتمد مقدار ضريبة العشر التي تجبى في العراق الجنوبي بشكل مباشر على الطريقة التي تروى بواسطة السواقي « ماوي » 1 / 3 حاصل الأراضي التي تسقي سيحاً « كبيس » و 1 / 10 حاصل « الديم » و « الكرود » أي الأراضي التي تروى بواسطة الأمطار أو الآت رفع المياه ، وذلك لندرة الأمطار بالنسبة للأولى وكثرة تكاليف الصيانة بالنسبة للثانية وتجري جباية العشر في هذه المنطقة كما هي الحال في كل الامبراطورية العثمانية من قبل موظفي الحكومة مباشرة أو عن طريق إعطاء هذه الضريبة بالإلتزام لأشخاص معينين يشترط أن يكونوا من رعايا الدولة العثمانية ولهم ممتلكات غير منقولة لا تقل قيمتها عن نصف مبلغ الايجار. وتسهيلا

(1) لابد أن المؤلف يقصد هنا القسم الجنوبي من العراق الأن زراعة الديم واسعة الأنتشار كما هو معلوم في المناطق الشمالية من العراق ـ المترجم.

للملتـزمين تقسـم الأرض المزروعـة كلهـا فـي بعـض الأقضـية إلـى قطـع منفصـلة تعرف بإسم « مقطّع » ولا تكون متساوية في جميع المناطق لا من حيث العدد ولا من حيث المساحة وإنما تعتمد في ذلك على مدى امتداد قنوات الـري. ومقـدار مقيـاس الأرض نفسـه أي « الفـدان » لـيس ثابتـاً فـي كـل الأحـوال فهو يساوي 500 دونم في بعض الأماكن و 300 دونم أي 918 م [1] فقط في أماكن أخرى.

وعشر الحاصل إما أن يدفعه الملاكون مباشرة أو الفلاحون ، وتكون حصة الملاك في الحالة الأولى نصف المحصول في حين تكون حصته في الحالـة الثانيـة ربـع أو خمـس المحصـول فقـط. ولا تـدفع مكافـأة العمـال الزراعيين نقداً إلا في الاستثمارات التي تستخدم آلات رفع المياه.

وتعتبر زراعة النخيل فرعاً مهماً آخر من فروع الزراعة العراقية إلى جانب زراعة الحبوب بل إنها تحتل في بعض المناطق المكان الأول كما هي الحال بالنسبة لضفاف شط العرب مثلاً. والنخلة هي شجرة عربية أساساً لأن الملاحظ أن حدود المنطقة التي تنتشر فيها تتطابق مع حدود المنطقة التي يسكنها العرب وتتمتع النخلة عند العرب باحترام كبير فالمآثر تذكر إن الله عندما خلق الإنسان الأول أخذ التراب من تحت النخلة فهي بذلك تنتمي إلى نفس التراب الذي ينتمي إليه آدم ولهذا فإنها أخت جدنا المشترك وعمة لكل نسله.

ويمكن أن تنشأ مثل هذه الأسطورة بتأثير الدور المهم الذي تلعبه النخلة في اقتصاد العربي ، فكما ان الجمل يطمن المطاليب الأساسية للرحل يقدم « النخل » كل ما هو ضروري للفلاح. فإلى جانب التمر الذي يؤلف طعاماً مجانياً مغذياً يجد كل جزء من النخلة أيضاً استخداماً مفيداً له في

---

(1) المعروفم أن الدونم الواحد يساوي 2500 م - المترجم.

الأستثمارة الفلاحية ، فمن أوراقها المنقوعة بالماء تحاك الحصران والأطباق والمراوح والسلال والأكياس. ومن جذوعها تصنع العوارض أو تستخدم للحطب أو كمواسير للمجاري ومن سعفها تصنع الموائد والكراسي والأسرة وأقفاص الدواجن وكذلك زوارق مستديرة « كفف » تطلى من الخارج بالقار وتذكرنا في شكلها الخارجي بقشرة فارغة للبرتقالة مقسومة إلى نصفين. ومن ليف النخلة تصنع الحبال كما أن نوي التمر يسحق ويستخدم علفاً للماشية إذ انه يزيد من حليبها على ما يدعيه الأهالي ، وأخيراً فإن عصير التمر يتحول بعد أن يوضع في الشمس بضعة أيام إلى عصير حلو لزج يشبه العسل الأسود كثيراً ويستخدم بدلاً عن المربي [1].

وشجرة النخيل [2] (Phoenix Dactylifera) هي إما ذكر أو أنثى ويجري تكثيرها عن طريق فسائل تنمو في أساس الأنثى وتفصل عادة من جذر النخلة الأم بعد أن يبلغ عمرها ثلاث سنوات. والانثى هي وحدها التي تحمل الثمر أما الذكر فإن مهمته تقتصر على إخصاب الأنثى. وتجري عملية الاخصاب بشكل اصطناعي عادة في الفترة من نيسان إلى أيار عندما ينشق « الطلع » وهي عبارة عن أفراخ تشبه اللسان في شكلها تظهر في أعلى النخلة في بداية شباط تضمن في داخلها عذق التمر المقبل ، حيث يضع الفلاح في وسط عذق الأنثى بضعة فروع من عذق الذكر فتقوم هذه الفروع بإخصاب عذق الأنثى بواسطة الطلع الذي تسقط عليها. ولا تعطي النخلة الأنثى بدون هذه العملية إلا حشفاً خالياً من النوييميل طعمه إلى المرارة.

وعندما تحظى النخلة برعاية جيدة تبدأ بإعطاء الثمر في السنة الثالثة من عمرها. لكن عذوقها تقطع عادة في خلال السنتين الأولى من بدء

---

(1) يقصد الدبس ـ المترجم.

(2) مجموعة التقارير القنصلية لسنة 1902 ، الاصدار الخامس ص 359.

إعطائهـا للثمـر قبـل أن تنضـج وذلـك لكـي لا تنهـك النخلـة قبـل الأوان. وتعـــيش النخلة في الظروف الاعتيادية ما بين ثمانين وتسعين عاماً وتصل إلـى أوج ازدهارها في سن الخامسة عشر والسادسة عشرة حيث تعطي آنذاك ما بين 2 / 1 ، 1 إلى 2 / 1 ، 7 بود من التمر تبعاً لنوعية الأرض وغير ذلك من الظروف.

وينمو التمر علـى شـكل عناقيد منفردة تتدلي من أعلـى النخلـة وتأخذ بـالطور تـدريجياً إلـى أن تظهـر عليهـا فـي شـهر أيـار الثمـار الخضـراء التـي تعـــرف باسم « جمري » ثم تأخذ في الاصفرار في حزيران فتسمي فـي هذه الحالـة « خـلال » ثـم ينضـج الثمـرة فـي تمـوز أو فـي بدايـة آب فيطلـق عليـه إسـم « رطـب » وبعد أن ينضـج الثمر كلياً فـي نهايـة آب وبدايـة أيلـول يسـمى « تمراً ».

إن زراعة البساتين هي عمل طويل ودقيق وشـاق ولـهذا فـإن الأرض الخالية يتم إعطائها على شكل قطع منفردة إلى الفلاحين فيقوم هؤلاء بشق سـواقي الـري وزراعـة النخـل فيهـا أي إنهـم يحولـون الأرض الخاليـة إلـى بســـتان نخيـل. ويكافـأ الفـلاح علـى هـذا العمـل الصـعب بـأن يسـمح لـه بـأن يسـتغل إيـراد المزروعـات التـي يزرعهـا بـين فسـائل النخيـل لحسـابه لمـدة سـبعة سنوات. وبعد هذه المدة وعندما يبدأ النخل بإعطـاء الثمـر تتحـول الأرض التـي كانـت خاليـة فـي السـابق إلـى بسـتان نخيـل تعـود ملكيتـه إلـى صـاحب الأرض الذي يتفق مع الفلاح إمـا علـى أسـاس أن يـدفع لـه مبلغـاً محدداً عن كل نخلة زرعها وإما أن يملكه 4 / 1 أو 2 / 1 البستان بحيث ان كل إيـراد هـــذا الجزء يكون من حق الفلاح كلياً.

وتجبى ضريبة العشر المفروضة على بساتين النخيل بطـريقتين ، فـإذا ما كانت مسـاحة الأرض المعنيـة معلومـة يؤخذ من كل مسـاحة تـزرع فيهـا مائـة نخلـة وتسـاوي 16 / 1 ، 164 أو 3 سـاجن مربـع أي ممـا يسـمى بــ « الجريب »

مبلغ يتراوح ما بين أربعة روبلات وست وعشرين كبيكاً وإثني عشر روبلاً وثمانية وسبعين كبيكاً تبعاً لموقع البستان ونوعية التربة وغير ذلك من الظروف. وإلّا فإن كمية الحاصل يقدرها بواسطة النظر مخمنون خاصون يزورون البستان قبل نضج الثمر بقليل ثم يؤخذ من المالك تعهد خطي يتعهد فيه بأن يدفع للخزينة عند بيع الثمر مبلغاً يعادل قيمة خمس الحاصل على اساس أسعار السنة الماضية.

وتوجد في العراق الجنوبي جميع فروع الزراعة الأخرى كالبستنة وزراعة القطن وتربية دود القز ولكنها غير مزدهرة وخصوصاً زراعة القطن وتربية دود القز اللتان ليس لهما حتى الآن أي أهمية تجارية وتقتصر أهميتها على سد الاستهلاك المحلي المحدود جداً.

أما فيما يتعلق بحرف سكان العراق الجنوبي الأخرى فلا يجوز أن نتحدث عنها كثيراً ذلك أن الصناعة الضعيفة التطور التي تستخدم العمل اليدوي والأدوات البدائية جداً لا توجد إلّا في مدن قليلة في هذه المنطقة فمنتجات الصناعة المحلية تصنع بطريقة يدوية ويقتصر بيعها كلياً تقريباً على الاستهلاك الداخلي. وتتألف قائمة البضائع التي تنتج محلياً من المنسوجات الحريرية والقطنية من مختلف الأنواع والألوان والنقوش ، ومناديل الرأس والأحزمة والأحذية على اختلاف أنواعها وأخيراً الأواني النحاسية والفخارية من أبسط الأنواع ، الطرحات العربية التي هي بدون أكمام « عبا ». إن انعدام استخدام قوة البخار الرخيصة يجرد الصناعة من إمكانية منافسة منتجات غرب أوروبا التي تصنع بواسطة المكائن والتي تؤدي أكثر فأكثر إلى تقليص حجم استهلاك منتجات الصناعة المحلية.

الفصل الرّابع

لا يمكن توضيح الوضع الحالي للطوائف المسيحية الكثيرة العدد في العراق الجنوبي أو صلاحيات رؤسائها الروحيين وتبعينها للحماية الدينية للدول الأوروبية ثم علاقاتها فيما بينها وموقف الحكومة المركزية منها إلا بالارتباط مع الوضع العام للـ « رعية » المسيحية في الامبراطورية العثمانيـــة.

لذا فإننا سنبدأ الفصل الحالي ببحث هذه النقطة الأخيرة في تسلسلها التاريخي.

لقد أصبح السلاطين العثمانيون المتصرفين بمقدرات الكنيسة الشرقية منذ أن احتل محمد الثاني القسطنطينية والستولي على عرش الأباطرة البيزنطيين في 1453.

وقد وقعت على عاتق الفاتح مهمة صعبة هي إرساء العلاقات المقبلة منذ البداية بين المنتصرين والمندحرين الذين كانوا غريبين عن العثمانيين في اللغة والدين والعادات والتقاليد. وقد استند السلطان في هذا الأمر على تعاليم القرآن التي توصي بالإبقاء على الحياة ومنح الدينية لـ "أهل الكتاب" "أهل الكتاب" أي للذين عندهم كتاب مقدس من الشعوب المغلوبة ، والمحافظة على ممتلكاتهم شرط أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للحاكم المسلم ويدفعوا الجزية.

لقد عُين كيناديوس وكان قد انتخب بأمر من السلطان محمد الثاني

لمنصب العرش البطريقي ، الذي كان شاغراً منذ مدة طويلة ، وسيطاً بين « الرعية » المسيحية والسلطان فأصبح بذلك مسؤولاً عن اخوانه في الـــدين
وعن إخلاصهم للفاتح وعن دفعهم للـ « خراج » [1] أي ضريبة الرأس. لقد أغدق السلطان نعمه على البطريق الجديد وقدم له بيده العصا وألبسه الخاتم ، وبذلك يكون السلطان قد التزم بكل الطقوس التي كانت تتبع في مثل هذه الحالات في عهد الأباطرة البيزنطيين [2]. ورقي كناديوس في الوقت نفسه إلى باشا من ذوي الأطواغ الثلاث ، ومنح لقب « ملت باشي » أي رئيس طائفة وتسلم « براءت » وهي وثيقة سلطانية تفوضه حكم المسيحيين كافة دون رقيب تقريباً.

وقد أخضعت لصلاحية بطريق القسطنطينية بموجب هذه « البراءت »
التي أصبحت مثلاً جري الالتزام به بالنسبة لجميع البطارقة في المستقبل ، جميع الشؤون الكنسية ابتداءً من تعيين واقصاء الأساقفة وغيرهم من رجال الدين وانتهاءً بالدعاوي وشؤون الزواج والطلاق والارث وما أشبه. كما اعترف للبطريق فضلاً عن ذلك بالحق في إصدار القرارات في القضايا المدنية والجنائية التي لا يشترك فيها مسلمون والتي لا يتعدى العقاب فيها السجن أو النفي إلى الگاليرا ، علماً بأن الجهة التي تنفذ قرارات البطريق

---

(1) لواقع أن التسمية الأصلية لضريبة الرأس التي تؤخذ من غير المسلمين هي « الجزية » لكنها كانت تسمي في بعض الأحيان « خراجاً » أيضاً. وقد ألغيت الجزية في الدولة العثمانية في عام 1856 وحلت محلها ضريبة أخرى هي « بدل العسكرية » ـ المترجم.

(2) – F. Van den steen de jehay. De la Situation Legale des Sujets Ottomen non musulmans Bruxelles. 1906. P. 88.

هذه هي الحكومة نفسها. كذلك ألقيت على عاتق البطريق مهمة توزيع ضريبة الرأس بين أفراد الطائفة ذلك أن السلطات العثمانية كانت تقرر المبلغ الأجمالى لهذه الضريبة مسبقاً. هذا وأن حقوق وواجبات الأساقفة في أسقفياتهم والقسس في أبرشياتهم كانت تماثل ما ذكر أعلاه ولكن في حدود الرتبة التي يشغلها كل من رجال الدين هؤلاء [1].

ولم يكن فاتح القسطنطينية على علم بالمنازعات والاختلافات العقائدية التي كانت تفرق أتباع المسيح فأراد في البداية أن يخضع كل الرعية المسيحية دون تفريق في المذهب لزعامة البطريق اليوناني. وكان مطران الأرمن يواكيم أول من خرج على ذلك ، فقد أستطاع في أثناء وجوده مع محمد الثاني في بروصه أن يكسب وده وبعد أن انتقل مع الحاشية المختارة إلى القسطنطينية بعد أن تم الاستيلاء عليها دخل في حظوة السلطان نهائياً. وبذلك أستطاع رئيس « الرعية » الأرمنية أن يحصل لنفسه ، دون صعوبة تذكر ، على اعتراف بمساواته مع البطريق اليوناني فعين « ملت باشي » أو رئيساً لجميع المسيحين غير السلاف.

ولم تلبث الطائفة اليهودية التي وضعت مع المسيحيين تحت وصاية بطريق لأرمن ، أن تحررت من تلك الوصاية فحصل كبير الحاخامات موشي كابسالي من محمد الثاني لقب « حاخام باشي » ومنحت له على أفراد طائفتة نفس الحقوق التي كانت قد منحت لبطريقي اليونان والأرمن.

وهكذا تكونت في الامبر اطورية العثمانية حتى بداية ستينيات القرن الخامس عشر ثلاث طوائف تتمتع باستقلال ذاتي هي الأرثوذكسية والأرمنية واليهودية. وقد ساعدت الاستقلالية الذاتية التي تتمتع بها هذه

---

(1) Th. Lavallee. Histoire de la Turquie. Paris 1859. T. 1. p. 257.

الطوائف على تبسيط عمل الحكومة الإداري لدرجة كبيرة جداً وأدت إلى أن يبتعد الرعايا غير المسلمين أكثر فأكثر عن رعايا السلطان الذين يدينون بالاسلام ورسخت لدي الطوائف المسيحية المختلفة بدرجة تزيد عن المعتاد تعلقها بدينها ولغتها وعاداتها وأعرافها باعتبار أن هذه الأمور تشكل الأسس التي توحدها وتجعل منها شعوباً قائمة بذاتها.

لقد اتصلت أوروبا بمسلمي الشرق منذ الحروب الصليبية غير أن تلك العلاقات كانت بعيدة عن الطابع السلمي حيث اعتاد العالم المسيحي أن ينظر إلى المسلمين نظرته إلى أعدائه الألداء. ولم يتورع البابوات ملهمو حملة الصليب ، عن استخدام كل الوسائل المتوفرة لهم لتأجيج هذا الحقد ولم يترددوا حتى في أتخاذ إجراءات من أمثال منع أي علاقات تجارية مع المسلمين مهددين المخالفين بالحرمان من الكنيسة وبفرض غرامة عليهم تعادل قيمة كل البضائع التي صدروها إلى ديار الاسلام [1].

وقد شملت هذه النظرة بعد ذلك العثمانيين الذين حلوا على المسرح العالمي محل من كان قبلهم بلعب دور الشعوب الإسلامية علماً بأن الحقد على العدو الجديد ازداد أكثر بسبب الرعب الذي أثاره التزايد السريع والمتواصل للقوة العثمانية التي أخذت تهدد كمال واستقلال أوروبا نفسها. وقد ظل البابوات هنا أيضاً مخلصين لأنفسهم فما أن وصل خبر سقوط القسطنطنية إلى روما حتى أخذ شاغل عرش القديس بطرس البابا نيقولا [2] وخلفاؤه الأقربون كاليكتوس [3] وبيوس الثاني يدعون الدول الأوروبية

---

(1) P. Arminjon , Etrangers et Poteges dans I , Empire Ottoman , Paris 1903. T. 1.

(2) نيقولا الخامس ـ المترجم.

(3) كاليكتوس الرابع ـ المترجم.

بحماس إلى حملة صليبية جديدة ضد الأتراك. ولكن زمن الاثارة الدينية كان قد ولى فلم تؤد جهودهم لإيقاظ الحمية المسيحية المتراخية إلى النتائج المرجوة.

لكن المنع الذي فرضه بابوات روما على التجارة مع المسلمين ظل قائماً ، ولم يجرؤ على الخروج عليه وإقامة علاقات تجارية مع العثمانيين إلا الجنويون والبنادقة الذين كان استمرار التجارة مع الممتلكات البيزنطية السالبقة وعلى الأخص مع الشرق الادني الذيكانت الجمهوريتان كلتاهما تحتكران التجارة فيه في القرن الثاني عشر مسألة حيوية للغاية بالنسبة لهم. ولم تكن المعاهدات التي عقدوها مع السلطان محمد الثاني في 1454 - 1455 إلا إعادة للوضع الذيكان سائداً في السابق ، وباعتبار أن هذه المعاهدات ذات طابع تجاري بحت فإنها لم تضمن حتى ولو إشارة إلى الحماية الدينية.

ولا يصعب علينا ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كل ما ورد ذكره أعلاه أن نتصور أي أثر صاعق تركه على اوروبا الغربية وخصوصاً على البابا رئيسها الديني ، الحلف الدفاعي والهجومي الذي عقده الملك الفرنسي فرانسوا الأول مع السلطان سليمان الفخم [1] الذي لم يفعل فيهذه الحالة إلا أن قبل

(1) يطلق المؤرخون عدة ألقاب وصفات على السلطان سليمان منها سليمان العظيم وسليمان الفخم وسليمان المشرع أو القانوني بل حتى ان بعض المؤرخين الأتراك يطلقون عليه أسم سليمان الثاني على اعتبار ان سليمان الأول هو النبي سليمان بن داود ولاعتبارات أخرى أنظر : عبد العزيز محمد الشناوي؛ أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة 1969 ، ص 658 وكذلك الهامش رقم 1 في الصفحة نفسها ـ المترجم.

الاقتراح الذي قدمه له « الملك المسيحي جدا ».

وكان هذا الملك قد دخل في صراع غير متكافئ مع شارل الخامس الذي استطاع أن يوحد تحت سلطته نصف أوروبا تقريباً ، فخسر ، في 1525 معركة حاسمة في بافيا فأسره خصمه السعيد الحظ وألقاه في السجن. وعندما يأس السجين من خلاصه أسرع بإقامة علاقات سرية مع السلطان العثماني هادفاً إلى دفعه إلى الهجوم على ممتلكات شارل الخامس فيجذب بذلك انتباه عدوه إلى الشرق. وقد استجاب سليمان لدعوة فرانسوا الأول بسرور ذلك لأن شارل الخامس كان عدواً للدولة العثمانية هذا إذا لم نذكر أن توجه الملك المسيحي إليه طلباً للمساعدة كان يداعب غروره وينعش آماله في تبادل المساعدة في إخضاع أوروبا المقبل.

وعلى الرغم من السرية التامة التي جرت فيها المحادثات ورغم أن الملك الفرنسي الذي كان قد تخلص من الأسر كان يحرص على أن ينكر في كل فرصة ملائمة اتفاقه مع السلطان ، فإن الحقيقة لم تلبث أن انكشفت فأثار « حلف الزنبق المدنس مع الهلال » [1] كما أخذ يسميه خصوم فرانسوا السياسيون ، عاصفة شديدة من الغضب في أوروبا [2].

وكان شارل الخامس خصم فرنسوا الأول قد استولى في أثناء ذلك

(1) لقد أطلق البعض آنذاك على التحالف بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني هذه التسمية وهي ترجمة العبارة الفرنسية "L , Union Sacrilege du Lis et du Croissant" ولفظة Lis بالفرنسية اسم لزهرة الزنبق التي كانت تتخذ قديماً شعاراً لفرنسا. أنظر عبد العزيز الشناوي؛ المصدر السابق ص 727 وكذلك الهامش رقم 1 على الصفحة نفسها ـ المترجم.

(2) Th. Lavallee. Op. cit. T. 1. p. 306 FF.

على تونس من الأتراك في عام 1535 [1] فحرر خلال ذلك عدداً من الأسري المسيحين وطهّر البحر من القراصنة المسلمين [2]، الأمر الذي أعطى أوروبا كلها حجة لأن تهاجم بشكل أكثر ضراوة الملك فرانسوا الأولى لحلفه الشاذ مع عدو المسيحية.

تحت ضغط كل هذا الهجوم وهذه الاتهامات قرر حليف سليمان أن يزكي نفسه أمام العالم المسيحي ويتخذ دور المدافع عن المسيحيين في ممتلكات السلطان.

وهكذا استطاع المبعوث الرسمي للملك الفرنسي (Chevalier Jean de la Foret) في سنة 1535 نفسها أن يحصل من سليمان الفخم على أول وثيقة مكتوبة كانت فاتحة لما يسمى بالامتيازات. إن كبرياء وغطرسة السلاطين العثمانيين الذين كانوا آنذاك في أوج قوتهم لم تكن تسمح لهم بأن يربطوا أنفسهم بالتزامات ثنائية مع الكفار لذا فإن الوثيقة المذكورة لم تكن على شكل معاهدة وإنما عبارة عن مرسوم سلطاني منح فرنسا

---

(1) لم تكن تونس في 1535 قد خضعت للدولة العثمانية بعد ، وإنما كانت آنذاك مسرحاً للصراع بين العثمانيين والحفصيين والاسبان حتى استطاع العثمانيون تثبيت أقدامهم فيها عام 1574 ـ المترجم.

(2) لا يمكن أن يوصف النشاط البحري الذي كان العرب المسلمون في شمال افريقيا يمارسونه بالقرصنة بالمعني المألوف لهذه الكلمة في الوقت الحاضر ، ففضلاً عن أن القرصنة كانت آنذاك من أعمال البطولة التي يعتد بها وتثير الاعجاب فإن سكان شمال أفريقيا الذين كانوا ينظرون إلى نشاطهم هذا على أنه نوع من الجهاد لم يكونوا يهاجمون السفن الإسلامية ولا سفن الدول الصديقة بل يركزون هجماتهم على سفن الأعداء فقط ـ المترجم.

حقوقاً وأفضليات معينة في الامبراطورية العثمانية [1].

ومن هذه الحقوق :

1 ـ إقامة المحاكم القومية [2].

2 ـ حرية التجارة.

3 ـ حرية الدين وممارسة الشعائر الدينية على أن يشمل هذا الحق جميع رجال الدين يعتنقون المذهب « الفرنسي » مهما كانت القومية التي ينتمون إليها.

4 ـ حرية التجارة للأمم الأوروبية الأخرى ولكن تحت العلم الفرنسي فقط.

لقد أخذ الممثلون الدبلوماسيون والقناصل الفرنسيون في الدولة العثمانية يتوسعون بالتدريج أكثر فأكثر في تفسير البند الثالث من هذه الأمتيازات وهو البند الخاص بالحرية الدينية ويعطونه طابع الحماية الدينية وأصبحوا يتخذون مواقف رسمية أمام الباب العالي لصالح رعاياه الكاثوليك أو الوحدويين [3]. وقد كان لويس الرابع عشر مستعداً للعمل من أجل فصل من يدينون بمعتقده نهائياً عن الرعوية الثمانية غير أن هذه النظرة

---

(1) Th. Lavallee , op. cit. T. 1. p. 325.

(2) يقصد المؤلف بذلك إعفاء الرعايا الفرنسيين من الخضوع للقضاء العثماني وقصر خضوعهم على القضاء الفرنسي حيث تتم محاكمتهم في دور القنصليات الفرنسية ـ المترجم.

(3) الوحدويين تسمية يطلقها المؤلف على أتباع الكنائس المسيحية غير الكاثوليكية الذين يرضون بزعامة البابا الدينية ويدعون إلى الوحدة مع كنيسة روما ـ المترجم.

المتطرفة لم تصادف إسناداً ولا استحساناً من جانب سفراء الملك الذي كانوا يدركون جيداً بأن السلطان لن يتسامح أبداً تجاه مثل هذا الخرق الفاضح لسيادته. أما تدخل الدبلوماسية الفرنسية شبه الرسمي في العلاقات بين السلطان و « رعيته » الكاثوليكية فلم يكن يثير رداً عدائياً من جانب الأتراك بسبب من أن الباب العالى كان ينظر إلى سفراء فرنسا على أنهم ممثلون لدولة صديقة وحليفة.

أما فيما يتعلق باتخاذ الدول الأوروبية الأخرى دور المدافع عن الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية فقد كان على تلك الدول أن تهتم أولاً بتحرير نفسها من وصاية فرنسا. وذلك أمر استطاعت أنجلترا أن تحققه في 1581 وهولندا في 1612 والنمسا في 1615 عندما حصلت هذه الدول على الحق في أن تتاجر بحرية تحت علمها الخاص غير أنها لم تستطع مع ذلك أن تصل إلى درجة التساوي مع فرنسا في ما يتعلق بحقوق الحماية الدينية بسبب من أن الدولتين البروتستانتيتين أنجلترا وهولندا لم يكن لديهما من تحميانه في الدولة العثمانية نظراً لأنه لم يكن يوجد آنذاك بروتستانت بين رعايا السلطان المسيحين. أما النمسا وهي الدولة الكاتوليكية فرغم أنها احتفظت بحقها في حماية الكاثوليك. ورجال الدين الكاثوليك في جميع المعاهدات التي عقدتها مع الباب العإلى اعتباراً من معاهدة كارلوفتس في 1699 إلا أنها لم تتمكن من الاستفادة من هذه الحقوق لأنها كانت في حالة حرب لم تتوقف تقريباً مع الدولة العثمانية. إن روسيا التي أصبحت منذ زمن معاهدة كجك كينارجة في 1774 حامية الرعاية الأرثوذكس رسمياً هي وحدها التي استطاعت أن تحتل وضعاً مشابهاً لفرنسا في قضية الحماية الدينية خصوصاً بعد أن انشغلت فرنسا كلياً بالعثمانيين الكاثوليك.

وهكذا ظلت فرنسا الحامي الوحيد لرعايا السلطان الكاثوليك حتى مؤتمر باريس 1856 الذي طرحت فيه لأول مرة قضية تدخل الدول بصورة جماعية لصالح الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية ثم دخل هذا المبدأ في الممارسة الدولية نهائياً عن طريق مؤتمر برلين الذي ساوى بين الدول الكاثوليكية والبروتستانتية في حقوق الحماية الدينية ، فالمادة الثانية والستون من مقررات هذا المؤتمر تنتهي بالكلمات المهمة التالية :

« يعترف لوكلاء الدول الدبلوماسيين والقنصليين في الدولة العثمانية بحق حماية الشخصيات الدينية والرهبان والحجاج من جميع القوميات وكذلك المؤسسات الدينية والخيرية وغيرها في فلسطين وفي غيرها من الأماكن. »

صحيح أن المادة الثالثة والستين من معاهدة برلين تؤكد احتفاظ فرنسا بحقوقها السابقة في الحماية الكلية للكاثوليك من جميع الأمم الذين يعيشون في الدولة العثمانية لكن المانيا أخذت منذ 1892 تحاول أن تعطي لهذه المادة ، بمساعدة رجال القانون الأتراك ، تفسيراً محدوداً بمعنى عدم الاعتراف بالحماية الفرنسية للمؤسسات الكاثوليكية التي أنشأت بعد 1878 أي بعد مؤتمر برلين والتي لا تعود إلى رعايا فرنسا. وأخيراً حدث في 1901 بمناسبة الصدام الدموي الذي جرى في القدس بين رهبان يونانيين وكاثوليك من رعايا المانيا وايطاليا ، أن هب الممثلون القنصليون لهاتين الدولتين مدافعين عن مواطنيهم الأمر الذي أديإلى الاعتراف بحق المانيا وايطاليا في حماية رعاياهما الكاثوليك في الدولة العثمانية رسمياً بمرسوم سلطاني خاص. أما النمسا التي لم تكن حتى هذا الوقت لديها القدرة على منافسة فرنسا منافسة جدية في قضية الحماية الدينية للكاثوليك العثمانيين فقد استطاعت خلال القرن التاسع عشر أن تحقق نتائج باهرة في هذا

الشأن ، فقد وسعت حمايتها لتشمل كاثوليك البانيا في ولايات قوصوة يانينا وسكوتاري وكذلك في مقدونيا ، وقد اعترف بحق النمسا في هذه الحماية حتى من قبل (Congregatio de Propaganda Fide) [1] الذي اقترح في أمره الدوري في 1888 على القاصدين الرسوليين والأساقفة اللجوء في شؤون الكاثوليك الألبان إلى مساعدة القناصل الفرنسيين فقط في الأماكن التي يكون فيها النفوذ الفرنسي هو الراجح وإلى مساعدة الوكلاء النمساويين في جميع المناطق الأخرى [2].

وبعد أن أوضحنا الدور الكبير الذي وقع على عاتق فرنسا في مسألة الحماية الدينية دعونا نتتبع باختصار النشاط الديني ـ التنويري لهذه الدولة الذي أنتج ثماراً رائعة في العراق الجنوبي ، وذلك منذ اللحظة التي ظهر فيها المبشرون الكاثوليك في الدولة العثمانية.

لم يفقد بابوات روما حتى بعد انقسام نهائياً في 1054 [3] ، الأمل في إعادة « المنشقين الشرقيين » إلى حظيرتهم ولم يتخلوا ، إلى أن سقطت بيزنطة ، عن محاولاتهم لإعادة الوحدة الكنسية. وقد وقعت الكنيسة الشرقية منذ أن استبدل الصليب على كنيسة القديسة صوفيا بالهلال ، تحت سلطة اولئك الأتراك أنفسهم الذين كان البابوات يدعون ضدهم على

---

(1) مجمع انتشار الايمان ويسمى الان مجمع العقائد ـ المترجم.

(2) P. Arminjon. Op. cit. p. 317 FF.

(3) حول الانشقاق النهائي الذي حدث في هذه السنة بين كنيستي روما والقسطنطينية والعوامل التي أدت أليه أنظر : « عبدالقادر أحمد يوسف؛ الامبراطورية البيزنطية ، دار المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ، 1966 ، ص 128 - 133 »

الدوام. كذلك اعتاد العثمانيون من جانبهم على النظر إلى البابوات على أنهم أعداؤهم الألدّاء وذلك ما دفع السلاطين إلى اتخاذ إجراءات حازمة لحماية رعاياهم الجدد من المسيحيين من تأثير رئيس الكنيسة الغربية عليهم. ولهذا تحتم على البابا أن يتخلى عن الاتصال المباشر بالمسيحيين الشرقيين وينجه للبحث عن وسائل جديدة لجذبهم إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية ، وقد أفاد في هذا المجال بشكل خاص الحلف الذي عقده فرنسوا الأول مع السلطان سليمان الفخم والنفوذ الكبير الذي حصل عليه الملك الفرنسي في بلاط ذلك السلطان. ولم يكن على البابوات إلا أن يغمضوا عيونهم عن الحلف المدنس مع الكفار لكي يستطيع الملك أن يأخذ على عاتقه تمثيل وحماية المصالح البابوية لدي الباب العالي.

لقد تهيأت لروما بفضل هذا الوضع إمكانية أن تبدأ بتنظيم الدعاية الكاثوليكية بين رعايا الامبراطورية العثمانية المسيحيين تنظيماً صحيحاً. فلم تكن قد قامت قبل ذلك إلا محاولات فردية قام بها رهبان كاثوليك عالو الهمة كانوا يمارسون التبشير في الشرق الأدنى على مسؤوليتهم الخاصة. وبعد مضي أقل من خمسين سنة على منح السلطان لأول امتيازات لفرنسا وفي 1583 بالذات ظهر اليسوعيون وبعدهم مباشرة الكبوشيون في أقاليم الامبراطورية العثمانية بشكل رسمي (1).

ولم يكن البابا كريكوري الثاني عشر الذي بارك لهؤلاء المبشرين نشاطهم التبشيري ، ولا هم أنفسهم قد فكروا وهم يتوجهون إلى الدولة العثمانية بتحويل المسلمين عن دينهم لأنهم يعلمون جيداً بأن نشاطاً من هذا النوع يقترن بأخطار فائقة قد تصل إلى طردهم من الأراضي العثمانية.

P. Arminjon. Cit. p. 26. (1)

لذا فإن الهدف الوحيد لنشاط المبشرين الكاثوليك في ممتلكات السلطان كان المسيحيين الشرقيين.

ولم تلبث الدعاية الكاثوليكية بين هؤلاء أن أخذت تنجح بشكل ملحوظ وقد ساعد على ذلك كثيراً ظروف معينة كانت ملائمة لنشاط المبشرين ، فعندما ظهر هؤلاء في الدولة العثمانية كان قد مضى على السلاطين أكثر من مائة سنة وهم يمتلكون بيزنطة وقد استطاعوا خلال هذ المدة الطويلة أن يدرسوا العلاقات القائمة بين الكنيستين الشرقية والغربية دراسة جيدة إلى درجة بحيث أنهم لم يعودوا يخشون من أن يثور المسيحيون الشرقيون الخاضعون لهم بالاتحاد مع البابا وبمساعدة أوروبا الغربية. وبعد أن أطمأن الباب العإلى من هذه الناحية غير على الفور موقفه من رعاياه المسيحيين وزعمائهم الروحيين حيث لم يعد يرى أن من الضروري أن يجاملهم ، فلم يعد يترك مناسبة ملائمة تمر دون أن يشعرهم فيها بأن الامتيازات الممنوحة للمسيحيين لا تعدو كونها منة من السلطان وان السلطان بإمكانه أن يسحبها في أي وقت.

ولكي نزيح الستار قليلاً عن الوضع الذي كانت تعيشه « رعية » ارثوذكسية واحدة على الأقل تحت النير التركي نورد فقرة صغيرة مقتبسة من كتاب « تركيا في اوروبا » الفائق الأهمية حيث يصف مؤلفه الذي تخفى تحت اسم مستعار هو (Odysseus) وضع الكنيسة اليونانية آنذاك بالعبارات التالية : « لقد اعتاد الأتراك تعريض رجال الدين للأذي والاهانة بشكل مكشوف. فالبطارقة كانوا يعزلون ويستبدلون بكثرة قدر الامكان بهدف الحصول على أكثر ما يمكن من الهدايا الخاصة ، وقد أعدم ثلاثة منهم على الأقل ... ويكاد لا يثير الدهشة أن هذه الفترة تميزت بالتوجه الواسع نحو الاسلام. ومن السهل أن تفسر هذه الظاهرة بالظروف التعسة التي كانت

تعيشها الرعية والضرائب الزائدة عن الحد وعجز الكنيسة عن إبداء الحماية
... ويمكن اعتبار استمرار المسيحية بالوجود في ظل مثل هذه الظروف معجزة ... ».

ولهذا فليس هناك ما يدهش في أن تستجيب الرعية المسيحية التي كان يكتنفها الضنک عن طيب خاطر لدعوة المبشرين الذين كانوا يدعونهم إلى الانتقال إلى الكاثوليكية خصوصاً وأن الانتقال إلى كنيسة روما كان بالنسبة للمسيحيين الشرقيين يقترن بفوائد ملموسة تحدث على شكل حماية قوية من جانب الدبلوماسية الفرنسية التي كان تهتم بحرارة بمصير الذين يتحولون إلى المذهب الجديد وتدافع بشكل فعال عن مصالحهم أمام الحكومة العثمانية.

في ظل مثل هذه الظروف يمكن أن يعتبر نجاح الدعاية الكاثوليكية مضموناً ولا يبقى على المبشرين إلا أن يعينوا أساليب تحول « المنشقين » على نطاق واسع ، وقد ظهر في البداية أن اكثر هذه الأساليب تحقيقاً لذلک الهدف هو جذب رؤساء طوائف مسيحية منفردة على أمل أن تحذو حذوهم الرعية كلها ، غير أن مثل هذه الحسابات تبين أنها خاطئة لأن خضوع هذا البطريق أو الأسقف أو ذاک لروما كان ينظر إليه من قبل مساعديهم المباشرين على أنه التزام شخصي لا يلزم أحداً غير الشخص الذي التزم به ، لذا فقد تحتم اللجوء إلى أسلوب أقل بريقاً ولكنه أكثر فعالية ونعني تحويل اعضاء منفردين في الكنيسة الشرقية إلى المذهب الكاثوليكي فوجه المبشرون كل جهودهم نحو زيادة عدد المتحولين إلى الكاثوليكية إلى أقصي حد ممكن.

وقد وضع هؤلاء المتحولون الجدد تحت حماية الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين الفرنسيين فوراً فخرجوا بذلک من دائرة

اختصاص زعيمهم الروحي السابق البطريق أو الأسقف ولم يعودوا يخضعون له. وقد وقف رؤساء الطوائف المسيحية الشرقية من المبشرين موقفاً يتسم بالصبر طالما لم يتخذ الانتقال إلى الكاثوليكية طابعاً شاملاً ، ولكن ما ان أخذت صفوف رعيتهم تتقلص بشدة بسبب نجاح الدعاية حتي تغير موقف ممثلي الكنيسة الشرقية من خصومهم الغربيين بشدة.

وبعد أن قدر البطريقان اليوناني والأرمني وكذلك الأساقفة والقسس الخطر الذي يتهددهم من جانب المبشرين الكاثوليك حق قدره لجأوا إلى حماية الحكومة العثمانية ، وكانت الحكومة العثمانية هي نفسها قد أقلقها اتساع الدعاية الكاثوليكية في الامبراطورية بسبب زياده المكانة الروحية للبابا ، عدو الأتراك اللدود ، بين المسيحيين العثمانيين وتقلص إيرادات الخزينة العثمانية نتيجة لتوقف اليونان والأرمن الذين تحولوا إلى الكاثوليكية عن دفع « الخراج » أو ضريبة الرأس [1]. وقد دفعت هذه الاعتبارات العثمانيين إلى التخلي عن موقفهم السلبي من المبشرين الكاثوليك وإلى اتخاذ عدد من الاجراءات تقترب من الاضطهاد الحقيقي ضدهم وخصوصاً ضد الذين تحولوا إلى الكاثوليكية.

لقد بدأت ملاحقة المبشرين في 1605 عندما ألقي القبض بأمر من الصدر الأعظم على اليسوعيين الذين كانوا يعملون بنجاح بين يونانيي اسطنبول وألقوا في السجن ثم أخرجهم منه ولكن بصعوبة كبيرة البارون دي سوليناك السفير الفرنسي لدي الباب العالى آنذاك [2]. وقد تعرض اليسوعيون بعد ذلك للملاحقة أكثر من مرة وأغلقت مؤسساتهم الدينية

---

(1) P. Arminjon : op. cit. pp.27 - 28.

(2) Th. Lavallee. Op. cit. T. II. P. 56.

الخيرية ، ولم يكن من النادر أن تحول الكنائس إلى مساجد غير أن جميع إجراءات الحكومة هذه لم يكن لها بالنسبة للمبشرين الأجانب عواقب وخيمة كما كانت بالنسبة لمن حولوهم إلى معتقدهم من الرعايا العثمانيين.

وقد قام باضطهاد هؤلاء الرعايا الذين تحولوا إلى المعتقد الجديد شركاؤهم في العقيدة الذين وجدوا في ذلك مسائدة فعالة وإسناداً حاراً من جانب السلطات التركية. فالباب العالى لم يكن يعترف للطائفة الأرمنية ـ الكاثوليكية ولا لأي طائفة أخرى من الوحدويين بالوجود المستقل بل أن هذه الطوائف كلها اعتبرت خاضعة لبطريق الأرمن الكريكوريين باعتباره الرئيس الرسمي لجميع المسيحيين من غير الأرثوذكس. وطبيعي تماماً أن يتخذ هذا الأخير كل ما يمكنه من إجراءات من أجل أن يعيد أفراد طائفته الذين تحولوا إلى الكاثوليكية إلى عقيدتهم السابقة. وكانت غيرة بطريق الأرمن المفرطة من جهة وتعصب المتحولين إلى الكاثوليكية من جهة أخري تؤدي في بعض الأحيان إلى مصادمات دموية بين الجانبيين كان الحق فيها في نظر العثمانيين دوماً إلى جانب البطريق باعتباره السلطة التي تعترف بها الحكومة.

ولم تكن مسؤولية المبشرين أنفسهم في هذا الاضطهاد بأقل من ذلك ، وهذا أمر يؤكده السفير الفرنسي في اسطنبول آنذاك المركيز (De Bonnac) الذي يصور في رسالة أرسلها على وزير الخارجية الفرنسي في 1724 الجانب السلبي للدعاية التبشيرية على النحو التالى [1] : « أعترف بأن قضية توحيد اليونان والأرمن العظيمة والمقدسة لا تجري كما ينبغي وبأن الكثير من أولئك الذين يشتغلون بهذه القضية ليست لديهم لا الموهبة

(1) D , Avril. Documents relatifes aux Englises de Rorient. Paris 1862. p. 136 FF.

ولا المعرفة الكافية باللغات وبأن جميعهم تقريباً يأتون إلى الشرق الأدني بقناعات مسبقة ليست قومية وإنما طائفية بحتة أيضاً وذلك أمر خطر عند التعامل مع منشقي الشرق الأدني ، إن القضية هنا هي ليست قضية الاستيلاء على حصن الخصم. من الضروري أن ننظر إلى اليونان والأرمن نظرتنا إلى الحلفاء السابقين الذين انقطعوا عنا وانعزلوا في جيش منفرد ... هناك فرق كبير بين التوحيد عن طريق الخضوع الاختياري لرئيس اكنيسة المعنية وبين ابتلاع روما للوحدويين ابتلاعاً تاماً ، فإذا كان بالإمكان الاكتفاء بالأول فلماذا السعي إلى الثاني الذي يقلق العقل ويثيره؟ ».

« يجب على البابا أن يحرص على أن تحتفظ الكنيستان اليونانية والأرمنية بعد أن تعترفا بزعامته بتدرج الوظائف الخاص بهما وبأن تبقى لدي هيأتيهما الكهنوتيتين السلطة التي كانتا تتمتعان بها قبل انشقاق فوتية ... وسيكون من المرغوب فيه التقرب من أفراد هاتين الهيئتين إلى الحد الذي يمكن من الحصول على ثقتهم أو على أقل تقدير دفعهم إلى الاعتقاد بصدق نوايانا عند ذلك سيبدأون بالنظر بهدوء إلى تنويرنا لرعيتهم وإلى اشمئزاز هذه الأخيرة من الضلال الذي سيكون وعيهم له أكثر كلما كانوا واثقين من أن أحداً لن يتطاول على دائرة اختصاصهم » ...

ويختتم المركيز (De Bonnac) رسالته بالقول : « أما عن جانب الطقوس فإن على المبشرين أن لا يتكلموا أو يكتبوا ضد صيام أو طقوس الأرمن واليونان وإنما على العكس يجب دفع حتى اولئك الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية إلى الالتزام بطقوسهم وصياماتهم السابقة لكي لا يختلفوا في شيء عن أبناء جلدتهم الذين ظلوا مخلصين لكنيستهم. ربما كان ذلك هو الأكثر أهمية ».

إن هذه الرغبات التي أبداها السفير الفرنسي هي عبارة عن تلخيص

لكل ما قيل وكتب قبله بشان إصلاح وضع الدعاية الكاثوليكية في الشرق. وكان البابوات أنفسهم ، وهم ذوو مصلحة قوية في اتساع وترسيخ مكانتهم الروحية بين المسيحيين الشرقيين ، قد أقلقتهم وأثارت خشيتهم بوادر العداء الأول تجاه المبشرين بقادروا ابتداء من 1669 إلى إصدار عـــــــــــــــــــــــــــــــــدد كبير من الرسائل والمراسيم منعوا فيها الرهبان الكاثوليک من جذب الوحدويين إلى الكنيسة اللاتينية.

وكانت (Vongregatio de Propaganda Fide) التي أنشأها البابا كريكوري الخامس عشر في 1622 خصيصاً لإدارة شؤون المبشرين الكاثوليک ولتوجيه نشاطهم تسعي دون كلل للتخفيف من تزمت وتعصب مندوبيها تجاه المسيحيين الشرقيين. وانطلاقاً من اهتمامها الدائب للقضاء على كل حجة مهما كانت صغيرة للصدام وسوء التفاهم بين هؤلاء وأولئک أصدرت في 1645 مرسوماً يحدد العلاقات بين المبشرين والوحدويين الذين لهم سلكهم الكهنوتي الخاص بهم بالنقاط الأربع التالية.

1 ـ في المناطق التي يوجد فيها أكثر من سلک كهنوتي واحد تنتمي إلى مذاهب مختلفة يكون لكل منها سلطة على اتباع مذهبه فقط ويجب عليه أن لا يسمح لغيره ولا يقوم هو بنفسه باستمالة اتباع مذهب آخر إلى طائفته.

2 ـ للمبشرين الموجودين في المناطق المذكورة الحق في أن تشمل سلطتهم الوحدويين الذين هم ليسوا من اتباع مسلک وحدوي معين.

3 ـ ينبغي على المبشرين الذين يجذبون المسيحيين الشرقيين إلى الوحدة أن لا يحولوهم إلى الكاثوليكية بل على العكس هم ملزمون بأن يقنعوهم بأن يبقوا في طائفتهم السابقة وأن يستمروا على الخضوع للسلک الكهنوتي الخاص بهم.

4 ـ يجب على المبشرين أن يساندوا ويساعدوا الأساقفة الوحدويين دون أن يمسوا سلطتهم بأيّ شكل من الأشكال. وعلى هؤلاء الأخيرين بدورهم أن لا يتدخلوا في نشاط المبشرين ويعيقوهم عن تأدية واجباتهم دون اتصال مسبق بروما.

ومع ذلك ظهر أن كل هذه الإجراءات غير كافية لتسوية العلاقات بين المبشرين والكنائس الشرقية ولتوجيه نشاطهم وجهة محددة أو لإقامة السلام الذي كان تعصب الكاثوليك يهدده باستمرار. ولهذا السبب تحتم على البابوات وعلى مجمع انتشار الايمان أن يذكروا المبشرين أكثر من مرة بالمراسيم والأوامر السابقة وأن يتوجهوا إلى الوحدويين الشرقيين بالنصح والموعظة محاولين استرضائهم. وقد كانت ضرورة مثل هذه التذكير قائمة حتى خلال القرن التاسع عشر الأمر الذي اضطر الباب بيوس التاسع الذي كان مهتماً جداً بقضية التبشير إلى أن يؤكد في 1848 في رسالة خاصة بدأها بعبارة : "In Subreme Petri" (1) ضرورة عدم المساس بالطقوس الخاصة التي سمح بها أسلافه في كنائس الوحدويين الشرقية على الرغم من اختلافها الظاهر عن الطقوس الكاثوليكية (2). كذلك رأى هذا البابا نفسه في عام 1862 ضرورة أن يكرر بأن البابوات لم يلحوا في يوم من الأيام على تحويل الوحدويين إلى الكاثوليكية وإنما على العكس كانوا لا يتركون فرصة مناسبة تمر دون أن يطلبوا منهم الالتزام بدقة بطقوسهم وأوضاعهم السابقة.

وكان بيوس التاسع مهتماً بأن تتخذ قضية جذب المسيحيين

---

(1) باسم العرش البطرسي ـ المترجم.
(2) D , Avril

الشرقيين إلى الوحدة تنظيماً أكثر ملائمة فأسس لهذا الغرض في 1862 قسماً خاصاً في مجمع انتشار الايمان تنحصر مهمته في إدارة العلاقات مع الكنيسة الشرقية. ويضم هذا القسم الذي سمي مجمع انتشار الايمان للأديان الشرقية بين أعضائه بالإضافة إلى الكرادلة وغيرهم من الشخصيات الدينية مستشارين علمانيين من الأشخاص الذين يلمون بلغات وقوانين وأعراف وعادات الشرق.

وتدل البيانات البابوية المتكررة حول منح الوحدويين حرية دينية واسعة على أن المسيحيين الشرقيين تمسكوا بقوة بتقاليدهم الكنيسة وطقوسهم الدينية واللغة التي يؤدون بها الخدمة الدينية إلى درجة بحيث تحتم على البابوات أن يتساهلوا في أكثر القضايا المتعلقة بالطقوس والمناسک جوهرية لا لشيء إلا لكي يدفعوهم إلى الاعتراف بالزعامة الدينية للبابا والانضمام ولو ظاهرياً فقط إلى الكنيسة الغربية.

إن كل ما ذكر أعلاه حول نشاط المبشرين الكاثوليک في الدولة العثمانية ينطبق أيضاً على الدعوة للكاثوليكية في العراق الجنوبي ولهذا لم يبق علينا ، من أجل ان نتم رسم الصورة ، إلّا أن نضيف التفصيلات التي تخص المبشرين في العراق بالذات.

كان رهبان فرقة (Carmes Dechausses)[1] الذين وصلوا إلى البصرة في 1623 من مدينة اسيكان الفارسية التي كان لهم إرسالية دينية هم أول من ظهر دعاة الكاثوليكية في العراق. وقد بنوا بعد سنتين من هذا التاريخ وبترخيص من باشا البصرة وبالنقود التي جمعوها من تبرعات الجالية الأوروبية مصلي صغيراً ألحقت به صوامع الرهبان.

(1) الكرمليون الحفاة ـ المترجم.

وكان قد حل في البصرة في الوقت نفسه تقريباً رهبان برتغاليون من فرقة الأوغسطينين يحمل كبيرهم لقب « نائب رئيس أساقفة غوا » (في الهند البرتغالية). ولم تلبث أن قامت بين هاتين الفرقتين الكاثوليكيتين منافسة شديدة تحولت بسرعة إلى عدواة مكشوفة بلغت بشهادة الرحالة الايطالي (Pietro della valle) الذي زار البصرة في 1625 إلى حد أن الأوغسطينيين كانوا يهددون كل كاثوليكي يجرؤ على التقرب من الكرمليين بالحرمان من الكنيسة [1].

لم يتدخل باشوات البصرة في هذه الخلافات التي نشبت بين الرهبان المسيحيين وكانوا يتصرفون بنفس الدرجة من التساهل تجاه البرتغاليين والفرنسيين على السواء ذلك أنهم محتاجون لمساعدة الأسطول البرتغالي في صراعهم مع الفرس من جهة ومن الجهة الأخرى لم يكن بمقدورهم أن يمنعوا الفرنسيين خوفاً من أن تهب الدبلوماسية الفرنسية للدفاع عنهم. وقد انتهي الصراع بين الأوغسطينيين والكرمليين بانتصار الأخيرين الذين لا يزالون موجودين في البصرة حتى اليوم في الوقت الذي انمحت فيه حتى ذكري الأوغسطينيين في البصرة فتحتم عليهم أن يتركوا المدينة بعد أن لم يعد في مقدورهم مواصلة الصراع مع الفرقة التي تنافسهم.

لقد ترسخ وضع الكرمليين في البصرة بمرور الزمن ولكن تحتم عليهم أن يتعرضوا إلى كثير من المضايقات والمصاعب من جانب الحكام المحليين الأتراك الذين لم يكن موقفهم من الرهبان الكاثوليك يتميز بالعطف كما كان الحال عند اول ظهورهم. ورأت الحكومة الفرنسية ، من

---

(1) Delle Valle. Voyages dans Turquie I , Egypte. La Palestine etc. Rouen 1745 T. p. 35. VIII

أجل أن تحمي الكرمليين في البصرة من ملاحقة الباشوات المحليين ، أن تعين في 1679 رئيس بعثة الكرمليين قنصلاً فرنسياً في البصرة بغض النظر عن القومية التي ينتمي لها وذلك استجابة لنصيحة سفيرها في اسطنبول الماركيز (De Nointel). وقد بلغ عدد هؤلاء القناصل الرهبان حتى 1869 الذي حل محلهم فيها أول قنصل علماني في عاصمة العراق الجنوبي ، أحد عشر قنصلاً.

ولقد ضمنت الحصانة التي يؤمنها منصب القنصل للكرمليين حياة هادئة نسبياً فواصلوا نشاطهم حتى دون الحصول على اعتراف رسمي بإرساليتهم من الباب العالي ، هذا الاعتراف الذي لم يصدر على شكل مرسوم سلطاني إلا في1711.

ومع ذلك لم يكن لنشاط الكرمليين مردود كبير قبل أن تغادر المنطقة فرقة الكبوشيين التي تنافسهم في العراق الجنوبي والتي كانت قد افتتحت إرسالية لها في بغداد منذ 1628 وقبل أن يحتل الكرمليون أنفسهم مكانها بعد أن نقلوا مركز نشاطهم إلى عاصمة الخلافة الكبيرة في عام 1721.

وقد أثارت دعاية الكرمليين الناجحة بين أرمن بغداد بعد أربع عشرة سنة من استقرارهم في بغداد وفي 1735 بالذات ، أخوان الأرمن في العقيدة فصبوا على من تحول منهم جام غضبهم بعد أن دفعوا السلطات العثمانية إلى غلق كنيسة الكرمليين واعتقال رئيس بعثتهم (PERRE BAILLET) ، الذي لم يطلق سراحه إلّا بعد دفع فدية لا يستهان بها فأسرع بالعودة إلى فرنسا حيث أقنع الحكومة بتعيينه قنصلاً لفرنسا في بغداد وذلك على غرار ما حل للكرمليين في البصرة. وقد عاد (PERE BAILLET) إلى بغداد في عام 1741 متقلداً المنصب الجديد فاستطاع بذلك أن يأمن من استمرار ملاحقته من قبل السلطات العثمانية. لكن ذلك لا ينطبق على الذين تحولوا

إلى مذهبه من مسيحيي بغداد الذين تحتم عليهم أن يتعرضوا في 1744 و 1749 إلى اضطهادات أخرى سببها لهم رجال الذين الأرمن.

ظل رؤساء الكرمليين في بغداد يشغلون منصب قناصل فرنسا هناك حتي سنة 1781 التي ارتؤي فيها تعيين قناصل علمانيين لأن أكثر ملائمة لمصالح فرنسا السياسية والتجارية. ومع ذلك فقد ظل لإرساليه الكرمليين في بغداد الحق في رفع العلم الفرنسي على بناية الدير في كل المناسبات التي يجري الاحتفال بها.

ويتمتع الكرمليون بامتيازات أخرى نخص بالذكر منها السماح لهم بأن يكون عندهم في الأديرة ترجمان واحد ومدعٍ عام واحد في كل مدينة وذلك على غرار ما للبعثات الكاثوليكية في بقية أنحاء الدولة العثمانية. وتكمن واجبات الأول من الناحية الاسمية في الاتصال مع السلطات المحلية. أما الثاني فإنه يقوم بدور رجل الاقتصاد والكاتب العدل والمحامي في آن واحد. ولكن الوظيفتان كانتا في واقع الامر مجرد منصبين بلا عمل يقلدان للأهالي الأغنياء وذوي النفوذ الذين يبحثون عن الحماية الاجنبية ، ذلك ان ترجمان الدير ومدعيه العام كانا يعتبران من ضمن الأشخاص الذين تكون الدولة الحامية للدير مسؤولة عنهم ، كما ان هذه الحصانة كانت تشمل عوائل هاذين الشخصين بل إنها كانت تنتقل بالوراثة إلى أن أصدر الباب العالي ، بالاتفاق مع الدول الأوروبية ، قانوناً في 1863 أصبح الأشخاص الذين يتولوّن هاذين المنصبين بموجبه يتمتعون بالحماية خلال الفترة التي يكونون فيها في الوظيفة فقط ولا تشمل هذه الحماية إلّا أشخاصهم فقط. ومن الامتيازات الأخرى التي تتمتع بها إرسالية الكرمليين والباقية من الأزمنة السابقة وأعطاها قانون 1865 صفة شرعية هي حق البعثة في أن تستورد من الخارج البضائع التالية دون ضرائب كمركية :

اللوازم والحاجيات الكنسية المستخدمة للخدمة الدينية.

جميع الأشياء اللازمة لحياه الدير اليومية ولمؤسساته التعليمية والخيرية كالمدارس ومستوصفات العلاج وملاجئ العجزة وما أشبه ذلك على أن لا تتعدى قيمتها 4000 قرش (ما يقرب من 320 روبلاً) في السنة لكل راهب وراهبة.

وبانتقالنا إلى الحديث عن مؤسسات الكرمليين التعليمية والخيرية في العراق الجنوبي لا بد أن نلاحظ مسبقاً بأن البعثات الدينية الأجنبية لا يحق لها بموجب القوانيين العثمانية أعادة بناء أبنية الكنائس والأديرة القائمة دون تأخذ موافقة خاصة من الحكومة في كل مرة. أما افتتاح مؤسسات جديدة فإنه محاط بشكليات أكثر ولا يمكن أن يتم إلّا بموجب فرمان سلطاني خاص يصدر بناء على توصية من وزير العدل الذي يعتبر الرئيس المباشر للدائرة المختصة بشؤون الأديان الأجنبية [1] والحصول على مثل هذا الفرمان هو في الكثير من الحالات ليس صعباً فحسب وإنما مستحيل أيضاً ولهذا فإن الكثير من مؤسسات الكرمليين تمارس نشاطها في العراق بشكل سري ودون ترخيص رسمي من السلطات المحلية.

وتوجد مؤسسات الكرمليين الرئيسية في بغداد حيث تقوم إما في بنايات الأديرة الواسعة أو في بيوت خاصة تبرع بها أهل الخير. ويمكن ترتيب هذه المؤسسات بحسب تاريخ افتتاحها على النحو التالي.

1 ـ مدراسة للأولاد تأسست منذ عام 1742 وقد وسعت بنايتها مؤخراً بحيث أصبحت تتسع بسهولة لأكثر من خمسمائة صبي.

1 ـ ملجأ للأيتام الذين فقدوا أبويهم افتتح في 1891.

CH>MORAWITZ : OP. CIT. P. 160. (1)

مأوي للشيوخ تأسس من التبرعات الخيرية في 1893.

مستوصف لإبداء الاسعاف الطبي لسكان بغداد الفقراء من جميع المذاهب المسيحية افتتح في 1895.

أما المؤسسات التربوية والخيرية النسائية في بغداد فتديرها راهبات من فرقة [1] (DE LA PRESENTATION DE TOURS) ، التي جاءت إلى العراق لأول مرة في 1880.

وتوجد تحت إشراف هؤلاء الراهبات المؤسسات التالية.

مدرسة للبنات تأسست في 1824 كان يقوم بالتدريس فيها أول الأمر معلمات من الأهالي لكنهن لم يبررن الأمال التي عقدت عليهن لذا فقد تحتم استبدالهن براهبات استقدمن من فرنسا. وحالة هذه المدرسة في الوقت الحاضر مزدهرة يشهد على ذلك عدد طالباتها الذي ازداد في بداية القرن الحالي فوصل إلى 460 طالبة.

مدرسة داخليه للأحداث افتتحت في 1886.

مشغل للتفصيل والخياطة يتبعه قسم لخياطة البياضات افتتح في 1886 ايضاً.

دار للحضانة تأسست في 1886.

ملجأ للأيتام تأسس في 1890.

أخذت البصرة التي أوت الكرمليين عند أول مجيئهم تفقد أهميتها السابقة بالنسبة لرهبان هذه الفرقة بمقدار ما كانت إرساليتهم في بغداد تزداد نمواً وتبعاً لذلك فقد كان على الكرمليين في البصرة أن يقلصوا تدريجياً من دائرة نشاطاتهم بحيث لم يبق لهم في تلك المدينة في بداية

---

(1) تقدمة تور ـ المترجم.

القـرن الحــالي إلّا مدرسـة واحـدة لـلأولاد وأخـري للبنــات يـديرها سـوياً شخص واحد من الكرمليين ومعه بضعة معلمين ومعلمات من الأجانب. غير اننا ينبغي أن نذكر أن النشاط التثقيفي للكرمليين في البصرة انتعش مــــــــــــــــــرة أخري مع مجيئ الراهبات الفرنسيات إلى البصرة حيث عملن هناك لفترة قصيرة في 1899. وللكرمليين في ولاية البصرة بالإضافة إلى مدينة البصـــــــــــــــــرة مدرسة أخرى للأولاد في العمارة افتتحت في 1884 حيث يرسل إلى هناك سنوياً وبالدور راهب من البعثة الموجودة في بغداد. وقد ألحق بهذه المدرسة في 1899 قسم للبنات وكان في النية إنشاء ملجأ للأيتام يتعلمون فيه الحرف المختلفة.

وقد حدد المرسوم الذي أصدره مجمع انتشار الإيمان في عام 1645 والذي سبق لنا ذكره وكذلك التوضيحات الأخيرة التي أصدرها البابوات مجالات نشاط الكرمليين والهيئات الكهنوتية الخاصة بالوحدويين في العراق الجنوبي بشكل دقيق. وعلى هذا الأساس تشمل سلطة الكرمليين المباشرة جماعة غير كثيرة العدد تتألف من المسيحيين المحليين الذين تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي وكذلك من الأشخاص الذين ينتمون إلى (لاتين ملتي). وتقصد المصطلحات التركية الرسمية بهذا الاسم أو بـ « اللاتيني » كما يذكر اختصاراً أحفاد أولئك التجار البنادقة الجنويين والامالفيين الذين استقروا في القرنين التاسع والعاشر بأعداد كبيرة في الشرق الأدني وفي المدن المتاخمة للبحر بما فيها القسطنطينية نفسها. وقد ازداد تدفق هؤلاء بفضل الاجراءات التشجيعية التي اتخذها الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا يمنحون الجمهوريات الايطالية المذكورة أفضليات خاصة وذلك لرغبتهم في التحالف معها والاستفادة من مسائدتها. ثم جاء أخيراً فرسان الحملة الصليبية الرابعة الذين استعاضوا عن تحرير فلسطين

من أيدي الكفار [1] بالاستيلاء على القسطنطينية فأسسوا فيها في 1204 أمبراطورية لاتينية وساعدوا بذلك كثيراً على زيادة عدد اللاتين الذين استوطنوا بيزنطة.

لقد رفض السلاطين الذين استولوا على الامبراطورية الاغريقية أن يعترفوا لجميع هؤلاء اللاتين بجنسيتهم الأجنبية وأخضعوهم مثل بقية المسيحيين غير الارثوذكس لسلطة البطريق الأرمني. وعندما اتخذت فرنسا دور حامي « أتباع الدين الفرنجي » في الامبراطورية العثمانية استطاع جـــــــــــــــــزء من اللاتين الانضواء تحت حمايتها في حين ظلت الأغلبية خاضعة كالسابق لرجال الدين الأرمن حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما أخذت الطوائف المختلفة بما فيها الطائفة اللاتينية تعمل من أجل الأستقلال.

وقد اعترف السلطان محمود الثاني بفرمان خاص أصدره في 1836 بوجود « لاتين ملتي » أي الطائفة اللاتينية وأخضعها في أول الأمر لإدارة « ناظر » وهو موظف مدني من الادارة العثمانية ، ثم لم يلبث أن تأسس بعـــــــــــــــــد ذلك « الديوان اللاتيني العثماني » ، الذي كان يتبع وزارة الخارجية ومهمته

---

(1) هكذا كان الصليبيون يسمون المسلمين ، وكان البابوات يذكون فيهم روح التعصب الديني ويدعونهم « لتحرير » الأراضي المقدسة ، علماً بأن الحملات الصليبية ما هي في الواقع إلّا مشاريع استيطان غربية في الوطن العربي تكمن خلفها وتحركها دوافع اقتصادية وسياسية ، لكن العرب استطاعوا في النهاية أن يقبروا هذه المشاريع المترجم.

هذه إلى (لكن) في جملة المترجم الاخيرة من المضحكات التي تشير إلى السخرية ونحن نري حال الامة في فلسطين وغيرها وحال حكامها الذين سوّدوا صفحات التاريخ. حميد الدراجي.

تقتصر على إدارة شؤون اللاتين فاستبدل « الناظر » بـ « مدير الديوان » ، الذي يعرف في الحياة العامة باسم « قنصل اللاتين » غير أن ذلك لا يعني انه يتمتع بنفس الحقوق ويضطلع بنفس الواجبات التي يتمتع ويضطلع بها القناصل الأجانب. إن مدير الديوان اللاتيني هو من حيث الوضع الرسمي الذي يشغله موظف عثماني يعتمده وزير الخارجية ولكنه لا يتسلم راتباً من الباب العالي بل يكتفي بالضرائب التي يجبيها بموجب تعرفه خاصة يفرضها مقابل أي عمل يقوم به أو أي وثيقة يصدرها أو يصادق عليها. أما واجباته باعتباره مديراً للاتين ، فإنها تكمن في إصدار الوثائق وتسجيل الوصايا الدينية وإصدار البطاقات الشخصية وشهادات الحياة ... إلخ وهو يقوم بالإضافة إلى ذلك بمهمة حاك الصلح أي يكون وسيطاً للحكم في الدعاوي التي تقوم بين أفراد الطائفة اللاتينية [1]. وقد أخرجت القضايا المتعلقة بالزواج كافة من دائرة اختصاص مدير الديوان اللاتيني كلياً وأنيطت برجال الدين المختلفين حسب المكان الذي تقوم به القضية المعنية.

ومن رجال الدين هؤلاء في اسطنبول وكيل البطريق الرسولي ، والقاصد الرسولي للعقائد الشرقية الذي يعتبر وكيلاً لبطريق اللاتين ، وقد أقر منصب هذا الأخير عندما احتل الصليبيون عاصمة بيزنطية في 1204 وانتهي من الناحية العملية مع سقوط الأمبراطورية اللاتينية في 1261 ومع ذلك ظل البابوات يعينون في هذا المنصب بطارقة كانوا في بداية الأمر يأتون إلى جزيرة كريت ثم أخذوا وبعد ذلك يبقون في روما دون أن يغادروا لكنهم كانوا في الحالتين يعينون وكلاء لهم في القسطنطينية من بين

---

(1) F. VAN STEEN DE JEHAY : OP. CIT. P. 320 FF.

رجال الدين الكاثوليك. واعتباراً من 1772 اضطلع مجمع انتشار الايمان بتعيين هؤلاء المساعدين فجرد بذلك بطارقة القسطنطينية الكاثوليك حتى من صلاحيتهم الأخيرة هذه.

وتعود السلطة الدينية على « لاتين ملتي » في تركيا الأوروبية إلى رئيس أساقفة اسكوب ومطران سكوتاري بالإضافة إلى وكيل القاصد الرسولي في اسطنبول الذي أشرنا إليه. أما في آسيا فقد استحدثت المناصب التالية لهذا الغرض :

1 - النائب الرسولي لمدينة حلب والمبعوث الرسولي في سوريا ومقره منذ 1890 في بيروت.

2 - بطريق القدس.

3 - مطران سميرنا.

4 - رئيس أساقفة بابل الذي يتبع روما مباشرة.

ويعتبر رئيس أساقفة بابل في الوقت نفسه قاصداً رسولياً للمسيحيين الشرقيين في ما بين النهرين وكردستان وآسيا الصغرى ويخضع له جميع المبشرين الكاثوليك الذين يعيشون في العراق الجنوبي ، وتدين رئاسة أسقفيه بابل نفسها بوجودها إلى حمية الفرنسية (Madam Gue Bagnols) التي أوصت في 1632 بمبلغ قدره 000 ، 60 ليفر [1] فرنسي يخصص لإنشاء كرسي الأسقفية في بابل ووضعت لذلك شرطاً واحداً فقط هو أن يشغل هذا الكرسي على الدوام شخص فرنسي يختاره مجمع انتشار الإيمان ، لقد اعتبرت بابل آنذاك غير بعيدة عن بغداد في موقعها فأصبحت هذه الأخيرة

---

(1) الليفر عملة فرنسية كانت متداولة في فرنسا سابقاً قيمتها أقل من الفرنك بقليل - المترجم.

مقراً لرئيس الأساقفة.

ولم يكن الباب العالي يعترف بهذا الأسقف شأنه في ذلك شأن بقية الوكلاء الرسوليين ، كممثل للبابا ولذا فإن الحكومة العثمانية كانت ترفض بشكل قطعي منحه « البراءت » التي تعطيه الحق في الاتصال المباشر بالسلطات العثمانية بخصوص تمثيل وحماية مصالح البابا. ولهذا فإن رئيس أساقفة بابل والقاصد الرسولي إلى مسيحي ما بين النهرين وكردستان وآسيا الصغرى ليس في مقدوره الاتصال بالولاة المحليين أو بالسلطات العثمانية الأخرى إلّا عن طريق القنصل الفرنسي في بغداد.

ويعتبر رئيس أساقفة بابل نظراً لكونه رسولياً ، وسيطاً بين الباب وبين طوائف الوحدويين في العراق الجنوبي ونعني طائفة الكلدان وطائفة السريان الكاثوليك وطائفة الأرمن الكاثوليك وطائفة الملكيين وسنحاول في السطور التالية أن نعرض باختصار لتاريخ ظهور كل من هذه الطوائف.

النساطرة والكلدان

إن النساطرة [1] يعتبرهم الكثير من الأثنو غرافيين أحفاداً لسكان آشـــور القدماء يطلقون على أنفسهم اسم « سورايا » أي السوريين لذا فإنهم لم يسموا نساطرة إلّا لأنهم من أتباع بطريق القسطنطينية المارق نسطور. لقد

REV. G. P. BADGER. THE NESTORIANS AND THEIR RITUALS.) (1) (LONDON 1852VOL. IL. CHAP. XL. :

سوفوني ، أسقف تركستان وطشقند ، حياة اليعاقبة والنساطرة المعاصرة وطقوسهم سانت بطرسبورغ 1876؛

(REV.E.L.CUTTS.CHISTIANS UNDER THE CRESCENTIN ASIA.)

جاء نسطور هذا في أوائل القرن الخامس بآراء مفادها أن مريم العذراء ليست أماً للإله وإنماهي أمّ للمسيح الإنسان ذلك أن الذي ولدته ليس إنساناً إلهاً ، وإنما يشتمل على طبيعة الهية فقط وبكلمة أخرى فإن مريم المقدسة قد ولدت المسيح البشر الذي يحلّ فيه الإله كما يحل في الهيكل.

وقد انبرى لفضح هذه التعاليم الكاذبة بحماس بطريق الاسكندرية كيريل ، كما أدينت في المؤتمر الديني الثالث الذي انعقد في أفيسوس عام 431 ، لكن الهرطقة استطاعت مع ذلك أن تجد لها أنصاراً كثيرين بين المسيحين الشرقيين. لقد كانت مدارس الرها ونصيبين وجنديسابور في خوزستان هي المصادر الرئيسية لتعاليم نسطور. ولم تلبث النسطورية أن أصبحت المذهب السائد بين المسيحين القاطنين في فارس ، وقد حدث انفصال الكنيسة السنطورية عن الكنيسة العالمية نهائياً في 496 وذلك بفضل الجهود التي بذلها باوي أو بابي الذي كان في ذلك الوقت أسقفاً لطيسفون وسلوقيا. لقد أسرع باوي بدعوة مؤتمر نسطوري في أوديسا [1] ، وقد وضع المؤتمر تنظيماً مستقلاً للكنيسة النسطورية ولسلكها الكهنوتي وطقوسها وعقائدها وأصبح باوي نفسه أول بطريق لها.

وقد ازدهرت الكنيسة الجديدة بسرعة وبشكل ملحوظ فكان المبشرون النساطرة في القرنين يتوجولون في أقسام آسيا الصغرى ووصلوا إلى الهند وشبه جزيرة العرب وكذلك إلى جزيرتي سيلان وسوقطرة بل وإلى الصين البعيدة كما تدل على ذلك الآثار التي وجدت هناك [2]. وقد بلغت النسطورية أوج ازدهارها فيعهد الخلفاء العباسيين وذلك بعد أن

---

(1) أوديسا هي مدينة الرها المشهورة وتسمى حالياً أوروفة ـ المترجم.

(2) A. H. LAYARD. NINEVEH AND ITS REMAINS. VOL 1 LONDON PP. 243 244.

نقل الكرسي البطريقي في بداية القرن الثامن من طيسفون إلى بغداد فاستطاع النساطرة أن يؤمنوا لأنفسهم حماية الخلفاء بل والحصول على وظائف عليا في بلاط العباسيين وفي مدن الأقاليم على السواء أيضاً.

لقد وجه اقتحام المغول لما بين النهرين في القرن الثالث عشر أول ضربة قاسية للدعة التي كان يعيش فيها النساطرة ثم جاء غزو تيمور لنك الذي تبع ذلك في أواسط القرن الرابع عشر [1] فأكمل تدمير الكنيسة النسطورية الذي كان قد بدأه أحفاد جنكيز خان. فقد أبيد القسم الأغلب من النساطرة ولم يتمكن إلّا بقايا قليلة منهم من إنقاذ أنفسهم بالجوء إلى قلاع جبال كردستان الصعبة المنال واستمروا مختبئين هناك إلى أن احتل السلطان العثماني سليم الأول ما بين النهرين في 1515 [2] فواتت الجرأة بعضهم على مغادرة ملاجئهم الجبلية والاستقرار في سهول ما بين النهرين وفي فارس المجاورة لها.

وظلت الصلة الدينية بين نساطرة الجبال والسهول تتمثل بالإضافة

(1) لم يتخذ تيمور لنك لقب أمير ويبدأ بالحكم بمفرده إلّا بعد أن انتصر على منافسية في 1370. وبعد سلسلة من الحروب شنها ضد خان الأورطة الذهبية في 1373 - 1374 و 1389 و 1391 و 1394 - 1395 استطاع أن يحطم الأورطة الذهبية ويستولي على عاصمتها سراي بركة. وفي 1398 غزا الهند واستولى على دلهي. وفي 1400 بدأ صراعه مع السلطان العثماني بايزيد الأول فاستطاع أن ينتصر عليه وبإسره في معركة أنقرة. لقد مات تيمور لنك في نهاية 1404 فانقطعت بذلك حملة كان قد سيرها إلى الصين ـ المترجم.

(2) يقصد المؤلف هنا الجزء الشمالى من العراق الذي استولي عليه السلطان العثماني سليم الأول بعد أن انتصر على الصفويين في معركة جالديران الشهيرة التي وقعت في عام 1514 ـ المترجم.

إلـى المعتقـدات الدينيـة الواحـدة بـالرئيس الـديني الواحـد وهـو البطريـق أو المار شمعون كما اعتاد النساطرة على تسميته احتراماً. وكـان هـذا فـي أول الأمر ينتخب من قبل اجتمـاع عـام يضـم الأسـاقفة النسـاطرة لكن حدث في 1450 أن عين البطريق آنذاك أحد أقاربه خلفاً لـه وقـرر رغبـة منـه فـي أن تظـل الأفضـليات التـي يتمتـع فيهـا البطريـق فـي أسـرته ، أن يجـري اختيـار رئيس الكنيسـة النسـطورية مـن الآن فصـاعداً مـن بـين أقربائـه المقـربين. وهكـذا أصبحت السلطة البطريقية محصورة في أسرة واحدة وتنتقل عـادة مـن العـم إلى أكبر أبناء الأخ على أن يكون الأخير ملتزماً بقواعد العزوبـة والأمتنـاع عن اللحم. وقد ظلت قرية كوجانيس التي تبعد عن جولـة ميرك مسافة 13 فرسناً مقراً للبطريق.

ظل الوفاق قائماً بين نسـاطرة الجبـال والسـهول إلـى سنة 1552 التـي حـدث فيهـا فجـأة انشـقاق قسـم النسـاطرة إلـى فـريقين متعـاديين. لقد حـدث هذا الانشـقاق بمناسـبة اختيـار خلـف للبطريـق شمعون الخـامس الـذي تـوفي في 1551 ، فقد اختار القسم الأغلب من الشـعب شمعونالسـادس ـ بـارمـام ، ابـن الأخ الوحيـد للبطريـق المتـوفي وذلـك حسـب العـرف المتبـع ، لكـن نساطرة السهول قـرروا ـ بتـأثير الـدومنيكان الـذين كـانوا يقومـون بدعايـة واسـعة فـي صـفوفهم ان يتخلـوا عـن مبـدأ تعاقـب المنصـب البطريقـي فـي عائلـة واحـدة فـاجتمعوا فـي الموصـل وانتخبـوا شخصـاً اسـمه ايفـان سـولاقا لمنصـب البطريق. ولم يكن هذا وهو يعتمد علـى الأقليـة ليأمل بـالنصـر علـى منافسـة لذا فإنه قرر أن يلجأ إلى البابا طلباً للمسائدة.

توجه سولاقا إلى روما فارتسمه البابـا يوليوس الثالث بطريقا بعد أن أعلن عند إقدامه اعتنافه للمذهب الكاثوليكي ـ الرومـاني (1) ، ومنح لقب

(1) (van den Steen de Jehav. Op. cit. p. 229)

بطريق ما بين النهرين وعاد إلى الوطن يرافقه الكثير من رجال الدين الكاثوليك الذين درسوا اللغة السريانية خصيصاً لأغراض النشاط التبشيري.

وأصبح النساطرة الوحدويون أي اولئك الذين تخلوا عن هرطقة نسطور واعترفوا بزعامة البابا يعرفون منذ ذلك الوقت تقريباً باسم الكلدان وهو الاسم الذي كان قد أطلقه عليهم لأول مرة البابا يوجينيوس السادس في المرسوم البابوي الصادر في 1445 بمناسبة انضمام أحد أساقفة قبرص النساطرة إلى كنيسة روما.

لقد ظل خلفاء سولاقا الأقربون على ولائهم لروما لكن العلاقات مع هذه الأخيرة أخذت تضعف منذ أن انتقل البطريق الكلداني شمعون السابع دنخا إلى اقليم أروميا الفارسي ، إلى ان أنقطعت نهائياً في 1670. وقد عاد خلفاء دنخا المباشرون إلى النسطورية ، ومنهم بالذات تبدأ سلسلة البطارقة النساطرة الموجودين حالياً في كوجانيس بالقرب من جوله ميرك.

وبعد أن اقتنع المبشرون الكاثوليك بأنه لم يعد بإمكانهم الاعتماد على خلفاء سولاقا اتجهوا إلى أحفاد شمعون السادس ـ بارمام الذين كانوا قد اختاروا القوش الواقعة بالقرب من الموصل لتكون مقراً لهم. وكان هؤلاء بتأثير المبشرين على استعداد لأن يعتبروا الوحدة مع روما بمثابة الضمان لقوميتهم واستقلالهم إلى أن برهنت الحقائق العكس. فعندما أبدى أحد الخلفاء بارمام وهو البطريق مار إيليا الثامن في رسالة له بعثها إلى مجمع انتشار الإيمان استعداده للاتحاد مع كنيسة روما الكاثوليكية شرط أن تبقي العقائد النسطورية دون تغيير وشرط أن يسمح له بأداء الخدمة الدينية علناً في روما رفضت مطالبه هذه. وقد فتح ذلك أعين النساطرة على نوايا مجمع الانتشار الإيمان الحقيقية فتحول البطريق الذي أسيء إليه بهذا الشكل إلى خصم لدود للتقارب مع روما.

وهكذا تخلي عن الوحدة مع روما في الوقت نفسه تقريباً كل من خلفاء سولاقا وبارمام على السواء. لذا تحتم على البابوات أن يكفروا جدياً بقضية إعادة نفوذهم بين النساطرة وقد استغل أنوكنتيوس الحادي عشر لهذا الغرض حقيقة أنه لا تزال توجد في ديار بكر وآمد جماعة صغيرة من الكلدان فأسس في 1681 كرسياً جديداً لبطريق كلداني في ديار بكر وعين فيه أحد رؤساء الأساقفة النساطرة من مدينة آمد كان قد تحول حديثاً إلى الكاثوليكية واسمه مار يوسف الذي اتخذ لنفسه لقب يوسف الأول.

وكانت هذه الخطوة ناجحة بحيث أن الدعاية الكاثوليكية بين النساطرة بدأت مرة أخرى تنجح تدريجياً وباضطراد. فقد انضم مار حنا وأغلبية نساطرة الموصل إلى كنيسة روما الكاثوليكية في 1776 وفي مقابل ذلك عين البابا مار حنا مطراناً للموصل في أول الأمر ثم بطريقاً لها بعد ذلك. وبهذا أصبح لدي الكلدان بطريقان هما بطريق ديار بكر السابق وبطريق الموصل الجديد ، ولم تنته هذه الازدواجية إلّا بعد وفاة بطريق ديار بكر يوسف السادس واعتراف البابا بيوس الثامن في 1830 بمار حنا رئيساً أوحد للكنيسة الكلدانية ومنحه لقب بطريق بابل ، وكانت بغداد هي المقر الرسمي لبطريق بابل لكن البطارقة كانوا يعيشون عادة في مدينة الموصل [(1)].

وكان مجمع انتشار الإيمان يسعى من أجل أن يكون له تأثير في أختيار البطارقة فاستغل لذلك حقيقة أن رجال الدين الكلدان في 1841 لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق نهائي بشأن الشخص الذي يخلف بطريقهم الذي كان قد توفي لتوه فعمد إلى إلغاء التقليد القديم الذي كان متبعاً حتى ذلك الوقت وهو تعاقب منصب البطريق في أسرة واحدة وعين في

(F. VAN DEN STEEN DE JEHAV. OP. CIT. P. 231) (1)

المنصب الشاغر المطران زائيو (عيسايو) من خسروي في فارس وكان هـــذا
قد تربى على يد مجمع انتشار الإيمان. وقد تخلى هذا البطريق عن منصبه في 1858 بسبب خلافه مع البابا بيوس التاسع واختير بدلاً منه في العام الثاني مار يوسف أودو الذي التزم بتعليمات روما بشأن مراعاة عزوية رجال الدين الكلدان ، الأمر الذي زاد من خضوع الكنيسة الكلدانية للبابا.

أما عن الوضع الرسمي للكلدان في الامبراطورية العثمانية فإنهم كـــانوا
في أول الأمر مثل بقية المسيحيين من غير الارثوذكس تحت سلطة رجال الدين الأرمن. ونتيجة للجهود التي بذلتها السفارة الفرنسية في اسطنبول اعترف في 1843 باستقلال الكنيسة الكلدانية وحصلت من الباب العالي على فرمان خاص بذلك. غير ان الكلدان بادروا في السنة التالية أي في 1844 من تلقاء أنفسهم فعقدوا مع بطريق الأرمن الكاثوليك اتفاقية خاصة أناطت به مسألة الوساطة في الاتصالات التي تجري مع الحكومة العثمانية. لكن السنوات الأخيرة شهدت رغبات عكسية بالاستقلال لدي الكلدان فرأي بطريق بابل بأن من الضروري تعيين نائب له في اسطنبول للاهتمام بالقضايا التي تتعلق بالباب العالى وتأسيس مجلس إداري يتألف من ستة أشخاص في اسطنبول أيضاً.

إن حقوق وامتيازات الطائفة الكلدانية التي اعترف بها بفرمان ســـلطاني
خاص مماثلة في خطواتها العامة لتلك التي تتمتع بها « الملل » المسيحية الأخرى وهي تعطي بطريق الكلدان سلطة مطلقة على جميع الشؤون الكنيسة والقضايا التي تتعلق بإدارة الكنيسة وكذلك في القضايا المتعلقة بالزواج.

وكان وضع الرعايا الأتراك من النساطرة غير المنضمين إلى روما يتميز بضمان أقل تجاه عسف الأكراد بالمقارنه مع النساطرة الوحدويين أي

الكلدان ، تؤكد ذلك الشهرة السيئة التي تمتع الأمير الكردي بدرخان بيك الذي ارتكب في 1843 و 1846 ضد النساطرة مذبحة رهيبة بحيث أباد قبيلتين من قبائلهم هما تياري وتخوما [1] ، إبادة تامة تقريباً. صحيح أن الحكومة العثمانية أرسلت حملة تأديبية ضد بدرخان لكن ذلك لم يحسن وضع النساطرة الذين لا يزالون حتى الان تابعين للأمراء تبعية تامة فيدفعون لهذا الرئيس أو ذاك من رؤساء القبائل الكردية أتاوات مقابل أمنهم الشخصي ولكن ذلك لا ينقذ قراهم من غارات ونهب الأمراء الآخرين المعادين للشخص الذي يحميهم.

ولم يكن وضع النساطرة أفضل من ذلك في مسألة الدفاع عن مصالح شعبهم أمام الباب العالي ، فلم يعترف حتى الآن للطائفة النسطورية بالاستقلال ولذا فإنها تخضع لسلطة بطريق الأرمن لأنها غير سلافية وذلك على الرغم من ان هذا الخضوع هو إسمي فقط ولا يعيق رئيس الكنيسة النسطورية عن الاتصال المباشر بمتصرف منطقة جولة ميرك التي يقع فيها مقر البطريقية. في ظل مثل هذه الظروف تكون فرص النساطرة في تحقيق مطامحهم العادلة قليلة جداً وذلك لتعذر أن يكون لهم ممثل خاص بهم يدافع عن النسطورية في اسطنبول هذا إذا لم نذكر افتقارهم للحماية الأجنبية التي يتمتع بها الكلدان متمثلة بالسفير الفرنسي لدي الباب العالي والقناصل الفرنسيين في بغداد والموصل [2].

---

(1) (REV. G. P. BADGER. OP. CIT. VOL. L. PP. 270FF.)

(2) لقد افتتح فرع للقنصلية الفرنسية في الموصل في1843 خصيصاً لحماية طائفة الكلدان التي كان عددها في ذلك الوقت قد ازداد أكثر من المألوف في المدينة المذكورة.

يـورد [1] (comte f san steen de jehay) فـي أحصـائية أرقامـاً تعبـر عـن النسـبة العدديـة للنسـاطرة والكلـدان فـي الامبراطوريـة العثمانيـة علـى النحـو التـالي : هنـاك 75000 مـن الوحـدويين أي الكلـدان مقابـل 100000 مـن الذين لم ينضموا إلى روما. أما إحصائيات مجمع انتشار الإيمـان فتشير إلـى أن عدد الكلدان في الدولة العثمانية بلـغ فـي 1901 (2925) شخصـاً مـنهم 1600 في بغداد والبصرة معاً.

اليعاقبة والسريان الكاثوليك.

يرتبط اليعاقبة بالنساطرة ارتباطاً مباشراً وهم وإياهم من مصدر واحد ولكنهم من أتباع مروق ديني آخر يعرف بالمنوفستية ذلـك ان أرشمندريت القسطنطينية يـوتيخس سقط وهو يسـعي لـدحض حجـج نسـطور فـي تطـرف آخر وأخذ يدعو إلى القول بأن الطبيعة الإلهية فـي عيسـي المسيح قد تغلبت تماماً على الطبيعة البشرية.

وقـد أدينـت هـذه التعـاليم فـي 451 فـي مـؤتمر خلقـدونيا لكـن ذلـك لـم يعق هذا المروق أن ينتشر بشدة وأن تبقـي حتـى الوقـت الحاضـر متمـثلاً فـي الكنيسة اليعقوبية والقبطية والأرمنية. وإذا توخينا الدقة فإن اليعاقبة وكـذلك الأرمـن لا يعتبـرون أنفسـهم مـن أتبـاع يـوتيخس الـذي يعتبرونـه كـافراً وإنمـا يتبعون تفسيرات تلميذه دايسكورس بطريـق الاسـكندرية الـذي يقـول بوجـود طبيعتـين فـي المسـيح ولكنهمـا منـدمجتان لدرجـة شـديدة بحيـث أصـبحتا بمثابة الطبيعة الواحدة.

لقد جاء اسم اليعاقبة من اسم آخر أساقفة الرها (أورفا حالياً) يعقوب

---

(1) في الصفحات 30 - 31 - 235 - 237 من كتابه.

De la sitation IEAAIE DES SUJETS OTTAMANS NON MUSULMANS)
(

برداي زنزل الذي كان داعية متحمساً للمنوفستية في القرن السادس وحقق نجاحاً كبيراً بين نساطرة ما بين النهرين ، ولذا فإنه يعتبر المؤسس الحقيقي للكنيسة اليعقوبية وهو أول رئيس مستقل لها. وقد اختار خلفاء برداي مدينة انطاكيا واعتباراً من القرن الخامس عشر نقل رئيس الكنيسة اليعقوبية
مقره إلى دير يقع بالقرب من ماردين هو ديري ـ زفيران ولكن بطارقتهم ظلوا محتفظين بلقبهم السابق.

لقد ظل اليغاقبة ، باعتبارهم مسيحيين غير أرثوذكس ، حتى الفترة الأخيرة تحت سلطة البطريق الأرمني ولم تحرروا منها إلّا عندما حصل بطريق اليعاقبة بلروس في 1873 على اعتراف الباب العإلى به كـ « ملت

باشي » مستقل ، غير ان ذلك لم يصادف استحساناً من جانب جزء كبير من
رعيته وظل هذا الجزء يعتبر نفسه تحت وصاية بطريق الأرمن إلى 1883 عندما حصل الانفصال النهائي للكنيسة اليعقوبية.

إن الحقوق والامتيازات التي اعترف بها الباب العإلى « للسريان قديم »
أي السريان القدماء وهو الاسم الذي يطلق عليهم في الوثائق العثمانية الرسمية مشابهة لتلك التي منحت للطوائف المسيحية الأخرى وهي
تتعلق بالاستقلال في إدارة الشؤون المتعلقة بالزواج وما ينجم عنه من التزامات عائلية. ويمثل بطريق اليعاقبة في اسطنبول وكيل عنه ومجلس إداري دنيوي وذلك الدفاع عن مصالح كنيستهم وإدارة شؤون العلاقات مع الباب العالي.

ولم يكن اليعاقبة ، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم النساطرة ، بمنأي عن
الدعاية الكاثوليكية ، لكن هذه الدعاية لم تفض ، على الرغم من أن نشاط المبشرين استمر بينهم عدة قرون ، إلى نتائج ملموسة إلّا منذ وقت غير بعيد
نسبياً. لقد ظل عدد « السريان الوحدويين » أي السريان الكاثوليك وهو

الاسم الذي أصبح يطلق على اليعاقبة الذين انضموا إلى كنيسة روما الكاثوليكية ، غير كبير وباءت بالفشل جميع جهود مجمع انتشار الإيمان في إيجاد ميل راسخ إلى روما بين الطائفة المسيحية المذكورة.

في 1783 شعر بطريق اليعاقبة الطاعن في السن كريكوري الثالث بقرب نهايته فألح على رجال الدين المجتمعين حوله وهو على فراش الموت بأن يختاروا رئيس أساقفة حلب ميخائيل جزوة خلفاً له. وكان هذا قد قبل في حظيرة الكاثوليكية قبل ذلك ببضعة سنوات ، وقد سارع بالتوجه إلى روما بعد أن اختير بطريقاً لليعاقبة تحت اسم أغناطيوس الرابع طالباً المصادفة على اختياره. وما أن عرفت طائفة اليعاقبة بذلك حتى رفضت أغلبيتها الاعتراف بصنيعة البابا واختارت متا أسقف مدينة الموصل بطريقاً لها. ورأي الباب العالى من جانبه عدم إمكانية الاعتراف بأغناطيوس الرابع وصادق على اختيار الأغلبية. وقد تحتم على من اختاره الحزب الكاثوليكي أن يهرب إلى لبنان حيث استقر في دير الشرفة الذي أسسه بنفسه والذي أصبح لبعض الوقت مقراً لبطارقة السريان والكاثوليك. ولم يعد هؤلاء البطارقة إلى ماردين قبل 1853. وقد غيروا مقرهم خلال هذه الفترة عدة مرات.

لم يعترف الباب العالى بالانشقاق الذي حصل بين اليعاقبة إلّا في 1830 حين أقرت الحكومة العثمانية بإلحاح من السفير الفرنسي في اسطنبول بطريق السريان الكاثوليك كـ « ملت باشي » أي رئيساً لطائفة مستقلة ومنحته نفس الحقوق التي يتمتع بها بطارقة اليعاقبة تقريباً. وفي 1845 عقد السريان الكاثوليك بشأن تمثيل وحماية مصالحهم في اسطنبول. لكن هذا الاتفاق انهار مؤخراً ولبطريق السريان الكاثوليك الآن وكيل خاص لدي الباب العالي.

وينتخب رئيس السريان الوحدويين في اجتماع عام للأساقفة لكنه لا يباشر اختصاصاته إلّا بعد أن يصادق على اختياره البابا الذي يمنحه بالإضافة إلى ذلك لقب بطريق انطاكيا ، ويلزم المنتخب الجديد خلال ذلك بأن يوقع على رمز الإيمان الذي وضعه في 1642 البابا أوربان الثامن خصيصاً للمسيحيين الشرقيين وعلى وثيقة خاصة تؤكد طاعته للعرش المقدس. أما من حيث التدرج الكهنوتي فإن بطريق السريان الكاثوليك تابع للقاصد الرسولي في حلب ولمجمع انتشار الإيمان.

إن اليعاقبة والسريان الكاثوليك منتشرون في جميع ما بين النهرين وفي الكثير من مدن سوريا ولكن مراكزهم الرئيسية هي حلب وماردين والموصل ودمشق وحمص وحماة وديار بكر. ويصل عدد الجماعة الأولى أي اليعاقبة الصرف في الدولة العثمانية إلى 000 ، 100 نسمة. أما الجماعة الثانية فعددها غير معروف حتى ولو بشكل تقريبي وتشير إحصائيات مختلف الكتاب إلى أنه يتراوح ما بين 30 إلى 50 ألف. وقد كان عدد السريان الكاثوليك بموجب إحصائيات مجمع انتشار الإيمان في عام 1898 (700 ، 22) نسمة تقلص في سنة 1901 إلى 050 ، 18 نسمة علماً بأن نصيب ولاية البصرة منهم 200 ، 1 شخص في الحالة الأولى و 600 شخص فقط في الحالة الثانية : ولا يعطينا (van den steen de jehav) [1] الذي أخذنا عنه هذه الأرقام مع الأسف أي تفسير لأسباب هذا النقص الكبير في عدد السريان الكاثوليك في بداية القرن العشرين.

الأرمن والأرمن الكاثوليك :

نذكر القارئ بأن السلطان محمد الثاني بعد احتلاله للقسطنطينية

(f. van den steen dn jehav. op. cit pp 37. 241 242.) (1)

مباشرة نقل من بروصه إلى عاصمته الجديدة جالبة أرمنية كبيرة العدد حصل رئيسها وهو رئيس الأساقفة يواكيم على لقب بطريق الأرمن القاطنين في الدولة العثمانية كافة ، واعترف به في الوقت نفسه ممثلاً لجيمـــع الرعية المسيحية غير الارثوذكسية في الامبراطورية العثمانية.

وهكذا احتل رئيس أساقفة أرمني بسيط بإدارة السلطان ، مركزاً أعلى بالمقارنة مع كاثوليكوس كليكا في سيس (في ولاية أدنة حالياً) وكاثوليكوس [1] اكتمار في وان اللذان يعيشان في الدولة العثمانية نفسها ويحتلان مرتبة أعلى في سلم التدرج الكهنوتي. إن إخضاع جميع رعايا الدولة العثمانية المسيحيين من غير الأرثوذكس إلى بطريق الأرمن في اسطنبول رفع ذلك البطريق إلى مستوى يكاد يكون مساوياً للمستوى الذي يحتله جاثليق كل الأرمن وهو الاسم الذي يطلق على رئيس الكنيسة الأرمنية الذي يعيش في أجمادزين والذي يتمتع بالسلطة الدينية على أرمن روسيا واوروبا الغربية وفارس والهند وأمريكا.

ومن الطبيعي أن يحرص بطريق الأرمن على سلطته حرصاً شديداً ضد أي تطاول عليها من الخارج مستغلاً الاسناد الذي يحظى به بشكل مستمر من الباب العالي ، لذا فإن المبشرين الكاثوليك الذين استقروا في الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السادس عشر وجدوا في سعيهم لكسب أكبر عدد ممكن من رعايا السلطان المسيحيين إلى الكاثوليكية ، خصوماً

(1) كاثوليكوس هو اللقب الذي أصبح يحمله بطارقة الكنيسة الأرمنية الكريكورية اعتباراً من القرن الرابع وبطارقة كنيسة جورجيا الأرثوذكسية اعتباراً من القرن الخامس تذكره الكتب العربية باسم جاثليق وهو ما سنفعله من الآن فصاعداً - المترجم.

عنيدين في شخص هذا البطريق ورجال الدين الخاضعين له.

وهكذا قام بين المبشرين الكاثوليك ورجال الدين الأرمن صراع يمكن الحكم على شدته من الفقرة التالية المقتبسة من تاريخ (hammer) [1]

« إن البطريق الأرمني أفتيك الذي رقي إلى هذه المرتبة بفضل مساعي اليسوعيين الذين اعتمدوا على وعده بحماية الكاثوليك كشف عن نفسه بعد كعدو لدود لهؤلاء الآخرين. وفي مقابل ذلك وبإلحاح من حماته في الماضي القريب اختطف عندما كان في جزيرة خيوس ووضع في سفينة حربية فرنسية ونقل إلى فرنسا حيث سجن مدي الحياة. وقد اعطي اختفاء أفتيك دون أثر حجة لممارسة اضطهادات جديدة ضد الأرمن الكاثوليك الذين صدر مرسوم سلطاني بوضعهم تحت الحراسة ، كذلك نفي أسقفا اسطنبول والقدس الذين سمحا للمبشرين بالوعظ بحرية إلى الكاليرا على أثر شكوي من رجال الدين الأرمن ـ الكريكوريين. وأخيراً منع اليسوعيون أنفسهم من ممارسة أي نشاط. ولم يكتف الصدر الأعظم بذلك فأمر بإعدام بطريق الأرمن الكاثوليك ساري وستة من مساعديه وكانوا قبل ذلك رهن الاعتقال وقد أنقذ بعضهم حياته باعتناق الإسلام. أما الأسقف (comidas) الذي رفض الارتداد عن الكاثوليكية وإثنان آخران من الأرمن الكاثوليك فقد قطعت رؤوسهم علناً ».

يظهر مما ذكرنا أن الاضطهاد الذي كان يمارس ضد المتحولين الجدد وبالدرجة الأولى ضد الأرمن الذين اعتنقوا الكاثوليكية لم يمر دون ضحايا ، وقد ازداد عدد هؤلاء الضحايا أكثر في أثناء حملات الاضطهاد

---

(1) (hammer histoire de? empire ottoman trad de? allemande par doehe?) (t. III. paris 1844 pp. 334 335).

التـي قامـت فـي 1699 و 1759 و 1782 و 1828. ولقـد ازداد الوضـع الصـعب الذي يعيشـه المتحولـون إلـى الكاثوليكيـة وحمـاتهم المبشرون سـوءاً مـن أن البـاب العـالي رفـض أن يعتـرف بـالأرمن الكاثوليـك كطائفـة مستقلة وأن يـدخل معهم في أي محادثات إلّا عن طريق خصمهم الرئيس بطريق الأرمن.

وبسـبب ذلـك لـم يجلـب لرومـا النصـر الـذي تريـده حتـى تحـول افـرام أسـقف مدينـة حلـب إلـى الكاثوليكيـة. وقـد اسـتطاع هـذا الأسـقف أن يـؤمن اختيـاره لمنصـب جـاثليق سـيس فـي 1740 ، لكـن مـا ان تأكـدت الطائفـة الأرمنية في سيس بأن الجاثليق الجديد صـنيعة للبابـا وحصـل منـه علـى لقـب بطريـق كليكـا ، إلّا وبـادرت إلـى اختيـار جـاثليق جديـد ، فاضـطر الجـاثليق السابق الذي اتخذ لنفسه ، لاسترضـاء رومـا ، اسم بطـرس الأول ، فـي آخـر الأمـر وبعـد أن فشـل فـي الحصـول علـى الاعتـراف بـه مـن قبـل الأغلبيـة السـاحقة مـن الأرمـن بـل ومـن البـاب العـالي نفسـه ، إلـى الهـرب إلـى لبنـان والاعتكاف في دير القرين [1].

لفتت ملاحقـة الأرمـن الكاثوليـك فـي آخـر الأمـر انتبـاه فرنسـا فكانـت حافزاً لتـدخل نشيط قـام بـه ممثلوهـا لـدي البـاب العـالي. وكانـت الحجـة التـي استغلها هـؤلاء هـي المرسـوم الـذي أصـدره السـلطان محمـود الثـاني فـي 8 كانون الثاني 1828 رداً على اشتراك أساطيل فرنسا وبرطانيا وروسيا فـي تـدمير الأسـطول العثمـاني فـي خلـيج نافـارينو ، والـذي قضـي بطـرد جميـع المبشرين الكاثوليك ومن تبعهم من الأرمن من الدولـة العثمانية. وقد تمكن

---

(1) m. c. famin. Histoire do la rivalite et du proteorate des eglises chetiennes en orient Paris. 1853. p. 107.

سفير شارل العاشر الجنرال (guilleminot) الذي أرسل إلى الدولة العثمانية بعد عودة العلاقات الدبلوماسية معها مباشرة من أن يحصل من السلطان على أمر لم يقض بإلغاء المرسوم السابق فقط بل قضي أيضاً بإخراج الأرمن الكاثوليك من دائرة اختصاص بطريق الأرمن الكركوريين فوضعوا في القضايا المدنية تحت حماية موظف عثماني خاص اسمه « ناظر » ، أما في القضايا الدينية فقد أصبحوا يتبعون القاصد الرسولي في اسطنبول [1].

لقد استبدل الناظر في 1831 بأسقف وكانت الـ « براءت » التي أعطيت لهذا الأخير اعترافاً رسمياً من الباب العالي بـ « طائفة الأرمن الكاثوليك ». وقد صدر مرسوم بابوي منح فيه الأسقف الجديد رتبة رئيس أساقفة ـ بريماس [2]. وبإلحاح من السفارة الفرنسية في اسطنبول جرت في 1875 مساواة البريماس رئيس أساقفة الأرمن الكاثوليك ببطريقي اليونان والأرمن الكريكوريين من حيث الحقوق والامتيازات بل واعترف له بالحق في أن يمثل مصالح الوحدويين من جميع الطوائف الأخري.

بعد أن استطاعت الدبلوماسية الفرنسية أن تؤمن الاستقلال لطائفة الأرمن الكاثوليك أصبح وجود بطريقية كليكا التي أسسها البابا بنديكتوس الرابع عشر لا معني له. فرجال الدين الذين أشغلوا هذا المنصب لا يمكن أن يكونوا خاضعين للبريماس رئيس أساقفة اسطنبول لأنهم أعلى منه منزلة ولا يمكنهم في الوقت نفسه أن يصبحوا رؤساء لطائفة الأرمن الكاثوليك لأن الباب العالي لم يعترف بهم. وقد أمكن التخلص من هذا

---

(1) (p. arminjon op. cit. pp. 33 - 34)

(2) (primas) كلمة لاتينية تعني الرئيس الأول وهي في الكنيسة الكاثوليكية والانكليكانية تعني الأسقف الأول من حيث المرتبة والامتيازات ـ المترجم.

الإشكال ينجاح في 1866 عندما توفي بطريق كليكا بطرس الثامن وذلك بأن انتخب خلفاً له ربيب مجمع انتشار الإيمان حسون الذي كان قد أصبح رئيس أساقفة بريماس في القسطنطينية منذ 1846. وقد سارع البابا باستغلال هذا الاتحاد للوظيفتين في شخص واحد والذي نظم بشكل مقصود فأصدر مرسوماً بابوياً خاصاً يبدأ بكلمة (reversurus) الغي فيه منصب رئيس أساقفة بريماس مكتفياً من الآن فصاعداً برئيس واحد يلقب ببطريق الأرمن الكاثوليك وجاثليق كليكا [1].

وكان هذا المرسوم البابوي (reversurus) الذي أصدر في 12 تموز 1867 سبباً في انقسام الأرمن الكاثوليك وكاد يؤدي إلى أن يبتعد عن روما القسم الأغلب من الوحدويين. وخلاصة القضية أن روما كانت قد أوصلت حسون في 1846 إلى منصب رئيس أساقفة بريماس دون أن تشترك الطائفة في ذلك ، وفي 1850 اختار البابا منفرداً خمسة أساقفة قام حسون هذا بعد ذلك بتكريسهم وفي المرسوم البابوي المذكور اكد البابا نهائياً حقه في التدخل في الشؤون الداخلية للكنيسة الأرمنية ـ الكاثوليكية وخصوصاً في اختيار وتعيين الأساقفة وفي الاشراف على الطائفة. وقد بادر حسون وأنصاره إلى مساندة البابا فوراً لكن خصومهم الذين أطلق عليه إسم « خصوم حسون » والذين كانوا في السابق أيضاً يعتبرون أطماع البابا هذه خرقاً لحريتهم واستقلالهم القومي هبوا بشكل حازم للدفاع عن حقوقهم التي جري انتهاكها.

ولا يسعنا ، من أجل أن نفسر مثل هذا التوتر في المشاعر القومية لدى الأرمن الكاثوليك ، إلّا أن نذكر بأن هذا الوقت بالذات هو الذي قامت

---

(1) (ed. Engelhardt. Op. cit. t. IIp. 59).

فيه بين الأرمن العثمانيين حركة قومية ترمي إلى إنشاء « أرمينيا الكبري »
المستقلة. لقد أخذ حزب « أرمينا الفتاة » الذي تشرب بالأفكار الليبرالية في المدارس الفرنسية ، يسعي لأن يقيم هذه الأفكار على أساس عثماني وبدأ يعمل على إثارة الوعي القومي لدي قومه. وقد نجحت جهودهم في هذا المجال في آخر الأمر وادت إلى سن ما يسمى بـ « الدستور الأرمني لسنة 1860 » الذي نظم الادارة الداخلية للطائفة الأرمنية على النمط الديمقراطي بحيث يتفوق الأساس الانتخابي وتستبدل السلطة الفردية بالجماعية. إن هذا النظام القومي الذي صادق عليه الباب العالي في 1863 لم يوجد بالطبع استقلالاً داخلياً حقيقياً لرعايا السلطان الأرمن ولكنه حدد بدقة حقوق وواجبات كل عضو منفرد تجاه « أمته » وبالعكس ، فكان بذلك بمثابة
الاسمنت اللاصق الذي كان يكتل الأرمن العثمانيين في كل قومي واحد قائم بذاته [1].

في ظل مثل هذه الميول الفكرية للطائفة الأرمنية ليس هناك ما يدهش في أن يشعر حتى الأرمن الكاثوليك بنهوض الروح القومية فهبوا يصدون بحزم مطامع البابا التي سبق ذكرها. وهكذا رفض « خصوم حسون » الاعتراف بحسون رئيساً دينياً لهم واختاروا بدلاً منه أسقفاً يتفق معهم في الرأي معتمدين على إسناد الباب العالي الذي لم يكن بمقدوره إلّا أن يعترف بعدالة احتجاجهم على خرق البابا للحقوق التي منحها لطائفة الأرمن الكاثوليك حاكمها الشرعي السلطان.

وقد رد البابا على ذلك بأن اعتبر « خصوم حسون » وأسقفهم مارقين ،
وبذا بدت القطيعة التامة حتمية الأمر الذي كان يهدد بأن يبتعد عن روما

---

(1) (adyssens. Op. cit. p. 437)

مئات الألوف من الوحدويين فلقد ثار على موضوعات المرسوم البابوي [1] (reversurus) أيضاً المارونيون في لبنان والملكيون سنتحدث عنهم فيما بعد بالإضافة إلى الأرمن الكاثوليك ، فكان ذلك من جهة والاسناد الحازم لـ « خصوم حسون » من جانب الباب العالي من جهة أخرى مما كسر إصرار روما وأجبر البابا على التراجع ، فاستدعي حسون إلى روما وتسلم لقب كاردينال وظل هناك. غير أن الصلح النهائي ، مع ذلك لم يتحقق إلّا في 1888 عندما توصل الحزبان إلى وفاق أديإلى إنشاء تنظيم جديد لطائفة الأرمن الكاثوليك [2].

كان التنظيم الجديد هذا مماثلاً في خطوطه العامة للأسس التي وردت في « النظام القومي لسنة 1860 » ، حيث يقف على رأس الطائفة بطريق يتبعه مجلسان الأول للشؤون الدينية يتألف من ممثلي رجال الدين والثاني للشؤون المدنية ويتألف من الأرمن. وتدير الطائفة بالاتفاق مع البطريق جميع ممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة وكذلك المعاهد التعليمية والتربوية حيث يؤسس لهذا الغرض عدد من المجالس الثانوية واحد لكل فرع من فروع الادارة. ويطبق النظام نفسه ولكن بشكل مصغر على الأسقفيات والابرشيات [3].

لقد ألغيت نهائياً في الوفاق المذكور الادعاءات التي عبر عنها البابا في مرسوم (reversurus) للتدخل في انتخاب البطريق والأساقفة. فعلى الرغم من رغبة البابا باشتراك أساقفة معينين في انتخاب البطريق فأن

(1) كلمة لاتينية تعني العودة ـ المترجم.

(2) (ed. Engelhardt. T. lip. 58 ff.)

(3) (f. van den steen de jehav. Op. 253 ff.)

الانتخاب أصبح من اختصاص الطائفة كلها ممثلة بستين منتخب (ثمانية عن رجال الدين وإثنان وخمسون عن الأرمن). حيث ينبغي على مجمع الأساقفة أن يختار البطريق من بين خمسة مرشحين يقدمهم هؤلاء الستون ، وأن يخبر الباب العالي وروما بهذا الاختيار للعلم فقط. أما عن تعيين الأساقفة فإن البابا كان قد قضى بأن يبقي له الاختيار النهائي من بين مرشحين ثلاثة يقدمهم له السينودس [1] ، لكن القواعد الجديدة قضت بأن يسمى اجتماع مشترك لمجلسي الأسقفية المعنية الديني والمدني ثلاثة مرشحين يختار نجمع الأساقفة أحدهم ويصادق البطريق عليه دون أن يأخذ موافقة البابا مسبقاً. وتؤلف هذه القواعد على الرغم من أن الباب العالي لم يصادق عليها وأن روما لم توافق عليها الأسس التي تدار بموجبها طائفة الأرمن الكاثوليك.

من بين 500 ، 680 ، 1 نسمة من الأرمن العثمانيين وهو العدد الذي ذكره بطريق الأرمن الكركوريين لمؤلف كتاب : (de la situation legale des sujets ottomans non - musulmans) يؤلف الأرمن الكاثوليك بموجب إحصائيات مجمع انتشار الايمان لسنة 1901 التي أوردها هذا المؤلف أيضاً 000 ، 90 نسمة منهم ما يقرب من 000 ، 16 من الوحدويين يعيشون في اسطنبول نفسها [2].

ويوجد في ولايات بغداد والموصل والبصرة في الوقت الحاضر ما لا يزيد عن 000 ، 5 من الأرمن الكريكوريين والأرمن الكاثوليك. لقد كان

---

(1) السينودس هنا هو المجمع الكنيسي الذي يضم رجال دين وأشخاصاً مدنيين ومهمته معالجة الشؤون الكنيسية المختلفة ـ المترجم.

(2) (f. van den steen de jehav : op. cit. 51 - 261. 51)

الأرمن في القرن التاسع عشر كثيري العدد لكن الطاعون المخيف في 1831 أباد أعداداً كبيرة منهم ، ثم انتقل بعد ذلك القسم الأغلب ممن بقي حياً منهم إلى الهند وغيرها من الأقطار.

وإذا ما قارنا بين الوضع الحالي لكل من الأرمن الكاثوليك والأرمن الكريكوريين في الامبراطورية العثمانية لا بد أن نتصول إلى الاستنتاجات التالية : لقد تعرض الأرمن الكاثوليك في البداية لعدد من الاضطهادات من جانب أخوانهم الذين كانوا يعتمدون على إسناد السلطات العثمانية لكنهم وصلوا أخيراً بفضل العون الذي أبدته لهم الدبلوماسية الفرنسية إلى مرفأ هادىء. أما الأرمن الكريكوريون فإنهم ظلوا حتى منتصف القرن التاسع عشر يتمتعون بعطف دائم من جانب الباب العالي الذي كان ينظر إليهم على إنهم « ملتي صديقة » أي « طائفة مخلصة من الرعية » لكنهم أصبحوا حالياً يتعرضون للاضطهاد والكل لا يزال يذكر المجاوز المريعة التي ارتكبت ضد الأرمن الكريكوريين في 1894 - 1896 حيث سفح الدم المسيحي في جميع ممتلكات السلطان تقريباً ، حتى اسطنبول نفسها كانت مسرحاً لمذبحة رهيبة.

أما في العراق الجنوبي فقد أمكن بفضل الاجراءات التي اتخذتها السلطات المحلية في الوقت المناسب تجنب إراقة الدماء بحيث أن الخطر الذي تعرض له الأرمن العثمانيون اقتصر في هذه المنطقة على كثرة الأيتام الذين تحتم على كل عائلة موسرة من الأرمن العراقيين تقريباً أن تؤيهم.

الملكيون :

بقي علينا لكي ننتهي من استعراض مجال نشاط المبشرين الكاثوليك في العراق الجنوبي أن نتحدث باختصار عن الملكيين الذين يعيش قسم من جاليتهم الصغيرة في بغداد والقسم الآخر في البصرة.

إن أصل اسم الملكيين هو من الكلمة العربية « ملك » وقد أطلق هذا الاسم على المسيحيين السريان الذين لم يعتنقوا هرطقة نسطور ويوتيخوس بل كانوا يطيعون وينفذون أوامر الامبراطور ماركيان الموجهة ضد تلك التعاليم الكاذبة ، وذلك للسخرية بهم [1].

وبعد فتح العرب لسوريا أصبح أسم الملكيين يطلق في بعض الأحيان على مسيحيي أنطاكيا الذين احتفظوا بالمذهب الأرثوذكسي واستخدموا اللغة العربية بدل اليونانية في إداء الطقوس الدينية واعتباراً من منتصف القرن الثامن عشر أصبح اسم الملكيين يطلق على مسيحي سوريا ومصر الذين انضموا إلى روما والذين حافظوا ، رغم اعترافهم بزعامة البابا ، على مذهبهم واستمروا على إداء طقوسهم الدينية باللغة العربية [2].

لقد بدأت محاولات جذب الملكيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية منذ 1853 عندما أرسل البابا سكستوس الخامس إلى الشرق الأدني بعثة خاصة لهذا الغرض ولكنها لم تحقق أي نجاح. ولم يكن بالأمكان اعتبار نجاح الدعاية الكاثوليكية بين هذا الشعب اليوناني ـ السرياني مضموناً إلّا اعتباراً من 1744 بعد أن توجه بطريق الملكيين إلى البابا بنديكتوس الرابع عشر طلباً للمصادقة على تعيينه. وقد تحتم على هذا البطريق المنضم إلى روما في البداية أن يجابه صعوبات من جانب الباب العالي الذي رفض أن يسمح له بالعيش في دمشق التي كانت قد أصبحت اعتباراً من 1531 المقر الرسمي لبطارقة الملكيين ، محتجاً بعدم وجود قنصل فرنسي في هذه المدينة. وقد تحتم على صنيعة روما بسبب ذلك أن يغادر العاصمة السابقة

---

(1) (73 - m. c. famin. Op. cit. pp. 72)

(2) (ff. - f. van dan steen de jehay. Op. cit. p. 270)

للخلفاء الأمويين ويستقر في لبنان ولم يرجع خلفاؤه إلى دمشق ثانية إلّا في 1841.

وقد ظل اليونان ـ السريانيون ، بسبب عدم اعتراف الباب العالي لهم بالوجود المستقل ، تابعين للكنيسة اليونانية حتى 1831 ، ولم يصبحوا تحت

حماية بطريق الأرمن الكاثوليك الذي كان قد حصل لتوه من الحكومة العثمانية على اعتراف بحقه في الوجود المستقل ، إلّا في السنة المذكورة. ومن أجل أن تزداد أهمية الرؤساء الدينين الملكيين منحهم البابا الكريكوري السادس عشر في 1838 لقب بطريق انطاكيا وبطريق الاسكندرية وبطريق القدس على رغم من أنهم لم يتمكنوا من التحرر من الوصاية الخارجية نهائياً إلّا بعد عشر سنوات وذلك بموجب مرسوم سلطاني خاص. عند ذلك عين البطارقة الملكيون ممثلاً خاصاً لهم في اسطنبول ومنحوه لقب « وكيل » وذلك للاتصال بالباب العإلى في الشؤون التي تخص الطائفة.

وقد عقدت طائفة الملكيين خلال القرن التاسع عشر عدة مؤتمرات ، اجتمع آخرها في 1849 في القدس لوضع قواعد الادارة الذاتية الداخلية للطائفة ، لكن قرارات هذه المؤتمرات لم تحظ بمصادقة البابوات الذين اعتبروها عقبة تعيق إخضاع هذه الطائفة نهائياً لسلطتهم. والواقع أن نفوذ روما بلغ في الفترة الأخيرة من السعة بحيث أن مندوباً بابوياً كان يحضر في انتخاب البطريق على الرغم من كل احتجاجات الباب العالى ضد التدخل الخارجي.

وينبغي ألا نخلط بين الملكيين أي اليونان ـ السريانيين واليونان ـ الوحدويين أي اليونان الصرف الذين انضموا إلى روما ، فالدعاية الكاثوليكية بين سكان عاصمة الامبراطورية العثمانية والولايات المجاورة

لها لم تحقق قبل 1861 النجاح. ومنذ هذه السنة الأخيرة تكونت طائفة غير كبيرة من اليونان ـ الوحدويين تتبع في الشؤون الدينية أسقف اللاتين في اسطنبول وتخضع في الشؤون المدنية لديوان اللاتين أو لبطريق الأرمن الكاثوليک [1].

يصل عدد الملكيين حسب إحصائيات مجمع انتشار الايمان لسنة 1901 إلى 200 ، 126 شخص علماً بأن مراكزهم الرئيسية هي ولايات بيروت في لبنان وحلب ودمشق في سوريا. ويوجد منهم في ولاية بغداد ما يقرب من 50 شخصاً أما في البصرة فلا يزيد عددهم على بضعة أشخاص.

أن الحركة المضادة للأكليروسية في فرنسا نفسها وبالشكل الرئيسي نشاط المبشرين البروتستانت المتزايد أكثر فأكثر بين المسيحيين العثمانيين يمكن أن تكون جزئياً عقبة أمام استمرار نجاح الدعاية الكاثوليكية ، في الامبراطورية العثمانية.

ان الأثر الذي تركته لا أكليروسية فرنسا في الشرق الأدني لا يزال في بداية ظهوره وقد انعكس حتى الآن في مشروع تأسيس سلسلة كاملة مما يسمى بالارساليات الدنيوية (missions laiques) التي تخلت عن أية دعاية دينية وانهمكت كلياً في قضية تعليم رعايا السلطان ، فكان عليها بذلک أن تصبح منافساً جدياً للمؤسسات التعليمية التابعة للارساليات الدينية الكاثوليكية. وكانت أول تجربة لتنفيذ هذا المشروع عملياً هي « الليسية في سالونيک » التي افتتحت في 1907 والتي تتألف من مدرسة للتجارة وقسم ثانوي للبنين والبنات كان فيه في بداية 1908 (420) دارساً من كلا

(267. - f. van den steen de jehav. Op. cit. pp. 266) (1)

الجنسين [1].

كانت منافسة المبشرين البروتستانت تؤلف خطراً أكثر جدية ، فقد ظهر هؤلاء في الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن التاسع عشر ووضعوا نصب أعينهم مهمات أوسع مما كان يضعها الرهبان الكاثوليك من مختلف الفرق. فأولئك الرهبان كما يظهر مما عرضناء سابقاً كانوا يهدفون كلياً إلى إعادة المسيحيين الشرقيين إلى حظيرة كنيسة روما في حين أن ممثلي جمعيات الكتاب المقدس في بريطانيا وأمريكا كان هدفهم توعية المسلمين أنفسهم بنور التعاليم المسيحية أما تحويل المسيحيين العثمانيين إلى البروتستانتية فكانوا يهتمون به كقضية ثانوية.

أن الدوافع التي دفعت المبشرين البروتستانت لأن يوجهوا نشاطهم هذه الوجهة هي تحول بعض المسلمين عرضاً في الهند والظروف غير المواتية التي حصلت في بداية عملهم بين المسيحيين واليهود.

ففي الهند كان من بين المتحولين إلى البروتستانتية بضعة مسلمين دفعوا حياتهم مقابل ارتدادهم عن الاسلام. وقد ألهمت هذه الحقائق أحد رجال الدين الانكليكان وهو المدعو (Claudius Buchanan) فكرة توجيه جهود المبشرين البروتستانت نحو المسلمين ، فألقي في 1809 في برستول خطابه الذي أثار في حينه ضجة كبيرة والذي عرض فيه بشكل فصيح ومقنع حججه لصالح ضرورة الاهتمام بتحويل المسلمين إلى المسيحية [2].

وقد وجدت دعوته الملحة هذه صدي لها بين المبشرين الامريكان الذين قرروا نذر أنفسهم لهذا النوع من النشاط فاستقروا في سوريا

(273. - bulletin do comite de rasie francaise. 1908 pp. 109) (1)

(rav. S. m. zwemer : op. p. 315. (2)

يحدوهم هدف خاص هو دراسة اللغة العربية واتقانها والتمكن من جوهر الدين الاسلامي وأسسه. وكانت النتائج الأولى لهذه الدراسة هيترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ووضع عدد كبير من المؤلفات التي حاولوا فيها دحض تعاليم الاسلام. ومن أجل أن تطبع هذه المؤلفات أسسوا لهم مطبعة خاصة في مالطة نقلت في 1833 إلى بيروت. وهكذا أعدت الارسالية السورية غير قليل من المبشرين الذين قرروا نذر أنفسهم كلياً لمسألة نشر المسيحية بين أتباع الدين الاسلامي.

وفي الوقت نفسه وبالتوافق مع هذه الجهود جرب المبشرون الانجليز والامريكان أن يعملوا على تحويل المسيحيين واليهود العثمانيين إلى البروتستانتية. حيث تخصص الامريكان بالدرجة الأولى بالعمل بين الأرمن في حين وجه الانجليز اهتمامهم إلى اليهود. وقد تحتم على المبشرين البروتستانت أن يصطدموا في خطواتهم الأولى في هذا السبيل بمقاومة عنيدة من جانب رجال الدين الأرمن والحاخامات اليهود وأن يصادفوا عداءاً ظاهراً من جانب المبشرين الكاثوليك يضاف إلى ذلك الشك والريبة الذي جابهتهم به السلطات التي منعت البروتستانت حتى من بيع الكتاب المقدس [1]، ثم جاءت الضربة النهائية التي وجهها لنجاح الدعاية البورتستانتية بين المسيحين العثمانيين المرسوم السلطاني لعام 1834 الذي صدر بإلحاح من بطريقي اليونان والأرمن في اسطنبول والذي منع الانتقال من طائفة مسيحية إلى أخرى.

ونتيجة لذلك جري التضييق على الدعاية التي كان المبشرون البروتستانت يقومون بها وتعرض من استجاب لهم إلى ملاحقات متكررة

---

s. descombaz. Histoire des missions evangaliques. Paris. 1860p. 136 ff.) (1)
(

من جانب شركائهم في الدين سابقاً وكذلك من جانب السلطات العثمانية إلى حد قامت معه أمام الدول المعنية ضرورة ملحة هي الدفاع عن مصالح الطائفة البروتستانتية امام الباب العالي. وقد قامت بريطانيا العظمي بالخطوة الأولي في هذا المجال عندما عمدت في 1840 بإسناد من بروسيا إلى الطلب من الباب العإلى بأن يسمح ببناء كنيسة بروتستانتية في القدس. وقد رفضت الحكومة العثمانية هذا الطلب في أول الأمر لكنها اضطرت بسبب عدم مساندة أية دولة أخرى لها في هذا الأمر ، إلى التراجع فافتتح أسقف أنكليكاني جاء من لندن أول مصلي للبروتستانت في القدس عام 1842 (1).

وفي 1850 اعترف رسمياً بوجود الطائفة البروتستانتية وذلك بفضل الجهود المشتركة التي بذلها ممثلو بريطانيا وبروسيا والولايات المتحدة الامريكية. وأصبح لها الحق بموجب المرسوم السلطاني الذي صدر في السنة المذكورة في أن يكون لها مندوبها الخاص أي « وكيل » في اسطنبول. كما تألف مجلس إداري تابع للـ « وكيل » يتألف من إثني عشر عضواً. ونظمت على هذا الغرار تقريباً الطوائف البروتستانتية في الأقاليم. وينبغي أن نلاحظ في هذا المجال بأن فرمان السلطان وكذلك السلطة العثمانية ، لم تفرق بأي شكل من الأشكال بين الكنائس المختلفة مثل اليرسبتيرية والأسقفية والميثودستية ... الخ ولهذا فإن اسم « بروتستانت » يشمل أتباع كل من هذه الكنائس وكذلك الذين تحولوا إليها دون تفريق على اساس القومية (2).

وبعد أن أمنت بريطانيا العظمي بهذا الشكل شرعية تمثيلها لرعايا السلطان البروتستانت ، قررت أن تستحصل من الحكومة العثمانية الموافقة

(1) (ED. ENGELHARDT : OP. CIT. T. L. P. 61FF.)

(2) (f. van den steen de jehav. Op. cit. p. 219 ff.)

علـى أن يـزاول المبشـرون البروتسـتانت تبشـيرهم بحريـة بـين المسـلمين أنفسهم. وقد بـدا أن الوقت الـذي اختير لمثل هذه المبـادرة كـان موفقاً نظراً لمـا شـمل الدولـة العثمانيـة مـن حركـة إصـلاحية تهدف إلـى إصـلاح أنظمـة الدولة وتحسين وضع الشعوب الخاضعة للسطان.

وهكـذا فبعـد ان توصـل ممثـل بريطانيـا لـدي البـاب العـإلى اللـورد (stattford) يسانده السـفير الفرنسـي ، إلـى إلغـاء الفرمـان الـذي يمنـع الانتقـال مـــن طائفة مسيحية إلى أخرى في 1844 بدأ محاولاتـه فـي الالحـاح علـى رفعت باشا الصدر الأعظم آنذاك من أجل أن يلغي رسمياً الاعدام المفروض علـى كل من يرتد عن الاسلام [1].

وفـي عـام 1855 فـي خـلال المفاوضـات التـي سـبقت عقـد معاهـدة باريس [2] طلب (stattford) هذا من السـلطان أن يعترف بصـراحة لرعايـاه المسلمين بـالحق فـي الانتقـال إلـى المسـيحية بحريـة. غيـر أن ممثلـي فرنسـا وروسيا والنمسا لم يساندوا هذا الطلب لأنهم لم يروا أن هنـاك فائدة تجنيهـا المسـيحية مـن وراء هـذا التوسـيع لمفهـوم الحريـة الدينيـة. أمـا المنـدوب العثماني فقد رفض بشكل قاطع مناقشة اقتراح السفير الانجليزي هذا مشيراً إلى أن أمراً مثل هذا يقوم بـه السـلطان سيوجه إلـى مكانتـه باعتبـاره خليفـة للمؤمنين [3] ضربة لا يمكن تلافي نتائجها.

(1) (ed. Engelhardt. Op. cit. t. 1. p. 129 ff.)

(2) المقصـود هنـا هـو المعاهـدة التـي أنهـت حـرب القـرم (1853 - 1856) والتـي وقعهـا فـــي بـــاريس فـــي آذار 1856 ممثلـــو بريطانيـــا وفرنســـا وروســـيا والنمســـا وســـردينيا وبروسيا والدولة العثمانية ـ المترجم.

(3) يعني أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله ـ المترجم.

وقد هدد إصرار سفير بريطانيا العظمي وتصلب الأتراك أعمال المؤتمر التمهيدي بالانقطاع نهائياً لو لا أن توصل الجانبان إلى إتفاق وسط صيغ بقرار صدر على النحو التالي : « بما أن اعتناق أي دين يعتبر في تركيا قضية حرة فإن أياً من الرعايا العثمانيين لا يمكن أن يلاحق أو يجري التضييق عليه بسبب دينه ولا ان يجبر على تركه ». وقد أقام المبشرون البروتستانت حقهم في التبشير بالمسيحية بين المسلمين على هذه العبارة الغامضة.

لقد ازداد الخطر المقترن بنشاط من هذا النوع بسبب من أن المبشرين المتحمسين لم يشاؤوا أبداً أن يحسبوا الحساب لعدم احتمال رجال الدين المسلمين وتعصب السكان الجهلة. فهم لم يكتفوا بأن يقوموا هم أنفسهم بمهاجمة الاسلام في مواعظهم وإرشاداتهم بل دعوا المسلمين الذين تحولوا عن الاسلام حديثاً إلى أن يفعلوا ذلك أيضاً. وقد هدد اسطنبول في 1864غضب عارم أصاب العامة؛ لأن خمسة من المسلمين الذين تحولوا إلى البروتستانتية واحدهم كان ملّا سابق أخذوا يشتمون دينهم السابق علناً وبعبارات مهينة. ولم تتمكن الحكومة من أخماد الحريق الآخذ بالاشتعال إلّا بعد أن اعتقلت المرتدين فوراً ومنعت الاجتماعات العامة التي يقوم بها البروتستانت وأغلقت الدكاكين التي يباع فيها الكتاب المقدس [(1)].

إن سفير بريطانيا العظمي آنذاك (sir h. bulwer) ليس فقط لم يحتج على أوامر السلطات العثمانية هذه وإنما قدر في رسالة كتبها إلى وزير الخارجية الانجليزي تسامح العثمانيين حق قدره واتهم في ذلك كله

---

(1) (ed. Englhardt. Op. cit. T. II. P. 81 ff.)

المبشرين البروتستانت الذين « ينشرون ، بسلوكهم الطائش الذي يتسم بالتحدي ، الشغب بين الشعب ويعيقون انتشار المسيحية في البلاد أكثر مما يسهلونه » على حد تعبيره.

وفي غضون ذلك كان المبشرون الكاثوليك قد ثاروا ضد انتهاك حرية المعتقد الديني المقدسة (the sacred freedom of conscience) واتهموا ممثل بريطانيا العظمى بالحذر غير المناسب الذي كان يؤدي حسب اعتقادهم إلى وأد الحرية الدينية في الدولة العثمانية. غير أن الـ (foreign office) [1] أخذت بوجهه نظر السفير فطلبت في 1869 من وكلية الموقت « أن يدعو المبشرين لأن يحترموا أعراف الشعب الذي يتمتعون بضيافته وأن يؤذوا مشاعره وأن يتجنبوا أيضاً كل ما من شأنه أن يخل بالأمن والهدوء العام ».

ولتلافي أي سوء تفاهم جديد بين المبشرين البروتستانت والسلطات العثمانية اتفقت الدول المعنية بهذه القضية مع البابا العالى على حرية الدعاية البروتستانتية على ان تراعي الشروط التالية :

يجب أن يزود كل مبشر بجواز سفر عثماني للعيش والتنقل في الامبراطورية العثمانية ، والمبشر الذي يرغب في مزاولة التطبيب ملزم بأن يحصل مسبقاً في اسطنبول على الاجازة اللازمة لذلك ، وأخيراً لا يمكن أن يباع الكتاب المقدس وغيره من مطبوعات التبشير أو أن توزع مجاناً إلّا بعد أن تفحص الرقابة العثمانية كل نسخة منها وتضع عليها توقيع السماح [2].

يظهر مما ذكر بأن نشاط البروتستانت قد قيّد بقواعد معينة لكن

(1) وزارة الخارجية ـ المترجم.

(2) (zwemer : op. cit. p. 377.)

المهم بشكل خاص أنهم لم يحرموا من إمكانية التبشير بين المسلمين العثمانيين.

لقد استغلت جمعيتا الكتاب المقدس الانجليزية والأمريكية هذه الموافقة الصامتة من جانب الحكومة العثمانية فقررتا الاهتمام جدياً بالمسلمين وأرسلتا إلى مختلف أصقاع الامبراطورية العثمانية ، مبشرين كانوا قد أعدوا خصيصاً لمثل هذا العمل. ومن هؤلاء (anton grivrail) ممثل « british and foreign bible society »[1] الذي أرسل إلى العراق الجنوبي ، 1878. وفي نفس الوقت تقريباً وصل إلى هذه المنطقة أيضاً « robert bruce » مرسلاً من قبل القسم الهندي في « church missionary »[2]. وقد رأي المبشران المذكوران كلاهما بأن حقل نشاطهما يعد بمردود كثير ولهذا وباتفاق بين الجمعيتين اللتين أرسلتهما بدأ في بغداد في 1880 بيع الكتاب المقدس وتوزيعه مجاناً. واعتباراً من 1882 استقرت « church missionary society » في بغداد نهائياً ، فقد نقلت إرساليتها من الحديدة ووسعت نشاطها إلى درجة بحيث بدأت تنافس الكرمليين لا في مجال إبداء المساعدة الطبية للسكان فقط وإنما في ميدان التربية والتعليم أيضاً.

وبعد أن ثبتت « church missionary society » أقدامها في بغداد مدت نشاطها إلى الموصل وحلت هناك محل الـ[1] (american Presbyterian board) الذي كان يعمل هناك قبل ذلك.

أما عن البصرة فإن الدعاية البروتستانتية فيها كانت عرضية إلى أن

---

(1) جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية ـ المترجم.

(2) الجمعية التبشيرية ـ المترجم.

(3) المجلس البرسيتيري الاميركي ـ المترجم.

وصل من اميركا في نهاية 1891 ممثلو [1] « arabian mission » وكانت هذه قد تأسست في منتصف 1889 بفضل جهود بذلها عدد من طلاب المعهد اللاهوتي للكنيسة المصلحة (theological seminary of the reformed church) في نيو برنزويك بولاية نيوجرسي في الشمال الشرقي من أميركا [2].

وبعد مناقشات طويلة قرر الشبان الغيورون على الحركة التبشيرية نذر أنفسهم كلياً للنشاط التبشيري في شبه جزيرة العرب أو البلدان المتاخمة لها. وبما أن الكنيسة التي ينتمون إليها لم يكن لها إي إرسالية تعمل بين المسلمين ولم يكن بمقدورها أن تفكر بتأسيس مثل هذه الارسالية بسبب افتقارها للأموال اللازمة لذلك فإن الطلاب توجهوا إلى الجمعية مباشرة طلباً للاسناد. ولقد أطلق المؤسسون اسم « العربية » على إرساليتهم لإثارة الاهتمام بقضيتهم ، وضد نشروا برنامج نشاطها المقبل وكانوا يعملون بلا كلل عن طريق القراءة والوعظ والخطب والمؤلفات المطبوعة ، للفت انتباه الناس إلى الأهمية الفائقة التي ترتديها هداية سكان شبه جزيرة العرب بنور تعاليم المسيح.

لقد وجدت حرارة الوعظ الذي كان يقوم به المبشرون الشبان والنداءات المتكررة التيكانوا يوجهونها إلى المجتمع وحماس الشباب الذي أظهروه لعملهم المقبل صدى في قلوب السامعين فبدأ سيل التبرعات يرد على صندوق (arabian mission) التيكانت قد تأسست منذ عهد قريب وقد مكنها ذلك من أن تحقق مشاريعها بسرعة ، وهكذا قام إثنان من أفرادها في 1890 بالطواف في ساحل شبه جزيرة العرب فوقع اختيارها على البصرة التي استقرت فيها في السنة التالية أي في 1891 الـ (arabian

---

(1) الارسالية العربية ـ المترجم.

(2) (zwemer. Op. cit. p. 353. ff.)

mission) التي أنشأت فرعاً لها في جزيرة البحرين في 1893 وأخر في مدينة العمارة على دجلة في 1894.

بهذا الشكل وضع الأساس للدعاية البروتستانتية بين السكان المسلمين في ولاية البصرة. وكانت المساعدة الطبية المجانية للسكان اولى الوسائل التي كان المبشرون الامريكان يحاولون الاتصال بواسطتها بالمسلمين حيث يقوم الطبيب في المستوصف بتلقين المرضى حقائق تعاليم المسيح قبل أن يباشر في فحصهم. وقد أنشأت وظيفة طبيب في إرسالية البصرة منذ 1892 كانت توجد بشكل دائم بين المبشرين إمرأة طبيبة كان عليها ، بسبب تمكنها من الدخول إلى الحريم ، أن توصل الدعاية البروتستانتية إلى النساء المسلمات.

وكان بيع الكتاب المقدس مترجماً إلى العربية بل وتوزيعه مجاناً وسيلة أخرى لا تقل فعالية لجذب المسلمين إلى حظيرة البروتستانتية ذلك أن (van dyck) كان قد أنجز أحسن ترجمة للكتاب المقدس 1865. ولهذا عمدت (Arabian mission) منذ 1892 إلى الاتفاق مع (british and foreign bibla society) حول منحها حق احتكار توزيع منشورات الجمعية المذكورة في ولاية البصرة وفي المناطق المتاخمة لها من شبه جزيرة العرب. ويلاحظ القس البروتستاني (s. zwemer) بفخر وهو أحد الشخصيات الرئيسة في (Arabian mission) وقد استمددنا من كتابه الموسوم بـ (arabin the cradle of Islam) المعطيات التي سبق ذكرها بشأن نشاط المبشرين الامريكان في البصرة ، بأن الطلب على الكتاب المقدس وخصوصاً بين المسلمين قد ازداد من 620 نسخة في 1892 إلى 464 ، 2 نسخة في 1899 [1].

---

(1) (zwemer : op. cit. p. 365)

وإلـى جانـب النشـاط التربـوي والتعليمـي الـذي كـان عنـد (Arabian mission) في البصرة لا يزال في مرحلة البداية ينبغي أن نذكر أن هذه الارسالية كانت تقوم بالوعظ في الشوارع وتنظيم المجادلات الدينية التي ينظر إليها المبشرون الامريكان على أنها إحدى الوسائل الناجحة للتأثير على المسلمين. وينصح بالقيام بهذا النوع من الدعاية بشكل خاص المبشرون الذين يجوبون القرى والأرياف ويعملون خارج المدن الكبيرة بشكل عام. أما في المدن فإن البروتستانت يفضلون أن يقوموا بالوعظ والمجادلات في دورهم. أما فيما يتعلق بأساليب الوعظ في الشوارع والمجادلات الدينية فهناك عدد كبير من المؤلفات جمعت فيها كل مطاعن المسلمين بالميسحية ووضع لكل منها تنفيذ إضافة إلى تعليمات بشأن اسلوب وطريقة ضبط النفس في أثناء الجدل الديني. ومن هذه الارشادات ما هو طريف فلنورد النموذج الآتي كمثل عليها :

« يفضل الوعظ من مكان مرتفع وإلا فيستحسن في غير ذلك من الحالات الجلوس فالشخص يكون تهيجه أقل وهو جالس ويكون كلامه أقل إثارة. أجلسوا إذا كان ذلك ممكناً بشكل يكون فيه الحائط وراء ظهوركم فإن لذلك فوائد كثيرة. في أثناء الجدل صلوا مع أنفسكم لأجل أن تتكلموا ببطء وبصوت مؤثر ولا تجيبوا على السؤال فوراً لكي لا تنكشفوا لمن يجادلكم وإنما فكروا بالجواب أولاً ومن ثم أعرضوه بهدوء واختصار » [(1)].

ورغم أن المبشرين الامريكان كما يظهر مما ذكرناه قد استخدموا كل الوسائل المجربة من أجل أن يضمنوا النجاح بين المسلمين إلّا أن مردود

(Ibid. P. 384.) (1)

نشـاطهم لا يتناسـب مطلقـاً مـع الجهـود والأعمـال التـي بـذلها أعضـاء الــ « arabian mission » فالمسـلمون الـذين انتقلـوا إلـى البروتسـتانتية علنـاً لا يتعـدى عـددهم العشـرة بمـن فـيهم جميـع الزنـوج الـذين كـانوا يخـدمون المبشـرين أنفسـهم. ويفسـر المبشـرون هـذا الفشـل بخـوف المسـلمين الـذين تشـربوا بنـور تعـاليم المسيحية ويمكـن اعتبارهـا أتباعـاً للمسيح سـراً ، مـن التعرض للاضطهاد والموت بسبب الارتداد عن الاسلام [1].

أمـا عـن الدعايـة البروتسـتانتية بـين الأرمـن العثمـانيين فإننـا ينبغـي أن نعترف بأن نجاحها كان كبيراً ، حيث يوجد فـي الجـزء الأسـيوي مـن الدولـة العثمانية وحده ، حسب إحصائيات الميجر (r. hubir) ما لا يقل عن 188 ، 102 ممن تحول منهم إلى البروتستانتية عندهم 198 كنيسـة و 356 مدرسـة [2].

وإذا ما كان المبشرون الامريكان قد كسبوا فـي البصـرة القليـل مـن الاتبـاع بسبب قلة عدد الجالية الأرمنيـة هنـاك فـإن عـدد مـن تحـول مـن الأرمـن إلـى البروتستانتية في بغداد يصل إلى 4٪ من عددهم الكلي.

تبقـى علينـا فـي نهايـة هـذا الفصـل أن نتحـدث باختصـار عـن اليهـود الذين يبلغ عددهم في بغداد 000 ، 40 نسمة في حين لا يقل عددهم في

(1) لـيس هـذا سـبب الاعـراض وانمـا هـو لعـدم الاقتنـاع بتلـك التعـاليم لكونهـا غيـر مقنعـة أساسـاً وتحـالف المعقـول ومـا ذكـر يعـد تبريـراً لفشـلهم الـذريع مـع كـون النـاس فـي تلــك الفتــرة غايــة الفقــر والفاقــة وقــد اســتغل المبشــرون ذلــك إلّا أنهــم لــم يحصــلوا علــى شــيء وقــد فــوجيء المبشــرون فــي بلــدة العمــارة مــثلاً وهــم يــذكرون بعضــاً مــن معجــز ســيدنا المســيح (ع) بالصــلاة علــى محمــد وآل محمــد مدويــة عــدة مــرات مــن قبــل المســتمعين مــن المســلمين ممــن كــانوا يعــدّونهم لاعتنــاق المســيحية. حميــد الدراجي

(2) (f. van den steen de jehay. Op. cit. p. 226.)

البصرة عن 000 ، 5 فضلاً عن أنهم منتشرون بأعداد كبيرة أو قليلة في كـــــــــــــــــــــــــــــــــــــل مدن العراق الجنوبي ومراكزه التجارية الكبيرة.

لقد وضعت الطائفة اليهودية التيكانت تُعرف في الدولة العثمانية باسم « يهودي ملتي » أو « ملتي موسوي » (الطائفة الموسوية) عند اســــــــــــــــــــــــــــــــــــتيلاء السلطان محمد الثاني على القسطنطينية تحت سلطة بطريق الأرمن ، شأنها في ذلك شأن المسيحيين غير الأرثوذكس. غير أن كبير الحاخاميين آنذاك موشيكابسالي استطاع لا أن يتحرر من هذه التبعية فحسب بل أن يكون أيضاً مساوياً في الصلاحيات بالنسبة لأبناء دينه مع بطريقي اليونان والأرمـــــــــــــــــــــــــــــــــــن. وهكذا حصل رئيس الطائفة اليهودية المستقلة على لقب « حاخام باشي » وكـــــــــــــــــــــــــــــــــــان مكانه في الاحتفالات الرسمية يأتي بعد البطريقين المذكورين [1].

وهكذا فإن الحقوق والامتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها في تركيا لم تكن تقل عن تلك التي مُنحت للمسيحيين. وبمقدار ما كان وضع المسيحيين يتحسن بسبب ضغط الدول الأوروبية على الباب العالي كان وضع اليهود العثمانيين يتحسن هو الآخر نظراً لأن التحسينات والاصلاحات التي كانت الحكومة العثمانية تجربها كانت تشمل بالتساوي جميع رعايا السلطان دون تفريق على أساس الدين. فبيانا السلطان خطي شريف كلخانة 1839 وخطي همايون 1856 كانت تخص اليهود سوية مع المسيحيين وتمنح هؤلاء وأولئك أوسع في الادارة وتحدد لدرجة معينة فقط سلطة رؤسائهم الدينيين.

ويكون تنظيم الطائفة اليهودية حالياً على أساس الادارة السلطانية

---

(1) (loeh. La. Situation des Israelites en turquie. en serbie et serbie et en roumanie (paris 1877 p. 3.

الصادرة في 1864 على النحو التالي :

يقف على رأس الطائفة الحاخام باشي أي كبير الحاخاميين يتبعه مجلسان أحدهما ديني والآخر علماني. وينتخب الحاخام وكذلك أعضاء المجلسين كليهما من قبل مؤتمر شعبي كبير يتألف من 60 علمانياً و 20 حاخاماً منتخبين عن القسطنطينية و 40 ممثلاً عن الطوائف اليهودية في سالونيك وأدرنه وسميرنا والقدس وبروصة وبغداد والقاهرة [(1)].

وينتخب الحاخام باشي من بين الحاخامات الذين هم من رعايا الدولة العثمانية ويصادق الباب العإلى على انتخابه بفرمان خاص ويظل في منصبه مدي الحياة ولا يستبدل بغيره إلّا إذا فقد نهائياً قواه العقلية والبدنية بسبب الشيخوخة والهرم. والحاخام باشي باعتباره رئيس الطائفة اليهودية ، يقوم بتمثيل مصالحها رسمياً أمام الباب العإلى وإليه تعود الرقابة العليا على الادارة والحق الكلي بغرض « الحِرِم » أي الحرمان من « السينوغوغ » على أفراد الطائفة.

يضم المجلس العلماني أو « مجلسي جسماني » تسعة أعضاء من العلمانيين ويختص بالشؤون المالية للطائفة كجمع وتوزيع الضرائب المختلفة والاشراف على الممتلكات غير المنقولة وحل المنازعات التي تحدث بسبب هذه القضايا أي أن جميع المصالح المادية للطائفة تقع تحت إدارته. أما المجلس الديني (مجلسي روحاني) فيتألف من سبعة حاخامات وله الأشراف العام على التمسك بالدين والطقوس بشكلها المقرر ، ويتفرغ لهذا الغرض ثلاثة من أعضاء المجلس يختصون بشؤون الزواج والاسرة أما الباقون فيشرفون على تنفيذ الفروض التي يقررها قانون

---

(1) dr. e. graf von mulinan : die laeinische kirche im turkischen reiche s. 18 ff.

موسى فيما يتعلق بالطعام الذي يسمح لليهود بتناوله والطعام الذي لا يسمح لهم به.

إن تنظيم الطوائف اليهودية في مدن الأقاليم العثمانية التي توجد فيها هذه الطوائف يماثل في خطوطه العامة التنظيم الذي وصفناه علماً بأن الحاخام الذي يقف على رأس كل طائفة من هذه الطوائف يخضع للحاخام باشي ويتلقي منه كل التوجيهات والايضاحات اللازمة.

وفي الوقت الذي ترجع غالبية اليهود العثمانيين الذين يعيشون في ممتلكات السلطان فيء آسيا واوروبا ، في أصلهم إلى اسبانيا التي طرد منها أجدادهم في 1492 فإن اليهود في العراق يعتبرون أنفسهم أحفاداً لليهود الذين كانوا موجودين في الأسر البابلي.

وإذا ما كانت احياء اليهود أي الـ « كيتو » في المدن العثمانية بشكل عام تذهل المشاهد باحتشاد بيوتها وفقرها وقذارتها فإن صفات الـ « الكيتو » الخارجية هذه كلها تظهر في البصرة وبغداد بشكل أكثر تجسداً.

واليهود العراقيون الذين يعيشون بشكل منعزل تماماً عن المسلمين والمسيحيين متعصبون لمعتقداتهم ويشتغلون مثل أبناء جلدتهم في اوروبا بالتجارة والربا والسمسرة. وكان اليهود المحليون قبل أن يفتتح البنك العثماني فروعاً له في العراق الجنوبي يهيمنون على جميع الشؤون المصرفية تقريباً بحيث نجد بينهم حتى الآن إلى جانب الفقراء شديدي الفقر مليونيريين حقيقيين مثل الاخوان ساسون الذين أصلهم من بغداد حيث أصبح أحدهم واحداً من أكبر أصحاب المصانع في بريطانيا في حين صار الآخر رئيساً لشركة هندية واسعة الثراء.

ويتميز أحفاد أسري بابل بالتأخر الشديد في المجال الفكري ذلك أن مدارسهم الدينية أولت جل اهتمامها للتعليم الديني ولم تخصص للتعليم

العام إلّا القليل من العناية إلى أن أتى الاتحاد الاسرائيلي العالمي (alliance Israelite universelle) لمساعدة شركائه في الدين.

كان هذا الاتحاد قد تأسس في فرنسا في 1860 بهدف تحرير اليهود ورفع مستواهم الفكري والخلقيو الدفاع عنهم تجاه المضايقات والملاحقات. وهكذا كان من مهمات هذا الاتحاد الكفاح ضد التشريعات الاستثنائية الأجنبية الموجهة ضد اليهود من جهة تحسين حياة اليهود عن طريق العناية بشؤون التربية والتعليم من جهة أخرى [1].

وبما أن اليهود في الدولة العثمانية يتمتعون بالمساواة مع المسيحيين ولا يتعرضون إلى اضطهاد أو ملاحقات استثنائية ، لم يضطر الاتحاد إلى ممارسة نشاط سياسي مكثف في ممتلكات السلطان بل اكتفى بأن ينبري من حين إلى لآخر للدفاع عن شركائه في الدين. ولهذا كانت المهمة الرئيسية للاتحاد في الامبراطورية العثمانية هي مقاومة الدعاية المسيحية بين اليهود وذلك أن جمعيات تبشيرية كثيرة العدد وبشكل رئيسي بروتستانتية نذرت نفسها لتحويل اليهود إلى المسيحية ، وقد استغلت رغبة الشباب اليهودي في التعلم ففتحت لهم على أوسع مدى أبواب مدارسها التي تهتم بمخططات تحويلهم عن دينهم في المقام الأول.

قرر الاتحاد أن يأخذ بيده قضية تطمين الحاجات الدينية لليهود لذا فمنذ أن أسس أول مدرسة من هذا النوع في 1862 في تطوان في مراكش غطت شبكة كاملة من المؤسسات التعليمية العامة في الدولة العثمانية [2]

(1) (bulletin de ralliance Israelete universelle annee 1902. no 27 p. 2ff.)

(2) ينبغي ان لا يفهم من ذلك بأن مراكش كانت تابعة للدولة العثمانية ، فالمعروف أن هذا القطر العربي لم يخضع للعثمانيين ـ المترجم.

وقد أهتم الاتحاد بإعداد المعلمين فافتتح في 1868 في باريس (ecole normale oriental) وأسس في اسطنبول (seminaire rabbinique) لرفع المستوى الثقافي للحاخامات أنفسهم.

وهكذا أوجدت كوادر الرجال المؤهلين لمكافحة الدعاية البروتستانتية ، لكن الاتحاد لم يكتف بذلك بل اهتم أيضاً بتحسين الوضع المادي لفقراء اليهود من أجل أن يبعدهم عن التأثر بالنشاط الخيري الذي كان يمارسه المبشرون. وقد فتح الاتحاد لهذا الغرض مدارس حرفية في الكثير من المدن ، وعمل في الاماكن التي لم تكف فيها الأموال لذلك على أن يتدرب أطفال الفقراء مجاناً على الحرف المختلفة لدي اليهود أصحاب الورشات ويقوم هو من جانبه بتهجير هؤلاء التلاميذ بالملبس والمأكل. إن الاتحاد لم ينس حتى الزراعة فتأسست المدارس اللازمة لذلك في يافا وفي جديدة في تونس.

يتركز نشاط الاتحاد في العراق الجنوبي حتى الآن في بغداد بالدرجة الأولي فقد أقيمت هناك منذ 1865 مدرسة للأولاد يدرس فيها منهج واسع يضم بالإضافه إلى المواضيع التعليمية العامة تدريس اللغات الفرنسية والانجيليزية والتركية والعربية. ويقبل في هذه المدرسة المسيحيون والمسلمون إلى جانب اليهود وعدد طلاب هذه المدرسة هو 350 طالباً. أما مدرسة البنات التي تأسست في 1895 فإن عدد الطالبات فيها كان 180 طالبة ، في حين أن المدرسة الابتدائية المخصصة لتعليم القراءة والكتابة وتدريس اللغتين العبرية والعربية ، افتتحت في 1802 وكان عدد طلابها 200 طالب. وفضلاً عن ذلك بدأوا في بغداد اعتباراً من 1874 بتعليم الصبيان النجارة والحدادة والسكافة والخياطة ، كما تأسست في 1891 للبنات ورشة خاصة يتعلمن فيها أشغال الابرة بكل أنواعها.

كان أبناء يهود البصرة الموسرين يدرسون أيضاً في مدارس الاتحاد الاسرائيلي التي ذكرناها في بغداد نظراً لأن معهد الاتحاد في البصرة لم يفتتح إلّا في 1906 وقبل هذه السنة لم يكن يوجد إلّا المدارس الدينية.

وتوجد هذه المدارس الدينية في مدن ولاية البصرة الأخرى ففي العمارة مدرستان ومدرسة واحدة في كل من الناصرية وشطرة المنتفك والحي ، ذلك لأن جاليات يهودية كبيرة أو صغيرة تعيش في كل من هذه المدن. وهكذا فلا يزال أمام الاتحاد اليهودي العالمي في العراق الجنوبي عمل كثير في ميدان تحسين التعليم المدرسي الذي يتلقاه الشباب اليهود في هذه المنطقة.

ويأتي جزء من الأموال التي تصرف على المدارس والمؤسسات الخيرية اليهودية في الامبراطورية العثمانية من المساعدات التي يقدمها (ALLIANCE LSRAELITE UNIVERSELLE) و (1)(JEWISH - ANGLO ASSOCIATION) والمحسنين من الأشخاص ، أما الجزء الآخر فيأتي من ضرائب خاصة فرضها اليهود في الدولة العثمانية بأنفسهم على أنفسهم بالإضافة إلى ضرائب التي يدفعونها للحكومة. ومن هذه الضرائب :

1 ـ الضريبة الوطنية ويتراوح مقدارها بين 4 / 1 ليرة و 3 ليرات عثمانية في السنة (ما بين روبلين وإثني عشر كوبيكاً و 25 روبل وخمسين كوبيكاً).

2 ـ ضريبة فرضت على اللحم والنبيذ والجبن ومقدارها 30 بارة (ست كوبيكات) على الحقة الواحدة (1285 غراماً) من اللحم و 20 بارة (أربع كوبيكات) على الحقة الواحدة من الجبن.

3 ـ ضريبة تفرض على الشهادات والبطاقات وغير ذلك من الوثائق

---

(1) الرابطة الانجليزية ـ اليهودية ـ المترجم.

التي يصدرها ديوان الحاخامية.

4 ـ الضريبة المفروضة على الجزارين والمتاجرين بالبضائع الكولنيالية وتجار الخمور [1].

بقيأن نضيف إلى كل ما قلناه عن اليهود أن العراق الجنوبي يعد أن يكون « أرض الميعاد » إذا ما تحقق في يوم من الأيام المشروع الذي يقترحه الكاتب اليهودي (ZANGWILL) والذي يقضي بإسكان اليهود المنتمين إلى الأقطار الأوروبية المختلفة في هذه المنطقة العثمانية. لقد ولد هذا المشروع بالارتباط مع بناء سكة حديد بغداد ومشروع إحياء قنوات الري القديمة في العراق الجنوبي.

---

(1) (F. VAN DEN STEEN DE JEHAY. OP. tCI. P. 353.)

الفصل الخامس

تعيش في المدن الواقعة على طول المجري الأدني لدجلة والفرات وعلى الأخص في العمارة وسوق الشيوخ والناصرية وكذلك في البصرة والمحمرة وشوشتر طائفة صغيرة آخذة بالانقراض تثير الاهتمام تعرف في أوروبا الغربية باسم « مسيحيو يوحنا المعمدان » وعند المسلمين باسم « الصبة » من الفعل العربي « صبأ » الذي يعني يغسل [1] أما هم فيطلقون على أنفسهم إسم « مندائي » أي عبدة منداهي ، رسول الحياة ، أو مندائي يحي ويعني تلامذة أو أتباع يوحنا.

ولا يذكر الكتاب الاغريق أو الرومان في المؤلفات التي وصلت إلينا ، شيئاً عن الصائبة ، على ما يذكر البروفسور خفولسون في كتابه :

« DIE SSABIER UND DER SSABISMUS » [2]

ويكاد يكون ما ورد في القرآن هو أول خبر عنهم ، فقد جاء في الآية

---

(1) D. CHWOLSON. DIE SSAHIER UND DER SSABISMUS T. 1 ST. (PETERSBURG 1856. S. 9 - 11)

(2) يوجد عرض مركز لأصل تسمية الصابئة على الصفحات 25 - 30 من كتاب الدكتور رشدي عليان الموسوم بـ « الصابئون حرانيين ومندائيين ، بغداد 1976 » - المترجم.

التاسعة والخمسين من السورة الثانية : (**إن الذين آمنوا والذين هادواو والنصاري والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم**) [1] كذلك جاء في الآية السابعة عشرة من السورة الثانية والعشرين : (**إنَّ الَّذين آمَنُوا وَالَّذينَ هَادوا وَالصَّابِئِين وَالنَّصَارَي وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ اَشْرَكُوا إنَّ اللهَ يفْصِلُ بَينَهُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ**) [2].

يظهر من هذه النصوص أن الإسلام ساوي الصابئة بـ « أهل الكتاب » أي المسيحيين واليهود الذين عندهم كتاب مقدس ولم يعتبرهم من المشركين. وقد ذهب الخليفة عمر في هذا المجال إلى أبعد من ذلك حيث سمح للمسلمين بالزواج من الصابئيات وبأكل لحوم الحيوانات التي يقومون بذبحها لكن الكتاب المسلمين المتأخرين وبالأخص مفسري القرآن ليست عندهم مثل هذه النظرة المتحررة إلى الصابئة بل إن بعضهم لا يعترف بأنهم من « أهل الكتاب » وذلك على الرغم مما جاء في القرآن [3].

---

(1) هذه هي الآية 62 من سورة البقرة وقد أسقط منها المؤلف عبارة « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ـ المترجم.

(2) هذه هي الآية من سورة الحج وقد أسقط منها المؤلف عبارة « إن الله على كل شيء شهيد ».

والحقيقية أن ذكر الصابئيين ورد في آية أخرى من آيات القرآن الكريم هي الآية 69 من سورة المائدة وهي كالآتي :

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَي وَالصَّابِئِيينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيوْمِ الآخِرِ وَعَمَلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يحْزَنُونَ**) - المترجم.

(d. chwolson : op. cit. t. 1. s. 54.) (3)

أما في أوروبا الغربية فالمعروف أن أقدم أخبار عن هذه الطائفة صدرت في القرن السابع عن البرتغاليين الذين هم أول من دعا الصابئة بـ « مسيحيو يوحنا المعمدان ». ومنذ ذلك الوقت أورد أغلبية الرحالة الـــــــــــــــــــــــــــــذين
زاروا العراق الجنوبي في كتاباتهم أخباراً مفصلة بدرجة كبيرة أو قليلة عن هذه االطائفة التي تثير الاهتمام.

وعلى الرغم من ذلك فأن دين الصابئة لم يجر البحث فيه إلّا قليلاً حتي إن العلماء الأوروبيين لم يتوصلوا حتى الآن إلى حل قضية أصل هذا الدين وجوهره. فالبروفسور خفولسون في كتابه المذكور يتمسك بالرأي القائل بأن دين الصابئة ماه إلّا الديانة التي كان يعتنقها الكلدان القدماء بعد أن تأثرت بشدة بالديانة اليهودية وتعاليم زرادشت [1]. في حين أن بعض العلماء الآخرين يعتبرون المندائيين إحدى الطوائف الغنوصية [2] التي تربت بأفكار الفرس والكلدان بدرجة ملحوظة. ويعتقد آخرون بأن الصابئة هم أتباع تلامذة يوحنا المعمدان الذين كونوا في زمن ما في فلسطين نفسها وخارجها طوائف دينية خاصة ارتفعت فيها منزلة المعمدان حتي كادت تقارب منزلة الإله. وهناك فريق آخر من الباحثين يميل إلى

---

(1) (Ibid. S. 101.)

(2) الغنوصية هي أتجاه ديني فلسفيظهر في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد في سوريا وما بين النهرين وانتقل إلى الامبراطورية الرومانية ، وهو مزيج من أديان الشرق القديمة والفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة والمعتقدات المسيحية. يعتقد الغنوصيون بالتوصل إلى المعارف العليا عن طريق الكشف وليس عن طريق الاستدلال والبرهنة العقلية. وقد انقسم الغنوصيون إلى عشرات الفرق منها المسيحية ومنها الوثنية ـ المترجم.

اعتبار الصابئة أحفاداً للصدوقيين [1] على أساس أن الفريقين لا يعترفان يبعث الأموات. وأخيراً هناك فريق من الباحثين يعتبرهم مجرد عبدة نجوم انتقلوا إلى العراق الجنوبي من حران القديمة عندما دمرها المغول بقيادة هولاكو خان في القرن الثالث عشر.

لقد بدا لنا ، بسبب هذه الآراء المتضارية عن الصابئة ، أن من المفيد أن نعرف القارئ بعقائد وطقوس هذه الطائفة الصغيرة التي تخفي بعناية عن الغرباء حتى أعراف وعادات حياتها اليومية. لقد استقينا جزءاً من المعلومات التي سيوردها أدناه عن طريق السؤال من الأهالي المحليين العارفين بحياة الصابئة في حين استمددنا الجزء من الأخبار التي أوردها الرحالة الأوروبيون والتي جري التحقق منها في مكانها ، وعلى

(1) الصدوقيون هم أتباع إحدى الطوائف الاجتماعية الدينية اليهودية قامت في فلسطين في الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي أي بعد الاحتلال اليوناني لفلسطين. جاء اسم هذه الطائفة على ما يبدو من اسم مؤسسها صدوق. كان الصدوقيون يدعون إلى الالتزام بما هو مكتوب في التوراة وإلى الامتناع عن تفسيرها لذلك فإنهم وقفوا ضد الفريسيين الذين كانوا يدعون إلى تفسير التوراة تفسيراً جديداً يتفق مع الظروف الاجتماعية الجديدة. والصدوقيون لا يعترفون بالقدر وينكرون وجود الملائكة ولا يعترفون بخلود الروح وبعث الأموات. أما الصابئة المندائيون فإنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بالحساب والعقاب حيث يذهب الصالحون منهم إلى عالم النور في حين يذهب المذنبون إلى عالم الظلام ويؤمنون أيضاً بوجود الملائكة ويعتقدون بأن مقرها الكواكب وتحتم عقيدتهم وجود مخلوق يتوسط بين الروحانية والمادية ، ويبدو أنهم يشبهون في هذه النقطة الأخيرة الغنوصيين الذين يعتقدون بوجود الكثير من القوي الوسطي بين الله والطبيعة ـ المترجم.

الأخص من كتاب (etudes sur la religion des soubbs) الصادر في باريس في 1880. فعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس بحثاً علمياً فإنه يستحق مع ذلك اهتماماً خاصاً لأن مؤلفه السيد سيوفي ـ نائب القنصل الفرنسي في الموصل جمع كل المعلومات التي أوردها فيه من أحد الصابئة مباشرة وهو ابن أحد القسس [1] الصابئة. لقد كان هذا الصابئي الذي قرر أن يكشف أسرار دينه لشخص يعتنق ديناً آخر ، في طريقه إلى التحول إلى الكاثوليكية بفضل الجهود التي بذلها رئيس بعثة الكرمليين في بغداد آنذاك (pere marie joseph) ، وكان قبل أن يتعرف على نائب القنصل المذكور قد طرده الصابئة من صفوفهم باعتباره مرتداً عن دينهم.

ولكي نوضح بجلاء العناصر الأجنبية التي تكونت منها عقائد الصابئة الدينية والتشوش الذي حدث بسبب اقتباسها من الأديان الأخري ، فإننا سنبدأ حديثنا بالتعرض باختصار للمأثر الشفهية التي تتعلق بحياة الصابئة في الفترة التي سبقت انتقالها إلى العراق الجنوبي وخوزستان المجاورة له ، بشكلها الذي توجد فيه عند الصابئة حالياً.

كان على رأس الصابئة قبل فترة طويلة من ظهور يوحنا المعمدان الذي يعتبره الصابئة مشرعهم الأول ، شخص اسمه دانانوك [2] وكان يهيمن على السلطتين الدينية والزمنية. وقد تخلى دنانوخت هذا بإيحاء من

---

(1) يستخدم المؤلف كلمة دياكون التي تعني في الكنيسة الأرثوذكسية مساعد القس أثناء أداء الخدمة الدينية مقابل كلمة شكندة عند الصابئة وكلمة قس مقابل ترميدة وأسقف مقابل كنزفرة. نرجو من القارئ الكريم أن يلاحظ ذلك ـ المترجم.

(2) الصحيح دنانوخت وهو الإسم الذي سنستخدمه بدلاً من دانانوك من الآن فصاعداً ـ المترجم.

الأرواح الشريرة عن عبادة الإله الحق وأخذ يعبد الشمس والقمر والنار وجذب معه إلى تلك العبادة الشعب الخاضع له ، ولهذا أرسل ملك الموت سارويل لقبض روح هذا المرتد لكن روحه بعد أن أنبت بشدة عادت مرة أخري إلى غلافها الجسدي لكي تكفر عن ذنوبها بإعادة العبادة الحقة إلى الصابئة. وقد حاول دنانوخت الذي عاد إلى الحياة أن يؤدي هذه المهمة بدقة لكنه لم يستطع أن يعيد إلى الديانة السابقة إلّا قسماً ضئيلاً من شعبه الذي انصرفت جماهيرة الأساسية إلى الوثنية [1].

وقد انقرض رجال الدين الذين كرسهم دنانوخت بمرور الوقت فظل الصابئة الذين كانوا يعيشون آنذاك في القدس بدون كهنة فأدي ذلك إلى اندماجهم تدريجياً مع إحدى الطوائف اليهودية التي لا تعترف بالختان (لا يوجد الختان حتى الآن عند الصابئة). وإلى أن يفقدوا دينهم بشكل كلي تقريباً وقد دفع الخوف من أن يختفي الدين الصابئي من على وجه الأرض نهائياً أحد ملوك الجنة وهو مار أدريوثا الذي سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد إلى أن ينعم على الصابئة بمشروع هو يوحنا المعمدان ، وكان ظهور المعمدان إلى العالم محاطاً بالمعجزات وقد حدث على ما تذكر مأثورات الصابئة على النحو التالي :

كان يعيش في القدس زوجان صالحان هما أبوساوا وأينشفي ، ولم يكن لهما أولاد بالرغم من إنهما كانا طاعنين في السن. وقد أرسل مار أدربوثا إلى أينفشي أحد ملوك الجنة هو منداهيي الذي جعلها تشرب ماء عجيباً فأنجبت ولداً.

وعندما عرف اليهود الذين كان الصابئة يعيشون بين ظهرانيهم ، عن

(m. n. siouffi : etudes sur la religion des soubbas. Paris 1880. p. 31.) (1)

طريق حلم رآه أحدهم بأن أبن أينشغي سيتمكن من السيادة عليهم مع الوقت بل سيحولهم إلى ديانته ، قرروا أن يقتلوه بمجرد أن يولد. لكن زاربيل ليليثا الحورية التي حضرت الولادة كشفت نيتهم فأستلت الوليد من فم أينشفي وسلمته إلى الملائكة الذي نقلوه على الفور إلى الجنة حيث أرضع من حلمات شجرة مخزيون التي تدر الحليب.

وهكذا ترعرع يوحنا المعمدان أو يحيى كما يسميه الصابئة في ألمه أد نهورا (الجنة) وأطلع على العلوم كافة ثم عمد باسم مانه ربه ومار أدربوثا ومنداهيي وحصن ضد النار والسيف بواسطة الرقي ، ثم نقل إلى القدس حيث سكن في بيت والديه ، وقام يحيى في اليوم التالى لوصوله بتعميد والديه الأمر الذي أزعج اليهود بشدة فبادروا إلى الاجتماع عنده في البيت وطالبوه بعلائم ومعجزات وتظاهروا بأنهم سيعترفون به مبعوثاً من الله إذا ما أظهر المعجزات. وقد وافق يحيي على طلبهم عن طيب خاطر فأعاد البصر إلى العميان الذين أتوا بهم إليه وأعاد للمشلولين قابليتهم على الحركة وأشفي المصابين بأمراض أخري. وعندما رأي اليهود بأن هذه المعجزات هي تأكيد للحلم الذي سبق ذكره بادروا في البداية إلى إحراق داره لكنه خرج منها سالماً ثم حاولوا الاعتداء على حياته عدة مرات ولكن الفشل كان نصيبهم في كل مرة. عند ذلك فقد سجد أغلبية اليهود باستثناء رئيسهم اليزار وأشياعه ، ليحيى وتعمدوا على يديه فأصبحوا صابئة.

لقد ظل يحيى زمناً طويلاً أعزب يقضي الجزء الأغلب من وقته بالصلاة ، وبما أن أتباعه كانوا يحاولون تقليده فإن توجههم نحو العزوبة أدى إلى أن يتقلص عدد الصابئة بشكل ظاهر ، ولهذا فقد اقترح على يحيى أبوه السماوي منداهييأن يتزوج امرأة أسمها أنهر أرسلت له من مشوني كشطة أي العالم الأرضي غير المنظور.

وبعد أن وجه يحيى الصابئة إلى الدين الحق انتهت مهمته فظهر إليه أبوه السماوي منداهييبهيئة صبي يطلب التعميد ، غير إن يحيى أجل القيام بذلك إلى اليوم التالي. وعندما ذهب في الصباح الباكر إلى النهر لكي يغطس في الماء كعادته ثم يؤدي صلاته مثل أمامه مرة أخرى الصبي الذي كان قد طلب منه تعميده من قبل. فدعا يحيى الغريب إلى الدخول في النهر وتهيأ للبدء بالتعميد لكن الماء تراجع أمام الاثنين بشكل غير متوقع تاركاً المعمد والمعمد على اليابسة. وقد تكرر ذلك ثلاث مرات قبل أن تثبت بكلمة من منداهيي المياه في مكانها وقبل أن تبدأ الطيور في السماء والسمك في النهر بتمجيد ملك السماء. فعرف يحيي الذيكان يمتلك موهبة فهم الحيوانات عند ذلك حقيقة الشخص الذي كان يقف أمامه فارتمى يقبل أيدي أبيه ، وما أن أخذ هذا يحيى من يديه حتى سقط المعمد جثة هامدة وتبعت روحه منداهيي حيث سارا سوية عبر المطراثة (جهنم) [1] وعبرا نهره دخشاشة ووصلا أخيراً إلى الجنة حيث سكن يحيى في قصر أبيه السماوي.

وقد واصل الصابئة بعد موت يحيى الذي ترك لهم عدداً كبيراً من تلاميذه بهيئة رجال دين من مختلف المراتب ، العيش في القدس على وفاق تام مع الطائفة اليهودية ورئيسها اليزار الى أن تمكنوا من أن يجذبوا مربي ابنة اليزار الى دينهم. وقد ولد ذلك عداوة بين الصابئة واليهود تحولت بالتدريج الى صراع مكشوف وانتهت بمحق اليهود للصابئة. لم يبق

(1) المطراثة عند الصابئة هو المطهر الذي تذهب إليه الأرواح الخاطئة بعد انبعاثها حيث تتعذب فيه بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها فتلتحق بالملأ الأعلى - المترجم.

من أتباع يحيى أحياءً إلا حفنة قادهم من القدس إلى دمشق أنوش أثرا الذي أرسل إليهم خصيصاً من الجنة. وقد نصب هذا عليهم اثنين من الحكام الدنيويين هما الأخوان فرّوق ملكة وأردوان ملكة وأناط السلطة الدينية بالقسس والأساقفة الذين كرسهم بنفسه مجدداً. وقد نبه أنوش أثرا فروق ملكة بشدة إلى أن يتجنب الصدام مع اليهود لكن ذلك لم يثن هذا الحاكم الصابئيعن الانتقام من اليهود لمحقهم للصابئة في القدس. وقد انتهى النزاع الجديد بأن دخل فروق ملكة إلى البحر الأحمر وهو يتعقب على رأس شعبه بأجمعه ، اليهود الذين كان يقودهم موسى الذي تذكر مآثر الصابئة إنه عاش بعد يوحنا المعمدان ، فابتلع البحر الصابئة جميعاً فيما عـــدا

قائدهم نفسه وبضع عشرات من الرجال والنساء. وابتعد الصابئة الذين نجو بهذا الشكل المعجز إلى شوستر في خوزستان حيث تكاثروا بالتدريج وتحسنت أحوالهم بشكل ملحوظ لكن دينهم أضمحل تماماً بسبب موت رجاله في البحر الأحمر. ومن أجل أن يعاد الصابئة إلى الدين الحق أرسل إلى شوستر من العالم الأرضي غير المنظور (مشوني كشطة) رجل صـــالح

هو آدم أبو الفرج الذي ظن شيوخ الصابئة بسبب هيئته المتواضعة أنه جوال اعتيادي فأشفقوا عليه وشغلوه راعياً لماشيتهم.

لقد ترك الحكام المسلمون المحليون الصابئة بسلام إلى أن تولى أمر المسلمين شخص يدعى محمد كلهور الذي استدعي شيوخ الصابئة واقترح عليهم اعتناق الإسلام طوعاً وإلا فإنه سيجرهم إلى ذلك بالقوة. وبعد محادثات طويلة تقرر أن يترك الصابئة بسلام إذا استطاع أحدهم أن يقوم بمعجزة أكبر مما قام به كلهور الذي حول الحبل إلى حية والحجر إلى أسد ثم بسط سجادة الصلاة علي سطح النهر وصلى عليها. فارتبك الصابئة ولم يعرفوا ماذا يفعلون إلى أن أشارت عليهم إحدى العجائز بأن يلجأوا

إلى أبي الفرج المذكور الذي لم يتمكن من التفوق في المباراة مع كلهور فحسب وإنما عمد إلى معاقبة هذا الأخير على ملاحقته للصابئة ، فقد أخذ نواة تمر وزرعها في الأرض فنمت منها أمام أعين المشاهدين نخلة أعطت ثمراً في الحال ، ثم اقترح أبو الفرج على كلهور أن يتسلق النخلة ويجمع التمر ، ولم يكد يصل إلى أعلى النخلة حتى أخذت النخلة بكلمة من صاحب المعجزة الصابئي تطول إلى الأعلى ثم بدأت الرياح التي استدعاها أبو الفرج من الجنوب والشمال تطوح بها مرة إلى هذا الجانب ومرة إلى ذاك ، وظل كلهور الجالس عليها يتعذب إلى أن أقسم على أن يترك الصابئة بسلام.

وبعد أن عين أبو الفرج القسس والأساقفة وأرشد الصابئة إلى الدين الصحيح عاد مرة أخرى إلى مشوني كشطة (العالم الأرضي غير المنظور)

لكن كلهور على الرغم من القسم الذي أداه عاود اضطهاد الصابئة بمجرد أن غادر حاميهم القوي شوستر. وقد أصبح وضع أتباع يحيى في نهاية الأمر لا يطاق إلى درجة بحيث اضطروا مغادرة ممتلكات كلهور فسكن قسم منهم في دزفول واستقرت أغلبيتهم في المحمرة واستطاعوا هنا أن يتواءموا مع المسلمين لفترة طويلة إلى أن أدي نزاع وقع بين أحد الصابئة وعربي إلى صدام دامٍ بين الشعبين أفضي إلى فناء القادمين فناءً تاماً تقريباً. وقد هرب من بقي حياً منهم إلى دزفول وعاشوا بين الصابئة الموجودين هناك. ونظراً لعدم وجود رجال دين حقيقيين بسبب موتهم في أثناء الاضطهادات الشديدة ، كان يقوم بالخدمة الدينية والطقوس لهؤلاء وأولئك أناس خيرون شرفاء تختارهم الرعية نفسها.

وظل الحال على هذا المنوال إلى أن حل الطاعون الكبير في 1831 الذي اجتاح ما بين النهرين وفارس المجاورة لها وذهب بالعديد من

الضحايا من صابئة دزفول. وقد رجع قسم من الذين نجوا من الوباء إلى شوستر مرة أخرى في حين انضم قسمهم الآخر إلى طائفة صغيرة من الصابئة كانت موجودة آنذاك في سوق الشيوخ على الفرات ، وكانت تلك الطائفة قد فقدت أثناء الطاعون قادتها الدينيين فتوجهت إلى صابئة شوستر فأرسل لها هؤلاء اثنين من الشكندة أي دياكونين ، وقد اختار هاذان ثلاثة من العلمانيين الفضلاء وكرساهم دياكونات ثم بدأوا باختيار واحد منهم ليصبح قسيساً ويتطلب لذلك حسب قواعد الدين الصابئي وجود أربعة دياكونات على الأقل. وهكذا أعيدت لدي صابئة العراق الكهانة التي أصبحت منذ ذلك الوقت تتعاقب في عوائل هؤلاء المنتخبين.

لا يتعدد عدد الصابئة القاطنين في العراق الجنوبي وفي خوزستان المجاورة لها في الوقت الحاضر 4000 - 5000 نسمة والحرف الرئيسية التي يزاولونها هي الصياغة والصناعات اليدوية والتجارة. ثم تأتي بعد ذلك تربية الماشية وصناعة الزوارق الخفيفة التي تصنع من القصب وتطلى بالقار وتعرف في العراق باسم (مشحوف) ثم تأتي أخيراً الزراعة.

أما اللغة التي يتكلم بها الصابئة حالياً فهي لغة قريبة جداً من السريانية ، وهي على ما يعتقده العلماء الذين تخصصوا بدراستها لا تعدوا كونها لهجة من لهجات السريانية على الرغم من أنّ لها حروفها الخاصة ونحوها الخاص كما إنها ليست مفهومة تماماً للمسيحيين السريان المتواجدين في الموصل (1) وقد كتب بهذه اللهجة المعروفة في المؤلفات العلمية الأوروبية باسم « المندائية » جميع كتب الصابئة المقدسة التي وضعت في الفترة ما بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين. وعدد هذه

S.M.Zwemer.op.cit.288 (1)

الكتب كثير إلى درجة بحيث لا يتضمن حتى أحسن مؤلفات العلماء المستشرقين قائمة كاملة لها حتى الآن.

ويتصدر كتب الصابئة المقدسة التي لا يعترف أبداً بالتوراة ولا بالإنجيل كتاب « سدره به » (الكتاب العظيم) الذي يسمى أيضاً بـ « كنزه »[1] (الكنز) والذي يحتوي على طقوس الخدمة الدينية وتعاليهم بشأن خلق العالم وأساطيرهم ... الخ [2].

ويضم كتاب « سدره ملک » (كتاب الملک) كل ما يتعلق بالجانب الطقوسي من الدين الصابئي وكذلک الأعياد والصلوات وقواعد الحياة الصالحة ، وغالباً ما يطلق على هذا الكتاب الثاني اسم « دراشة أديهيا » إنه يحتوي على الأحاديث المأثورة التي بشر بها يوحنا المعمدان الذي يعتبره الصابئة كما ذكرنا مشرعهم الحقيقي.

وتأتي بعد هذين الكتابين كتب أقل أهمية مثل : « ديوان » و « سدره نمشوتو » (كتاب الأرواح) و « سدره آدم » (كتاب آدم) و « أسفر ملواشه »

---

(1) الصحيح « كنزه ربّه » أي الكنز العظيم. المترجم.

(2) يتألف هذا الكتاب من قسمين يحتوي الأول منها على موضوعات كثيرة مثل نظام تكوين العالم وحساب الخليفة وصفات الخالق ووعظ وأدعية وحكايات ... إلخ ويعالج الثاني شؤون الميت فيتحدث عن المراسم التي ينبغي اتباعها في الجنائز وتلقين الأموات وكيفية دفنهم وكيفية خروج الروح من الجسد وتنقلاتها حتي تستقر في عالم الأنوار وأسباب تحريم البكاء أو إعلان الحداد ... الخ.

انظر : الليدي دراوور ، الصابئة المندائيون ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي ، الكتاب الأول بغداد 1969 ص 70 ، رشدي عليان ، المصدر السابق ، ص 123. المترجم.

(كتاب الأبراج) وكثير غيرها [1].

ولا يفهم محتويات هذه الكتب في الوقت الحاضر إلا القليل من الصابئة فرجال الدين وحدهم هم الذين يستطعيون قراءة وفهم هذه النصوص المقدسة عندهم وهم يعملون بجد وحماس على صيانة هذا الامتياز الذي يختصون به من تطاول رعيتهم. ولذا فإن من السذاجة أن يكتفي الصابئة الحاليون بالمآثر الشفهية التي حرفت إلى حد كبير عند انتقالها من جيل إلى آخر وأصبحت شديدة الاختلاف عمّا هو مكتوب في كتب الصابئة [2].

ونحن في الوقت الذي لا نريد فيه أن نعرض بشكل علمي دين الصابئة على أساس كتبهم المقدسة ، على الأقل بسبب من أن القسم الأغلب من هذه الكتب لم يترجم إلى اللغات الأوروبية ولم يدرس أبداً من قبل العلماء والباحثين ، فإننا سنكتفي بالاضطلاع بهمة أكثر تواضعاً هي عرض جوهر العقائد الدينية للصابئة بالشكل الذي يفهمها به أتباع هذه الطائفة القاطنون حالياً في العراق الجنوبي.

يقف على رأس الكون مانة ربه الواحد الأجل الخالد الذي يوجد

---

(1) يفتقر المؤلف هنا إلى الدقة فهناك الكثير من الكتب الصابئية التي تحمل أسم ديوان مثل « ديوان المة ريشايا ربه » و « ديوان اباشر » و « ديوان تفسير البغرا » ودواوين الرقي والتعاويذ وغيرها. كما إن كتاب آدم هو نفسه كتاب « سدره ربه » أو « كنزه ربه » الذي سبقت الإشارة إليه ، أما « سدره نمشوتو » فيبدو أن المقصود به كتاب « سدره أدنشماثه » أي كتاب التعميد وسر المعمودية المقدس. حول كتب الصابئة الدينية انظر : الليدي دارويور؛ المصدر السابق ، ص 65 - 75؛ رشدي عليان ، المصدر السابق ، ص 122 - 125. المترجم.

(2) Demis de Rivoyer. Op. cit. p. 281

بذاته وهو السبب الأول لكل شيء ومصدر النور والحياة. لكنه بالرغم من ذلك لم يخلق الكون مباشرة وإنما خلق 360 مخلوقاً من المخلوقات العليا فقط وجد كل منها بذاته بكلمة من مانه ربه. وأول من خلق من هؤلاء هو مار ادربوثا الذي أصبح رئيساً للآخرين ولهذا فإن الصابئة يبدأون صلاتهم دائماً بالدعاء له.

إذن هذه الكائنات العليا ليست آلهة ولكنها تعتبر مع ذلك أعلى من الملائكة ، وجميعهم متزوجون من كائنات مؤنثة تشبههم ولهم أطفال يولدون بشكل إعجازي. وبما أن مانه ربه أعطي كلاً منهم إحدى ممالك ألمة أد نهورا أي الجنة ليحكمها فإننا سوف نسميهم في حديثنا اللاحق ملوك الجنة وجميعهم يخضعون في تدرج دقيق لمار أدربوثا وبالإمكان تشبيه علاقتهم به بعلاقة الأمراء التابعين بسيدهم [1]. فهم يتسلمون منه الهبات على شكل سطوة جديدة يمنحهم إياها وعليهم بالمقابل ان يخضعوا له خضوعاً تأماً وأن ينفذوا كل ما يكلفهم به وأن يأتوه عند أول دعوة منه وإلّا فإنه سيفرض على من يخرج عن طاعته عقاباً شديداً وذلك بأن يجعل الأنهار والنباتات تجف في مملكته ويهلك أفراد عائلته.

وقصاري القول أن الكون عند الصابئة يذكرنا بنظام الحاكم في

(1) يشير المؤلف هنا إلى مؤسسة التبعية التي كانت إحدى مكونات الإقطاع الأوروبي الأساسية في القرون الوسطي وهي عبارة عن علاقة شخصية بين سيد وتابع كان أساسها في البداية عسكرياً حيث يتعهد التابع بالدفاع عن سيده عسكرياً مقابل حماية السيد له من غوائل الدهر ... وتعتمد التبعية الاقطاعية على واجبين أساسيين يؤديهما التابع لسيده هما الولاء والإخلاص. للتفصيل حول هذه الموضوع انظر : عبد القادر أحمد اليوسف ، العصور الوسطى الأوروبية ، 476 - 1500 ، بيروت ، صيدا ، 1967 ، ص 120 - 123. المترجم.

الشرق القديم ، حيث لا يقوم مانه ربه بنفسه بأي أمر شأنه في ذلك شأن أي ملك كلداني ، وإنما فوض مديراً خاصاً هو مار أدربوثا بإدارة مملكته جميعها بعد أن جعله رئيساً مفوضاً من قبله على جميع الملوك الخاضعين له. ويحتل نظام التدرج بحسب الأهمية المركز الأول بين هؤلاء الملوك كما أن كلاً منهم لا يحكم مملكته بنفسه وإنما بفعل ذلك بواسطة مساعد له أو شخص موثوق يفوضه بذلك.

ويحتل الملائكة الذين يقومون بمهمة الخدم المرتبة التالية بعد ملوك الجنة وهم ينقسمون إلى عدة طوائف تبعاً لنوع الخدمة التي يؤدونها ، فعضهم له أيدي تشبه الجاروف وهم مخصصون لشق الأنهار وحفر البحيرات وآخرون مهمتهم حراسة الريح وفريق ثالث ينفذ فقط ما يكلف به مثل ملك الموت ساوربيل الذي يرسل لقبض أرواح الأشخاص الذين انتهي أجلهم في الحياة الدنيا.

أما الملائكة الشريرون أو الشياطين فإنهم موجودن عند الصابئة أيضاً

حيث يتمثلون في الملوخونات [1] الذين يقومون بتعذيب المذنبين في جهنم أو الذين يحاولون غواية الناس ، أو الذي يتسببون في أي أذي أو فاجعة تصيب البشر. وهذا النوع الأخير من الشياطين يعيش على الأرض مختفياً في الخرائب والزوايا المظلمة ، وهم في ذلك مثل « الجن » لدى الشرقيين وجميع هؤلاء الملوخونات يتميزون بمظهر غير اعتيادي فبعضهم

له رؤوس وأطراف حيوانات متوحشة وبعضهم الآخر تكون عيونهم طولية بينما يمتلك فريق ثالث منهم أجنحة ، ويؤلف ما يسمى بـ « كرسة سايتة »

---

(1) الملوخون هو رمز لقوة قاسية متعطشة لكثير من الدماء والضحايا البشرية. المترجم.

المرحلة الانتقالية بين هؤلاء والبشر ، حيث يكون نصفهم بشر ونصفهم الآخر حيوان ويتميزون بالقسوة الشديدة إلى درجة بحيث ان من يتقمصونه لا يمكن أن تشفيه لا صلوات ولا تعاويذ عدد كبير من الكهنة [1].

وليس بالإمكان أن تعتبر جنة الصابئة أو ألمة أد نهورا أي عالم النور جنة بالمعنى المسيحي لهذه الكلمة لسبب بسيط هو إنها على غرار الممالک الأرضية ، فالواقع إن جميع الممالک الثلاثمائة والستين التي يتـــألف منها أملة أد نهورا لها نباتاتها وأنهارها ومدنها ، وفيها يمكن أن يوجد ، بإرادة ما أدربوثا الموت والحزن وذلک على الرغم من أن هذا المكان هو محل للنعيم الدائم. وسكان جنة الصابئة مخلوقات غاية في الكمال نظراً لأنه لا يذهب إلى هناک إلا الصابئة الصالحون ولكن ذلک لا يمنعهم من التعرض لنواحي الضعف عند البشر كالجزع والفضول والخوف وما أشبه. ومانه ربه لا يسكن في أملة أد نهورا وإنما يبعد مسكنه عن مقر الصالحين بمسافة طويلة جداً إلى درجة بحيث إنه عندما رغب ملوک الجنة الثلاثمائة والستون في أن يذهبوا إليه تحتم على مار ادربوثا أن يصلي لكي يمنحوا قوة خاصة تمكنهم من قطع هذه المسافة. ومع ذلک فإن هذه الصلاة لم تكف لقطع الطريق كله.

ويسمى العالم السماوي الثاني المة أد هشوخة وهو يشابه الأول في تنظيمه ولكنه أقل منه أهمية فهو المكان الذي يعيش فيه بعد الموت أولئک الصابئون بعد أن يكونوا قد كفروا عن خطاياهم في جهنم ويعيش فيه كذلک كل من هو من غير الصابئة ممن عاش حياة صالحة ، هذا مع العلم بأن سكان هذا العالم يفتقدون النعيم المطلق الذي يتميز به ألمة أد نهورا.

---

(1) M. N. Siouffi. Op. cit. p. 42 FF.

وكل من هذين العالمين أزلي لا يفنى كما يحدث بالنسبة للعالمين الفانيين الآخرين.

وهذان الأخيران يوجدان على الأرض وهما متساويان من حيث السعة ولكن الأول منهما عالم غير منظور وغير معروف ويسمى مشوني كشطة أي البلد العظيم وعلاقته بالثاني أي بالعالم المنظور كعلاقة اليد اليمني باليسرى. سكان الأول هم من أتباع الدين الصابئي وهم يشبهون سكان الأرض في كل شيء ولكنهم لا يأثمون ولهذا فإنهم يذهبون بعد الموت ال ألمة أد نهورا مباشرة كما أنهم لا يحلقون شعرهم أبداً كما إن جميع رغباتهم تتحقق بمجرد أن يتفوهوا بعبارة ميعنة تعلموها من السماء وهم لا يعترفون بالملكية الخاصة بل يمتلكون الأشياء على أساس مشاعي.

ويتحتم على الصابئة الذين يعيشون مثل بقية البشر في العالم الفاني الثاني المعروف باسم « اوردو - تيفل » أي « الأرض المكتسبة » [1] أن يمروا من خلال جهنم « مطراثة » قبل أن يدخلوا الجنة التي يفصلها عن جهنم نهر « نهره دخشاشة ».

ولا يعرف كيف خلق العالمان السماويان الأزليان. أما خلق العالمين الفانيين فقد حدث على ما تذكر مآثر الصابئة على النحو التالية :

فوض مانه ربه مار ادربوثا بخلقهما فعمد هذا وفقاً للأوامر التي تسلمها إلى إرسال أحد ملوك الجنة هو هيبل زيوا إلى العالم السماوي الثاني المة أد هشوخة لكي يأتي بروهية [2] وهي زوجة شخص يدعى

---

(1) يبدوا أن المقصود هو « أره تيبل » أي العالم السفلي. المترجم.

(2) يقصد الروهة وهي نفس الحياة المادية وأبناؤها السبعة هم الكواكب السبعة. انظر : الليدي دراوور : المصدر السابق : ص 46 ، 62 ، 88 ، ولكننا سنستمر على كتابتها بالشكل الذي أورده المؤلف. المترجم.

كارافيون. وبعد سفر طويل ومتعب استغرق مئات السنين وصل هيبل زيوا أخيراً إلى المكان الذي تقيم فيه روهية غير إنه تحتم عليه أن يجتاز عدداً كبيراً من المحن وأن يلجأ حتى إلى الحيلة بأن يتخذ شكل أخي روهية لكي ينتزعها من بيت والديها ويجلبها إلى ألمة أد نهورا. وبعد إثني عشر يوماً من وصولها ولدت روهية مولوداً ذكراً هو أورم الذي أصبح عملاقاً حقيقياً منذ أن بلغ عمره السنتين والنصف. عند ذلك بدأ هيبل زيوا بتكوين العوالم السبعة فأخذ حفنة من تراب الجنة ورماها في المحيط اللامتناهي الذي كان قائماً في المحل الذي يوجد فيه حالياً كوكبنا الأرضي ، فتكونت من ذلك التراب أرض صلبة كالحديد وضع عليها أور [1] الذي أقيمت على ظهره العوالم الستة الأخرى التي خلقت بنفس الأسلوب من ستة حفنات أحدها من الحديد والأخرى من النحاس والثالثة من الزئبق والرابعة من الرصاص والخامسة من الفضة والسادسة من الذهب.

ثم خلقت بعد ذلك السماوات السبع وأرسيت عليها الكواكب التي ما هي في الواقع إلّا أولاد روهية ولدوا لها بعد أن سقاها هيبل زيوا « ماء الحياة ». وفي الوقت نفسه قام الملائكة بطلب من هيبل زيوا بحفر أربعة أنهار عظام هي الفرات النوراني ودجلة المتألق وخاشتر العظيم وشارانک [2] التي كانت مياهها عذبة صالحة للشرب. وكان آخر ما خلق هو « المطراثة » السبع التي لم تكن إلّا جهنم التي تقع في أقصي الأرض.

وقد خلق مشوني كشطة أي العالم الفاني غير المنظور بنفس الطريقة التي خلق بها عالمنا الأرضي مع فارق واحد هو أنه من أجل إسكان الأول جلب زوجين من الجنة فيحين سكن في الثاني في بداية الأمر آدم كاورة

---

(1) أور هو تنين الأرض الهائل. المترجم.

(2) الأنهار هي دجلة والفرات والكرخة والكارون ـ المترجم.

قـدمايي ، أي أدم الإنسـان القـديم وزوجتـه حـواء المخلـوقين مـن التـراب وذريتهمـا ، وفـي الوقـت الـذي ينحـدر فيـه جميـع البشـر مـن آدم وحـواء فـإن الصـابئة كـانوا نتيجـة مباشـرة لـزواج آدم كـاوره مـن بنـت آدم كسـيه أي آدم غيـــر المنظور الذي يعيش في مشوني كشطة.

وبعد أن انتهى هيبل زيـوا مـن خلـق العـالم وإسـكانه ، استقر بـأمر مـن مار أدربوثا للعيش على حدو المطراثـة أي جهنم وفوض بثاهيل وهو أحد ملوك الجنة الثلاثمائة والستين الأشراف على هذه الأخيرة أي جهنم. وظهر أن بثاهيل كـان حاكمـاً صـارماً فهـو لـم يسـمح لأي روح بـدخول الجنـة وقد أدى إلـى أن تمتلـىء جهنم بشـكل تـام لـذلك بـادر هيبـل زيـوا فأرسـل ملـك المـوت سـاوربيل إلـى مشـوني كشـطة (العـالم الفـاني غيـر المنظـور) لكـي يقـــبض روح شيتهل [1] الصالح لتكون مثلاً يحتذي بـه لأرواح الآثمين. ولكن ذلـك لم يؤدي إلى نتيجة الأمر الذي حتم على مار ادربوثا أن يستدعي هيبـل زيـوا ويعين بدلاً منه ملكاً آخر ملوك الجنة هو أواتر [2] الذيكان أكثر تساهلاً

(1) يبـدو أن المقصـود هنـا هـو شـيتل الـذي هـو « أنقـى روح بشـري » والـذي توضـع روحـه فـي كفـة الميـزان فـي حـين توضـع فـي الكفـة الأخـرى روح الشـخص المتـوفى بعـد أن يكـون قـد مـرت بـالمطهر « فـإذا خفـت كفـة الـروح عـن كفـة شـيتيل أرسـلت لإعـادة تطهيرهـا وإن لـم يكـن كـذلك دخلـت فـي سـفينة نـور تبحـر فـي نهـر تحـيط بعـالم الأنـوار إلـى المـواطن الإلهيـة حيـث يقـيم ذووه الـذين توفـوا منـذ أقـدم الأزمان ». أنظر : الليدي دراووه ، المصدر السابق ، ص 282. المترجم.

(2) أبـاثر أو أواتـر موزانيـا مـلاك الـنجم القطبـي الـذي يـتحكم بـالموازين التـي تـوزن بهـا الأرواح ، وهو غير « أبـاثر رامـا » لأن هذا هو لقب هيبل زيـوا. أنظر : الليدي دراووه ، المصدر السابق ، ص 282 ، 159. المترجم.

فهو مثلاً لم يكن يري بأن من الواجب فرض العقاب على الشخص ذو الأفكار الآثمة طالما إنه لم ينفذ هذه الأفكار.

يتحتم على روح كل صابئي من سكنة كوكبنا الأرضي أن تمثل بعد الموت أمام أواثر بعد أن تمر قبل ذلك من خلال جهنم. ويؤدي إلى هذه الأخيرة طريقان أحدهما للصالحين والآخر للمذنبين ، يتطلب قطع كل منهما مدة مقدارها خمسة وسبعون يوماً. وتقطع أرواح الصالحين هذه المسافة دون مساعدة من أحد في حين يجر الروح المثقلة بالذنوب خادمان من خدم الجحيم. ويعمل أواثر على محاسبة كل الأرواح التي تمثل أمامه بمجرد أن تصل فالصابئة لا يؤمنون بيوم الحساب. ويسمح للأرواح التي تظهر نتيجة الحساب إنها نقية من الذنوب بالذهاب رأساً إلى مقر الصالحين ألمة أد نهورا بعد أن تأخذ من أواثر العلامة الخاصة الضرورية لعبور نهر « نهره دخشاشه » الذي يفصل الجنة عن النار. أما الأرواح المذنبة يحكم عليها بعقوبات مختلفة هي عبارة عن عدة أنواع من العذاب يعرضونها له تحت أشراف بثاهيل.

ويعتقد الصابئة بوجود خمسة أنواع أساسية من العذاب هي :

1 ـ يوضع الزناة في قصبة الأور الهوائية حيث يتعرضون للحرارة الشديدة أثناء زفير الأور وللبرد القارص عند شهيقه.

2 ـ يفرض على اللصوص عقاب يعرف باسم نوره دياقده أي نار جهنم ويتلخص في ربط أرواحهم في الأقسام الداخلية من مواقد جهنم.

3 ـ يكبل شهود الزور بالقيود ويوضعون في الحبس إلى أن يكفروا عن ذنوبهم تماماً.

4 ـ يوضع التجار الذين يخدعون زملاءهم بين صخرتين تقتربان وتبتعدان عن بعضهما بالتعاقب وبذلك تسحقان روح المذنب ثم تتركانها

وهكذا.

5 ـ النوع الخامس من العذاب مخصص للذين يكنون الضغينة للقريب وخصوصاً لأولئك الذين يصطلحون مع خصومهم في الظاهر ويبحثون في الخفاء عن وسيلة للإضرار بهم ويتلخص هذا النوع من العذاب بأن تربط أعناق المذنبين بسلاسل متدلية من الأعلى تضطرهم إلى الوقوف بشكل دائم في موضع واحد وفي موضع مشدود [1].

وهناك إلى جانب هذه الأنواع الأساسية أنواع أخرى من العقاب للذين يرتكبون آثاماً صغيرة فالجواسيس والأشخاص الذين يلفقون عمداً دعوى كاذبة وكذلك أولئك الذين يوقعون الأبرياء بدسائسهم تحت طائلة القضاء يلبسون ثياباً من الجليد ، والفضوليون وكذلك الذين يتسمعون من وراء الأبواب تثقب آذانهم بسلك متوهج ، والكذابون يفرض عليهم أن يحملوا بأيديهم جمراً يلسعهم بحرارته ولكنه لا يحرق. وهناك العديد من الذنوب الأخرى الأقل مرتبة ولكل منها أيضاً عقاب معلوم.

ولكن لكل عذاب من جهنم نهايته ، فكل روح آثمة تبقى في الجحيم مدة محددة تطول أو تقصر تبعاً لعدد وأهمية الذنوب التي ارتكبتها. وهكذا لا يفرض العذاب الأبدي إلّا على أرواح القتلة وأرواح الرجال الذين يقيمون علاقات مع فتيات دون القيام بطقوس الزواج المقررة وكذلك أرواح الصابئة الذين يلاحقون شخصاً من أبناء دينهم فيجبرونه بذلك على الانتقال إلى دين آخر.

وموقع جهنم يحدده النجم القطبي الذي هو مستقر لأواثر لذلك فإن الصابئة يولون أوجههم أثناء الصلاة شطر هذا النجم متصورين أنهم يرفعون

(M.N.Siouffi : op. cit. p. 126 ff) (1)

صـلاتهم لأواثـر نفسـه. ويـرفض الصـابئة الحـاليون ، مـع ذلـك ، بغضـب اتهـــامهم بـأنهم مـن عبـدة النجـوم ويؤكـدون بـأن نجـوم السماء تلعـب فـي حيـاتهم نفس الدور الذي تلعبه تقريباً في حياة شعوب الشرق الأخرى فهي تستخدم عند قراءة طالع المواليد الجدد أو عند تحديد الأيام أو الساعات المباركة للبدء بإنجاز أية قضية هامة كالسفر أو بناء بيت أو ما أشبه.

ويحصـي الصـابئة إثنـي عشـر كوكبـاً منهـا ـ ومنهـا الشـمس والقمـر ـ تعتبـر عليـا والخمسـة الأخـرى دنيـا. وجميعهـا تعتبـر كمـا ذكرنـا أعـلاه أبنـاء لروهيـة وهـي كائنـات حيـة لا تفنـى عنـد فنـاء العـالم كمـا يحصـل بالنسـبة للنجـوم التـي هـي أجسـام خاليـة مـن الـروح يمكـن أن تتحـول إلـى لا شـيء ، وإنما تنتقل إلى أد هشوخة. والكواكب خاضعة لمار ادربونـا ، وهـي بـدورها تسيطر على أبراج الفلك الإثني عشر وعلى النجـوم وعلـى ظـواهر طبيعيـة معينة كالعواصف والأمطار والزلازل ومـا أشبه ، إلـى جانـب تأثيرهـا علـى الحـوادث الأرضـية كـالرحروب والمجاعـات والأوبئـة ومـا شـابه ذلـك مـن الكـوارث. ولـهذا فـإن الصـابئة يعتبـرون الكـواكـب منفذة لمـا تقدره العنايـة الألـهية ورغم إنـهم لا يرتفعون بهذه الاجسام السماوية إلى مصـاف الألـهـة إلّا إنـهم يـكنون لـها قدراً معيناً من التقديس.

وتوجـد فـي ديانـة الصـابئة إلـى جانـب هـذه المعتقـدات التـي تكونـت بتأثير الأفكار الوثنية والمفاهيم الشرقية نتف مـن التعـاليم المسيحية شـوهها التصـور الخـاطئ لروح المسيح إلـى درجـة بحيـث لـم يعـد بـالإمكـان التعـرف عليها. فمثلاً يوجد لـدي الصـابئة ، إلـى جانـب الأسـطورة التـي سبق ذكرهـا عـــن حياة وأعمال يوحنـا المعمدان ، معلومـات عـن عيسـي المسيح أيضـاً. أنـهم لا يقرون بأنه ابن الله ويضعونه في مرتبة أدنى من يحيى. كذلك تظهر سيرة حياة المسيح كما تذكرها الأساطير الصابئية إلى أي مدى هم شوهوا

شخصية هذا المنقذ.

لقد حدثت ولادة المسيح الذي يعتبره الصابئة ابن خالة يحيى على أساس أن مريم العذراء على ما تذكر مآثرهم هي أخت لا ينشفي بشكل يشبه تماماً الشكل الذي حدثت فيه ولادة يوحنا المعمدان ، الفرق الوحيد هو أن الأب السماوي ليشو مشبهة (عيسى المسيح) لم يكن واحداً من ملوك الجنة الثلاثمائة والستين وإنما هو حاكم لإحدى الممالك التي تأتي أدنى من العالم السماوي ألمة أد هشوخة وهو شخص يدعى روهة دخشابة [1]. وقد فعل هذا الأخير كما فعل والد يحيى منداديهي فأعطى لمريم العذراء ماء عجيباً شربته فولدت ولداً هو يشو الذي بدأ بمجرد أن ظهر إلى العالم بالكلام والمحاججة كما يفعل الشخص البالغ. ونقل عيسى بعد أن بلغ عمره سنتين إلى الجنة مثل يحيى وهناك أطعمه من حلماتها شجرة مخزيون التي تدر الحليب وهناك أيضاً درس كل المعارف والعلوم. وعندما بلغ عمرة عشرة سنوات أتى به أبوه السماوي إلى يحيى الذي عمده في نهر الأردن. وما أن خرج عيسى المسيح من الماء حتى هبط إليه أبوه السماوي روهة تفجة بهيئة حمامة تحولت إلى صليب بعد أن وصلت إلى الأرض وكان ذلك إشارة إلى الطريقة التي سيموت بها يشو مشيهه ثم أوصى روهة تفجة ابنه أن يعمد أتباعه لا في النهر أو في مياه جارية كما يفعل يحيى والصابئة وإنما بالطريقة التي يتبعها المسيحيون منذ ذلك الوقت. وكان ذلك على ما يراه الصابئة بداية للانشقاق بينهم وبين المسيحيين.

---

(1) اللفظ الصحيح هو « روهة تفجة » وهو ما سنستخدمه من الآن فصاعداً. المترجم.

وقد صلب اليهود يشو فيما بعد لكن الصابئة يؤكدون بأن روحه كانت قد فارقت جسده قبل أن يصلب لذا فإن الذي سمر إلى الصليب لم يكن إلّا جثة خالية من الحياة. وكانت آخر الكلمات التي وجهها يشو إلى أتباعه قبل أن يموت هي الطلب منهم أن لا ينتقموا له لأنه سينتقم لنفسه من اليهود بنفسه في يوم القيامة [1].

أما عن قيامة عيسى المسيح هذه فتذكر المآثر الصابئية بأن المسيح يظهر على الأرض قبل نهاية العالم بفترة طويلة ويصبح السيد الوحيد للكون فيقضي على جميع الأديان ويستبدلها بالمسيحية. ويبقى الصابئة وحدهم مخلصين لمعتقدهم رغم أنهم يعترفون بسلطة يشو الزمنية. وسوف يسعى المسيح لأن يلتقي مع الصابئة ويحدث اللقاء أخيراً في مدينة كبيرة تحيطها أحراج القصب أي في العمارة لأن هذه المدينة ينطبق عليها هذا الوصف أكثر مما ينطبق على أية مدينة أخرى. وبعد أن يصل المسيح إلى هناك يطلب من الصابئة اعتناق المسيحية لكنهم يرفضون ولا يريدون التعميد على الطريقة المسيحية ، فيهددهم بقتل جميع الصابئة لكنهم يشيرون له إلى موضع في الكتاب يذكر فيه أن أي صابئي يموت بيدي عيسى المسيح عاري الرأس يتجاوز جهنم ويذهب مباشرة إلى الجنة ، لذا يكشف الصابئة جميعهم عن رؤوسهم ويمدون أعناقهم مستعدين لاستقبال الموت. وبعد أن يرى المسيح قوة إيمانهم يتركهم بسلام.

بعد هذه الحوادث يختفي جميع الصابئة من على وجه الأرض ويفقد الماء لونه الطبيعي ويتلون بجميع الألوان المعروفة ويفقد الناس

(M.N. Siouffi. op. cit. 163 ff.) (1)

الذين يستعملون هذا الماء قدرتهم على التناسل فيتطلب الأمر تدخل أحد ملوك الجنة وهو باور زيوا لبعث الصابئة إلى الحياة أخرى ، حيث يهبط من أجل ذلك إلى الأحواز يرافقه جميع الصابئة العزاب الموجودين في الجنة والنار فيزوجهم من ساكنات مشوني كشطة (العالم الأرضي غير المنظور) فيصبح لون الماء قاتماً مرة أخرى ويفقد خاصيته المميتة حتى أن الصابئة يتكاثرون بشكل كبير خلال فترة قصيرة. غير إن هذه البحبوية من العيش لا تستمر طويلاً حيث لا يلبث الماء أن يفسد مرة أخرى فيفقد الصابئة قدرتهم على التناسل ويصل بأسهم إلى درجة بحيث يصبح الواحد منهم مستعداً لأن يتخلى دون تفكير عن زوجته للآخر على أمل أن يكون له خلف.

وتكون أيام هذا الياس علامة على حلول نهاية العالم التي تكون على النحو التالي : يأمر مار اربوثا كلاً من أواثر وبثاهيل أن يعودا إلى مملكتيهما في ألمة أد نهورا (الجنة) بعد أن يصطحبا معهما جميع الأرواح التي ما زالت باقية في المطراثة (جهنم) التي تلغي اعتباراً من تلك اللحظة. بعد ذلك يطلق هيبل زيوا الرياح الأربعة فتدمر كل شيء يعترضها وترفع الشر في الهواء حيث تغادر أرواحهم أجسادهم الفانية وتتوجه إلى ألمة نهورا مباشرة. وفي نفس الوقت الذي تجري فيه هذه الحوادث تتنقل الشمس والمقر والكواكب إلى أماكن أخرى وتسقط النجوم من مواضعها وتفنى وتطوى السماوات السبعة وتدخل في حلق الأور الذي ينتفض بأمر من هيبل زيوا فيؤدي به ذلك إلى أن ينشطر إلى اثنين. أما الأراضي السبع فتعود إلى شكلها الأول أي الماء.

بعد أن انتهينا من الأسفار الدينية الخاصة بالصابئة ومن أساطيرهم الدينية حول أصل الآلهة ونظام الكون الفريد في نوعه ننتقل إلى الناحية

الطقوسية من الديانة الصابئة ، وسنبدأ ذلك بالحديث عن رجال الدين الذين يلعبون في حياة الصابئة دوراً غاية في الأهمية.

إن الأهمية التي يتمتع بها رجال الدين الصابئة يحتمها أن الصابئة لا يرون فيهم مجرد رعاة ومشردين وإنما يعتبرونهم أيضاً وسطاء بينهم وبين سكنة السماء. ولهذا يتمتع رجال الدين عند الصابئة بنفوذ واحترام كبيرين. فهذه الطائفة لا ترى أن من الواجب عليها أن تعيل رؤساءها الروحيين فحسب وإنما أن تحيطهم أيضاً بكل أسباب الراحة التي تليق بمقامهم. ولهذا فكل صابئي يقوم إلى جانب ما يدفعه مقابل الطقوس التي يطلبها. يمنح رجال الدين هدايا اختيارية تصل في مجملها إلى خمس دخله الصافي.

ورجال الدين الصابئة على ثلاث مراتب هي : الشكندة أي الدياكون والترميدة ، أي القس والكنزفرة أي الأسقف [1]. والطريق إلى منصب القس يكاد يكون مسدوداً تماماً بالنسبة للعلمانيين فإلى جانب النفقات الكبيرة التي يتطلبها الإعداد لهذا المنصب الديني والذي يستمر لمدة اثني عشر سنة كاملة يتحتم على المرشح أن يبرهن أيضاً على نقاء وشرعية أصله إلى الجيل الثالث على الأقل ، كما إن من الشرط الحتمية الأخرى هو أن يكون الشخص خالياً من أي عيب جسماني مهما كان حتى ولو كان ذلك أصبع زائد في الرجل ، ولذا فإن من يرغب في أن يصبح رجل ديني يتعرض لفحص مسبق من جانب القساوسة. ولهذا فليس هناك ما يدهش مع وجود مثل هذه القيود ، في أن تحتكر المناصب الدينية من قبل بضعة عوائل تنتقل

(1) هناك مرتبة أعلى من مرتبة الكنزفرة هي مرتبة « ريش أمة » ، لكن أحد من رجال الدين الصابئة لم يصل إلى هذه المرتبة منذ فترة طويلة. المترجم.

فيها من الأب إلى الإبن ولا ترغب هذه العوائل في التخلي عن الفوائد العديدة التي يوفرها لها وضعها الحافل بالامتيازات. أما عن منصب الدياكون أي الشكندة فيختارون له عادة اولاد رجال الدين وهم في سن السابعة حيث يسلمونهم للقسس لكي يعلموهم ويظلّوا عندهم إلى أن يبلغوا التاسعة عشر من العمر يمنح بعدها المرشح رتبة دياكون حيث يساعد القس أو الأسقف في أداء الخدمة الدينية ويبقى في هذه المرتبة إلى أن يكرس قساً أي ترميدة وعليه لكي يصل إلى ذلك أن يحصل على موافقة الرعية التي يمكن أن تعترض على ترشيحه فيفقد بذلك الحق في الترقية.

والتكريس نفسه له طابع خاص وهو يستمر عادة من شهرين إلى بضعة أشهر يجري خلالها القضاء على نوازع الجسد. عند البدء بالتكريس يأمر القس ببناء كوخين متقاربين من القصب يقضي الشخص الذي يراد تكريسه في أحدهما ليلة كاملة وهو يصلي حيث يمنعه الأشخاص الذين يعينون لحراسته من النوم. وفي اليوم التالى ينقل الممتحن إلى الكوخ الثاني في حين يحرق الكوخ الأول إشارة إلى أن القس الذي تخلي عن الدنيا لن يستطيع بعد الآن العودة إليها. ويقضي الترميدة (القس) المقبل ستة أيام وستّ ليالٍ متوالية دون نوم حيث يقوم القسس الذين يرافقونه بمراقبة سيئ الحظ هذا ووخزه بالدبابيس أو بالمسامير كلما يبدأ النعاس بالتغلب عليه. ويتحتم على الشخص الذي يجري تكريسه في خلال هذا الأسبوع أن يتبرع لشؤون الخير بالقدر الذي تسمح به حالته.

وتجري للشخص المراد تكريسه في اليوم السابع الذي رتب الأمر بحيث يكون يوم أحد ، مراسيم الدفن ليكون ذلك دليلاً على موته الحقيقي بالنسبة للدنيا ثم يجري له أربعة قسس مراسيم التعميد في النهر ، وعليه في

خلال الستين يوماً التي تلي ذلك أن يغطس في النهر ثلاث مرات في اليوم وأن لا يخلع ملابسه المبتلة قبل أن يؤدي الصلاة المقررة وذلك بغض النظر عن حالة الجو ومهما كان الفصل السنوي. ويتألف طعامه أثناء فترة التكريس من لحم الخروف والطيور والخبز الذي عليه أن يعدّه بنفسه وأن يغطسه في الماء سبع مرات قبل تناوله وتزداد التجربة صعوبة بسبب من أن
هذه الأيام الستين يمكن أن تمدد فتصبح ثلاث أو أربعة أو حتى خمسة أشهر وذلك لأنهم لا يحسبون إلّا الأيام التي لم يدنسها شيء حتى لو لم يكن الخاضع للتجربة نفسه السبب في هذا التدنيس إذ يكفي أن يكون الفاعل زوجته أو أمه ، كذلك تحذف أيام الإصابة بالأمراض من الحساب. وبعد مرور ستين يوماً خالية من الدنس يعمد الشخص المراد تكريسه في النهر مع زوجته وأمه إذا كان له زوجة وأم. ويقوم في اليوم التالي بتوزيع صدقة جديدة فيصبح اعتباراً من تلك اللحظة ترميدة أي قساً حقيقياً بإمكانه أن يقوم للآخرين بطقس التعميد وهو من واحد من أهم الطقوس في ديانة الصابئة.

أما الصعوبات والمحن التي يصادفها الشخص المراد تكريسه أسقفاً وهو شخص يختاره القسس من بين صفوفهم فتكاد تكون أكثر من ذلك. على المنتخب قبل كل شيء أن يقرأ المسختة فهو قداس على روح الميت سنفصّل الحديث عنه فيما بعد. ثم يجري تعميده في النهر طيلة أيام الأحد الثلاثة التالية. وعلى المنتخب في أثناء ذلك أن يظهر مدي علمه ومن أجل ذلك يجبرونه بعدد من الوسائل على أن يقرأ أمام مجمع القسس وبصوت عالٍ الكتب الرئيسية الثلاث المقدسة عند الصابئة وأن يفسر المواضع الصعبة والغامضة فيها.

بعد هذا الامتحان الأولى يحل الجزء الأصعب من التجربة وهو إلزام

القس الذي تقرر أن يكون أسقفاً قبل أن يتسلم الرتبة التي يريدها أن يكون حاضراً عند وفاة أحد الصابئة رجلاً كان أم أمرأة على أن يكون صالحاً عاش حياة لا غبار عليها باعتراف الجميع. لكن إيجاد مثل هذا الشخص الصالح ليس أمراً ممكناً على الدوام في حين أن تكريس الأسقف لا يمكن أن يجري بدون ذلك لأن على الشخص الذي يجري تكريسه أن يهمس في أُذن المحتضر بكلمات معينة لينقلها عنه إلى أواثر ، هذا فضلاً عن أنه ينبغي عليه قبل أن تجري المصادقة نهائياً على الرتبة أن يبارك زواج قسٍ يقوم هو بدفع نصف الصداق لزوجته. وينتهي التكريس يقوم بامتحان الأسقف الجديد خلاله بتعميد جميع القسس في النهر فيصبح من حقه بعد ذلك عقد الزواج الذي يعتبر من امتيازات الكنزفرة. ورجال الدين الصابئة لا تشترط فيهم العزوبة فكل رجل دين بإمكانه أن يتزوج مرات تصل إلى الثلاث فيما إذا كانت زوجتاه الأولى والثانية قد توفيتا قبل الأوان [1]. ومما يميّز رجال الدين الصابئة أيضاً امتناع الأساقفة والقسس عن تناول الطعام مع الغير حتى لو كانوا من أقربائهم لأن لمس الشخص العلماني لطعامهم يدنسه. ولا ينطبق ذلك على الدياكون. وينطبق ذلك أيضاً على مياه الشرب التي يجلبها القسس والأساقفة من النهر بأنفسهم بعد أن يغسلوا فيه الجرة ما لا يقل عن سبع مرات. وعلى العموم فإن كل شيء يعود إليهم يتدنس عندما يمسه الغير ولذا يجب أن يغسل في النهر أو في مياه جارية على الأقل [2].

(1) الواقع أن الجمع بين أمرأتين فأكثر ليس محرماً عند الصابئة وإنما لم يكن مستحباً فحسب ، فكثير منهم بما في ذلك رجال الدين يجمعون بين أكثر من امرأة : انظر : الليدي ادراوور ، المصدر السابق : ص 117. المترجم.

(2) (T.M. lycklama a nijeholt : op. cit. p. 231 ff)

تتضح مما ذكرنا الأهمية الكبرى التي يرتديها التعميد والغسل في حياة الصابئة لذا يفضل اتباع هذه الطائفة السكن على ضفاف الأنهر أو بالقرب من المياه الجارية.

لكن التعميد لدي الصابئة لا يطابق المفهوم المسيحي القائل : « تعميد واحد يمحو الذنوب » فهو يجري عندهم مرات لا تحصى ولأي سبب كان فيجري مثلاً في كل يوم أحد أو يوم عيد وعند العودة من سفر إلى بلد إسلامي أو مسيحي وبعد لمس الميت ، وعندما يتعرض الشخص لعضة كلب أو حية أو حيوان متوحش أو عندما يتذوق لحم حيوان لم يذبحه الصابئة أو يحرم أكله عندهم وهكذا لكن الحالات الأساسية التي يجري فيها التعميد هي :

1) التعميد الذي يجري للوليد عندما يبلغ السنة الأولى من العمر لأنه يمكن للوليد الجديد من الانضمام إلى الصابئة المؤمنين.

2) التعميد الذي يجري للعريس والعروسة عند زواجهما. وليس بمقدور أي صابئي أن يتجنب هذين العمادين في حين يسمح باستبدال الأنواع الأخرى من التعميد بمجرد الاغتسال.

ويجري تعميد المواليد على النحو التالي : يذهب القس في يوم الأحد أو في يوم أحد أيام الأعياد إلى ضفة النهر وهو في كامل حلّته التي تسمّى رسته ومعه الوالد الذي يراد تعميده وهناك تقرأ الصلاة ويلبس رسته أيضاً. ثم يسأل القس أم الولد عن اسم وليدها فتسلمه ورقة صغيرة كان القس نفسه قد كتب عليها مسبقاً الاسم الذي أظهرت الحسابات التنجيمية بأنه أسعد الأسماء. وبعد أن يقرأ الترميدة « القس » صلاة قصيرة يضع في اصبع الطفل الذي يحمله الدياكون على يديه - فالدياكون يكون أثناء التعميد بمثابة الإشبين ـ حلقة من أغصان الأس. بعد ذلك يدخل القس

والدياكون والطفل ثلاثتهم إلى النهر ويخوضون في الماء حتى الركب دون أن يرفعوا أذيال ملابسهم ثم يقوم القس برش الطفل ثلاث مرات بماء يغترفه من النهر يحفناته مردداً عبارة « أنت تتعمد عماد الثلاثة (ثم يهمس مع نفسه) مانه ربه ، منداهي ، يحي يوحنا » وعند خروجهما من الماء ينزع القس حلقة الأس من أصبع الطفل ويضعه على رأسه ثم يبدا بعملية دهنه بالزيت المعطر.

يركع القس في البداية على ركبتيه ويرمي يعض البخور في نار جرى إشعالها في موقد صغير متنقل ويمسك الدياكون الطفل فوق النار بحيث يصيبه دخان البخور. ثم يسكب الترميدة بعد ذلك في راحة يده اليسرى بضع قطرات من زيت السمسم المعد خصيصاً لطقس التعميد يغمس فيها أطراف يده اليمنى ثم يمررها على جبين الطفل من أحد الصدغين إلى الأخر مردداً عبارة : « ختم الحي » ثم يمررها على رقبته ويقول : « اسم الحي واسم منداد هيي منطوقان عليك ». بعد ذلك يدهن بالطريقة نفسها بطن الوليد ثم يمسح يديه في الختام بأيدي الطفل ويقرأ صلاة الختام التي يغطي الدياكون في أثنائها وجه الطفل بيديه أو بيدي الطفل نفسه. وبعد هذا كله يقّبِل القس قلنسوته ستين مرة ، أما إذا كان من يقوم بالتعميد أسقفاً فإنه يقبل عصاه ويرفع الدياكون طوق الأس الموضوع على رأس الطفل ويمس به شفتي وجبين الطفل ثم يرميه في النهر ، وهنا تنزع عن الطفل الحلة المقدسة « رسته » وينتهي الطقس.

أما الاغتسال فإن الصابئة يمارسون في كل مرة يريدون فيها تجنب التعميد لسبب ما. ويعتبر الاغتسال إلزامياً عند نزف الدم سواء حدث ذلك عرضاً أم بشكل مقصود كالحجامة مثلاً وكذلك بعد المشاجرة والمرض وفي حالة تناول الدواء وبعد الأكل عند شخص غير صابئي ... الخ.

والاغتسال كالتعميد يتوجب أن يجري في النهر والصابئي عندما يزاوله ينزع ملابسه كلها ويبدأ بغسل شعره علماً بأن الأشخاص الصالحين لا يقصون شعرهم أبداً ثم ينزل بعد ذلك إلى الماء ويجعل وجهه ضد التيار ثم يغطس بالماء ثلاث مرات مردداً صيغة التعميد وقارئاً بعدكل غطسة الصلاة المقررة. وعندما يخرج إلى الشاطئ يغسل وجهه ويمرر يده الرطبة على جبينه ثلاث مرات ثم يدخل أصابعه المبللة في أذنيه ومنخريه ثلاث مرات ويتمضمض ثلاث مرات وأخيراً يغسل رجليه في الماء ثلاث مرات ويدفع الماء عن نفسه إلى النهر ثلاث مرات. وبعد ذلك يلبس الصابئي ثوباً نظيفاً ابيض فيعتبر طقس الاغتسال منتهياً. وتقوم النساء بهذا الطقس بكل تفصيلاته مع فارق واحد فقط هو أنهن ينزلن إلى النهر بملابسهن.

ويشبه الصابئة في مراعاتهم الدقيقة للنظافة والاغتسال بعد كل دنس اليهود الذين أخذوا عنهم أيضاً على ما يبدو عادة الاقتصار في أكلهم على لحوم حيوانات معينة يشترط أن يذبحها القسس أو جزارين خاصين [1]، يسمح لهم رجال الدين بمزاولة هذه الحرفة التي يبجلها الصابئة بعد التأكد من أن أصلهم وحياتهم لا تشوبها شائبة وأنهم خالون من أي نقص بدني.

أما اللحوم التي يسمح بتناولها عند الصابئة فهي لحم الخروف (وليس النعجة) والدجاج وبيض الطيور وبعض الأسماك. أما لحم البقر والثيران والجاموس فهي محرمة كلياً [2].

وهناك قواعد معينة ينبغي الالتزام بها عند ذبح الخروف سواء قام

---

(1) يطلق الصابئة على هؤلاء اسم « الحلالية » ومفردها « حلالي ». وهي التسمية التي سنستخدمها من الآن فصاعداً. المترجم.

(2) (T.M. lycklama a nijeholt : op. cit. p. 234 ff)

بذلك القس أو الحلالي ، وإذا لم تراع فإن الحلإلى وكل من يأكل اللحم يعتبرون نجسين وملزمين بأن يتطهروا بالتعميد ، وهذه القواعد هي على النحو التالي : يوضع الخروف بعد أن تربط أرجله على حصران مفروشة على الأرض بحيث يكون رأسه متجهاً نحو الشرق وهذا الوضع يتيح للحلالي أن يتجه بوجهه نحو الوجه القطبي وأن يمسك برأس الحيوان بيده اليمني. وينبغي أن يحضر الذبح شاهد يتحتم أن يكون دياكون إذا كان الذي يقوم بالذبح قساً وشخصاً عادياً إذا كان من يذبح الخروف حلالياً اعتيادياً. ويقرأ من يقوم بالذبح في اللحظة التي يذبح فيها الخروف الصيغة الموضوعة لهذه المناسبة ، ثم يقرأ بعد ذلك عندما يقوم بغسل يديه والسكين بالماء صلاة جديدة يشهد فيها على أن الذي قام بذبح الحيوان هو فلان (يذكر اسم الشخص) ويطلب الصفح من مانه ربه ومندادهيي وتراعي القواعد نفسها عند ذبح الدجاج وكل ما ينتمي إلى عالم الطيور بوجه عام وذلك بأن يغسلوا بالبداية أرجلها ومناقيرها ثم يمسكوها من الجناحين والرقبة ويذبحوها مولين أوجههم شطر النجم القطبي ، ولا يسمحون للطير المذبوح بأن ينتفض على الأرض وإنما يضمون رأسه تحت الجناح ويمسكون به بأيديهم إلى أن يموت.

ويلتزم الصابئة المتدينون بقواعد الاقتصار على تناول اللحم الحلال [(1)] بدقة وصرامة إلى درجة بحيث أنهم لا يأكلون أثناء السفر في بلاد لا تدين بدينهم وكذلك عند وجودهم في بيت شخص غير صابئي ، إلّا لحم الحيوانات التي يذبحونها بأنفسهم بل حتى الخبز يحاولون أن يصنعوه

---

(1) أي لحم الحيوانات المسموح بأكل لحومها والمذبوحة على الطريقة الصابئية ـ المترجم.

بأنفسهم.

إن نموذج الشخص الصالح لدى الصابئة هو من ينفذ بدقة الطقوس والقواعد الدينية والذي يتميز بالإضافة إلى ذلك بالبر وحسن الخلق والتواضع وأحترام الوالدين والاستقامة. ومن الاعمال التي يحمد عليها كل صابئي موسر تكلفه بنفقات استنساخ الكتب المقدسة حيث يقدم لهذا الغرض مبلغاً معيناً من النقود إلى واحد أو أكثر من القسس تبعاً لعدد الكتب التي يرغب في استنساخها.

ويستحق الصابئي الذي يفي بكل هذه الالتزامات أن يقام له إذا رغب طقس خاص يسمى « مسخثه » [1] ومفاده أن يقام عليه قداس الميت وهو حي ويحبذ الصابئة المتدينون أن يقام لهم هذا الطقس تحسباً للموت المفاجئ أو الوفاة في الصحراء أثناء السفر أو في أية ظروف مشابهة يكون فيها المتوفي قد تعذر عليه الاغتسال أو ارتداء الحلة المقدسة « رسته » مما يؤدي إلى أن يحكم على روح هذا الصابئي أن تبقى مدة طويلة في الجحيم.

والصابئي الذي يجري له طقس « المسخثه » يسمى بعد إجراء الطقس « شالمونة توبة » [2] أي « المؤمن الطاهر » ويعتبر بمثابة الميت لذا فليس من حقه أن يصدر أي أمر مهما كان بسيطاً إلى أي كان حتى زوجته وأولاده ، إنه لا يستطيع حتى أن يطلب منهم أن يعطوه قدحاً من الماء وإنما يتحتم

(1) المسخثه عند الصابئة قداس يقام على الميت أو من هو حكم الميت. المترجم.

(2) التسمية هي « شالمانه متهمين » وهي التي سنستعملها من الآن فصاعداً. المترجم.

عليه أن يأتي به بنفسه وطبيعي أنه ينبغي على الشالمانه متهيمن بشكل خاص أن يكون صارماً في تجنب أية رذيلة وأن يمتنع عن ارتكاب أي إثم أو دنس ، وهو ملزم بنفس الدرجة من الصرامة بأن يتحمل دون تذمر الهموم البسيطة والأحزان العميقة على السواء وأن يكون راضياً بكل شيء وسعيداً على الدوام [1]. وإذا لم تكن زوجة هذا الشخص الذي انقطع عن العالم راغبة في التوائم مع النمط الجديد لحياة زوجها يعطونها الطلاق ، لكن النساء الصابئيات نادراً ما يلجأن إلى الطلاق لأن الصابئة يحتقرون المطلقات احتقاراً شديداً حتى أن الصابئي الذي يتزوج مطلقة يفقد إلى الأبد حقه في أي منصب ديني أو في أن يختار حلالياً وعلى العموم يتخلى الناس عن اعتباره شخصاً صالحاً.

ولا يجري طقس « المسخثه » إلّا الأسقف الذي يقوم بمصاحبة أربعة أو خمسة قسس باقتياد الشالمانه متهيمن المقبل إلى المعبد أو إلى المكان الذي يقوم مقامه حيث يقضي الأخير سبعة أيام بلياليها في تهجد وصلاة دائمين. ويجلب القسس المشاركون في إقامة الطقس معهم في اليوم الأول مقداراً معيناً من الحنطة والسمسم ويذبحون الحمامة ويجمعون دمها في إناء خاص ثم يطحنون الحنطة برحي يدوية ويصنعون من الطحين ستين قرصاً من الفطائر حجم الواحدة بحجم ثمرة التين تخبز في موقد متنقل ثم توزع بعد ذلك بين الأسقف والقسس الذين يقرأون على كل قرص منها صلاة خاصة يكررونها ستين مرة. وعند انتهاء الصلاة يضعون على كل قرص نقطة من كل من زيت السمسم ودم الحمامة ويقدمون ثلاثة منها إلى « الشالمانه متهيمن » الذي يأكل واحداً منها في الصباح والآخر عند الظهر

---

(1) (M.N siouffi : op. cit. p. 95 FF)

والثالث في المساء بعد أن تضاف إليها كمية قليلة من اللوز والجوز والكشمش. أما السبعة والخمسون قرصاً الباقية فإنها تدفن في الأرض في سورة المعبد إشارة إلى أن « الشالمانه متهيمن » قد دفن بالنسبة للعالم. وتتكرر هذه العملية طيلة الأيام السبعة. وفي اليوم الثامن تقام وليمة عند الأسقف يشارك فيها « الشالمانه متهيمن » حيث تقرأ عليه قبل انتهاء الأكل

صلاة الميت يقرأها جميع الحاضرين وهم وقوف يمسك كل منهم بيده بآخر لقمة من الطعام لا يضعها في فمه إلّا بعد انتهاء الصلاة. وهكذا ينتهي « المسخثه » ويتمتع الصابئي الذي أجري له باحترام لا يقل عن الاحترام الواجب لرجل الدين بحيث أن من يلتقي به من أبناء دينه ينحني له انحناءة كبيرة.

ويجري طقس « المسخثه » للأموات أيضاً ولكنه يقتصر على الذين ينتمون إلى الطبقات الموسرة منهم لأن حتمية اشتراك أسقف وعدد من القسس لا يقل عن أربعة تتطلب من الورثة مصاريف باهضة تدفع كمكافأة للذين يقومون بهذه الخدمة الدينية. أما مراسيم الدفن فتكون في العادة على النحو التالي : يقوم الدياكون الذي يجب أن يتواجد عند فراش كل مريض شديد المرض بأجلاس المريض بمساعدة أقاربه وذلك بمجرد أن يلاحظ حلول ساعة احتضاره ثم يصب عليه في البداية ماءً دافئاً بارداً ويبدأ بذلك من الرأس ويقوم بقراءة الصلاة المقررة نيابة عن المحتضر إذا كان هذا في حالة لا تمكنه من أن يقرأها بنفسه.

وبعد أن يغسل المتوفي يوضع بحيث يكون وجهه باتجاه النجم القطبي ويلبسونه « الرسته » أي الحلة المقدسة عند الصابئة وهي حلة من القماش الأبيض تتألف من القطع التالية :

1) السروال.

2) القميص.
3) « كنزاله » أي العمامة التي يلفون بها الرأس بحيث تترك إحدى نهاياتها مدلاة فوق الكتف الأيسر.
4) « النصيفة » وهي نوع من الطبرشيل يلقي على الكتف إلى جانب العنق ويتدلى من الأمام حتى الركب.
5) « الهميانة » وهو حزام من الصوف يصنعه القسس بأنفسهم.
6) « القبوعة » وهي قطعة القماش لها أربع زوايا ، ترمى على الرأس بطريقة بحيث تلفه من الجانبين [1].

ويقوم مقام التابوت قفص من الصفصاف يقوم أربعة دياكونات بوضع المتوفى فيه ثم يحملون الجثة يتقدمهم أكبرهم على نقالة إلى المقبرة حيث يباشر الدياكونات بعد وصول الموكب الحزين بحفر القبر بأنفسهم ، ثم يسجى المتوفى في القبر بحيث يكون وجهه متجهاً نحو النجم القطبي. وبعد ذلك يقوم الدياكون الأقدم ، الذي كان قد ضرب الضربات الثلاث الأولى بالمعول عند حفر القبر ، برمي ثلاث حفنات من التراب على الجثة المسجاة في القبر ثم يحذو حذوه الحاضرون جميعهم.

وعند العودة من المقبرة يقيمون وليمة جنائزية يقرأ القسس في نهايتها صلاة الأموات بحيث يسمعها الجميع وهم وقوف ممسكين بأيديهم بآخر لقمة من الطعام يضعونها في أفواههم بعد انتهاء الصلاة. وتعتبر

(1) يبدو أن الأمر التبس على المؤلف فالرسته الكاملة للفرد العادي تتألف من خمس قطع فيحين تحتوي رسته الكاهن على سبع قطع ، والقبوعة هي نفسها النصيفة ، أما الكنزاله فهي النصيفة أيضاً عندما توضع على الرأس بهيئة خاصة أثناء إجراء « الرهمي » والتي هي عبارة عن أدعية تمهيدية للتكريس. انظر : وصفاً كاملاً للرسته في : الليدي دراوور ، المصدر السابق : ص 77 - 80. المترجم.

الوليمة الجنائزية أمراً حتمياً حتى بالنسبة للفقراء ولو كان كل ما يقدمه هؤلاء من الطعام يتألف من الخضراوات وحدها. أما الأغنياء فإنهم يقيمون ولائم جنائزية في يوم الدفن وكذلك في كل من اليوم الثالث والسابع والخامس عشر والأربعين والستين بعد الوفاة.

ومن بين الطقوس الأخرى التي ترافق الأحداث الأكثر أهمية في حياة الصابئة والتي ينبغي أن نشير إليها الزواج الذي يحمل طابعاً خاصاً تماماً :

يحاول الشاب في البداية أن يحصل على موافقة من يختارها فيرسل لهذا الغرض الخاطبات إلى الفتاة التي راقت له. وبعد أن توافق يفوض الشاب الأسقف أو القس بطلب يدها من أبيها ويقوم هذا بعد أن يصغي للمبعوثين بالانفراد ، كما يقضي العرف ، في غرفة منفصلة للتشاور مع زوجته وابنته. ويحدد الخاطبون في حالة الموافقة بالاتفاق مع أب العروس رأساً المبلغ الذي يتوجب على العريس أن يهديه إلى الفتاة ، كمهر ذلك أن الصداق [1] لا يدفع عند الصابئة حتى لو كانت المتزوجة من بنات الأغنياء. وفي الصباح التالى تجلب قريبات العريس للعروس نيابة عنه خاتمين أحدهما من الذهب والآخر من الفضة ويضعنها في أصابعها ثم يشبكن شعرها بثلاث قطع من الذهب ويضمخن يديها ورجليها بالحناء [2].

---

(1) يقصد المؤلف هنا الأموال والأمتعة التي يدفعها والدا الفتاة عند زواجها. المترجم.

(2) تعطي أوراق نبات Law sonia inerms بعد أن تجفف وتطحن لوناً أحمر. إن عادة صبغ الأيدي والأرجل بالحناء منتشرة لدى المسلمين ـ الشيعة. [الواقع إن استعمال الحناء لا يقتصر على الشيعة فقط ، بل تستعمله نساء الشرق بوجه عام] المترجم.

ويستمر طقس الزواج الذي لا يجريه إلا الأساقفة ثمانية أيام ويتحتم أن يبدأ في يوم أحد فتتوجه الفتاة يرافقها إثنان من القسس (ترميدة) إلى النهر حيث يعمدها الاثنان بالتعاقب ، ثم يعمد العريس مرتين بنفس الطريقة أيضاً ، وبعد ذلك يستبدل الشابان المقبلان على الزواج حلتهما المقدسة (رسته) بملابس العيد ويذهبان إلى بيت الأسقف ويظلان فيه طيلة أسبوع العرس ، حيث يكون مكان العروس قد أعد في غرفة خاصة تحجبه ستارة من القماش ، أما العريس فيقيم مع المدعوين في فناء الدار في كوخ مصنوع من أغصان الصفصاف.

وبعد أن يسكن الأسقف العروسين في بيته يفوض ثلاث نساء معروفات بالاستقامة ولا تربطهن ببعض علاقات القربى بالتأكد من عذرية العروس فيفعلن ويعلن عن ذلك بصرخة معينة [1] يكررنها ثلاث مرات في حالة تأكدهن من عذرية العروس ، ومرة واحدة في حالة العكس ، ويكون من حق العريس إذا ما كانت نتيجة الفحص سلبية أن يتخلي عن الفتاة التي اختارها وعن الاستمرار في إجراء الطقوس.

وبعد أن ينتهي الأسقف من هذه الشكليات يقوم بتعيين وكيل عن

---

(1) يكون إعلان ذلك بإطلاق الزغاريد ، وتصف الليدي دراوور التي شاهدت عدة أعراس صابئية بشكل يختلف بعض الشيء حيث تقول : « دخلت الفتاة ومعها الجميع إلى بيت (الكنزفرة) لتجتاز اختباراً يجب أن يسبق عمادة الأعراس ، وهو أن تقوم امرأتان (زوج الكنزفرة وأمه عادة) [أو أية امرأة صابئية صالحة يعتمد على خبرتها وخلقها كما يذكر مترجما كتاب الليدي دراوور السيدان نعمي بدوي وغضبان رومي] بالتأكد من عذرية الفتاة فإن لم تكن عذراء صمتت المرأتان وإذا كان العكس أطلقتا الزغاريد ». الليدي دراوور. المصدر السابق ، ص 120. المترجم.

الفتاة يكون في العادة أبوها ويمسك بيده ويضعها في يد العريس ثم يتوجه إلى الوكيل سائلاً أباه : « هل تعطي ابنتك (اسم الفتاة) لفلان؟ » وبعد أن يأتي الجواب بالإيجاب يسأل العريس : « هل تأخذ فلانة زوجة لك »؟ وبعد أن يؤكد العريس ذلك يسأل الأسقف الوكيل مرة أخرى : « بكم أعطيت ابنتك؟ » وعلى الوكيل أن يعطي دائماً جواباً واحداً لا يتغير هو : « بألف دينار » رغم أن هذا المبلغ لا يطابق الواقع أبداً ، ثم يوجه الأسقف للعريس السؤال التالي وهو : « وأنت ماذا تعطيها » فيذكر العريس جواباً على هذا السؤال صيغة مقررة هي « لقد أعطيتها حمولة جمل من الملابس الحريرية ومثلها من الملابس الكتانية ». وبعد أن يوثق الأسقف عقد الزواج بهذا الشكل يسمح للأب أو وكيل العروس بالانصراف إلى بيته ذلك أن الصابئة يعتقدون بأن من المعيب على الأب [1] أن يحضر زواج ابنته.

ويبدأ الكنزفرة أي الأسقف بعد ذلك بقراءة صلاة خاصة يقود العريس بعد انتهائها إلى غرفة العروس ويجعلهما يقفان بحيث يكون ظهر أحدهما نحو الآخر وبحيث يبقى العريس خارج الستارة في حين تكون العروس خلفها وتكون الستارة بمثابة الحائط الذي يفصل بينهما ، ثم يقرأ للعروسين مرة أخرى صلوات يقوم الأسقف في أثنائها بين الحين والآخر بضرب رأس أحدهما برأس الآخر. وعند انتهاء هذا الجزء من الطقس يخرج الأسقف مع العريس إلى الفناء فيجلس جميع المدعوين فوراً إلى مائدة الطعام باستثناء العريس الذي لا يستطيع في هذا اليوم تناول الطعام نظراً لأنه يرتدي الرسته. وعندما يحل الظلام يحدد الأسقف بواسطة النجوم اللحظة المناسبة فيقود العريس ويدخله على العروس تحت الستارة مردداً :

(1) عدم حضور الاب زواج ابنته عرف اجتماعي عراقي. حميد الدراجي

« هذا هو زوجك أحبيه وأطيعيه ». ثم يقول للعريس : « هذه هي عروسك يجب أن تطعمها قبل أن تبدأ أنت بالأكل وتكسوها قبل أن تكتسي أنت يجب أن تجعلها راضية على الدوام » وبهذا يكون الزواج قد انتهى. يعتبر الزوجان طيلة الأيام الثمانية التي تستمر خلالها احتفالات الزواج غير نظيفين وكذلك الأشياء التي يلمسانها تكون بحاجة إلى تطهير. ولا يعود الزوجان إلى نظافتهما السابقة إلا بعد أن يتطهرا بواسطة التعميد في النهر.

وتكون النفساء في أعلى درجات النجاسة فلا أحد يستطيع طيلة شهر كامل أن يمسها دون أن ينجس نفسه ولهذا السبب تعزل جميع الأدوات المنزلية التي تستخدمها بعناية عن بقية الأدوات ويمنع زوج النفساء طيلة هذا الشهر من إقامة الطقوس أو ذبح الحيوانات إذا كان رجل دين أو حلالى كذلك لا تستطيع النفساء ذاتها طيلة فترة ما بعد الولادة أن تصلي أو تحضر عند اداء الخدمة الدينية ولذا فأنها تكون معرضة لهجوم الأرواح الشريرة وأخطرها اليول الذي يأتي إلى النفساء ليلاً ويستل منها قلبها. لذا فإنهم لا يتركون المرأة بعد الولادة وحدها في الليل أبداً تلافياً لوقوع مثل هذه المصيبة ، وحتى في النهار عندما تخرج من البيت يعطونها سكيناً أو خنجراً لكي تحمي نفسها من الشياطين.

وهنا لا يسعنا إلا أن نشير إلى أن الاعتقاد نفسه يسود بين النساء الفارسيات ، فالجني (الشيطان) الذي يسرق قلب النفساء وكبدها هو آل ووسيلة التخلص منه هي الخنجر الذي يوضع وهو نصف مسلول من غمده تحت رأس النفساء بعد أن تكون القابلة قد رسمت بواسطته خطوطاً في الهواء في كل جهة من الجهات الأربع.

وقبل أن ننتقل إلى تكوين المعبد وإلى الخدمة الدينية عند الصابئة نرى أن من الضروري أن نتحدث باختصار عن الصلاة.

الصلاة عند الصابئة مرهونة كما هي عند المسيحين بأوقات وحالات معينة هي : قبل الأكل وقبل النوم وقبل السفر وقبل الشروع بأي عمل. حيث ينبغي للصابئي أن يتلو في كل حالة من هذه الحالات الصلاة الخاصة بها. ويتوجه الصابئة في صلاتهم إلى مانه ربه وإلى ما أدربوثا وملوك الجنة الآخرين وإلى يحيى وآدم وسام بن نوح وإلى شهداء الصابئة الذين قتلهم في القدس الطاغية اليهوي اليزار. لقد كانت هناك في البداية ثلاث صلوات إجبارية في اليوم تقام الأولى في الفجر والثانية في منتصف النهار والثالثة عند غروب الشمس ، وقد ألغي علماء الصابئة فيما بعد صلاة منتصف النهار ذلك لأن كلاً من الصلوات تستغرق ما لا يقل عن ساعتين لذا فإن الجزء الأغلب من النهار يذهب في الصلاة ولا يبقى وقت تقريباً للاهتمام بالشؤون المختلفة.

أما عن المعبد أو المشكنة [1] باللغة الصابئية فإن عدد المعابد الدائمة عند الصابئة العراقيين لا يتعدى الاثنين أولهما في شطرة العمارة والآخر في سوق الشيوخ التي هي في الوقت نفسه مقراً لأسقفهم.

إن السبب في عدم وجود معابد دائمة للصابئة في مدن العراق الجنوبي الأخرى يكمن حسب رأي السيد سيوفي في افتقارهم للأموال الكافية [2] ولكن طالما أن تكوين معابد الصابئة كما سنرى فيما بعد بدائي جداً ولا يتطلب أي مصاريف تقريباً فإن من الصعب الموافقة على هذا

(1) أفردت الليدي دراوور فصلاً خاصاً في كتابها السابق الذكر هو الفصل الثامن للحديث عن بيت العبادة الصابئي يمكن للقارئ الراغب بالتفاصيل الرجوع إليه. المترجم.

(2) (m.n sionffi op cit. P. 118)

الرأي. الأصح أنّه ينبغي الاعتقاد بأن الصابئة المنغلقين جداً فيما يتعلق بدينهم وطقوسهم متقصدون في عدم بناء معابد دائمية وذلك كي لا يثيروا فضولاً هم في غني عنه من جانب من يغايرهم في الدين ولكي يتجنبوا على الأخص مضايقات صغار موظفي الدولة العثمانية. ويشير إلى ذلك أيضاً السيد (cuinet) في كتابه [1] « admin La Turquie d asiw Geographie istrativw 11 »

ولهذا ينتشر بين الصابئة على نطاق واسع المشكنة أي المعبد المؤقت ، وهو عبارة عن كوخ من القصب طوله خمسة أمتار وعرضه أربعة أمتار يطلي من الخارج بالطين ، تكون فيه السماء سقفاً له [2] ، وفي المعبد من هذا النوع فتحتان بدلاً من النوافذ تقع أحداهما في الشرق والأخرى في الغرب إضافة إلى باب واحد يتجه نحو الجنوب لذا فإن الداخل منه يجد أمامه النجم القطبي بدون أن يتقصد ذلك. ويقام في وسط المعبد مرتفع صغير من الطين يشبه المذبح في حين يقوم في أحد جانبي البناء حوض للماء يملأ عند الحاجة بماء النهر بواسطة ساقية صغيرة.

ويوقت بناء مثل هذه المعابد المؤقتة عادة مع عيد « البانشو » [3] الذي يحتفل به طيلة الأيام الخمسة التي تضاف إلى نهاية الشهر الثامن من التقويم الصابئي لكي يكمل عدد أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستين لأن

---

(1) (t111 p 222)

(2) يقصد المؤلف أن هذا المعبد يكون بدون سقف علماً بأن المعبد الصابئي يكون له سقف عادة إلا عند إجراء طقوس معينة فيكون المعبد عند إجراء تلك الطقوس بلا سقف. المترجم.

(3) الصحيح « البنجة » وهو عيد الخليقة. راجع حول أعياد الصابئة المندائيين : رشدي عليان ، المصدر السابق ، ص 117 - 122. المترجم.

كل واحد من الاثني عشر شهراً يحتوي على ثلاثين يوماً. وهذا العيد هو واحد من أكبر الأعياد فكل يوم من أيامه الخمسة مكرس لواحد من ملوك الجنة ويتحتم على الصابئة جميعهم في هذا العيد ذكوراً وإناثاً أن يغتسلوا في النهر ثلاث مرات في اليوم وأن يرتدوا ملابس بيضاء. وتزداد أهمية عيد البانشو نظراً لأنه يجري في أثنائه تكريس المعبد الموقت الجديد الذي تصاحبه طقوس دينية مهيبة ولأن فيه يجري إعداد فطائر خاصة مخصصة لطقس التناول.

ونورد لوصف هذا الاحتفال المقطع الذي أورده المبشر الأمريكي (Zwemer) في كتابه [1] نقلاً عن عدد 19 تشرين الأول 1894 من جريدة (Standard) ، والذي يشرح فيه مؤلف مجهول هذا الاحتفال بشكل شاعري على النحو التالي :

« يسير عبدة النجوم رجالاً ونساء قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر متجهين إلى المشكنة الذي كان قد بُني قبل قليل. وهناك يدخل كل منهم بالتعاقب في عشة صغيرة جداً مضفورة أقيمت في الجانب الجنوبي من المعبد فوق بركة من الماء ثم يخلع ملابسه ويسبح في البركة وفي أثناء ذلك يردد الترميذة أي القس الذي يكون واقفاً خارج العشة لكل واحد منهم عبارة « اسم الحي ، السم الكلمة الحية منطوقان عليك » وعند الخروج
من الماء يلبس الرجال والنساء الرستة ويذهبون إلى مكان مكشوف أمام المعبد حيث يجلسون على الأرض محيين الحضور بعبارة « سود هويلخ » أي كن موفقاً ويجيبهم الحضور على ذلك بعبارة « اسواثه الهيي هويلخ » أي
بركة الحي عليكم.

---

(1) s.m.zwemer. Op. cit. p. 299. ff.

« وكان عدد الحضور يزداد مع اقتراب ساعة الاحتفال ، وعند منتصف الليل تماماً كان هناك عشرون صفاً من الأشخاص يلبسون البياض ويجلسون بوقار متجهين بوجوههم نحو المشكنة ينتظرون بصمت وصول الكهنة. وهناك قسمان يمسك كل منهما مصباحاً يحرسان مدخل المعبد ولا يحولان بصرهما عن الدب الأكبر. وبمجرد أن تأخذ هذه النجمة وصفاً يشير إلى حلول منتصف الليل يعطي القسان إشارة بذلك بأن يرفعا قنديليهما فيتحرك بقية الكهنة بعد بضع دقائق في موكب مهيب. »

« يسير في المقدمة أربعة من الشكندة أي أربعة دياكونات يليهم أربعة قسس (ترميده) يضع كل منهم في خنصره خاتماً من الذهب ويمسك بيده عكازاً من أغصان شجرة الزيتون على شكل صليب. ويسير بعد القس الرئيس الروحي للطائفة الكنزفرة وهو كاهن ينتخبه زملاؤه ويكون منصرفاً عن العالم حتى أنهم ينظرون إليه كما لو أنه متوفياً يحل في مستقر الصالحين ، ثم يأتي بعده أربعة دياكونات آخرين يمسك أحدهم بعصا الكنزفرة الكبيرة التي تعرف باسم « در افشيد زيوا » [1] وهي رمز لمنصبه الديني. أما الثاني فيحمل كتاب عبدة النجوم المقدس « سدره ربه » أي الكتاب العظيم ، في حين يحمل الثالث قفصاً فيه حمامتان حيتان ويحمل الرابع قدراً من الحنطة وحبات السمسم ».

يسير الموكب بين صفوف المصلين الذين يقبلون ثياب الكنزفرة عندما يمر بالقرب منهم ويرفع القسان اللذان يقفان على باب المعبد ستارة الباب فيدخل الموكب إلى الداخل ويأخذ الدياكونات مواقفهم إلى يمين

(1) الصحيح درافشه زيوا وهي ليست عصا الكنزفرة وإنما هي علم النبي يحيى ، أما عصا الكنزفرة فإسمها « المركلة ». المترجم.

المذبح ويساره في حين يقف الكنزفرة في الوسط مباشرة قبالة المرتفع الطيني الذي يقوم مقام المذبح والذي يوضع عليه الكتاب المقدس « سدره ربه » بعد ذلك يأخذ القس الأكبر حمامة حية وينظر إلى النجمة القطبية ويمد يده إليه ثم ينزل الحمامة ويقول : « باسم الحي ليشارك النور الأول ، النور القديم ، الآله الخالق نفسه » وتلفظ هذه الكلمات بشكل واضح ويسمعها جميع المصلين خارج سياج المعبد فيقف الجميع في لباسهم الأبيض في وقت واحد ، ويخرون سجداً أمام نجمة الشمال التي كانوا يتأملونها قبل ذلك وهم صامتون ثم يجلسون مرةأخرى وهم يتلون الصلاة دون ضجيج.

وفي هذه الأثناء يتنحى الكنزفرة في المشكنة جانباً ويحل محله قس كبير يعمد إلى فتح الكتاب الموضوع فوق المذبح ويبدأ بالقراءة فيه مترنماً يرفع صوته مرة ويخفضه مرة أخرى ، وبين الحين والآخر يقطع القراءة ويهتف « ليتمجد اسمك يا واهب الحياة » ويتلقف المصلون هذا الهتاف ويرددونه وهم مطأطأ والرؤوس يخفون وجوههم بأيديهم. في الوقت نفسه يقوم اثنان من الترميدة أي قسان آخران بإعداد القربان الذي يطلقون عليه اسم بهثة [1] ايلويو أي « السر الأعظم » فيقوم واحد منهم باستخدام الفحم لإشعال نار في موقد من الطين يوجد في أحد جانبي المذبح في حين يقوم الآخر بطحن الحنطة بواسطة رحي يدوية ثم يعصر حبوب السمسم ويستخرج منها الزيت ويخلطه بطحين الحنطة فيصنع بذلك عجيناً يعمل منه أقراص حجم الواحدة منها بحجم قطعة النقد التي تساوي شلنين. تلصق الأقراص إلى جدران الموقد المحمي فتنضج بسرعة ، ويكون

---

(1) البهثة هي الخبز المقدس. المترجم.

الطقس في أثناء ذلك ماضياً في سيره حيث الترنيم الرتيب وجواب المصلين. عندما تصبح الأقراص كلها جاهزة يأخذ أحد القسس من الشكندة أي الدياكون الواقف بجانبه الحمامة الباقية في القفص ويقطع عنقها بسرعة بواسطة سكين حادة ويأخذ دمها بحرص شديد ، ثم يقوم القسان اللذان صنعا الأقراص بجلب هذه الأقراص بحيث تقع أربع قطرات من الدم بشكل صليب على كل منها. وبعد ذلك يقوم القسان اللذان أعدا الأقراص بتوزيعها على المصلين وذلك بأن توضع لهم في أفواههم مباشرة مع تلفظ عبارة « لينطبع ختم الحي عليك ».

« وفي أثناء ذلك يقوم الدياكونات الأربعة بحفر حفرة صغيرة في المعبد نفسه خلف المذبح ويدفنون فيها الحمامة الذبيحة وينهي القس الأكبر قراءته ويتنحى فيحل محله أمام الكتاب المقدس الرئيس الديني ويبدأ بتلاوة المسخثه متوجهاً طيلة الوقت نحو النجم القطبي الذي لا يحيد المصلون أيضاً عنه بأبصارهم طيلة استمرار الطقس. ويستمر الرئيس الديني بتلاوة المسخثه حتى يحل الفجر فيصيح عند ذلك بصوت عال : « أتذكرك يا اواتر فتذكرني أنت أيضاً » وبهذا ينتهي الطقس ».

وعند الانتهاء يقاد إلى الكوخ القصبي الذي يقام مقام المعبد خروف كان قد أحضر مسبقاً فيقوم الكنزفرة بذبحه هناك ويراعي في ذلك القواعد المعتادة في مثل هذه الحالات. إن هذا الخروف هو أضحية تقدم لاواتر وبثاهيل ولهذا فإن لحمه يقسم بعد أن يسيل منه الدم إلى قطع بعدد الموجودين وتوزع عليهم ، وينتهي الاحتفال بأجمعه قبل حلول الفجر ويعود الصابئة إلى بيوتهم قبل أن تشرق الشمس في الأفق.

أما فيما يتعلق بـ « البهثه ايلويو » أي القرابين فينبغي أن نلاحظ بأن

كاتب المقطع الذي أوردناه أعلاه يختلف مع السيد سيوفي [1] الذي يذكر في الفصل السادس عشر من كتابه بأن « البهثة ايلويو » لا يقدم إلا للأساقفة
والقسس وللذين يتميزون بحياتهم الصالحة مع العلمانيين فقط. أما الأشخاص العاديون البسطاء فإن لهم عند الصابئة شكل آخر من أشكال القربان يسمى « بهثه » فقط ويجري على النحو التالي :

يقوم قسان بتعميد أحدهما الآخر بالتعاقب ويجلبان معهما إلى النهر كمية معينة من الحنطة يقومان بغسلها فيه ثم يجففانها بنشرها على قطعة من القماش الأبيض ، ثم يقومان بطحن هذه الحبوب برحي يدوية ويصنعان من الطحين عجيناً غير مختمر يعملون منه أقراصاً خفيفة كالورق. ويرافق هذه العمليات كافة قراءة الصلوات المقررة لهذه المناسبة. فهذه الصلوات على ما يعتقد الصابئة تحول تلك الأقراص إلى نفس الخبز الذي يأكله سكان ألمه اد نهورا أي الجنة. وتحفظ « البهثه » في أواني خاصة مغلقة بإحكام في بيوت القسس ويقوم هؤلاء بتوزيع هذه الأقراص على الصابئة في أيام الأعياد بأن يضعوها في أفواههم مباشرة لأنها تتحول إلى خبز عادي عندما يلمسها أحد العلمانيين.

ولكي يجري « البهثه » بالصورة الصحيحة ينبغي على الشخص أن يكون قد عمد على الطريقة الصابئية ، وأن يتمتع بسمعة طيبة وسلوك لا غبار عليه ، ويفقد الصابئي الذي يتخلي عن دينه طوعاً الحق في تذوق « البهثه » والذين لا يتعرضون لهذا العقاب هم فقط أولئك الذين أكرهوا على التخلي عن دينهم بالإكراه ثم عادوا إليه بمجرد أن سنحت لهم الفرصة لذلك. ومن يتذوق « البهثه » يحصل على قوة جديدة من الإيمان تطهره من

(m.n.siouffi op.cit.p. q 2ff) (1)

الذنوب ويصبح بإمكانه أن يرى مستقر النعيم ألمه اد نهورا بعين الروح إذا ما ركز على ذلك أفكاره كما يجب. والقس الذي يشرك في « البهثه » من لا
يستحق يكون قد ارتكب ضلالاً أما الشخص الذي يشارك فيه ثم يقع في الاثم مرة أخرى فإن عقابه يتضاعف بسبب ذلك عشرة مرات.

ويوجد لدي الصابئة إلى جانب القرابين الاعتراف أيضاً ويعرف عندهم باسم « شومخوته » [1] ون كان لا يشبه ، من حيث جوهره السر المقدس المسيحي ، وبالمقابل فكما أن الكنيسة عند المسيحيين لا تنكر على الآثم النادم أبداً الأمل في أن يحصل على الغفران المنشود فإن الاعتراف عند الصابئة لا يؤدي إلى الغفران إلا في حالة ما إذا لم يرتكب النادم الاثم السابق مرة أخرى ، وتعطى للصابئي من باب التساهل فرصة الاعتراف بالذنب الواحد ثلاث مرات لا أكثر حيث لا يعود الاعتراف في المرة الرابعة نافعاً ولا ينقذ الآثم من أهوال الجحيم. والوسيلة الوحيدة أمام الآثم لتجنب هذه الأهوال في مثل هذا الاثم المستعصي هي توزيع الحسنات ومساعدة البائسين وتحرير المحبوسين من السجون أما بدفع ديونهم أو عن طريق التوسط لهم عند السلطات ، وكذلك استنساخ أكثر ما يمكن من الكتب المقدسة على حسابه الخاص.

ويجري الاعتراف أو « شومخوته » عند القس في بيته حيث يلبس القس « الرسته » ويصغي للنادم على انفراد لأن سر الاعتراف يجب أن يصان
بحرص شديد. وبعد أن يسمع « الترميدة » اعتراف المعترف يفتح الكتاب المقدس ويقرأ منه الموضع الذي يجري فيه الحديث عن العذاب المعد في جهنم لعقاب من يرتكب الذنب الذي اعترف به النادم ، ثم ينصح هذا

---

(1) الاعتراف عند الصابئة هو « أياسه وتيابه » أي الغفران والتوبة. المترجم.

الأخير بأن يمتنع في المستقبل عن ارتكاب هذا الذنب. فيعبر المعترف عن تصميمه على التوبة ويقبِّل الكتاب المقدس ويد الكاهن.

لم يبقَ في الختام إلا أن نتحدث باختصار عن الأعياد وعن الصيام عند الصابئة. يوم العيد في الأسبوع هو الأحد الذي يسمى « هبشبه » وهو اسم لأحد لملوك الجنة الذي يخرج في هذا اليوم من الجنة إلى العالم الأرضي غير المنظور (مشوني كشطه) ليعمد سكان ذلك العالم. ويقوم رجال الدين الصابئة محاكاة له بتعميد الصابئة وتزويجهم في يوم الأحد عادة. ويقضي الصابئة المؤمنون هذا اليوم في الراحة حيث يتركون العمل ويجتمعون عند القسس لسماع قراءة الكتب الدينية أو يتحدثون في قضايا الوعظ والإرشاد.

ويحتفل الصابئة بالإضافة إلى يوم الأحد وعيد « البانشو » أي عيد الأيام الخمسة الذي مر ذكره ، بالأعياد التالية :

1 ـ يوم رأس السنة الجديدة. ويقع في اليوم الأول من أول شهر من أشهر الشتاء. حيث تعمل كان عائلة على أن تحضر قبيل حلول هذا العيد أباريق من الفخار بعدد أفرادها إضافة إلى كمية من اللوز والجوز والتفاح وما أشبه ذلك لكنهم لا يتناولون هذه المأكولات إلا بعد إنصرام أسبوع رأس السنة الجديدة ، وفي الوقت نفسه يتزود كل واحد بكمية من اللحم والماء تكفي لهذا الوقت لأن ذبح الحيوانات وجلب الماء من النهر محرم في أثناء احتفالات السنة الجديدة. وفي اليوم الذي يسبق السنة الجديدة والذي يعتبر هو الآخر عيداً يتعمد الصابئة ومن أجل أن لا يتدنسوا فإنهم يقضون ليلة رأس السنة الجديدة ساهرين ولا يخرجون من بيوتهم طيلة اليوم التالي. وأول عمل يقومون به بعد أن يغادروا بيوتهم في اليوم التالي هو زيارة كهنتهم الذين يبدأون بعد ذلك بالطواف برعيتهم حيث يتسلمون

من كل عائلة هدايا نقدية.

2 ـ العيد الثاني من حيث الأهمية هو « دهقه حنينه » الذي يحتفل به في الثامن عشر من أول شهر من أشهر الربيع احتفاء بذكري عودة هبيل زيوا الميمونة إلى الجنة من سفرته الطويلة والصعبة بحثاً عن روهية أم أور.

ويستمر هذا العيد خمسة أيام يتناول الصابئة خلالها طعاماً مجهزاً بشكل خاص من الخبز والرز والتمر وذلك بالرغم من أن ذبح الحيوانات والطيور وأكل لحمها غير محرم في هذه الأيام.

3 ـ ولدي الصابئة أيضاً يوم خاص مكرس لذكري الأموات وهو اليوم الأول من الشهر الثاني من أشهر الربيع وهو اليوم الذي تذكر مآثر الصابئة بأن الصابئة الذين قادهم ملكهم الأسطوري فروّق ملكة ماتوا فيه في البحر الأحمر. وتقوم كل عائلة هذا اليوم بإرسال كمية من الطعام إلى القسس لكي يصلوا ويذكروا الأموات من أفرادها.

أما عن الصيام فإنه في نظر الصابئة إمساك عن أي قضية سيئة ولهذا فإنهم يحجمون في أيام الصيام التي تسمي « مُبَطّلْ » [1] عن القضاء على حياة أي مخلوق فيمتنعون عن ذبح الحيوانات والطيور ، ولذلك فإنهم يتجنبون بدون قصد أكل اللحوم مثل المسيحيين ، وعدد أيام الصيام إثنان وثلاثون يوماً لكنها غير متصلة بمعني أنها لا تتعاقب الواحد بعد الآخر وأنما هي موزعة على الأشهر المختلفة فيما عدا الأربعة عشر يوماً الأول من أول شهر من أشهر الشتاء التي تعتبر جميعها أيام صيام.

---

(1) المبطل عند الصابئة هو اليوم غير المبارك أي اليوم النحس الذي يجب عدم التعامل أثناءه كما يجب عدم إجراء أية مراسيم دينية. انظر : الليدي دراوور ، المصدر السابق ، ص 150. المترجم.

وإذا عمدنا إلى إجمال النتائج التي نستخلصها من جميع ما ذكرناه عن الصابئة ليس بإمكاننا اعتبارهم مسيحيين على الرغم من آثار المسيحية المعروفة البادية في عقائدهم الدينية. فالواقع أنهم يعبدون ويتوجهون في صلواتهم بالإضافة إلى الكائن الأعلى إلى ثلاثمائة وستين ملكاً من ملوك الجنة ويبجلون الكواكب ولا يعترفون بعيسى المسيح وينكرون التوراة والإنجيل. كما أن عندهم ما يشبه أسرار التعميد والقربان والاعتراف ويستعملون في بعض الأحيان علامة الصليب. كذلك لا يمكن قرن الصابئة
باليهود بسبب عدم ممارستهم للختان على الرغم من أنهم لا يأكلون إلا اللحم الحلال ويفرقون بين الحيوانات التي يسمح بأكل لحمها وتلك التي يحرم أكلها كما أنهم ينظفون أنفسهم ويغتسلون بنفس الدقة التي يفعل بها ذلك اليهود.

وإننا في الواقع نمسك عن أن نقرر من هم الصابئة على أساس عقائدهم الدينية وذلك لأن العلماء الأوروبيين ما زالوا لم يصلوا إلى استنتاج
نهائي بهذا الخصوص من جهة ، ومن الجهة الأخرى يتعذر إعطاء رأي علمي دقيق دون دراسة جدية مسبقة لعلم اللاهوت المقارن ودون اطلاع مفصل وعميق على جوهر عقائد الصابئة الدينية وعلى محتويات كتبهم المقدسة ، بل وحتى على حياتهم وعاداتهم وأعرافهم.

انتهي الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

مع تحيات د. سلام حسين الهلالي

salamalhelali@yahoo.com

https://www.facebook.com/salam.alhelali

https://www.researchgate.net/profile/Salam_Alhelali?ev=hdr_xprf

07807137614

